حصاد التبليغ

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبعة الثّانية

١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

حصاد التبليغ

الجزء الثالث

الشيخ جميل الربيعي

مِنْ أَنْوارِ الْبَسْمَلَةِ

أجمع علماء الإماميّة على أنَّ البسملة جزء من كلّ سورة، وأنَّها آية من سورة النَّمل.

والاسم في أصل اللّغة: «هو العلامة توضع على الشَّيء يُعْرَفُ بها»(١).

وهو اللَّفظ الدّالّ على المسمّى غير مقترن بزمن، وهو المَعْلَم المُشَخّص للشَّيء، أو من السّموّ، والرّفعة، والعلوّ، «ومعناه الارتفاع، ويفهم أنَّ الشّيء بعد التّسمية يخرج من مرحلة الخفاء إلى مرحلة البروز والظّهور والرّقيّ، أو إنَّه يرتفع بالتّسمية عن مرحلة الإهمال، ويكتسب المعنى»(٢).

وقيل: «اسم أي ما علا وظهر، فصار علماً للدّلالة على ما تحته من المعنى»(٣).

وقيل: «الاسْمُ رَسْمٌ وسِمَة توضَعُ على الشّيء تُعرف به؛ قال ابن سيده: والاسمُ اللَّفظُ الموضوعُ على الجوهَرِ أَو العَرَض لتَفْصِل به بعضَه من بعضٍ كقولكِ مُبْتَدِئاً اسمُ هذا كذا»(٤).

وقيل: «والاسم هو اللّفظ الدّالّ على المسمّى بالاستقلال المجرّد عن الزّمان، فقد يكون نفس المسمّى كلفظ الاسم، فإنَّه لما كان إشارة إلى اللَّفظ الدّالّ على

---

(١) السّيّد علي حسن مطر الهاشميّ، تطوّر الحدود النّحويّة: ٧.

(٢) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣١/١.

(٣) ابن سيده، المخصّص: ١٣٤/١٧.

(٤) ابن منظور، لسان العرب: ٤٠١/١٤، (سما).

المسمّى ومن جملة المسميّات لفظ الاسم فقد دلَّ عليه، وقد يكون مغايراً كلفظ الجدار الدّالّ على معناه المغاير، ونحو ذلك»[١].

ولفظ الجلالة (الله): أصله (الإله)، تقول أله الرّجل بإله بمعنى عبده، أو بمعنى ولَه الرّجل إذا تحيّر، وسمّي إلهاً؛ لأنه معبود، أو لأنّه ممّاً تحيّرت في ذاته العقول، فـ«لفظ الجلال - الله - يراد به المعبود المطلق الجامع لجميع الصّفات الجماليّة والجلاليّة»[٢].

قال السّيّد الخوئيّ قدس سره: «فالأظهر أنّه مأخوذٌ من كلمة "لاه" بمعنى الاحتجاب والارتفاع، فهو مصدر مبنيٌّ للفاعل؛ لأنَّه سبحانه هو المرتفع حقيقة الارتفاع الَّتي لا يشوبها انخفاض، وهو - في غاية ظهوره بآثاره وآياته - محتجب عن خلقه بذاته، فلا تدركه الأبصار، ولا تصل إلى كنهه الأفكار»[٣].

وهذا اللّفظ الجليل عرف عند العرب قبل الإسلام، يقول تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[٤].

قال الشّاعر لبيد[٥]: [من الطّويل]

أرى النّاس لا يدرون ما قدر أمرهم   بلى، كلّ ذي لبّ إلى الله واسلُ
ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ   وكلّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

ولفظ الجلالة اسم علم للذّات المقدّسة المستجمعة لجميع الكمالات

---

(١) الشّيخ الطّريحيّ، مجمع البحرين: ٢٢٩/١.

(٢) الشّيخ المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٢٧٥/٥، (سمو).

(٣) السّيّد أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٤٢٧.

(٤) الزّخرف: ٨٧

(٥) شرح ديوان لبيد: ٢٥٦.

وجميع الأسماء الحسنى تنطوي تحته، وفي منهج العارفين: «الاسم عبارة عن نفس التّجلّي الفعليّ الَّذي به تحقّقت جميع دار التّحقّق، وإطلاق الاسم على الأمور العينيّة في لسان الله، ولسان رسوله، وأهل بيت العصمة عليهم السلام كثيرٌ»(١).

وأمّا (الرَّحمن) و(الرَّحيم): فهما وصفان أُخذا من الرَّحمة، والرَّحمة لفظ محبوب لكلّ نفس، فهي تستولي على القلب، وتنعشه، وتحرّكه، وتجذبه، وتشفيه من آلامه، وقد وصف تعالى نفسه بأنَّه (رحمن)، وهي صفة عدّوها «صيغة مبالغة، ولذلك كانت دليلاً آخر على عموميّة رحمته... [وهي] من الأسماء الخاصّة بالله، ولا تستعمل لغيره تعالى بينما (الرَّحيم) صفة تنسب لله ولعباده، فالقرآن وصف الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله حيث قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢)»(٣).

قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**الرَّحْمنُ بِجَميعِ خَلْقِه، وَالرَّحيمُ بِالْمُؤْمِنينَ خاصَّةً**»(٤).

وأمّا الرَّحيم: فهي صفة مشبّهة تدل على الثّبات والبقاء والدّوام، والرّحمن لفظٌ يدلّ على أنَّ رحمة الله مفاضة على جميع الخلق: المؤمن والكافر، وهذه الرّحمة هي الرّحمة العامّة ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾(٦)، ثمَّ إنَّ الرَّحيم تدلّ على أنَّ رحمته خاصّة

---

(١) الإمام الخمينيّ، الآداب المعنويّة للصّلاة: ٣٩٦.

(٢) التّوبة: ١٢٨.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٣٣/١.

(٤) الشّيخ الصّدوق، التّوحيد: ٢٣٠.

(٥) طه: ٥.

(٦) مريم: ٧٥.

بالمؤمنين، يقول تعالى: ﴿**وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا**﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ**﴾[(٢)].

وقد استدلّ المفسّرون بعموميّة (الرَّحمن)، وأنَّها شاملة للمؤمنين وغيرهم، وخصوصيّة (الرَّحيم) بالمؤمنين بأدلّة عدّة، وهي:

١- إنَّ صفة الرَّحمن ذُكِرَت بصورة مطلقة في القرآن الكريم ممّا يدلّ على عموميّتها لجميع الخلق، لكن صفة الرَّحيم ذكرت مقيّدة؛ لدلالتها الخاصّة كقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا**﴾[(٣)]، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**واللهُ إلهُ كلِّ شيْءٍ، الرَّحْمنُ بجميعِ خَلْقه، والرَّحيمُ بالمُؤْمنينَ خاصَّةً**»[(٤)].

٢- كلمة الرَّحمن عدَّوها صيغة مبالغة، ولذلك كانت دليلاً آخر على عموميّة رحمته، وعدّوا الرَّحيم صفة مشبّهة تدلّ على الدّوام والثَّبات، وهي خاصّة بالمؤمنين.

٣- إنَّ (الرَّحمن) من الأسماء الخاصّة بالله، ولا تستعمل لغيره تعالى بينما (الرّحيم) صفة تنسب لله، ولعباده كما تقدّم وصف القرآن الكريم لرسول الله صلى الله عليه وآله.

دَلالَةُ الابْتِداءِ بِاسْمِ اللهِ تَعالى:

جاء في الحديث القدسيّ: «**كُلُّ أَمْرٍ ذي بالٍ لَمْ يُذْكَرْ «بِسْمِ اللهِ» فيه، فَهُوَ أَبْتَرُ**»[(٥)].

---

(١) الأحزاب: ٤٣.

(٢) الحديد: ٩.

(٣) الأحزاب: ٤٣.

(٤) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١/٢٧٩-٢٨٠، ح/٣١٢.

(٥) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٣٣.

والأبتر هو المنقطع الَّذي لا ينتهي إلى نتيجة محمودة، وقد حبَّذ الشارع المقدّس قرآناً وسنةً أن يبدأ الإنسان في كلّ عمل صالح باسم الله تعالى، ودلالة ذلك:

إنَّ الناس اعتادوا أن يبدؤوا في كلّ عمل بذكر عزيز أو عظيم من عظمائهم؛ ليكون هذا العمل مقترناً بعظمة ذلك العزيز، وهذا متعارف تقريباً عند جميع الأمم والشّعوب، والسّرُّ في ذلك؛ ليبقى المسمّى ببقاء الاسم الجديد، والمؤمن عندما يبدأ باسم الله فإنَّه أوّلاً يتبرّك باسم الله تعالى؛ ليفيض عليه من رحمته وبركته، سأل عبد الله بن يحيى أمير المؤمنين عليه السلام، وقال: «يا أمير المؤمنين ما تفسير ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؟» فقال عليه السلام: «**إنَّ الْعَبْدَ إذا أَرادَ أَنْ يَقْرَأَ، أَوْ يَعْمَلَ عَمَلاً، وَيَقُولَ: بِسْمِ اللهِ، أَيْ بِهذا الاسْمِ أَعْمَلُ هذا الْعَمَلَ، فَكُلُّ أَمْرٍ يَعْمَلُهُ يَبْدَأُ فيهِ بِـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فَإِنَّهُ يُبارَكُ لَهُ فيهِ**»[(١)].

ولكن يجب أن لا نفهم أنَّ الابتداء باسم الله لمجرّد البركة، وإنّما ذكر اسمه تعالى، أو أسمائه الحسنى الأخرى، هو عمل عباديّ يربط الإنسان بخالقه، ويُعَبِّدَه إليه بذكر اسمه، فعندما يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فكأنَّه يقرّر أنّ كلّ عمل يعمله إنَّما يعمله بأمر الله تعالى، وهو غاية الامتثال والطّاعة، ثمَّ إنّ هذا العمل أعمله لا باسمي، ولا لمصلحتي، ولا لأجل منفعتي، وإنّما أعمله لله، وفي الله، وفي سبيل الله، ثمّ يوحي لنفسه أنَّه لو لم يعطه الله القوّة والقدرة لم يستطع أن يعمل هذا العمل، «وبالجملة لا بدَّ للسّالك إلى الله في وقت التَّسمية أن يفهم قلبه أنَّ جميع الموجودات الظّاهرة والباطنة وجميع عوالم الغيب والشَّهادة تحت تربية أسماء الله،

---

(١) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٣٣.

بل ظاهرة بظهور أسماء الله، وجميع حركاته وسكناته وجميع العالم بقيمومية اسم الله الأعظم، فمحامده للحقّ، وعبادته، وإطاعته وتوحيده، وإخلاصه كلّ ذلك بقيمومة اسم الله»[١].

إذن في قول المؤمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ، ثلاث حقائق تجعل الإنسان منشدّاً لله تعالى، فلا يرى خالقاً ولا مؤثّراً، ولا مدبّراً في الكون إلا الله تعالى، وبذلك يتحقّق للمؤمن ثلاث ركائز رساليّة ينطلق منها، ويتحرّك على ضوئها:

١- الامتثال لأمره تعالى.

٢- الإخلاص له تعالى في كلّ حركة يتحرّكها وسكنة يسكنها.

٣- الاستعانة به عزَّ ذكرُهُ لإتمام هذا العمل.

ومن هنا نستفيد أنَّ كلّ عمل يعمله الإنسان إذا لم يكن لوجه الله فلا قيمة له، ولا اعتبار عند الله؛ لأنَّ الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، ونصيب الإنسان من عمله بمقدار ما يجعل لله تعالى فيه من نصيب، بل الله تعالى يجزي على الحسنة الواحدة عشر أمثالها، وبهذا يتبيّن لنا دلالة الابتداء باسم الله، ويتّضح لنا معنى الحديث المتقدّم «كُلُّ أَمْرٍ ذي بالٍ...»، وقد أمرنا الله تعالى أن نسمّيه، ونقدّسه، وندعوه، ونتوسّل إليه بأسمائه الحسنى، يقول تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[٣].

---

(١) الآداب المعنويّة للصَّلاة: ٣٩٨.

(٢) الأعراف: ١٨٠.

(٣) الإسراء: ١١٠.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[(١)].

إنَّ الحديث في هذه الآيات الكريمة «يدور عن "الأسماء الحسنى" والأسماء المقدّسة والرّائعة لله سبحانه وتعالى، أسماء وصفات على العباد أن يعرفوها ويفهموها، ويستخدموها في واقع الحياة، كي تتحدّد مواقفهم العمليّة أمام الله وعباده، وينظّموا منهج حياتهم على أساس منها:

- إنَّ الله واحد لا شريك له.
- وهو عالم الغيب والشَّهادة، وشاهد على كلّ شيء وفي جميع الأحوال.
- إنَّ رحمته (الخاصّة والعامّة) هي من أبرز صفاته.

- وهو الحاكم المطلق؛ ملك، لا كالملوك المتجبّرين والظّالمين والعاجزين، بل إنَّه ملك ومالك في الحياة الدّنيا والآخرة، وهو قدير وكبير وجبّار، ورغم أنَّه يملك قدرة مطلقة، إلا أنَّه سبحانه «سلام» في نفس الوقت، أي أنَّه منزّه عن كلّ عيب ونقص، لا يظلم العباد، وأنَّ أجواءه هي ملجأ وملاذ للمخلوقات كافّة.

فهو خالق، ومصوّر، تسبّح له جميع ذرّات العالم، وعوالم الوجود كافّة (المجرّدة منها والمادّيّة) وهو عزيز وغالب وقاهر وحكيم وعالم، يعمل على أساس من حكمته وعلمه ورأفته (لا كما يفعل أصحاب القوّة على وجه الأرض) وإنَّ كبرياءه متزامن مع وجوده اللامتناهي (لا مثل المستكبرين الَّذين ربطوا الكبر بأنفسهم زيفاً)»[(٢)].

---

(١) الحشر: ٢٣-٢٤.

(٢) الشّيخ محمّد تقي رهبر، الاستكبار والاستضعاف من وجهة نظر القرآن الكريم: ١٨.

وعندما يتلفّظ المؤمن بأسمائه تعالى ليس المقصود هو ذات اللَّفظ، وإنَّما المقصود دلالة اللَّفظ على المُسَمّى، فالاسم يشدّ (المُسمّي) بـ(المُسمّى)؛ لأنَّ كلّ اسم له مدلول وتأثير في عقيدة الإنسان، وأفكاره، وشعوره، وسلوكه، فعندما نقول (المَلك) نفهم أنَّنا مملوكون لله تعالى، ومحكومون له، وهو الّذي يدبّر الأمر، ويحكم فينا، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1].

وعندما نقول (القدّوس) فإنَّنا نستوحي من القداسة، والطَّهارة، والنَّزاهة الإلهيّة عظمة تلك الذّات المقدّسة، ونسأله تعالى أن يُفيض علينا من رحمته؛ ليزكّينا، ويطهّرنا، ويعيننا على أنفسنا، ولعلَّ هذا دلالة ما جاء في دعاء البهاء:

«اللّهمَّ، إنّي أَسْأَلُكَ مِنْ أَسْمائكَ بِأَكْبَرِها، وَكُلُّ أَسْمائكَ كَبيرَةٌ، اللّهمَّ، إنّي أَسْأَلُكَ بِأَسْمائكَ كُلِّها»[2].

واسم (السَّلام) له مدلول السَّلامة والعافية من شرّ الأشرار من الجنّ والإنس، و(المؤمن) هو الذي يعطي الأمن والإيمان...

و(العزيز) هو الغالب القويّ، و(المهيمن) هو المسيطر على أمور الكون أجمع.

فكلّ اسم له دلالة ولوازم يدلُّ عليها، فدلالة (الرَّحمن) على الإحساس والإنعام، ودلالة (الرَّحيم) على الرَّحمة الخاصّة بالمؤمنين، ودلالة (الحكيم) على الإتقان والنّظام، ودلالة (الرَّبّ) على التّربية، والإعداد، والبعث، والجزاء، وقد أوجز الإمام السَّجاد عليه السلام معنى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في دعاء يوم السَّبت، إذ قال:

---

(١) الأنعام: ٥٧.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، مصباح المتهجّد: ٧٦٠.

«بسْمِ الله كَلِمَةُ الْمُعْتَصِمين، ومَقَالَةُ الْمُتَحَرِّزِين»(١).

إذن وعي حقيقة البسملة، والإيمان بها، والالتزام بمدلولاتها الفكريّة والرّوحيّة والسّلوكيّة حرز من كيد الشّيطان، وخداع النّفس، وحصن يحمي المؤمن من هجمات شياطين الإنس والجنّ، وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: **«أَوَّلُ كُلِّ كتاب نَزَلَ من السَّماء: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فَإذا قَرَأْتَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فَلا تُبالي أَلا تَسْتَعيذَ، وإذا قَرَأْتَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ سَتَرَتْكَ فيما بَيْنَ السَّماء والأَرْض»**(٢).

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ سنان، قالَ: «سَأَلْتُ أَبا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ تَفْسير ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فَقالَ: **الْباءُ بهاءُ الله، والسّينُ سَناءُ الله، والْميمُ مَجْدُ الله**، -وروى بَعْضُهُمْ: **الْميمُ مُلْكُ الله** - **واللهُ إلهُ كُلِّ شَيْءٍ، الرَّحْمنُ بِجَميعِ خَلْقِه، والرَّحيمُ بِالْمُؤْمنينَ خاصَّةً**»(٣).

وعن ابن عبّاس قال: «الباء بهاء الله، وبهجته، وبلاؤه، وبركته، وابتداء اسمه بارئ، السّين سناؤه، وسموّه أي ارتفاعه، وابتداء اسمه سميع، الميم ملكه ومجده ومنّته على عباده الّذين هداهم الله تعالى للإيمان، وابتداء اسمه مجيد»(٤).

والرّوايات في ذلك كثيرة جدّاً نكتفي بما ذكرنا.

إلهي، أسألك باسمك العظيم الّذي أمرت رسولك أن يسبّحك به... وأسألك بالمخزون من أسمائك إلا رحمة هذه النّفس الجزوعة.

---

(١) مصباح الكفعميّ: ١٢٣.

(٢) الكافي: ١٤٨/٦، ح/٤٩٨١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٧٩/١-٢٨٠، ح/٣١٢.

(٤) تنوير المقياس من تفسير ابن عبّاس: ٣.

اللّهم، إنّي أسألك باسمك العظيم الأعظم الأعزّ الأجلّ الأكرم أن تصلّي على محمَّد وآل محمّد أن تلهمنا معرفة أسرار أسمائك وصفاتك، وتزيدنا إيماناً بها، وتهدينا للعمل بما تدلّ عليه يا أرحم الراحمين.

تَجْرِبَةٌ فيها ذِكْرى:

يقول كاتب هذه السُّطور الجاني على نفسه: في سنة ١٤٠٤هـ كنت في سجن ما يسمّى بالحزب الدّيمقراطيّ الكردستانيّ الإيرانيّ في منطقة قرب السّليمانيّة تسمّى (قاميش) وسط غابة جبليّة موحشة يحكم فيها الظّفر والنّاب، وبينما كنتُ أتلو القرآن عرضت عليَّ هذه الآية: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1]، فتأمّلتها بدقّة وعمق وتجرّد خالص، فتفاعلت نفسي معها، وخشع قلبي، واقشعرّ جلدي، بل اهتزّ كياني، والتهبت روحي لها، وانقطعتُ كلّيّاً إلى الله تعالى، فقلتُ في نفسي: لماذا لا أدعو الله بأسمائه الحسنى في القرآن عسى الله أن يفرّج عنّي، وينقذني من هذا السّجن الوحشيّ بعد ثلاث سنوات من العذاب النَّفسيّ الَّذي لا نظير له، لما رأيته من وحشيّة هؤلاء الَّتي دونها وحشيّة كواسر الغابات، فقرَّرت أن أجمع أسماء الله الحسنى من القرآن، وأعدّها، وأدعو الله بها بعد ذكر كلّ اسم في القرآن، وفعلاً وفَّقني الله لإنجاز ما عزمت عليه، واستمررْتُ على الدّعاء بأسمائه الحسنى لمدّة ثلاثة أيّام، وبعدها فرَّج الله عني، وعن أخواني، وأنقذني من مخالب أعداء الإسلام ذيول الاستكبار العالميّ، أهلكهم الله تعالى، والحمد لله أوّلاً وأخيراً.

---

(١) الإسراء: ١١٠.

أَشِعَّةٌ مِنْ وَحْيِ سورَةِ الْفاتِحَةِ

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[1].

تكاد تجمع الآثار النّبويّة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام أنَّ السَّبع المثاني هي سورة الفاتحة، فهي سبع آيات؛ فقد أخرج الدّارقطنيّ بسنده عن السّدّيّ، عن عبد خَيْرٍ، قال: «سُئِلَ عليٌّ عليه السلام عن السَّبع المثاني، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فقيل له: إنّما هي ستّ آيات، فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **آيَةٌ**»[2].

«وسُمّيت الآيات القرآنيّة مثاني؛ لأنَّ بعضها يوضّح حال البعض، ويلوي وينعطف عليه كما يشعر به قوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾[3] حيث جمع بين كون الكتاب متشابهاً يشبه بعض آياته بعضاً، وبين كون آياته مثاني، وفي كلام النّبيّ صلى الله عليه وآله في صفة القرآن: «**يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً**»[4]، وعن عليّ عليه السلام فيه: «**يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلى بَعْضٍ**»[5]... وأمّا الفاتحة فلمكان التَّعبير عنه بالنّكرة غير الموصوفة ﴿سَبْعًا﴾، وفيه من الدّلالة على عظمة قدرها، وجلالة

---

(١) الحجر: ٨٧

(٢) سنن الدّارقطنيّ: ٨٧/٢، ح/١١٩٤.

(٣) الزّمر: ٢٣.

(٤) مسند الإمام أحمد: ٣٠٥/١١، ح/٦٧٠٢.

(٥) نهج البلاغة: ٢٢٢-٢٢٣، خطبة: ١٣٣.

شأنها ما لا يخفى، وقد قوبل بها القرآن العظيم وهي بعضه»(١).

قال السّيّد الخوئيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «وذهب بعض: إلى أنَّها نزلت مرَّتين، مرّة في مكّة، وأخرى في المدينة؛ تعظيماً لشأنها، وهذا القول محتمل في نفسه، وإن لم يثبت بدليل، ولا يبعد أن يكون هو الوجه في تسميتها بالسّبع المثاني، ويحتمل أن يكون الوجه هو وجوب الإتيان بها مرَّتين في كلّ صلاة: مرّة في الرّكعة الأولى، ومرّة في الرّكعة الثّانية»(٢).

ونحاول أن نستوحي من السّورة المباركة بعض المفاهيم، فهذه السّورة المباركة يمكن أن نقسمها على قسمين:

الأوّل: ما يتعلّق بصفات الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾(٣).

وفي هذا القسم تبرز لنا صفات الله جلَّ جلاله: (الرّبّ، المالك، الرَّحمن، الرّحيم)، وفي هذه الأسماء المباركة من الدّلالات العظيمة ما أشرنا إليه في البحث السّابق (البسملة)، فعندما يترنَّم بها العبد المؤمن، وهو يشعر بالهيمنة الإلهيّة، تتجلّى له صفات الجمال والكمال الإلهيّ، فيرقّ لها قلبه، ويقشعرّ لها جلده، ويهتزّ لها كيانه، ويخشع لها بدنه، وبذلك تسري في وجدانه وكأنَّها تخالط دمه ولحمه، وتملك عليه شعوره، وإحساسه، فيقف منبهراً أمام الجمال الإلهيّ، ماذا يقول العبد الصَّغير محدود المدارك، والمعارف، والطّاقات أمام الرَّبّ المالك المطلق الّذي لا يحدّه زمان، ولا يحويه مكان، فهو الَّذي خلق الزَّمان

---

(١) العلامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ١٢/١٩١-١٩٢.

(٢) السّيّد أبو القاسم الخوئيّ، البيان في تفسير القرآن: ٤١٨.

(٣) الفاتحة: ٢-٤.

والمكان ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[(١)]؛ لـ«**أَنَّهُ لا جِسْمٌ، وَلا صورَةٌ، وَلا يُحَسُّ، وَلا يُجَسُّ، وَلا يُدْرَكُ بِالْحَواسِّ الْخَمْسِ، لا تُدْرِكُهُ الأَوْهامُ، وَلا تَنْقُصُهُ الدُّهورُ، وَلا تُغَيِّرُهُ الأَزْمانُ**»[(٢)].

وهنا أمام عظمة هذا الموقف، يبقى الإنسان حائراً تائهاً؛ ولذلك أدركتنا الرَّحمة الإلهيّة، فعلَّمتنا كيف نقف بين في محضر القدس الإلهيّ، وكيف نناجي ربّ العزّة والجلال؟ ولذلك يقف العبد بين يدي الله ذاكراً الله بما علّمه قائلاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حامداً، وثانياً، ومعظّماً، بأدب متناه، أدب العبد مع الرَّبّ، أدب التّعامل مع القدس الإلهيّ... ومعنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: «هو الثَّناء الجميل على جهة التَّعظيم والتَّبجيل على الأفعال الحسنة الاختياريّة»[(٣)].

وقال الشّهيد الثّاني رحمه الله: «الحمد هو الثّناء بنعوت الكمال، واسم الله المتعال منبئ عن صفات الإكرام ونعوت الجلال»[(٤)].

وقال الشّيخ البهائيّ رحمه الله: «الحمد هو الثَّناء على مزيّة اختياريّة، وأمّا حمده سبحانه على بعض صفاته، فراجع إلى الحمد على الآثار المرتّبة على نفس الذّات المقدّسة، بناء على ما هو الحقّ من عينيّتها لها، وتلك الآثار اختياريّة، ولامُهُ: إمّا جنسيّة، أو استغراقيّة، أو عهديّة، أي: حقيقة الحمد، أو جميع أفراده، أو الفرد الأكمل اللائق به، ثابتٌ له جلّ وعلا ثبوتاً قصريّاً كما تفيده لام الاختصاص، ولو

---

(١) الأنعام: ١٠٣.

(٢) جزء من جواب الإمام الصّادق عليه السلام لزنديق سأله عن الله: ما هو؟؛ الكافي لثقة الإسلام الكلينيّ: ٢٠٠/١، ح/٢٢٠.

(٣) موسوعة الشّهيد الأوّل (حاشية القواعد): ٢٩/١٤.

(٤) موسوعة الشّهيد الثّاني (روض الجنان في شرح إرشاد الأذهان): ٤/١٠.

بمعونة المقام»[١].

وخلاصة الكلام: الحمد هو المدح على الجميل باختيار الإنسان بعد أن يشعر بالجمال والجلال والكمال الإلهيّ، وتنفعل نفسه، وتهتزّ به، وحينئذٍ ما لها إلا أن تتغنّى بما أفاضه وحي السَّماء، وتردّد بصدق وإيمان: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ ولعظمة جلال هذا الذّكر المبارك أدَّب الله أنبياءه ورسله وعباده الصّالحين أن يخاطبوه، ويمدحوه به، فيقول لعبده ورسوله نوح عليه السلام: ﴿فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

وهكذا حكى عن خليله إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾[٣].

وعن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٤].

وبعد هذا فهي دعوة المطهّرين من غلّ الصُّدور في دار رحمة الله وجنانه الخالدة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٥].

---

(١) الشّيخ البهائيّ، مفتاح الفلاح في عمل اليوم واللّيلة: ٧٥٤.

(٢) المؤمنون: ٢٨.

(٣) إبراهيم: ٣٩.

(٤) النّمل: ١٥.

(٥) يونس: ٩-١٠.

وكما هي تسبيح الإنسان فهي تسبيح الكائنات الأخرى من الملائكة والمخلوقات الأخرى، يقول تعالى:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(١).

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾(٢).

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٣).

وأمّا القسم الثّاني فيخصّ الإنسان، إذ علَّمَه الله تعالى ماذا يطلب؟ وكيف يطلب المهمّ في حياته؟ وكيف يستمدّ العون، والهداية، والتَّوفيق للسّير على خطّ الَّذين أنعم الله عليهم ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(٤)، والتّحفّظ من الانخراط في صفوف المغضوب عليهم الَّذين سلكوا مسالك الضّالّين والظّالمين.

ويمكننا أن نستوحي من السّورة ما يأتي:

١- إنَّها تلقين إلهيٌّ للعباد: كيف يتأدّبون مع ربّهم العظيم الَّذي حارت في معرفته العقول، فعندما يَنْصّب العبد نفسه في مقام العبوديّة لله، فأدب العبوديّة يلزمه أن يحمد الله، ويسبّحه وينزّهه بما علَّمه الله به، وليس له أن يمدحه بمدحه القاصر قصور مداركه؛ لأنَّ العبد مهما أوتي من علم ومعرفة لا يمكن أن تبلغ

(١) الشّورى: ٥.

(٢) الرّعد: ١٣.

(٣) الإسراء: ٤٤.

(٤) النّساء: ٦٩.

مداركه الإحاطة بربّه، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾[١]، فلا يعرف صفات الله تعالى إلا بما وصف به نفسه سبحانه وتعالى كما في مناجاة أكمل العارفين بالله تبارك وسيّد رسله: «**لا أُحْصي ثَناءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ**»[٢].

فقول العبد: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تأديبٌ بأدب عبوديّ، ما كان للعبد أن يقوله لولا أنَّ الله تعالى قاله نيابةً وتعليماً لما ينبغي الثّناء به»[٣].

وأمّا قوله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فمعنى (الرّبّ): المالك الّذي يدبّر أمر مملوكه في خلقه ابتداء، وإدامة، وانتهاء في رجوعه إليه، وفي حسابه يثيبه، أو يعاقبه، ولعلّه في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى «مراتب أحوال الخلق خمسة: أوّلها الخلق، وثانيها التّربية في مصالح الدُّنيا، وثالثها التَّربية في تعريف المبدأ، ورابعها التَّربية في تعريف المعاد، وخامسها نقل الأرواح من عالم الأجساد إلى دار المعاد، فاسم الله منبع الخلق، والإيجاد، والتَّكوين، والإبداع، واسم الرَّبّ يدلّ على التَّربية بوجوه الفضل والإحسان، واسم الرَّحمن يدلّ على التَّربية في معرفة المبدأ، واسم الرَّحيم في معرفة المعاد حتّى يحترز عمّا لا ينبغي، ويقدّم على ما ينبغي، واسم الملك يدلّ على أنّه ينقلهم من دار الدُّنيا إلى دار الجزاء»[٤].

وقد علق الشَّهيد السّيّد مصطفى الخمينيّ ﵀ على طرح الرّازيّ هذا بأنَّ هذه أمور ذوقيّة تفتقر إلى البراهين العقليّة أو النَّقليّة، وإنَّها لم تقرن بالمكاشفات

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) مسند الإمام أحمد: ١٤٧/٢، ح/٧٥١.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/١-٢١.

(٤) الرّازيّ، التَّفسير الكبير: ٢٩٢/١.

العرفانيّة[١].

وقال السّيّد عبد الأعلى السَّبزواريّ قُدِّسَ سِرُّهُ في تفسير قوله تعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: «لهذا الاسم [ربّ] الشّريف منزلة عظيمة في الكتب السّماويّة، لا سيّما القرآن المهيمن على جميعها، فهو من أمّهات الأسماء المقدّسة كالحيّ، والقيوم، بل هو الأمّ وحده؛ لأنَّه ينطوي فيه الخالق، والعليم، والقدير، والمدبّر، والحكيم، وغيرها»[٢].

وفي الآية إلفات نظر الإنسان إلى ما يحيط به من العوالم الكونيّة في خلقها، وإبداعها، وتكوينها، وحركتها، وفي تدبير شؤونها، فعندما يتأمّل المرء في مخلوقات الله من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة، يقف على شيء من عظمة الخالق في مخلوقاته، ويعرف شيئاً من قدرته، وعلمه، وسلطانه؛ ولهذا جاءت الأوامر الإلهيّة بوجوب التّأمّل والتّفكّر في هذه المخلوقات، وقد مدح الله عباده الّذين يتفكّرون في خلقه، يقول تعالى:

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾[٣].

﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٤].

إلى غير ذلك من الآيات الّتي حثَّت على التَّفكير في مخلوقات الله الّتي

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم للسّيّد مصطفى الخمينيّ: ١٢٢/٢.

(٢) السّيّد عبد الأعلى السَّبزواريّ، مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٢٨/١.

(٣) العنكبوت: ٢٠.

(٤) آل عمران: ١٩١.

بلغت ثلاثمائة آية.

إذن المقصود بـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] جميع الموجودات كعالم الجماد، والنَّبات، والحيوان، والإنسان، وجميع المخلوقات الأخرى في الأرض والسَّماء، وما بينهما، وما فوقهما، وما تحتهما، فعندما نتأمّل في الآثار الإلهيّة المتمثّلة بمخلوقاته الكثيرة نزداد إيماناً ومعرفة بالله تعالى، وهذا ما يريده الله تعالى من عباده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

فإذا عرف شيئاً من أسرار التَّكوين الإلهيّ في مخلوقاته، فلا بدَّ أن يعرف أنَّ هذا الملك كلّه مسيّر ومسخّر ومدار ومستعبد لله تعالى وفق سنن لا تبديل لها ولا تغيّر، وتأسيساً على ذلك لا بدَّ أن يرجع كلّما في الكون إليه جلَّ شأنه في الإدانة والحساب للخلائق الَّتي هي من لوازم العدل الإلهيّ، فيقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ لأنَّ الله ما خلق الخلق عبثاً، ولا لعباً، ولا لهواً؛ فذلك ظنُّ الَّذين لا يعلمون، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[3].

فالله تعالى هو المالك لخلقه، والمدبّر لأمورهم في الدُّنيا كما هو المالك المطلق والمهيمن على عباده يوم الدّين حيث ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا

---

(١) اختلف العلماء في المقصود من ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهي جمع عالَم، لا واحد له من لفظه، والعالَم: اسم لما يعلم به، غلب فيما يعلم به الصّانع من المصنوعات، فقيل في معناها: هو اسم لكلّ موجود لما سوى الله فيدخل فيه جميع الخلق؛ وعن ابن عبّاس: هم الجنّ والإنس، أو العالَم عبارة عمّا يعقل، وهم أربعة أمم الإنس والجنّ والملائكة والشّياطين، ولا يقال للبهائم عالم؛ لأنَّ هذا جمع الجمع إنّما هو جمع ما يعقل؛ انظر: تفسير القرطبيّ: ١٣٨/١، وتفسير البغويّ: ٥٢/١.

(٢) الذّاريات: ٥٦.

(٣) المؤمنون: ١١٥.

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[١]، ورغم هذا الملك والهيمنة، فهو الرَّحمن بخلقه جميعاً، الرَّحيم بعباده المؤمنين خاصّة.

ويأتي القسم الآخر في السّورة المباركة إذ يناجي العبد ربّه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، رُوِيَ عن الإمام الصّادق عليه السلام في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: «**يَعْني لا نُريدُ منْكَ غَيْرَكَ، لا نَعْبُدُكَ بالْعِوَضِ وَالْبَدَلِ كَما يَعْبُدُكَ الْجاهِلونَ بِكَ، الْمُغَيَّبونَ عَنْكَ**»[٢].

والمعنى: أي أخصّك يا ربّ بالعبادة والطّاعة دون سواك، فلا أعبد، ولا أطيع سواك، ولا أستعين في قضاء حوائجي، ومواجهة مشاكلي بغيرك، ولعلَّ هذا المعنى هو ما ورد في دعاء يوم الأحد:

«**بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيمِ، بِسْمِ الله الَّذي لا أَرْجو إلاّ فَضْلَهُ، وَلا أَخْشى إلا عَدْلَهُ، وَلا أَعْتَمِدُ إلاّ قَوْلَهُ، وَلا أَتَمَسَّكُ إلاّ بِحَبْلِه**»[٣].

وفي الآية ثلاث قواعد تشدّ الإنسان بالله شدّاً وثيقاً:

الأولى: هي عمليّة التّجرّد المطلق عن كلّ عبادة غير عبادة الله تعالى، وهذا هو محض التَّوحيد، وتمام الإخلاص، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٤].

الثّانية: هي عمليّة لجوء إلى الله تعالى من خلال الاعتراف بالعبوديّة

---

(١) الانفطار: ١٩.

(٢) الفيض الكاشانيّ، كتاب الصّافي في تفسير القرآن: ١/١٢٥.

(٣) مصباح الكفعميّ: ١٢٩.

(٤) البيّنة: ٥.

المطلقة لله، والانصهار فيها حتّى تصبح في الإنسان الموحّد عادةً وفكراً وطبعاً وسلوكاً.

الثّالثة: طلب العون من الله دون سواه ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، «**مِنْكَ نَسْأَلُ الْمَعونَةَ على طاعَتِكَ؛ لِنُؤَدِّيَها كَما أَمَرْتَ، ونَتَّقي مِنْ دُنْيانا ما نَهَيْتَ عَنْهُ**»[1].

ورُوِيَ عن الحسن بن عليّ، عن أبيه أمير المؤمنين عليهم السلام، قال: «**قالَ رَسولُ الله** صلى الله عليه وآله: **قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: قولوا: إيّاكَ نَسْتَعينُ على طاعَتِكَ وعِبادَتِكَ، وعَلى دَفْعِ شُرورِ أَعْدائِكَ، ورَدِّ مَكائِدِهِمْ، والْمَقامِ عَلى ما أَمَرْتَ بِهِ**»[2].

وفي تفسير العيّاشيّ: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إخلاص العبادة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أفضل ما طلب به العباد حوائجهم»[3].

وفي عيون أخبار الرّضا عليه السلام مسنداً عنه صلى الله عليه وآله في حديث: «**فَإِذا قالَ** [العبد]: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، **قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: صَدَقَ عَبْدي، إيّايَ يَعْبُدُ، أُشْهِدُكُمْ لأُثيبَنَّهُ عَلى عِبادَتِهِ ثَواباً يَغْبِطُهُ كُلُّ مَنْ خالَفَهُ في عِبادَتِهِ لي، فَإِذا قالَ:** ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: بي اسْتَعانَ عَبْدي، وإِلَيَّ الْتَجَأَ إِلَيَّ، أُشْهِدُكُمْ لأُعينَنَّهُ عَلى أَمْرِهِ ولأُغيثَنَّهُ في شَدائِدِهِ، ولآخُذَنَّ بِيَدِهِ يَوْمَ نَوائِبِهِ**»[4].

وأمّا قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فهو طلب الدّلالة والاسترشاد

---

(١) التّفسير المنسوب للإمام الحسن العسكريّ عليه السلام: ٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ٤١.

(٣) تفسير العيّاشيّ: ١٠٣/١.

(٤) الشّيخ الصّدوق، عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ٤١١/١، ح/٤١١.

على الطَّريق السّويّ الَّذي يؤدّي بالإنسان إلى الهداية الإلهيّة والاستقامة عليها، «والصّراط: الطّريق الواضح المتّسع»[١].

وهنا تبرز ثلاثة خطوط رئيسة، وهي:

الأوّل: (**صراط الَّذين أنعم الله عليهم**) من النّبيّين، والشُّهداء، والصّدّيقين والصّالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً، وهو دين الله المتمثّل بكتاب الله، وسنّة رسوله، وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[٢].

الثّاني: هو طريق المغضوب عليهم، وهم اليهود الَّذين انحرفوا عن جادّة الصَّواب، فغضب الله عليهم، فحرَّفوا الكلم عن مواضعه، وقتلوا أنبياءه ودعاته، ومن سار على نهجهم، ودعا بدعواتهم إلى يوم القيامة.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾[٣].

الثّالث: طريق الضّالّين، وهم الَّذين جعلوا الله ثالث ثلاثة، ومن نهج نهجهم من الَّذين ضلّوا وأضلّوا غيرهم، **﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾**[٤].

وختاماً نذكر هذه الرّواية في شرف سورة الفاتحة، ففي العيون عن الإمام

---

(١) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٠٣/١.

(٢) النّساء: ٦٩.

(٣) النّساء: ٤٦.

(٤) المائدة: ٧٧.

الحسن العسكريّ عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**قالَ رَسولُ الله: قالَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ: قَسَّمْتُ فاتحَةَ الْكتاب بَيْني وبَيْنَ عَبْدي، فَنصْفُها لي وَنصْفُها لعَبْدي، ولعَبْدي ما سَأَلَ**»[1].

وخلاصة الكلام: يمكننا أن نستوحي من سورة الفاتحة:

١- تصوّراً شاملاً لعلاقة الإنسان بربّه.

٢- تشعرنا بالرّعاية الكاملة من الله تعالى.

٣- تفتح مشاعر الإنسان على آفاق الوجود كاملاً؛ لتشعره بالتّواصل مع كلّ العاملين والعابدين لله سبحانه وتعالى على طول خطّ التّأريخ.

٤- توحي للإنسان بسعة رحمة الله تعالى، وتلامس شغاف القلب؛ لتثمر الرَّحمة، والمحبّة، والخير، والجمال، والحقّ.

٥- في الوقت الَّذي تسمو بالإنسان في آفاق الرَّحمة تنقله إلى الأجواء الإيمانيّة بعالم الآخرة.

٦- تثير الشُّعور بالمسؤوليّة في الإنسان من خلال تصوّره لرقابة الله له، وإحاطته الكاملة في عباده.

٧- وبالتّالي السّورة المباركة تبيّن من خلال الصّفات الثّلاثة لله: الرّبوبيّة الشّاملة، والرَّحمة الواسعة، والمالكيّة المطلقة للمصير كلّه تشعر الإنسان بالهيمنة المطلقة لله تعالى، وتفتح آفاقه على التَّوحيد المطلق لله تعالى، وترسّخ في نفسه توحيد العبادة، فلا يعبد أحداً إلا الله.

٨- من خلال التّأمّل في السّورة المباركة يحصل للعبد محبّة الله، والرّضا بقضائه وقدره، واستمداد الهداية من موقع العبادة له تعالى، والاستعانة به والانفتاح عليه، والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ١/٤١٠، ح/٢٧٠.

سورة الهمزة

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾[1].

ترسم السّورة المباركة صورة لمستوى الهبوط الّذي تصله بعض النُّفوس الّتي يستحوذ عليها حبّ المال، إلى درجة تعدّ المال فوق كلّ الاعتبارات والقيم الفكريّة والأخلاقيّة، حتّى يصبح عندها المال هدفاً بذاته، وتحسب أنّه سرّ وجودها، وبقائها، بل أساس خلودها، ولعلّ هؤلاء هم المعذّبون بأموالهم، الّذين أشار لهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾[2].

والسّرّ في ذلك أنّ الانسان حين يتولّع قلبه بحبّ المال لا يتوقّف عن طلب المزيد حتّى لو ملك كلّ ما في الكون، فلا يشبع ولا يكتفي كما جاء عن الإمام الصّادق عليه السلام: «مَنْهومانِ لا يَشْبَعانِ: مَنهومٌ عِلْمٍ ومَنْهومُ[3] مالٍ»[4].

---

(١) الهمزة: ١-٩.

(٢) التّوبة: ٨٥

(٣) المنهوم: المولع بالشّيء، يقال: هو منهوم بالمال، أي مولع به لا يشبع منه، والنّهمة بلوغ الهمّة في الشّيء.

(٤) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٥٣/١.

بل جاء عن رسول الله ﷺ: «**لَوْ كانَ لابْنِ آدَمَ واديان منْ ذَهَبٍ وَفضَّةٍ لابْتغى إِلَيْهِما آخَرَ، وَلا يَمْلأُ بَطْنَ ابْنِ آدَمَ إِلا التُّراب، ويَتوبُ اللهُ عَلى مَنْ تابَ**»(١).

وإنَّ الآية الكريمة أوضحت ببيانٍ دقيق الأساليب الخسيسة الَّتي يستعملها عباد الدُّنيا في مواجهة حركة التَّوحيد والدَّعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ثمّ بيَّنت أنَّ جامع المال المستأثر به، والخاضع لبريقه يُقَيِّم الإنسان من خلال ما في يده، فهو ينظر إلى من هو أكثر منه مالاً بعين الإكبار والحسد، وإلى من دونه بعين الاستصغار والاحتقار، والسَّبب في ذلك أنَّ هذا الصّنف عدَّ المال مفتاح السَّعادة، وبه تحلّ كلّ مشاكل الحياة، ثمّ إنَّها تكشف عن حالة فطريّة، وهي حبّ البقاء والتّهرّب من العدم والفناء، ولكن مع الأسف أخطأ الوسيلة وحوَّلها إلى غاية، ونسي أنَّ الخلود لا يتحقَّق بتلك الزَّخارف الزّائلة... وفي ختامها تعكس صورة رهيبة لفظاعة العذاب الَّذي سيلاقيه الهمّاز اللّمّاز إذ توضّح صورة التّقابل بين الأعمال الّتي يقومون بها، والجزاء الَّذي سوف يلاقونه يوم القيامة الَّذي لا يعلم كنهه إلا الله تعالى.

تبدأ السّورة بعد البسملة بكلمة (ويل) وهي كلمة موحية بل مصرّحة بالذّمّ، والسّخط، والعذاب الشّديد، والتّقبيح لمن يملكه المال، ويسيطر على مشاعره، وتعلو به نفسه مغرورة متكبّرة على الآخرين منجرّة إلى الاستهزاء والاستهانة والاستصغار للآخرين، لا لشيء إلا لأنَّهم أقلُّ منه مالاً على قاعدة ﴿**أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ**﴾(٢).

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣١/٣٢، ح/١٩٢٨٠.

(٢) الكهف: ٣٤.

وقد نُكِّرَت كلمة ﴿وَيْلٌ﴾، وهي كلمة توحي بالعذاب؛ لأنَّه لا يعلم كنه هذا العذاب إلا الله تعالى، ومن العجيب أنَّ هذه الكلمة الَّتي يردّدها كلّ مكروب يتولول، فيدعو بالويل والثّبور والهلكة، وقد وردت في تهديد أصناف من المخالفين العصاة لأوامر الله تعالى من هؤلاء:

المطفّفون ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[1]، والكاذبون على الله سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[2].

ووردت في تهديد المشركين في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[3].

وجاء أيضاً في وعيد الأفّاكين الآثمين في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[4]، وهكذا في وعيد الكافرين في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[5].

وقد تكرّر وعيد الكاذبين في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[6]، وللظّالمين: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[7].

---

(١) المطفّفين: ١.

(٢) البقرة: ٧٩.

(٣) فصّلت: ٦-٧.

(٤) الجاثية: ٧.

(٥) مريم: ٣٧.

(٦) المرسلات: ١٥.

(٧) الزّخرف: ٦٥.

وعلى كلّ حال هذه الكلمة ﴿وَيۡلٞ﴾ الَّتي تعكس أشدّ درجات العذاب، والتَّقبيح، والذّمّ، والتَّهديد لكلّ العصاة، والمتمرّدين، والمخالفين لأحكام الله تعالى، فشملت الكافرين، والكاذبين، والظّالمين، والمجرمين بمختلف صنوف الإجرام، وبناءً على ذلك يتبيّن لنا خطورة السّورة وأهمّيّتها الَّتي نريد الحديث فيها والتّأمّل في فقراتها بما تحوي من التَّهديد، والوعيد بالعذاب الشَّديد والإسقاط، في أحطّ دركات الجحيم.

وقد ورد في تفسير هذه الكلمة بأنَّها: كناية عن شدّة العذاب، وقيل: جبل من نار، وقيل: هو وادٍ في جهنّم بين جبلين يهوي فيه الهاوي أربعين خريفاً، وقيل: وادٍ في جهنّم لو أرسلت فيه الجبال لذابت من حرّه، وقيل: وادٍ يجري بفِناء جهنّم من صديد أهل النّار، وقيل: إنَّها باب من أبواب جهنّم(١).

الْهَمْزُ وَاللَّمْزُ:

ثمّ تبيّن الآية نوعيّة العمل الَّذي يستحقّ فاعله هذا العذاب الأليم، وهو الهمز واللَّمز، وهما كلمتان توحيان بالطّعن، والانتقاص، والاستهزاء أتتا بصيغة المبالغة، وكلمة (الهمز) أصلها الكسر، أي العائبين المغتابين يحاولون باستهزائهم أن يكسروا شخصيّة المُعاب، «وقد اختلف عبارات المفسّرين في التَّعبير عنهما فقيل: الهمزة المغتاب، واللّمزة الطّعّان: وقيل: الهمز الَّذي يطعن في الوجه بالعيب، واللَّمزة الّذي يغتاب عند الغيبة، وقيل: الهمز باليد، واللَّمز باللَّسان، وقيل: الهمز بكفّه، واللَّمز بالحاجب والعين، وقيل: الهمزة اللّمزة الَّذي يلقّب النّاس بما يكرهون، ويدخل فيه من يحاكي النّاس بأقوالهم، وأفعالهم، وأصواتهم؛

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ: ٨/٢؛ ومجمع البحرين: ٤٩٦/٥، (ويل).

ليضحكوا، وقد حاكى الحكم بن العاص مشية النّبيّ صَلَّىٰلَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فنفاه من المدينة»[١].

جاء في تفسير التّبيان: «قال ابن عبّاس: الهمزة اللّمزة المشّاء بالنّميمة، المفرق بين الأحبّة الباغي المبرئ العيب بالمكابرة، وقيل: نزلت في مشرك بعينه، كان يعيب النّاس ويلمزهم - ذكره ابن عبّاس -، وقال قوم: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقال السّدّيّ: نزلت هذه السّورة في الأخنس بن شُرَيق، وكان يهمز النّبيّ صَلَّىٰلَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ويلمزه، وقيل: نزلت في جميل بن عامر الجهنيّ، وقال مجاهد وورقاء وابن عبّاس: ليست خاصّة لأحد، بل هي عامّة»[٢].

لماذا الْهَمْزُ وَاللَّمْزُ؟

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ فعل الانسان ينبئ عمّا يضمره في باطنه إن كان خيراً، فقد صدر عن نفس طيّبة طاهرة والعكس بالعكس، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[٣].

ومن هنا يمكن أن نقول: إنَّ كلّ ما يصدر عن الإنسان من أعمال أو أقوال تكشف عن محتواه الدّاخليّ، وتعكس صورته الباطنيّة، وما يكنّه في ضميره، ويخفيه في قلبه.

وبكلمة أخرى: العمل هو إفراز لما يكمن في النَّفس من خصال، وهذه الخصال لا تظهر على حقيقتها في الواقع المشهود إلا من خلال العمل، فإن كان العمل سليماً طيّباً أنبأ عن نفس مهذّبة، وقلب سليم، وضمير حيّ للإنسان، وإن كان

---

(١) انظر: مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام للجواد الكاظميّ: ٢/٤١٨.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، التّبيان في تفسير القرآن: ١٠/٤٠٧.

(٣) الأعراف: ٥٨.

العمل دنيئاً خبيثاً أنبأ عمّا في النَّفس من خبث وانحطاط، ولعلَّ هذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**ما أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلا ظَهَرَ في فَلَتَاتِ لِسانِه، وَصَفَحَاتِ وَجْهِه**»(١).

جاء في شرح نهج البلاغة: «قال زُهَير بن أبي سُلمى: [من الطّويل]

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على النّاس تعلم

وقال آخر: [من الطّويل]

تخبّرني العينانِ ما القلبُ كاتمٌ وما جنَّ بالبغضاء والنّظر الشّزر

وقال آخر: [من الوافر]

وفي عينيكَ ترجمةٌ أراها تدل على الضَّغائن والحقود
وأخلاق عهدتُ اللّين فيها غَدَت وكأنّها زُبَرُ الحديد
وقد عاهدتني بخلاف هذا وقال الله: ﴿**أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ**﴾

وكان يقال: العين، و الوجه، واللّسان أصحاب أخبار على القلب، وقالوا: القلوب كالمرايا المتقابلة، إذا ارتسَمَتْ في إحداهنّ صورةٌ ظهرت في الأخرى»(٢).

ثمَّ إنَّ الهمز واللَّمز عملان يكشفان عن صغر النّفس، وصغارها، وعجزها عن مواجهة الخصم بأسلوب منطقيّ فعّال، فعندما يفشل في المواجهة بأساليب شريفة وصحيحة يلجأ إلى أخسّ الأساليب وأقبحها، ولو كانت غير مألوفة، وغير مناسبة للإنسان العاقل الشَّريف، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنَّ الهمز واللّمز مرضٌ أخلاقيٌّ ينبع من الغرور، والإعجاب، والتّكبّر، والطُّغيان، والشّعور بالاستغناء

---

(١) نهج البلاغة: ٤٩٠، قصار الحكم: ٢٢.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣٧/١٨.

بما تراكم من مال حتّى يدفعه إلى الاستهانة بالآخرين، وبالتّالي «هي صورة لئيمةٌ حقيرةٌ من صور النّفوس البشريّة حين تخلو من المروءة، وتعرى من الإيمان، والإسلام يكره هذه الصّورة الهابطة من صور النّفوس بحكم ترفّعه الأخلاقيّ، وقد نهى عن السّخريّة واللّمز والعيب في مواضع شتّى، إلا أنَّ ذكرها هنا بهذا التَّشنيع والتَّقبيح مع الوعيد والتَّهديد، يوحي بأنَّه كان يواجه حالةً واقعيّةً من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين.. فجاء الرّدّ عليها في صورة الرَّدع الشّديد، والتّهديد الرّعيب»[1].

وأوضحت آيات سورة المؤمنين عاقبة المجرمين الَّذي كان ديدنهم السّخريّة والاستهزاء من المؤمنين، يقول تعالى ردّاً على طلب الأشقياء المعذّبين في النّار: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۞ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۞ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ۞ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[2].

وفي سورة المطفّفين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۞ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۞ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۞ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۞ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۞ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[3].

---

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٦٦٢/٨-٦٦٣.

(٢) المؤمنون: ١٠٧-١١١.

(٣) المطفّفين: ٢٩-٣٦.

عِبادَةُ المالِ:

إذا انشغل الإنسان بجمع المال حبّاً له، وهياماً به، فإنَّه يسيطر عليه، ويملك عليه نفسه، ويستحوذ على مشاعره وأحاسيسه وتفكيره، فلا يعود يرى غيره، فحينئذٍ يصبح عبداً للمال، خادماً له، بل مملوكاً له غير مالك، ولعلَّ هذا مدلول قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(١).

فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يدلّ على أنَّ ما يملكونه من مال شقاء وعذاب أفقدهم السّعادة والرّاحة الَّتي كانوا يرجونها من جمع المال وتخزينه، قال العلامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «فإنَّ الحياة الّتي يعدّها الموجود الحيّ سعادةً لنفسه وراحةً لذاته، إنَّما تكون سعادة فيها الرّاحة والبهجة إذا جرت على حقيقة مجراها، وهو أن يتلبّس الإنسان بواقع آثارها من العلم النّافع والعمل الصّالح من غير أن يشتغل بغير ما فيه خيره ونفعه، فهذه هي الحياة الَّتي لا موت فيها، والرّاحة الَّتي لا تعب معها، واللّذّة الَّتي لا ألم دونها، وهي الحياة في ولاية الله، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

وأمّا من اشتغل بالدُّنيا، وجذبته زيناتها من مال وبنين إلى نفسها، وغرّته الآمال والأماني الكاذبة الَّتي تتراءى له منها واستهوته الشّياطين، فقد وقع في تناقضات القوى البدنيّة، وتزاحمات اللّذائذ المادّيّة، وعذّب أشدّ العذاب بنفس ما

---

(١) التّوبة: ٥٥.

(٢) يونس: ٦٢.

يرى فيه سعادته ولذّته، فمن المشاهد المعاين أنَّ الدُّنيا كلّما زادت إقبالاً على الإنسان، ومتَّعته بكثرة الأموال والأولاد أبعدته عن موقف العبوديّة وقرَّبته إلى الهلاكة، وعذاب الرّوح، فلا يزال يتقلّب بين هذه الأسباب الموافقة والمخالفة، والأوضاع والأحوال الملائمة والمزاحمة، فالَّذي يسمّيه هؤلاء المغفّلون سعة العيش هو بالحقيقة ضنك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ... ﴾[1]»[2].

وقال الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «لقد أدركْتُ من تتبّعي ومطالعاتي في أحوال مختلف الشّرائح البشريّة أنَّ الآلام النّفسيّة والرّوحيّة الّتي يعاني منها أفراد الشَّريحة المتنفّذة الموسرة، وما يخلّفه ضياع الآمال والأماني الكثيرة فيهم أشدّ أثراً، وأكثر تقريحاً للفؤاد من الآلام الّتي تعاني منها سائر الشّرائح»[3].

عَذابُ الْمُسْتَهْزِئينَ:

ما أعدَّه الله للمستهزئين بالمؤمنين في الدُّنيا جاء من جنس ذنوبهم، فكما كانوا يرمون المؤمنين بالتّرهّات، والافتراءات، والأكاذيب، يُنْبذون محتقرين في نار تحطّم كبرياءهم وغروهم، ولا يكتفي بهذا، بل يمتدّ العذاب من حرق الجوارح إلى حرق الجوانح الَّتي صوَّرتها الآية الكريمة بأنَّها ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾، «أي تشرف على القلوب فتبلغها ألمها وحريقها، وقيل: معناه أنَّ هذه النّار تخرج

(١) طه: ١٢٤.

(٢) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٩/٣٠٩.

(٣) الإمام الخمينيّ، موعد اللّقاء: ١٠٦.

من الباطن إلى الظّاهر خلاف نيران الدُّنيا ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ يعني إنَّها على أهلها مطبقة تطبق أبوابها عليهم تأكيداً للأياس عن الخروج»[١].

وقال الفيلسوف الإسلاميّ الكبير صدر المتألّهين: «فإنّها بالحقيقة نيرانات ملتهبة، وحرقات مشتعلة، ظهرت لهم من قلوبهم يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۞ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾»[٢]؛ لتذيقهم أشدّ العذاب كما كانوا يحرقون القلوب المؤمنة بما يفتعلون من أكاذيب وأفاعيل لا يقبلها عقل ولا شرع، وهكذا يتَّضح أنَّ «النّار المحضة فإنَّ تمامها محرقة مؤذية قطّاعة نزّاعة، وهذا المحسوس من النّار ليس محرقاً حقيقةً، والَّذي يباشر الإحراق والتّفريق حقّاً وحقيقةً هي نارٌ إلهيّةٌ مستورةٌ عن هذه الحواسّ، خارجة عن الفكر والقياس، وهي النّار الكبرى الَّتي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ والنّفوس المرتبطة نوعاً من الارتباط بهذا المحسوس»[٣].

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٢٧٨/٨.

(٢) صدر المتألّهين، المبدأ والمعاد: ٥٠٩.

(٣) المصدر نفسه: ٥٠٨.

الْوَصايا الْقُرْآنِيَّةُ الْعَشْرَةُ

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

أوامر قطعيّة، ونواهٍ حتميّة تشمل الجوانب: العقائديّة، والعائليّة، والاجتماعيّة، والأخلاقيّة، والاقتصاديّة، والسّياسيّة... فإذا تأمّلنا بدقّة في هذه الوصايا وجدنا أنَّها «قوام هذا الدّين كلّه... إنّها قوام حياة الضَّمير بالتَّوحيد، وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة، وقوام حياة المجتمع بالتَّكافل والطَّهارة فيما يجري فيه من معاملات، وقوام حياة الإنسانيّة، وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات، مرتبطة بعهد الله، كما أنّها بُدئت بتوحيد الله تعالى»[2].

---

(١) الأنعام: ١٥١-١٥٣.

(٢) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٤٢٠/٣.

وفي هذه الوصايا العظيمة تبرز أصول المحرّمات على مختلف الأصعدة المتقدّمة هذه المحرّمات الّتي إذا فشت في مجتمع من المجتمعات، وغلبت عليه تجرّه إلى الهلاك والدّمار النّهائيّ، وقد جاء النَّصُّ الكريم بأوامر جازمة، ونواهٍ قاطعة تظهر جوامع أصول الفساد الاجتماعيّ بأخصر عبارة وأدقّها في عالم التَّشريع، وهذه المحرّمات ممّا أجمعت عليه الشَّرائع السّماويّة من دون استثناء، والمحرّمات هي الشّرك بالله، وعقوق الوالدين، واقتراف الفواحش سرّاً وعلناً، وقتل النّفس المحترمة بغير الحقّ، وقتل الأولاد خشية الإملاق، وأكل مال اليتيم، والتَّطفيف في المكيال، والظُّلم في القول، وعدم الوفاء بعهد الله، واتّباع غير سبيل الله تعالى.

وأوّل ما يلفت النّظر، ويوقظ الضّمير، وينفض غبار الغفلة عن النَّفس في هذا النّصّ هو شدّة الأمر إذ وجّه تعالى الخطاب إلى نبيّه بصيغة الوجوب ﴿قُلْ﴾؛ ليدعو النّاس ويحذّرهم من الأخطار الجسيمة والفظائع المدمّرة الّتي لا يمكن أن تقوم للإنسانيّة قائمة مع اقترافها، وكأنَّه يقول تلك المحرّمات هي السَّرطان الّذي يهلك الإنسان في الدُّنيا، ويشقيه في الآخرة.

والأمر الآخر الّذي يدلّ على خطورة هذه الأمور هو تكرار (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجّي و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ[1]، – وهنا لعلَّه للإشفاق

---

(١) قال المحقّق الأردبيليّ: «وأمّا الإعراب فـ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، جملة حاليّة عن الخالق، لكن على طريق التَّشبيه بالرّاجي لاستحالة حقيقة الرَّجاء منه، أو عن المخلوقين، أو عن العابدين؛ وأمّا كونها علّة فتكون بمعنى كي، فيكون موافقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذّاريات: ٥٦)، كما يظهر من مجمع البيان، ففيه أنَّه نقل في الكشّاف وتفسير القاضي أنَّ لعل ما جاء بهذا المعنى، فعلى تقدير التَّسليم يحتمل كون ما ذكر في مجمع البيان محصّل المعنى، ومعناها المجازيّ»، زبدة البيان في براهين أحكام القرآن: ١٦٤.

- ثلاث مرّات ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾... ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾... ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لاستماعه، وتدبّر أمثاله عن فهم، ووعي، والتزام جدّيّ من خلال اجتناب تلك المحرّمات، بل مقاومة حدوثها، وانتشارها في وسط المجتمع؛ ليعيش طاهراً زكيّاً سعيداً في مجتمع يسوده التّوحيد، والعدل، والمحبّة، والوفاء.

أوّل ما يُبرّز النّصّ من الأخطار الفظيعة - الّتي يهون من دونها كلّ خطر والّذي منه تنبع جميع المفاسد الفكريّة، والأخلاقيّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة - (**الشّرك بالله تعالى**) فهو انحراف خطير يصيب الفطرة السَّليمة، ويفسدها، ويجرّ الإنسان إلى أهلك المهالك إذ يُطرد من رحمة الله، ويُحرم غفرانه، ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا**﴾(١)؛ لأنَّ الشّرك بالله يهوي بالإنسان إلى أقصى مهاوي السّقوط حتّى يخرجه من عالم الإنسانيّة الكريمة، ويهوي به إلى حضيض الحيوانيّة؛ لأنّه افتراء على الله، وظلم عظيم، وضلال بعيد، وسقوط ما بعده سقوط؛ ولذا جاء التَّشبيه القرآنيّ لعاقبة المشرك دقيقاً وصريحاً مرعباً يخلع القلب من شغافه، ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾(٢).

إنَّه مشهد مروّع مخيف مرعب، إذ إنَّ هذا الإنسان الكريم الَّذي أراد الله له السّموّ والرّفعة والكمال يهوي من أسمى مراتب الكمال إلى أحطّ دركات الهبوط، فيسحقه ويحطّمه، وتتمزّق أوصاله، فتتخطفها الطّيور الكواسر، هكذا يسحق الشّرك

---

(١) النّساء: ٤٨.

(٢) الحجّ: ٣١.

الإنسان كياناً، ووجوداً، وعزّةً، وكرامةً، ويصبح ريشة في مهبّ الرّياح تلقي به العواصف، فتلقي به في مهوى سحيق؛ لأنّه خرج من الإنسانيّة السّامية إلى الحيوانيّة المنحطّة، «وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السّامق إلى حيث الفناء والانطواء إذ يفقد القاعدة الثّابتة الّتي يطمئنّ إليها: قاعدة التّوحيد، ويفقد المُستَقرّ الآمن الّذي يثوب إليه، فتتخطّفه الأهواء تخطّفَ الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرّياح، وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقرّ على القاعدة الثّابتة الّتي تربطه بهذا الوجود الّذي يعيش فيه»(١).

وسياق الآيات هنا يومئ بأنّ الشّرك المقصود لا يقتصر على اتّخاذ الأصنام الخشبيّة أو الذّهبيّة، وإنّما الشّرك المقصود هو الأخطر من هذا، وهو اتّخاذ معبود من جنس البشر، ويتجسّد هذا الشّرك -وإن كان الإنسان ظاهراً يؤمن بالله تعالى- بالطّاعة والامتثال بما يضعه البشر من القوانين والدّساتير والشّرائع، ويخضع لأوامره ونواهيه، ويحوّله إلى دين يدان به، أي يخضع لحاكميّة البشر، وهي من أصدق مصاديق الرّفض لحاكميّة الله تعالى.

إنّ هذا الشّرك هو الأخطر على الإطلاق؛ لأنّه يُعَبّدُ النّاس للنّاس من خلال الحكم بغير ما أنزل الله، والحكم بما وضعه البشر من قوانين جائرة، بل اعتداء صريح على حقّ الله تعالى المتفرّد بالتّشريع، الّذي لا يحقّ لأحد مهما بلغ من مراتب الكمال أن يلج ساحته؛ لأنّ التّشريع حقٌّ إلهيٌّ مطلق، وأيّ قانون سنّهُ البشر هو تجاوز لحقّ الله، وظلم واعتداء على حرمات البشر، ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى**

(١) في ظلال القرآن: ٥٩٨/٥.

ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾[١].

وفي الحديث عَنْ أَبِي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**ثَلاثَةٌ مَجالِسَ يَمْقُتها اللهُ، وَيُرْسِلُ نَقِمَتَهُ عَلى أَهْلِها، فَلا تُقاعِدوهُمْ، وَلا تُجالِسوهُمْ: مَجْلِساً فيهِ مَنْ يَصِفُ لِسانُهُ كَذِباً في فُتْياهُ، وَمَجْلِساً ذِكْرُ أَعْدائِنا فيهِ جَديدٌ، وَذِكْرُنا فيهِ رَثٌّ، وَمَجْلِساً فيهِ مَنْ يَصُدُّ عَنّا وَأَنْتَ تَعْلَمُ**»[٢].

وبعد أن يؤسّس النّصّ القاعدة الأساسيّة الرّصينة قاعدة التّوحيد الخالص الَّتي جعلها الله المنطلق الأصيل لجميع الكمالات الإنسانيّة ينتقل إلى الفروع النّابعة منها والمتزوّدة من معينها... فيبدأ بالرّوابط العائليّة؛ ليقيمها على أسس الرّحمة، والإحسان، واللّطف، وقد عبّر عنه بالإحسان للوالدين؛ لأنَّ العائلة هي اللُّبنة الأولى الَّتي يقوم عليها البناء الفوقيّ للمجتمع، فالعائلة المتراحمة المترابطة على أساس الإحسان، والاحترام، وتبادل الحقوق والواجبات على أسس إلهيّة هي المدرسة المثلى الّتي تُخَرِّجُ الشّخصيّة الرّساليّة؛ لتكون الأنموذج الأفضل في السّاحة الاجتماعيّة، والمصنع الدّقيق، والخليّة الطّاهرة الّتي تُخَرِّج الإنسان المهذّب الطّيّب المحسن، ومن هنا أوصى الإسلام بالإحسان للوالدين في أكثر من موضع من كتابه الكريم، ونهى أن يسيء الولد لهما، ولو بأدنى كلمة وأهونها ﴿**أُفٍّ**﴾، قال الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام: «**أَدْنى الْعُقوق ﴿أُفٍّ﴾، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئاً أَهْوَنَ مِنْهُ لَنَهى عَنْهُ**»[٣]، قال تعالى: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ**

---

(١) النّحل: ١١٦.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٤/١٢٩، ح/٢٨٣٦.

(٣) الكافي: ٤/٦٣، ح/٢٧٢٣.

إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾[١].

وكما أوصى الأبناء بالآباء ألزم الآباء بإعداد أبنائهم إعداداً سليماً، وجعل لهم حقوقاً كبيرة من حيث اختيار الأم، وجمال التَّسمية، وحسن التّربية، وتعليم القرآن، وتأديبهم بآداب الإسلام، وقبول ميسورهم، والتَّجاوز عن معسورهم جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا تُقْسِروا أَوْلادَكُمْ عَلى آدابِكُمْ، فَإِنَّهُمْ مَخْلوقونَ لِزَمانٍ غَيْرِ زَمانِكُمْ**»[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**رَحِمَ اللهُ والِداً أَعانَ وَلَدَهُ عَلى الْبِرِّ**»[٣].

فالإحسان إذن لا بدّ أن يكون متبادلاً بين الآباء والأبناء، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**أَدِّبوا أَوْلادَكُمْ عَلى ثَلاثِ خِصالٍ: حُبِّ نَبِيِّكُمْ، وَحُبِّ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَعَلى قِراءَةِ الْقُرْآنِ**»[٤].

إنَّ الوالد بفطرته يحبّ أولاده، ويعمل على الحفاظ عليهم بجهده كلّه، فهم منه وليس العكس، وبعبارة أخرى الأبناء من الآباء فهم فلذّة أكبادهم، وليس الآباء من الأبناء؛ ولذلك فإنَّ حنان الأب وعطفه أكثر من عطف الولد على أبيه؛ ولهذا تكرَّرت الوصايا بالآباء للأبناء.

والوصيّة الثّالثة عالجت مرضاً اجتماعيّاً خطيراً أصاب فطرة بعض النّاس، فحرّفتها عن مسارها في نفوس بعض أبناء الجزيرة العربيّة، وهي وأد البنات، وقتل

---

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٦٧/٢٠.

(٣) الفقه المنسوب إلى الإمام الرّضا عليه السلام: ٣٣٦.

(٤) السّيوطيّ، جامع الأحاديث: ١٣٤/١، ح/٧٨٢.

الأولاد خشية الإملاق، فجاء النَّصُّ بعلاج جذريّ حينما حدَّد السَّبب الكامن في النّفوس، وهو الخوف من الفقر، وأكَّد بأنَّ هذا التّصوّر نابع من سوء الظَّنّ بالله تعالى، ثمّ ضمن لهم أرزاق الأولاد وأرزاقهم، فليس رزق الأولاد بأيدي آبائهم، وإنَّما رزق الآباء والأبناء بيد الله تعالى ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[١]، وفي آية أخرى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[٢]، فإذا كان رزق الأولاد والآباء بيد الله تعالى مقدّر محتوم: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[٣]، فلماذا إذم يقدّم الإنسان على هذا الإجرام الَّذي يأباه الحيوان لنفسه؟!

وبعد هذا التّأكيد على البناء العائليّ السّليم جاءت الوصيّة الرّابعة؛ لتنشئ العائلة الزّكيّة والمجتمع الطّاهر، فنهت عن الاقتراب إلى الفواحش الظّاهرة والباطنة فضلاً عن الوقوع فيها، وهنا إشارة دقيقة فلم يقل تعالى: «لا تفعلوا الفواحش»، وإنّما قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ﴾، وهي بمثابة تشريع وقائيّ، وفي هذا تأصيلٌ لقانون التَّقوى، والتّحرّز، والحذر، والحيطة من الانزلاق والسّقوط في مستنقع الرَّذيلة، وهذا مصداق القول المأثور: «الوقاية خير من العلاج»، فإنَّ الاقتراب من الفواحش عمليّة تمهيد للوقوع فيها؛ ولذا حرَّم الإسلام النَّظرة المحرّمة، وحاسب عليها، وعدَّها شهاباً من شهب إبليس توقد نار الشَّهوات في النَّفس فابتسامة خبيثة بوجه فتاة أجنبيّة فخّ من فخاخ إبليس، تمهيداً لما هو أكبر منها، وصدق القائل: «نظرة، فابتسامة، فسلام، فكلام، فموعد، فلقاء»، فالإشارات

---

(١) الإسراء: ٣١.

(٢) الأنعام: ١٥١.

(٣) الذّاريات: ٢٢.

الخبيثة، والمواعيد السّرّيّة، واللّقاءات العبثيّة، والكلام المعسول شبّاك الشّياطين توقع الإنسان في فخاخهم، وقد اختلف المفسّرون في معنى الفواحش الظّاهرة، والأكثر قالوا إنّه الزّنا سواء كان سرّاً أو علناً، ففي الجزيرة العربية «كانوا لا يرون بالزّنا بأساً بالسّرّ، ويمنعون منه علانية»[1].

إنَّ الله تعالى أراد وقاية المجتمع من المعاصي والمنع عنها سواء عُملت سرّاً أو جهراً، فجميعها موبقات تدنّس النَّفس، وتفسد المجتمع، ثمّ عاد النَّصّ الكريم مرّة أخرى، فنهى عن القتل، والمقصود بالقتل هنا أعمّ من قتل الأولاد، وهو إزهاق النّفوس البريئة المحترمة، وقد عدَّ الإسلام قتل نفس واحدة بغير حقّ تعدل عند الله قتل النّاس جميعاً؛ لأنَّها اعتداء على حرمة الإنسانيّة، وخروج من عالم الإنسانيّة المُكَرّمة إلى عالم الغاب المتوحّش:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[2].

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[3].

وعدَّ القاتل متمرّداً على الله والإنسانيّة وخارج عنها عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**وُجِدَ في ذُؤابَةِ سَيْفِ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله صَحيفَةٌ فَإذا فيها مَكْتوبٌ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ إنَّ أَعْتى النّاسِ عَلى اللهِ يَوْمَ الْقيامَةِ مَنْ قَتَلَ غَيْرَ قاتِلِه،**

(١) الشّيخ الطّوسيّ، التّبيان في تفسير القرآن: ٣١٥/٤.

(٢) المائدة: ٣٢.

(٣) النّساء: ٩٣.

وضرب غيْر ضاربه»(١).

ولا يتوقّف القتل على القتل البدنيّ وإزهاق الرّوح، وإنّما عدّ الإضلال عن الصّراط المستقيم قتلاً، وقد يكون أكبر من قتل الأبدان، فإنَّ من أضلَّ شخصاً أو أمّة، فأخرجها عن جادّة الصّواب، فقد قتلها قتلاً أفظع من إزهاق الأرواح، وإراقة الدّماء، وأشدّ خطراً على المجتمع إذ أوجد جرثومة خطرة تفتك في جسم الأمّة، ولا تتوقّف عند حدّ، وقد رأينا كم جرّت الأفكار الإلحاديّة، والمذاهب الماديّة من مآسٍ على البشريّة؟ فهذا أفظع، وأشنع، وأكثر ضرراً من قتل النّفوس، وإراقة الدّماء؛ لأنّه (قتل لا ينجبر)، فقد روى الإمام العسكريّ عليه السلام، عن عليّ بن الحسين عليهما السلام: **«عبادَ الله، هذا قصاص قَتْلكُمْ لمَنْ تقْتُلونَهُ في الدُّنْيا، وتَفْنونَ روحَهُ، أوَلا أُنَبِّئُكُمْ بأَعْظَم منْ هذا الْقَتْل، وما يوجبُ [اللهُ] على قاتله ممّا هوَ أَعْظَمُ منْ هذا الْقصاص؟ قالوا: بلى، يا ابْنَ رَسول الله، قالَ: أَعْظَمُ منْ هذا الْقَتْل أَنْ تَقْتُلَهُ قَتْلاً لا يَنْجَبر، ولا يَحْيى بَعْدَهُ أَبَداً، قالوا: ما هوَ؟ قال: أَنْ تضلَّهُ عَنْ نُبوَّة مُحَمَّد، وَعَنْ ولايَة عَليِّ بْن أَبي طالب صَلَواتُ الله عَلَيْهما، وتَسْلُكُ به غَيْرَ سَبيل الله، وتُغْريه باتِّباع طَريق أَعْداء عَليٍّ عليه السلام، وَالْقَوْلُ بإمامَتهمْ، وَدَفْع عَليٍّ عَنْ حَقِّه، وجحدَ فَضْلَهُ، ولَا تُبالي بإعْطائه واجبَ تَعْظيمه، فهذا هوَ الْقَتْلُ الَّذي هوَ تَخْليد هذا الْمَقْتول في نار جهَنَّم، خالداً مُخَلَّداً أَبَداً، فَجَزاءُ هذا الْقَتْل مثْلُ ذلكَ الْخُلود في نار جهَنَّم»**(٢).

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٩٤/٤، ح/٥١٥٨.

(٢) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٥٩٥-٥٩٦، ح/٣٥٥؛ وبحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٢٣/٢.

وبعد هذه الوصايا الخمسة ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾... ولعلَّ المقصود أنَّ اجتناب هذه المحرّمات تحتاج إلى تعقّل، وتفكّر، وتدبّر في أسبابها، ودوافعها، وعواقبها، وما ينجم عنها من آثار خطيرة في مآل الإنسان، ومصيره في الدُّنيا والآخرة، وهذه هي مهمّة العقل الَّذي به يثاب الإنسان، وعليه يعاقب.

ثمَّ تأتي الوصية السّادسة بلزوم عدم الاقتراب من مال اليتيم وعدم استغلال ضعفه وصغره لأكل أمواله، بل الواجب الإلهيّ، والحقّ الإنسانيّ الإحسان إليه بحفظ أمواله إلى أن يبلغ سنّ الرُّشد، ويكون قادراً على حسن التّصرّف في ماله، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ...﴾ نقطة حمراء تشير إلى فظاعة أكل مال اليتيم، وتحذير للنّفس من الانجرار وراء زخارف المال وبهارجه، وقطع لخداع النّفس الأمّارة بالسّوء؛ لئلا تجرّ صاحبها إلى التّبرير واستغلال تلك الأموال لمصالحه الخاصّة ومآربه الذّاتيّة.

فضلاً عن ذلك فقد جاء الوعيد مغلّظاً شديداً مرعباً - يهزّ أوتار القلب- لمن يأكل أموال اليتامى بغير الحقّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(١).

ورد عن الحلبيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام: «**إنَّ في كتاب عَلِيِّ بْن أَبِي طالب عليه السلام: إنَّ آكلَ مال الْيتيم ظُلْماً سَيُدْرِكُه وَبالُ ذلك في عَقبه منْ بَعْده، ويَلْحَقه وَبالُ ذلكَ [في الآخرَة]. أمّا في الدُّنيا فَإنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ**

---

(١) النّساء: ١٠.

﴿لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ الآية[١]، وأَمّا في الآخرة فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٢]»[٣].

ثمّ تأتي الوصيّة السّابعة بوجوب اجتناب التّطفيف في الميزان والمكيال، وعدم بخس النّاس أموالهم، وهنا يهدف الإسلام إيجاد المجتمع الفاضل العادل الّذي لا يظلم النّاس في سلب أموالهم، وأوعد المطفّفين بالويل والثّبور بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٤].

وهكذا يربط الإسلام بين العقيدة الإلهيّة، ونظام المعاملات التّجاريّة، والتّبادل الاقتصاديّ، ثمّ في الآية المتقدّمة بيان لسبب الجرأة على التّطفيف، وهو نسيان البعث والنّشور بين يديّ ربّ العالمين، فلو كان الإنسان يعتقد يقيناً بأنّه مبعوث ومحاسب على بخس النّاس أموالهم، وأكلها ظلماً لما وقع في هذا الفعل الشّنيع؛ ولهذا جاء الاستفهام استنكاريّاً: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، وقد أهلك الله أقواماً في غابر الزّمن؛ لتطفيفهم في الميزان بعد أن أنذرهم رسلهم، ولم يطيعوا، ولم يمتثلوا... كقوم شُعيب وقوم هود، إنَّ الأوامر الإلهيّة صريحة واضحة

---

(١) النّساء: ٩.

(٢) النّساء: ١٠.

(٣) تفسير العيّاشيّ: ٣٧٢/١، ح/٨٨١؛ وينظر: كتاب من لا يحضره الفقيه للشّيخ الصّدوق: ١٧٣/٣، ح/٣٦٥٢.

(٤) المطفّفين: ١-٦.

في وجوب القسط في الميزان والمكيال، يقول تعالى عن لسان شعيب عليه السلام:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۞ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1].

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[2].

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۞ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۞ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[3].

أمّا الوصيّة الثّامنة؛ فهي العدل، وعدم التّحيّز إلى أحد على حساب آخر لقربى أو رحميّة، أو مصلحيّة... بالنّطق بغير الحقّ، بل الواجب ملازمة العدالة في القول، وعدم الانجرار وراء الاعتبارات الذّاتيّة، فالقول بالعدل والحقّ والإنصاف واجب إسلاميّ يجب أن يبرز في شخصيّة المؤمن، وفي الحديث الشّريف: «**قُلِ الْحَقَّ وَلَوْ عَلى نَفْسِكَ**»[4].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ خَيْرَ النّاسِ عِنْدَ الله عَزَّ وَجَلَّ... أَقْوَلُهُمْ بِالْحَقِّ وَلَوْ كانَ مُرّاً، فَإِنَّ الْحَقَّ بِه قامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ**»[5].

وعن الإمام الصّادق عليه السلام أنَّه قال لولده موسى عليه السلام: «**يا بُنَيَّ، قُلِ الْحَقَّ**

(١) هود: ٨٤-٨٥.

(٢) الإسراء: ٣٥.

(٣) الشّعراء: ١٨١-١٨٣.

(٤) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ١٧١/٧٧.

(٥) ابن مزاحم المنقريّ، وقعة صفّين: ١٠٦.

لَكَ وَعَلَيْكَ تُسْتَشار مِنْ بَيْنِ أَقْرانِكَ»[١]؛ لأنَّ ذلك صفة إيمانية لا يمكن أن يحيد عنها المؤمن إلا في حالات معيّنة حدَّدها الشّارع المقدّس، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**عَلامَةُ الإيمانِ أَنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ»**[٢].

ثمّ الوصيّة التّاسعة: وهي الوفاء بالعهد، فالعهد هو ميثاق يلزم الإنسان به نفسه مع طرف لمصلحة معيّنة، وهو قسمان مترابطان متلازمان عهد الإنسان مع الله سبحانه وتعالى، وعهده مع النّاس.

أمّا العهد مع الله تعالى، فهو الميثاق الفطريّ الَّذي أودعه الله تعالى في كيان الإنسان، وألزمه به منذ خلقه قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ**﴾[٣].

وهذا «الميثاق عهد، أو عقد مؤكّد بين الله تعالى، وبين الإنسان يلزم الإنسان بالطّاعة، والانقياد، والتَّسليم لله بأنَّه مخلوق، ومكوّن من قبل الله، ومسؤول، ومحاسب عن كل ما أُمِرَ به ونُهي عنه، وإليه المصير، وهذه هي العلاقة التّكوينيّة، والعلاقة الأخرى هي العلاقة التَّشريعيّة، وبها يرتبط الإنسان بالله من حيث الالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه، وبعبارة أخرى هو الخضوع والتَّسليم، والانقياد المطلق لحاكميّة الله عزَّ وجلَّ»[٤].

---

(١) الأربليّ، كشف الغمّة: ٢٠٤/٣.

(٢) نهج البلاغة: ٥٦٠، قصار الحكم: ٤٤٦.

(٣) الأعراف: ١٧٢.

(٤) مقطع من محاضرة لأستاذنا آية الله الشّيخ محمّد مهدي الآصفيّ رحمه الله.

ونقض هذا الميثاق عبارة عن التّمرّد على حاكميّة الله عزَّ وجلَّ من خلال المعاصي والآثام الَّتي يرتكبها الإنسان، أو الخضوع والالتزام بغير ما شرَّعه، والتّعبّد بها، وهذا من أظهر مظاهر نقض الميثاق، وإن كان هناك مظاهر أخرى...

وإنَّ الالتزام بالعهد مسؤوليّة إلهيّة يحاسب الإنسان عليها، يقول تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾[1].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2].

وتأكيداً لهذا العهد وجدنا أنَّ الشّارع المقدّس يلزم الإنسان بالشَّهادة لله في أشرف الفرائض، وعماد الدّين، وهي الصّلاة تسع مرات على نحو الوجوب بإلزام وجوبي: «**أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَ الله**»، وهي أصدق عهد يقطعه الإنسان على نفسه، ويعترف به بين يديه تعالى بالوحدانيّة والعبوديّة لله عزَّ وجلَّ، وهي المصداق الواقعيّ الحقيقيّ للطّاعة والتَّسليم والانقياد.

والوصيّة العاشرة: وهي جامعة لكلّ الوصايا الأخرى المتقدّمة، وهي الثَّبات والاستقامة على صراط الله المستقيم، وهذه هي ثمرة الالتزام بتلك الوصايا الأخرى، وبرفض السَّير في كلّ السّبل غير سبيل الله عزَّ وجلَّ.

فسبيل الله تعالى هو السَّبيل الوحيد الَّذي يوحّد الصّفوف، ويجمع القلوب، ويوجّه النّاس إلى حيث الرّشاد والسَّعادة، وأمّا السّبل الأخرى فهي نتاج الأهواء المختلفة، ولا شكَّ أنَّ ذلك يؤدّي إلى التّفرّق، وتمزيق وحدة الأمّة، ويوجد

---

(١) الإسراء: ٣٤.

(٢) آل عمران: ٧٧.

الخلاف والاختلاف، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

وعن ابن مسعود قال: «خطَّ رسول الله ﷺ خطّاً بيده، ثمّ قال: **هذا سَبيلُ الله مُسْتَقيماً**، ثمَّ خطَّ عن يمينه وشماله، ثمّ قال: **هذه السُّبلُ، لَيْسَ مِنْها سَبيلٌ إلا عَلَيْه شَيْطانٌ يَدْعو إلَيْه**، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾»[٢].

وعن عاصم، عن زر، عن عبد الله، قال: «خطَّ رسول الله ﷺ خطّاً وخطَّ عن يمين ذلك الخط، وعن شماله خطّاً، ثمَّ قال: **هذا صِراطُ ربِّكَ مُسْتَقيماً، وَهذه السُّبُلُ، عَلى كُلِّ سَبيلٍ مِنْها شَيْطانٌ يَدْعو إلَيْه**، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾»[٣].

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤٣٦/٧، ح/٤٤٣٧؛ والدّرّ المنثور للسّيوطيّ: ٢٥٩/٦.

(٣) الحاكم النّيسابوري، المستدرك على الصَّحيحين: ٢٦١/٢، ح/٢٩٣٨.

طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ

الدَّوْرُ الْمُتَبادَلُ بَيْنَ الْعِلْمِ والدّيـنِ:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

يكاد المفسّرون يجمعون على أنَّ هذه السّورة هي أوّل سورة نزلت على الرّسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وفيها تذكير للمؤمنين والمسلمين بنعمتين عظيمتين هي من أفضل نعم الله على الإنسان، هي نعمة الخَلق والإيجاد، ونعمة التّعلّم، والتّعليم بالقلم؛ وهذا بحدّ ذاته بيان للحثّ على العلم والتّعلّم، وتأكيدٌ لأهمّيّة طلب العلم في تقويم شخصيّة الفرد، وإصلاح المجتمع، وتأسيس الدّولة، وإقامة القسط والعدل؛ فالعلم عصب الحياة في الفكر الإسلاميّ نظريّاً وعمليّاً، ومن هنا أقسم تعالى بالقلم، وما يُسَطّرْ به من علوم ومعارف ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[2]، وهي إشارة دقيقة إلى أنَّ قيام الحضارات، وتقدّم الشُّعوب والأمم، ونهوضها في الإصلاح، والتّغيير في جميع نواحي الحياة لا يمكن أن يتمّ إلا بالقلم، فالقلم هو الرّمز المقدّس الَّذي به تنقل العلوم والمعارف من جيل إلى جيل إلى يوم القيامة،

---

(١) العلق: ١-٥.

(٢) القلم: ١.

«**قيِّدوا الْعِلْمَ بالْكِتابَة**»[١].

وعن أبي بصير، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **اكْتُبوا؛ فَإِنَّكُمْ لا تَحْفَظونَ حتّى تَكْتُبوا**»[٢].

وعنه عليه السلام قال: «**احْتَفظوا بكُتُبِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ سَوْفَ تَحْتاجونَ إِلَيْها**»[٣].

وعن المفضّل بن عمر قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **اكْتُبْ، وبُثَّ عِلْمَكَ في إخْوانك، فَإِنْ متَّ فَأَوْرِثْ كُتُبَكَ بَنيكَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتي عَلى النّاسِ زَمانُ هَرَجٍ لا يَأْنَسونَ إلا بكُتُبِهِمْ**»[٤].

واللافت للنّظر أنَّ أوّل آية نزلت من كتاب الله تأمر بالقراءة، وتعظّم القلم، نزلت في بيئة ليس فيه شيء أبور من العلم، ولا أقلّ قيمة من القلم، فعلى مساحة الجزيرة العربيّة لا يوجد من يجيد القراءة والكتابة أكثر من عشرين نفراً، وتنزل على رجل من وسطهم وبيئتهم منذ طفولته إلى بعثته، وهم يعلمون أنَّه لا يقرأ ولا يكتب، وهكذا نتوصّل إلى استنتاج مهمّ، وهو أنَّ إصلاح الإنسانيّة، ونهضة المجتمعات، وقيام الحضارات لا يتمّ إلا بالقلم الَّذي هو منطلق العلم، ومن هنا يتّضح لنا أنَّ «**طَلَبَ الْعِلْمِ فَريضَةٌ عَلى كُلِّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمَة**»[٥]، وإنَّ هذا الفرض ليؤكّد أنَّ العلمَ قرينُ الدِّين، وإنَّ ديناً لا يدعمه العلم، ولا ينطلق منه لهو دين جهل، وخرافة، وأساطير؛ فالعلم والدّين في الإسلام قرينان متلازمان لا ينفكّ

---

(١) الدّيلميّ، أعلام الدّين في صفات المؤمنين: ٨٢

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١/١٢٩، ح/١٥١.

(٣) المصدر نفسه: ح/١٥٢.

(٤) المصدر نفسه: ١/١٣٠، ح/١٥٣.

(٥) كنز الفوائد لأبي الفتح الكراجكيّ: ٢/١٠٧؛ مشكاة الأنوار للشّيخ عليّ الطّبرسيّ: ١/٣٠١، ح/٦٨١؛ عدّة الدّاعي ونجاح السّاعي لابن فهد الحلّيّ: ٨٧

أحدهما عن الآخر، فالعلم إذا انفصل عن الدّين أصبح ناراً محرقة لجميع جوانب الحياة؛ لأنَّه يعطي للإنسان سلطة المعرفة الّتي تدفع الإنسان إلى الغرور، والسَّيطرة، والاستعلاء، والاستعباد للآخرين؛ ولذا جميع الكوارث والحروب الّتي مرَّت على الشُّعوب كانت من توفّر (العلوم التّكنولوجيّة) في يَدَيّ من لا دين لهم، فأصبح العلم وسيلة للتّدمير، الّذي عبَّر عنه الفيلسوف الأميركيّ ول ديورانت بقوله:

«ثمّ جاء الجنون الأكبر Great Madness، واكتشف النّاس كم كان رداء الحضارة رقيقاً، وإلى أيّ حدّ كان أمنهم قلقاً، وحرّيّتهم مزعزعة الأركان، لقد قلَّ عدد الحروب، ولكنّها ازدادت انتشاراً، أمّا العلم الّذي كان عليه أن يكون سبيل التّقدّم، فقد أصبح ملك الموت الّذي بلغ من سرعة إصابته مقاتل النّاس ما يجعل معارك العصر الوسيط أشبه بمباريات المدارس الرّياضيّة، وألقى الطّيّارون البواسل القنابل على النّساء والأطفال، وشرح علماء الكيمياء فضائل الغازات السّامّة، وتبدّدت جميع الصّداقات الدّوليّة الّتي قامت خلال قرن نقل المترجمون فيه الآداب، وتعاون العلماء، وتوثّقت الصّلات التّجاريّة، وتداخلت العلاقات الماليّة»[(١)].

وهكذا أصبح طغاة العالم يهدّدون العالم بالدّمار والفناء، وما حدث من كوارث على البشريّة أجمع في الحربين الأولى والثّانية إلا نتيجة امتلاك الحكّام الطّواغيت للعلوم التّكنولوجيّة، وما أفرزته من آلة حربيّة مدمّرة، ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[(٢)]، وخير دليل على ذلك: المآسي الّتي جرَت على البشريّة خلال هاتين الحربين العالميّتين، وما تركت من آثار سلبيّة، لا لشيء إلا لإشباع

---

(١) ول ديورانت، مباهج الفلسفة: ٢/٧٠-٧١.

(٢) العلق: ٦-٧.

غريزة السَّيطرة، وطغيان الغرب بما يمتلك من أسلحة مدمّرة، وبنظرة سريعة لأحداث هاتين الحربين يتّضح خطورة انفصال العلم عن الدّين السَّليم، وإليك بعض الأمثلة:

«استمرَّت الحرب العالميّة الأولى ١٥٦٥ يوماً، والّذين قُتلوا في ميادين الحرب يبلغون أكثر من تسعة ملايين نفراً، وعدد الجرحى المعوّقين فيها حدود العشرين مليوناً، وعدد المفقودين فيها أكثر من خمسة ملايين، وخسائر المدن أكثر من مجموع الخسائر في النّفوس والأرواح في سوح القتال، وقد خمّنوا مصاريف هذه الحرب بأربعمائة مليون دولاراً، ووفقاً لمحاسبة «مؤسّسة الأوقاف للسّلام العالميّ لدايل كارنيجي» كان من الممكن أن يُبنى بهذه المصاريف لكلّ من عوائل بريطانيا، وإيرلندا، واسكتلندا، وأمريكا، وروسيا، وألمانيا، وكندا، وأُستراليا، والبلجيك دوراً محترمة مع تجهيزها بما يكفيها من أثاث المنزل»[1].

وفي الحرب العالميّة الثّانية «كان القتلى خمساً وثلاثين مليوناً، وحُرم عشرون مليوناً من الأيدي والأرجل، وسفك على الأرض سبعة عشر مليون ليتراً من الدّماء، وأصيبت عوائل البشرية باثني عشر مليوناً من سقط الجنين، وتهدّم في هذه الحرب ثلاث عشرة مليون مدرسة ابتدائيّة وثانويّة، وستّة آلاف مختبر علميّ، وانفجر ثلاثمائة وتسعون ملياراً من القذائف، والقنابل في الفضاء، وفي سنة ١٩٤٥م قُذفت قنبلتان صغيرتان من قبل الأمريكان في حربها مع اليابان، إحداهما على مدينة «هيروشيما»، والأُخرى بعد ثلاثة أيّام على مدينة «ناكازاكي»، فانعدم في هيروشيما سبعون ألف نفر رأساً، وجُرح سبعون ألفاً آخرون، وفي مدينة ناكازاكي قتل أربعون ألف نفر، وجرح نفس العدد. تهدّمت الدّور، وذهب كثير من الأطفال

---

(١) السّيّد مجتبى الموسويّ اللاريّ، الإسلام والحضارة الغربيّة: ٧٦.

والبهائم ضحايا لهذه الفاجعة، وبعد خمسة أيّام استسلمت اليابان أمام الأمريكان بلا أيّ شرط»[١].

«وإنَّ القنبلة الّتي أُسقطت في سنة ١٩٤٥م على هيروشيما وناكازاكي كان فيها ٢٣٥ وحدة يورانيوم، و٢٢٣ وحدة پلوتونيوم، و٣٣٥ ألف من المواد المتفجّرة «T.N.T» بينما القنبلة الذّريّة العاديّة اليوم أقوى من القنبلة الّتي أُسقطت على هيروشيما بخمسة آلاف مرّة! والقنبلة الهايدروجينيّة أقوى من القنبلة الذّريّة بخمسة ملايين مرّة! وإنَّ قنبلةً ذريّةً واحدةً تكفي لتجعل مدن نيويورك، وباريس، ولندن، وموسكو متساوية مع التّراب، ولا حاجة لنقل القنبلة أن يعبر بالطّائرة الحاملة لها جنديٌ فدائيٌ من الخطوط الدّفاعيّة للعدوّ، بل من الممكن أن يقذفوا بالقنبلة بالصّواريخ الأتوماتيكيّة حتّى ألفي ميل! وكلّ تجربة نوويّة تؤثّر في مسافة تقرب من سبعة آلاف ميل»[٢].

وأكّدت الإحصائيّات أنَّ حروب أوربّا وأمريكا خلال سبعين سنة الأخيرة من القرن العشرين أكثر من كلّ الجرائم الّتي وقعت في تأريخ البشريّة المليء بالمجريات والحوادث.

هذه هي نتيجة فصل الدّين عن العلم: طغيان، واستعباد، وامتصاص لدماء الشّعوب، وبالتّالي دمار وفناء للبشريّة؛ ولهذا راحوا يشيعون أنَّ الدّين والعلم لا يلتقيان بحال، وإذا صحَّ هذا في الأديان السّماويّة المحرّفة، والأديان الوضعيّة ففي الإسلام لا يصحّ؛ لأنَّ القرآن، والسّنّة، وسيرة العلماء على طول التّأريخ تؤكّد تلازم العلم والدّين، ولا يمكن انفصامهما، فأكثر النّظريّات الحديثة في علم الفلك، وعلم

(١) الإسلام والحضارة الغربيّة: ٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ٧٧-٧٨.

الفسلجة، والعلوم البايلوجيّة وغيرها، أصبحت أدلّة قاطعة على صحّة الإيمان بالله تعالى، ورسله، وإذا أردنا بيان الدّور المتبادل بين العلم والدّين، نقول: فالعلم يكتشف الطّاقة المخزونة في الطَّبيعة، والدّين يوجّهها، ويُرَشّد استعمالها، فلو أخضعت هذه الاكتشافات، والنَّتائج الحاصلة منها لأحكام الدّين لما جرت ما جرت على البشريّة، وبالتّالي إذا أرادت الحضارة القائمة اليوم حفظ منجزاتها العظيمة يجب أن تخضعها لأحكام الدّين الإسلاميّ الأصيل، وتطبيق أحكامه، وإلا ستصبح تلك المنجزات منطلق دمار لو وقعت مفاتيح خزائن الأسلحة الذّرّيّة بيد مصاب بجنون العظمة كهتلر، وماسولين، وستالين، وصدّام، فماذا ستكون النَّتيجة؟

والإسلام عندما دعا إلى طلب العلم لم يقتصر في دعوته على المعارف العقائديّة والأحكام الشّرعيّة، بل شملت دعوته جميع العلوم الإنسانيّة الأخرى كعلم النَّفس، والأخلاق، والفلك، وعلوم الآثار، وعلوم الأبدان كعلم الطّبّ، ودعا إلى علوم الكيمياء الَّتي لها الدّور الأساسيّ في اكتشاف العناصر المكوّنة للكون، وبدء الخليقة، ولم ينهَ الإسلام عن علم من العلوم إلا السّحر، والشّعوذة، والكهانة، وأبدع العلماء المسلمون في علوم الرّياضيّات، والطّبّ، والفلك وغيرها من العلوم، وبحثنا يقع حول طلب العلوم الشّرعيّة من حيث جاء الحثُّ عليها متواصلاً من الشّارع المقدّس كتاباً، وسنّةً، ومن حيث أهدافها، وآثارها في بناء الشّخصيّة الرّساليّة.

في فَضْلِ طَلَبِ الْعِلْمِ:

كما أكّد الاسلامُ على أهمّيّة طلب العلم أكَّد فضل طالبه من خلال بيان ثوابه في الدُّنيا والآخرة جاء ذلك في آيات كريمة وأحاديث شريفة تخرج عن

حدّ الإحصاء نذكر منها تبرّكاً:

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾(١).

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾(٢).

فتمثيل العلم بالبصر والجهل بالعمى له دلالة عظيمة وأهمّية كبرى لبيان دور العلم وأهمّيّته في حياة الإنسان، فلا يمكن أن يعيش الإنسان بسعادة إذا لم يكن بصيراً يبصر ما يحيط به، ويعرف ما يريد وما يراد منه؛ ليتصرّف بحكمة ودراية، ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣).

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾(٤).

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(٥).

وأمّا الأحاديث الواردة عن الرّسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه، فخارجة عن حدّ الإحصاء، نذكر منها ما أورده الشّهيد الثّاني في منية المريد(٦):

قال صلى الله عليه وآله: **«طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلى كُلِّ مُسْلِمٍ».**

وقال صلى الله عليه وآله: **«مَنْ طَلَبَ عِلْماً، فَأَدْرَكَهُ كَتَبَ اللهُ لَهُ كِفْلَيْنِ مِنَ الأَجْرِ، وَمَنْ طَلَبَ عِلْماً فَلَمْ يُدْرِكْهُ كَتَبَ اللهُ لَهُ كِفْلاً مِنَ الأَجْرِ».**

---

(١) الزّمر: ٩.

(٢) الرّعد: ١٩.

(٣) الملك: ٢٢.

(٤) البقرة: ٢٦٩.

(٥) فاطر: ٢٨.

(٦) تنظر الأحاديث الشّريفة في منية المريد للشّهيد الثّاني: ٩٩-١٠٠.

وقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إلى عُتَقاء الله من النّار فَلْيَنْظُرْ إلى الْمُتَعَلِّمين، فوالَّذي نَفْسي بيَده ما منْ مُتَعَلِّم يَخْتَلفُ إلى باب الْعالم إلا كَتَبَ اللهُ لَهُ بكُلِّ قَدم عبادَةَ سنَة، وبنى اللهُ لَهُ بكُلِّ قَدم مدينَةً في الْجَنَّة، ويَمْشي عَلى الأَرْض وهي تَسْتَغْفرُ لَهُ، ويمْسي ويُصْبِحُ مَغْفوراً لَهُ، وشَهدت الْمَلائكَةُ أَنَّهُمْ عُتَقاءُ الله من النّار».

وقال ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الْعلْمَ، فَهُوَ كَالصّائم نَهارَهُ، الْقائم لَيْلَهُ، وَإنَّ باباً منَ الْعلْم يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ منْ أَنْ يَكونَ أَبو قُبَيْس ذَهَباً، فَأَنْفَقَهُ في سَبيل الله».

وقال ﷺ: «مَنْ جاءَهُ الْمَوْتُ، وَهُوَ يَطْلُبُ الْعلْمَ؛ لَيُحْيِيَ به الإسْلامَ، كانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَنْبياء دَرَجَةً واحدَةً في الْجَنَّة».

وفَضَّل الإسلامُ العالمَ العاملَ على العابد المنقطع للعبادة بدرجات كبيرة، قال ﷺ: «فَضْلُ الْعالم عَلى الْعابد سَبْعونَ دَرَجَةً، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْن حُضْرُ الْفَرَس[1] سَبْعينَ عاماً؛ وذلكَ لأَنَّ الشَّيْطانَ يَضَعُ الْبدْعَةَ للنّاس، فَيُبْصرُها الْعالمُ فَيُزيلُها، وَالْعابدُ يُقْبلُ عَلى عبادَته».

أَهْدافُ طَلَبِ الْعِلْمِ:

يختلف طلب العلم باختلاف الأهداف المرجوّة لطلبه، فمن النّاس من يطلب العلم حبّاً في الظُّهور، والتّقدّم، ونيل المراتب العليا، والألقاب الرّنّانة الّتي تمنح الإنسان مكانة اجتماعيّة رفيعة، ولا شيء بعد ذلك، وهؤلاء هم الّذين يطلبون العلم للدُّنيا، ومنهم من يطلبه للمراء والجدال، والتّفوّق على الأقران، والبروز في

(١) حُضر الفرس: ارتفاعه في عدوه.

حلبات البحث العلميّ، ومنهم من يطلب العلم للعمل به، فيرتقي سلّم الكمال الإيمانيّ العلميّ والعمليّ، وهؤلاء هم الَّذين يطلبون العلم لله تعالى، وهم الَّذين فازوا بدعاء الإمام الرّضا عليه السلام، فعن عبد السّلام بن صالح الهرويّ، قال: «سمعْتُ أبا الحسن الرّضا عليه السلام، يقول: **رَحمَ اللهُ عَبْداً أَحْيا أَمْرَنا**، فقلت له: فكيف يحيي أمركم؟ قال: **يَتَعَلَّمُ عُلومَنا ويُعَلِّمُها النّاسَ، فَإنَّ النّاسَ لَوْ عَلموا مَحاسِنَ كَلامِنا لاتَّبَعونا**»(١).

إذن من أهداف طلب العلم تَعلّماً وتعليماً هو إحياء الإسلام بنشره، وتبليغه للنّاس، وهذا ما أشار إليه الحديث المتقدّم: « **مَنْ جاءَهُ الْمَوْتُ، وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ؛ لِيُحْيِيَ بِهِ الإِسْلامَ...**»، وبذلك تتكامل شخصيّة الإنسان بكسب العلم، والعمل به، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَيُّها النّاسُ، اعْلَموا أَنَّ كَمالَ الدّينِ طَلَبُ الْعِلْمِ، وَالْعَمَلُ بِهِ، أَلا وَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ أَوْجَبُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِ الْمالِ، إِنَّ الْمالَ مَقْسومٌ مَضْمونٌ لَكُمْ، قَدْ قَسَمَهُ عادِلٌ بَيْنَكُمْ، وَضَمِنَهُ، وَسَيَفي لَكُمْ، وَالْعِلْمُ مَخْزونٌ عِنْدَ أَهْلِهِ، وَقَدْ أُمِرْتُمْ بِطَلَبِهِ مِنْ أَهْلِهِ، فَاطْلُبوهُ**»(٢).

طَلَبُ الْعِلْمِ وَسيلَةٌ لِلتَّفَقُّهِ:

طلب العلم لم يكن غاية لذاته، وإنّما وسيلة للتّفقّه بالدّين، والتّفقّه هو التّبصّر والوعي لرسالة الله أصولاً وفروعاً، عقيدةً ونظاماً، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

(١) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ١٨٠.

(٢) الكافي: ٧٣/١، ح/٤٠.

﴿يَحْذَرُونَ﴾[(١)].

وقد قال المولى المازندرانيّ في شرحه على الحديث الشّريف: «**إذا أَرادَ اللهُ بعَبْد خَيْراً فقَّهَهُ في الدّين**»[(٢)]، قال قُدِّسَ سِرُّهُ: «قال شيخ العارفين بهاء الملّة والدّين: ليس المراد بالفقه الفهم، ولا العلم بالأحكام الشّرعيّة العمليّة عن أدلّتها التّفصيليّة؛ فإنَّه معنى مستحدث، بل المراد به البصيرة في أمر الدّين، والفقه أكثر ما يأتي في الحديث بهذا المعنى، والفقيه هو صاحب هذه البصيرة، وإليها أشار النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بقوله: «**لا يَفْقَهُ الْعَبْدُ كُلَّ الْفقْه حتّى يَمْقُتَ النّاسَ في ذات الله، ويَرى للْقُرْآن وُجوهاً كَثيرَةً، ثُمَّ يُقْبلُ عَلى نَفْسه، فَيَكونَ لَها أَشَدَّ مَقْتاً**»، ثمّ هذه البصيرة إمّا موهبيّة، وهي الّتي دعا بها النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أرسله إلى اليمن بقوله: «**اللّهُمَّ، فَقِّهْهُ في الدّين**»، أو كسبيّة، وهي الّتي أشار إليها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال لولده الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وتَفَقَّهْ يا بُنَيَّ في الدّين**...»[(٣)].

ولكنَّ الشّيخ الطّريحيّ قُدِّسَ سِرُّهُ أشكل على هؤلاء الشّارحين بغموض هذا البيان، فقال: «وقد تكرر في الحديث (الأمر بالتّفقّه في دين الله)، والمراد به على ما قرّره بعض الشّارحين: هو أنَّ سائر الأفعال الَّتي أوجبها الله تعالى كالوضوء، والغسل، والصّلاة، والصَّوم، والحجّ، والزَّكاة، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر يجب على الخلق طلب العلم بها؛ وأمّا الأحكام الشّرعيّة الوضعيّة كحكم الشّكّ في عدد الرَّكعات، وحكم من زاد على سجدة سهواً، وأحكام البيع، والميراث، والدّيات، والحدود، والقصاص، والاقتضائيّة الّتي هي تحريم بعض

(١) التّوبة: ١٢٢.

(٢) الكافي: ١/٧٧، ح/٤٩.

(٣) المولى محمّد صالح المازندرانيّ، شرح أصول الكافي: ٢٩/٢.

الأفعال كحرمة الغيبة، وشرب الخمر، وغير ذلك فإنَّما يجب طلب العلم عند الحاجة إليها»[١].

فمعنى التّفقّه إذن هو التّبصّر في الدّين، والبصيرة هي: المعرفة القلبيّة الَّتي تنفذ إلى الوجدان، وتصبح قوّة محرّكة في مواجهة الشّبهات، والمشاكل، والمواقف الحرجة، وتحدّد الموقف السَّليم، قال العلامة شمس الدّين قُدِّسَ سِرُّهُ: «من المؤكّد أنَّ هذا التَّعبير مصطلحٌ ثقافيٌّ إسلاميٌّ يعني: الفئة الواعية للإسلام على الوجه الصَّحيح، والملتزمة به في حياتها بشكل دقيق، بحيث تتّخذ مواقف مبدئيّة من المشكلات الَّتي تواجهها في الحياة والمجتمع، ولا تقف على الحياد أمام هذه المشكلات، وإنَّما تعبّر عن التزامها النَّظريّ بالممارسة اليوميّة للنّضال ضدّ الانحرافات»[٢].

وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَإنَّما الْبَصيرُ مَنْ سَمعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأبْصرَ، وَانْتَفَعَ بالْعبَر، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً**[٣] **وَاضحاً يَتَجَنَّبُ فيه الصَّرْعَةَ في الْمَهاوي، وَالضَّلالَ في الْمَغاوي، وَلا يُعينُ عَلى نَفْسه الْغُواةَ بتَعَسُّف في حَقٍّ، أَوْ تَحْريف في نُطْق، أَوْ تَخَوُّف منْ صدْق، فَأَفقْ أَيُّها السّامعُ منْ سَكْرَتكَ، وَاسْتَيْقظْ منْ غَفْلَتكَ، وَاخْتَصرْ منْ عَجَلَتكَ، وَأَنْعم الْفكْرَ فيما جاءَكَ عَلى لسان النَّبيِّ الأُمّيِّ** صلى الله عليه وآله **ممّا لا بُدَّ منْهُ، وَلا مَحيصَ عَنْهُ، وَخالفْ مَنْ خالَفَ ذَلكَ إلى غَيْره، وَدَعْهُ وَما رَضيَ لنَفْسه، وَضَعْ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ كبْرَكَ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإنَّ عَلَيْه مَمَرَّكَ**»[٤].

---

(١) الشّيخ الطّريحيّ، مجمع البحرين: ٣٥٦/٦، (فقه).

(٢) الشَّيخ محمّد مهدي شمس الدّين، أنصار الحسين: ١٨٦، الهامش.

(٣) الجدد: الأرض الصّلبة.

(٤) نهج البلاغة: ٢٤٤، خطبة: ١٥٣.

وخلاصة الكلام: البصيرة هي القوّة المدركة لحقائق الأمور والواعية لأسرارها، والعارفة بتطبيقها، وكيفيّة بيانها بإخلاص ورويّة، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١).

وقال عليه السلام: «اعْقلوا الْخبر إذا سمعْتموهُ عقْل رعاية لا عقْل رواية؛ فإنَّ رُواة الْعلْم كثيرٌ، ورُعاته قليلٌ»(٢).

وقال عليه السلام: «أَلا أُخْبرُكُمْ بالْفَقيه حقِّ الْفقيه؟ منْ لمْ يُقنِّط النّاس منْ رحْمة الله، ولمْ يُؤْمنْهُمْ منْ عذاب الله، ولمْ يُرخِّصْ لهُمْ في معاصي الله، ولمْ يتْرك الْقرْآن رغْبةً عنْهُ إلى غيْره، ألا لا خيْر في علْم ليْس فيه تفهُّمٌ، ألا لا خيْر في قراءةٍ ليْس فيها تدبُّرٌ، ألا لا خيْر في عبادةٍ ليْس فيها تفكُّرٌ»(٣).

فالفقيه على هذا الأساس هو الَّذي وعى الإسلام بدقّة، وعرف أنَّ غرضه هداية النّاس إلى الله في سبل مخصوصة، وهي التَّرغيب والتَّرهيب، والوعد والوعيد، والبشارة والإنذار وغيرها، فإذا تحقّق فيه الفقاهة، فإنَّه لا يقنط النّاس من رحمة الله كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٥).

---

(١) يوسف: ١٠٨.

(٢) نهج البلاغة: ٥٠١، قصار الحكم: ٩٢.

(٣) الكافي: ١/٨٧ ح/٦٩.

(٤) الزّمر: ٥٣.

(٥) يوسف: ٨٧.

ولا يؤمنهم من مكر الله، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[(١)].

سِماتُ الْفَقيهِ الْبَصيرَةِ:

١- يفكّر في ما يستمع من كلام الله ورسوله من المواعظ البالغة.. ويعمل على صياغة نفسه صياغة ربّانيّة، ويسعى ليكون قدوة تذكّر النّاس بالله في قوله وفعله طلباً لمرضاة الله امتثالاً لقول المعصوم عليه السلام: «**كونوا دُعاةً للنّاس بغَيْرِ أَلْسنَتكُمْ؛ ليَرَوْا منْكُمُ الْوَرعَ وَالاجْتهادَ وَالصَّلاةَ وَالْخَيْرَ؛ فَإنَّ ذلكَ داعيَةٌ**»[(٢)].

٢- إنّه يتوخّى المقاصد النّافعة حين ينظر ببصيرته، ويتأمّل فيما يحيط به، ويشعر بمسؤوليّته عنها، ويعمل على إصلاح الواقع الفاسد ليغيّره إلى واقع سليم.

٣- إنَّه ينتفع بما يدركه من العبر، وذلك بالعمل على وفق ما علم وأدرك، وبعبارة أخرى: يعمل بما يعلم، ويصدّق قولُه فعلَه.

وقال الفيض الكاشانيّ: «فالتّفقّه في الدّين عبارة من تحصيل البصيرة في المسائل الدّينيّة علميّةً كانت أو عمليّةً باطنيّةً أو ظاهريّةً، متعلّقةً بالعبادات أو المعاملات، فرضاً معرفتها أو العمل بها، أو سنةً أو أدباً»[(٣)].

وقد لخَّص الشَّهيد الثّاني قدس سره معنى الفقه عن الله تعالى، فقال: «وليعلم مع ذلك أيضاً أنَّ مجرّد تعلّم هذه المسائل المدوّنة ليس هو الفقه عند الله تعالى، وإنَّما الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم الَّذي يورث الخوف،

(١) الأعراف: ٩٩.

(٢) الكافي: ٢٠٢/٣، ح/١٦٤١.

(٣) الفيض الكاشانيّ، الحقايق في محاسن الأخلاق: ٣٢.

والهيبة، والخشوع، ويحمل على التَّقوى، ومعرفة الصّفات المخوفة فيجتنبها، والمحمودة فيرتكبها، ويستشعر الخوف، ويستثير الحزن، كما نبَّه الله تعالى عليه في كتابه بقوله: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ**﴾(١)»(٢).

وهكذا يتّضح أنَّ التّفقّه في الدّين هو طريق الوصول إلى الكمال الإنسانيّ، كما ورد في الحديث الشَّريف عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «**الْكَمالُ كُلُّ الْكَمال: التَّفَقُّهُ في الدّين، والصَّبْرُ على النّائبَة، وتَقْديرُ الْمَعيشَة**»(٣).

ويؤكد العلماء أنَّ التّفقّه هذا يعني التّبصّر لا يحصل إلا بعناية إلهيّة خاصّة كما ورد في الحديث الشَّريف: «**إذا أَرادَ اللهُ بعَبْد خَيْراً فقَّهَهُ في الدّين**»(٤).

وفي نصّ آخر: «**مَنْ يُرِد اللهُ به خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدّين**»(٥).

ومن هنا جاء الحثُّ المتواصل على وجوب التّفقّه في الدّين في روايات أهل البيت عليهم السلام حدّ الاستفاضة، نذكر منها:

عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: «**تَفَقَّهوا في الدّين؛ فَإنَّهُ مَنْ لَمْ يَتفقَّهْ منْكُمْ في الدّين، فَهوَ أَعْرابيٌّ، إنَّ اللهَ تعالى يَقولُ في كتابه: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٦)**»(٧).

---

(١) التّوبة: ١٢٢.

(٢) منية المريد: ١٥٧.

(٣) الكافي: ٧٨/١، ح/٥٠.

(٤) المصدر نفسه: ٧٧/١، ح/٤٩.

(٥) منية المريد: ٩٩.

(٦) التّوبة: ١٢٢.

(٧) الكافي: ٧٤/١-٧٥، ح/٤٣.

وعنه عليه السلام: «**عَلَيْكُمْ بالتَّفقُّه في دين الله، ولا تكونوا أعْراباً؛ فإنَّه مَنْ لَمْ يَتَفَقَّهْ في دين الله، لَمْ يَنْظُر اللهُ إلَيْه يومَ الْقيامة، ولَمْ يُزكِّ لَهُ عملاً**»(١).

وعنه عليه السلام: «**لَوَدِدْتُ أنَّ أصْحابي ضُرِبَتْ رُؤوسُهُمْ بالسِّياطِ حتّى يَتَفَقَّهوا**»(٢).

وسأله عليه السلام رجل: «جُعِلْتُ فداك، رجل عَرَفَ هذا الأمر، لزم بيته، ولم يتعرّف إلى أحد من إخوانه؟»، فقال عليه السلام: «**كَيْفَ يَتَفَقَّهُ هذا في دينه؟!**»(٣).

والسِّرُّ في هذا التّأكيد على التّفقّه في الدّين؛ لأنّه وسيلةٌ للتّكامل النّفسيّ والعقليّ، العلميّ والعمليّ، فهو «مسلك العبوديّة، وأساس تنظيم شؤون الحياة الإنسانيّة في جميع أبعادها الفرديّة والاجتماعيّة، بل ما دام يتعاقب الجديدان تشتدّ عليه حاجة الإنسان بما هو إنسان»(٤).

أَصْنافُ طُلابِ الْعِلْمِ:

هناك أحاديث كثيرة حدَّدت أوصاف طالب العلم الإلهيّ، وأوضحت معالمه، وبيَّنت آثار طلب العلم على شخصيّته، ومن أروع الرّوايات في ذلك الرّواية الّتي قسَّمت طلاب العلم على قسمين، وهما: طلب لله تعالى، وطلب للدّنيا، فقد رُوِيَ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**قال رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: مَنْ طَلَبَ الْعلْمَ لله لَمْ يُصِبْ منْهُ باباً إلا ازْدادَ به في نَفْسه ذُلّاً، وفي النّاس تواضُعاً، ولله خَوْفاً، وفي الدّين اجْتهاداً، وذلكَ الّذي ينْتَفعُ بالْعلْمِ فلْيتعلَّمْهُ؛ ومَنْ طَلَبَ الْعلْمَ**

---

(١) الكافي: ١/٧٥، ح/٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ح/٤٥.

(٣) المصدر نفسه: ١/٧٥-٧٦، ح/٤٦.

(٤) الشّيخ مرتضى الحائريّ، خلل الصلاة وأحكامها: ٣.

للدُّنيا، والْمَنْزلَة عنْدَ النّاس، والْحظْوَة عنْدَ السُّلْطان لَمْ يُصبْ منْهُ باباً إلا ازْدادَ في نَفْسه عظَمَةً، وعلى النّاس اسْتطالَةً، وبالله اغْتراراً، ومن الدّين جفاءً، فذلكَ الَّذي لا ينْتَفعُ بالْعلْم، فلْيَكُفَّ، ولْيُمْسكْ عَنِ الْحجَّة على نَفْسه، والنَّدامَة، والْخزْي يومَ الْقيامَة»(١).

هذا نوع من التَّقسيم لطلاب العلم، وهو تقسيم مجمل يحدّد أهداف طالب العلم في طلبه إلا أنَّه يوضّح آثاره في بناء نوعيّة الشّخصيّة العلميّة، إذن يمكن القول أنَّ طلب العلم وسيلة للعمل؛ لأنَّ العلم في الإسلام للعمل، بل إنَّ جميع العلوم والمعارف عمليّة.

وهناك تقسيم آخر لطلاب العلم، ففي بعض الرّوايات جاء الطَّلب على ضوء الدّافع، والهدف، وكانت له آثار عمليّة برزت على شكل ظواهر سلوكيّة في شخصيّة الطّالب، من هذه الأحاديث ما ورد مرفوعاً إلى أبي عبد الله الصّادق عليه السلام، قال: **«طَلَبَةُ الْعلْم ثَلاثَةٌ، فاعْرفْهُمْ بأَعْيانهم وصفاتهم: صنْفٌ يطْلُبُهُ للْجَهْل والْمراء، وصنْفٌ يطْلُبُهُ للاسْتطالَة والْخَتْل، وصنْفٌ يطْلُبُهُ للْفقْه والْعقْل، فصاحبُ الْجَهْل والْمراء مؤْذ، ممار، متعرّضٌ للْمقَال في أَنْديَة الرِّجال بتذاكر الْعلْم، وصفَة الْحلْم، قدْ تسرْبَلَ**(٢) **بالْخُشوع، وتخلّى من الْورَع، فدقَّ اللهُ منْ هذا خَيْشومَهُ، وقَطَعَ منْهُ حيْزومَهُ**(٣)**؛ وصاحبُ الاسْتطالَة والْخَتْل، ذو خَبٍّ**

---

(١) الفتّال النّيسابوريّ، روضة الواعظين: ٥٢/١، ح/٥٦؛ مشكاة الأنوار: ٣٠٥/١، ح/٦٩٤؛ كنز العمّال للمتّقي الهنديّ: ٢٦٠/١٠-٢٦١، ح/٢٩٣٨٤؛ بحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٣٤/٢-٣٥.

(٢) السّربال - بكسر السين المهملة - : القميص، أو الدّرع، أو كلّ ما لُبس، وقد تسربل به، أي تلبّس به، وجعله لباساً له، والمراد بالتّسربل بالخشوع إظهاره الخضوع والتّواضع والسّكون والتّذلّل.

(٣) قوله عليه السلام: «فدَقَّ اللهُ منْ هذا خَيْشومَهُ، وقَطَعَ منْهُ حَيْزومَهُ»: بيانٌ لما يترتّب على طلبه العلمَ للجهل، والمراد بدقّ الخيشوم - وهو أعلى الأنف وأقصاه - : إذلاله، وإبطال أمره، ورفع الانتظام من أحواله وأفعاله، والمراد بقطع الحيزوم - بفتح الحاء المهملة، وهو وسط الصّدر - إفساد ما هو مناط الحياة والتّعيّش عليه.

وملق، يَسْتَطيلُ على مثْله منْ أَشْباهه، ويتواضعُ للأَغْنياء منْ دونه، فَهوَ لحَلْوائهمْ هاضمٌ، ولَدينه حاطمٌ، فَأَعْمى اللهُ على هذا خَبره، وقطع منْ آثار الْعُلَماء أَثَره؛ وصاحبُ الْفقْه والْعَقْل ذو كَآبة، وحزن، وسهر، قدْ تحنَّكَ في بُرْنُسه، وَقامَ اللَّيْلَ في حنْدسه[(١)]، يَعْملُ ويخْشى وَجِلاً داعياً مُشْفقاً، مُقْبلاً على شَأْنه، عارفاً بأَهْل زَمانه، مسْتَوْحشاً منْ أَوْثَق إخْوانه، فَشَدَّ اللهُ منْ هذا أَرْكانَهُ، وأَعْطاهُ يوْمَ الْقيامة أَمانَهُ»[(٢)].

وإذا تأمَّلنا في هذَا الحَديث الشَّريف نجد أنَّ التَّقسيم مبنيٌّ على أهداف الطّالب للعلم، وعلى النّتائج المتمخّضة عنه، فالأصناف ثلاثة:

الأوّل: يطلبه للجهل والمراء، والتَّعبير دقيق جزل بليغ، يصوّر الحالة النَّفسيّة لطالبه، والعجيب أنَّه عبّر عنه أنَّه يطلبه للجهل، وهنا نكتة دقيقة، وهي كيف يطلب العلم، فيصبح به جاهلاً؟ فالجهل هنا هو جهل بحقيقة طلب العلم، وهو أنَّ العلم إنَّما يطلب للعمل، فإذا تغيّر الهدف، وصار طلبه للظُّهور، والبروز، والشُّهرة، والتّسلّط، والتّميّز على الأقران، أصبح جهلاً؛ لأنَّ حامله صار خارج حظيرة الإنسانيّة

---

(١) قوله عليه السلام: «قَدْ تَحنَّكَ في بُرْنُسه، وَقامَ اللَّيْلَ في حنْدسه»: (التّحنّك): إدارة العمامة تحت الحنك، أو المراد به الانقياد والمتابعة؛ و(البرنس) - بالباء الموحّدة المضمومة والرّاء المهملة السّاكنة والنّون المضمومة والسّين المهملة -: قلنسوة طويلة كان يلبسها النُسّاك والعُبّاد في صدر الإسلام. كذا ذكر الجوهريّ؛ و(الحندس) - بالحاء المهملة المكسورة والنّون السّاكنة والدّال المكسورة والسّين المهملتين -: اللَّيل المُظلم، أو ظلمةُ اللَّيل، والمعنى كونه متحنّكاً متهيّئاً للاشتغال بالعبادة عند لبس البرنس، وكأنّه كان ممّا يُلبس عند الفراغ من الاشتغال بالمكاسب والمعاملات الدّنيويّة، وترك معاشرة النّاس، وفي الخلوات، أو منقاداً للأوامر والنَّواهي الشّرعيّة في الخلوات، وكونه مشتغلاً بالعبادة في ليلته المظلمة، أو في ظلمة ليله»؛ الهوامش السّابقة من كتاب الحاشية على أصول الكافي لرفيع الدّين النّائينيّ: ١٦٧-١٧٠.

(٢) الكافي: ١/١١٩-١٢١، ح/١٣٢.

الحقّة والعبوديّة لله، وقد فسَّر بعض الشّرّاح هذه العبارة، فقيل: «المراد بالجهل هنا الاستخفاف والاستهزاء؛ لأنّ ذلك شأن الجهّال، ومنه قوله تعالى حكاية: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بعد قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾(١)، وقيل: المراد به الأنفة، والغضب، والشَّتم، ونحوها ممّا يصدر من أهل الجاهليّة، وقيل: هو أن يتكلّف القول فيما لا يعلمه، فيجهله ذلك، وقيل: هو المفاخرة والكبر والتّجبّر»(٢).

إذن ليس كلّ من يطلب علماً يصبح عالماً، وإنّما قد يصبح جاهلاً لما يصيبه من غرور، وانتفاخ، وعجب، وكبرياء، وغطرسة حتّى يعود لا يرى شيئاً إلا نفسه، فيحاول أن يستقطب كلّ شيء لنفسه، وتصبح الإنّيّة والأنانيّة قطب الرَّحى الَّذي يدور حوله مؤثراً «هَواهُ عَلى هُدى الله»، وخير مثال على ذلك بلعم بن باعوراء كما في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾(٣).

قال الإمام الباقر عليه السلام: «الأَصْلُ في ذلكَ بَلْعَم، ثُمَّ ضَرَبَهُ اللهُ مَثَلاً لِكُلِّ مُؤْثِرٍ هَواهُ عَلى هُدى الله منْ أَهْلِ الْقِبْلَة»(٤).

ثمَّ وصف الحديث هذا الصّنف بما تتمخّض منه من تصرّفات، فهو (مؤذٍ)

---

(١) البقرة: ٦٧.

(٢) شرح أصول الكافي: ١٨٢/٢.

(٣) الأعراف: ١٧٥-١٧٧.

(٤) الشّيخ الطَّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٦٩/٤.

يؤذي من يجالسه، أو يحاوره؛ لأنَّه يريد أن يستعلي عليه، ومع أذاه فهو كثير المراء، والجدل بغير بصيرة ومعرفة، فهو مخاصم في الحقّ بعد ظهوره، وقد أجاد الشَّهيد الثّاني رحمه الله في تحديد معنى المراء: «واعلم أنَّ حقيقة المراء الاعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه لفظاً أو معنًى أو قصداً، لغير غرض دينيّ أمر الله به، وترك المراء يحصل بترك الإنكار، والاعتراض بكلّ كلام يسمعه، فإن كان حقّاً وجب التَّصديق به بالقلب، وإظهار صدقه حيث يطلب منه، وإن كان باطلاً، ولم يكن متعلّقاً بأمور الدّين، فاسكت عنه ما لم يتمحّض النَّهي عن المنكر بشروطه»[1].

وهنا حذَّر الحديث الشَّريف من الوقوع في اعتياد المراء والجدال؛ وذلك لأنَّ المراء كما أشارت روايات أهل البيت عليهم السلام أنَّه بذرة الشّرّ، وثمرته الشّحناء، ونتيجته العمى، والصّدود عن الحقّ، ودليل على ضعف اليقين، وهو الَّذي يسبّب الكره، والبغض، والحقد، ويمرض القلب على الإخوان، وينبت النّفاق، ويذهب هيبة الإنسان، وبهاءه؛ ولهذا كلّه أكَّدت الأحاديث الشَّريفة على تركه، وإن كان الإنسان صاحب حقّ، وقد أوضح الشَّهيد الثّاني خطورة المراء بقوله: «فأمّا إذا قصد مجرّد المراء والجدل، وأحبَّ ظهور الفَلْج[2] والغلبة، فإنَّ ذلك يثمر في النَّفس ملكة رديّة، وسجيّة خبيثة، ومع ذلك يستوجب المقت من الله تعالى، وفيه مع ذلك عدّة معاصٍ: كإيذاء المخاطب، وتجهيل له، وطعن فيه، وثناء على النَّفس، وتزكية لها، وهذه كلّها ذنوب مؤكَّدة، وعيوب منهيّ عنها في محالّها من السّنّة المطهّرة، وهو مع ذلك مشوّش للعيش، فإنَّك لا تماري سفيهاً إلا ويؤذيك، ولا حليماً إلا

(١) منية المريد: ١٧٢.

(٢) «الفلج: الظَّفر والفوز، مقصور من الفلاج، يقال: فَلَجَ فلوجاً من باب قعد: ظفر بما طلب، وفَلِج بحجّته: أثبتها» مجمع البحرين: ٣٢٤/٢، (فلج).

ويقليك»[١].

ونذكر هنا بعض الأحاديث المحذّرة من المراء تبرّكاً:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إيّاكُمْ والْمراءَ والْخُصومَةَ؛ فإنَّهُما يُمْرِضانِ الْقُلوبَ عَلى الإخْوانِ، ويَنْبُتُ عَلَيْهِما النِّفاقُ**»[٢].

وعن الإمام عليّ الهادي عليه السلام: «**الْمِراءُ يُفْسِدُ الصَّداقَةَ الْقَديمَةَ، ويُحَلِّلُ الْعُقْدَةَ الْوَثيقَةَ، وأَقَلُّ ما فيهِ أنْ تكونَ فيهِ الْمُغالَبَةُ، والْمُغالَبَةُ أُسُّ أَسْبابِ الْقَطيعَةِ**»[٣].

وقال صلى الله عليه وآله: «**لا يَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقيقَةَ الإيمانِ حَتّى يَدَعَ الْمِراءَ، وإنْ كانَ مُحِقّاً**»[٤].

«ورُوِيَ أنّ رجلاً قال للحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام: اجلس حتّى نتناظر في الدّين، فقال: **يا هذا، أنا بَصيرٌ بديني، مَكْشوفٌ عَلَيَّ هُدايَ، فإنْ كُنْتَ جاهلاً بدينِكَ فَاذْهَبْ فاطْلُبْهُ، ما لي ولِلْمُماراةِ؟ وإنَّ الشَّيْطانَ لَيُوَسْوِسُ لِلرَّجُلِ، ويُناجيهِ، ويَقولُ: ناظِرِ النّاسَ؛ لِئَلا يَظُنُّوا بكَ الْعَجْزَ والْجَهْلَ؛ ثُمَّ الْمِراءُ لا يَخْلو منْ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: إمّا أنْ تَتَمارى أَنْتَ وصاحِبُكَ فيما تَعْلَمانِ، فَقَدْ تَرَكْتُما بذلكَ النَّصيحَةَ، وطَلَبْتُما الْفَضيحَةَ، وأَضَعْتُما ذلكَ الْعِلْمَ؛ أَوْ تَجْهَلانِهِ، فَأَظْهَرْتُما جَهْلاً، وخاصَمْتُما جَهْلاً؛ وإمّا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، فَظَلَمْتَ صاحِبَكَ بِطَلَبِ عَثْرَتِهِ؛ أَوْ يَعْلَمُهُ صاحِبُكَ فَتَرَكْتَ حُرْمَتَهُ، ولَمْ تُنْزِلْهُ مَنْزِلَتَهُ،**

---

(١) منية المريد: ١٧٠.

(٢) الكافي: ٣/٧٣٤، ح/٢٥١٩.

(٣) الدّيلميّ، أعلام الدّين في صفات المؤمنين: ٣١١.

(٤) منية المريد: ١٧١.

وَهذا كُلُّهُ مُحالٌ، فَمَنْ أَنْصَفَ، وَقَبِلَ الْحَقَّ، وَتَرَكَ الْمُماراةَ، فَقَدْ أَوْثَقَ إيمانَهُ، وَأَحْسَنَ صُحْبَةَ دينه، وَصانَ عَقْلَهُ»[1].

والصّفة الأخرى لهذا الصّنف: إنَّه «**مُتَعَرِّضٌ لِلْمَقالِ في أَنْدِيَةِ الرِّجالِ**»، فهو يحاول الظّهور والبروز في نوادي العلم بحجّة المذاكرة في العلوم والمعارف، ومعها يحاول أن يظهر أنَّه الحليم الرّزين، تصنّعاً وتشبّهاً بالعلماء.

ثمّ يذكر الحديث الصّفة الأخرى، وهي أنَّه «**تَسَرْبَلَ بِالْخُشوعِ، وَتَخَلّى عَنِ الْوَرَعِ**»، فقد لبس لباس الخشوع، وحاول أن يظهر أنَّه خاشع خاضع خائف من الله، ولكنَّ حقيقته أنَّه خالٍ ومجرّد من الورع، وفي هذه العبارة من الدّقّة، والجزالة، والبلاغة، ما لا يحيط به وصف، فظاهره جميل بالخشوع، ولكنَّ محتواه الدّاخلي فارغ من الورع والتَّقوى.

ثمَّ بعد أن حدَّد الإمام عليه السلام أوصافه مؤذٍ ممارٍ... جاء دعاؤه عليه السلام قاصماً ومحطّماً لهذا النَّوع من طلبة العلم، وهو دعاء تحسّ فيه بحرارة تعبّر عن مدى مقت الإمام عليه السلام له بهذه العبارات الصّاعقة: «**فَدَقَّ اللهُ مِنْ هذا خَيْشومَهُ**»، وهو تعبير عن كسر كبريائه، وتجبّره، وتحطيم كيانه، ولم يكتفِ الدُّعاء بتحطيم، وسحق خيشومه -وهو أعلى الأنف-، بل أراد أن يمحيه من الوجود «**وَقَطَعَ مِنْهُ حَيْزومَهُ**»، والحيزوم وسط الصَّدر أي أنَّ الدّعاء يقتضي موته، ومحوه، وإبادته، فيا له من دعاء قاطع حازم على هذا النّوع الحقير من طلبة العلم.

وأمّا الصّنف الثّاني: وهو «**صاحِبُ الاسْتِطالَةِ وَالْخَتْلِ**»، وهذا الصّنف يحاول أن يتكبّر، ويستطيل، ويستعلي على غيره من أمثاله، ولكن في الوقت نفسه

---

(١) منية المريد: ١٧١-١٧٢.

فهو مخادع كذّاب، «**ذو خَبٍّ ومَلَق**»(١).

وبمقدار ما فيه من خبث، وغشّ، ومكر، فهو متملّق، متلوّن « **يَسْتَطيلُ عَلى مِثْلهِ مِنْ أَشْباهه، ويَتَواضَعُ للأَغْنياءِ مِنْ دونِه**»؛ وسبب تواضعه ليهضم حلواءهم، وهو تعبير دقيق لبيان دناءة نفوسهم، وخسّتها، وخبث أهداف هذا الصّنف؛ ولذا جاء الدُّعاء عليه قاصماً بعبارتين روعة في الدّقّة « **فَأَعْمى اللهُ عَلى هذا خَبَرَهُ، وَقَطَعَ مِنْ آثارِ الْعُلَماءِ أَثَرَهُ**»، فلا يبقى له عين وأثر، بل سيمحى أثره من العلماء، ويلقى في سلّة المهملات.

وأمّا الصّنف الثّالث: «**صاحِبُ الْفِقْهِ وَالْعَقْلِ**» فيختلف عن الصّنفين السّابقين جملةً وتفصيلاً، فلم يكن يَحبُّ الظّهور، بل لا يحبّ أن يُعْرَف خوفاً من الوقوع في الرّياء (الشّرك الخفيّ)؛ ولهذا تراه كئيباً حزيناً ساهراً، أمّا كآبته فلشعوره بالتَّقصير في عبادة الله، وحزنه خوفاً من الوقوع في حبّ الظُّهور، والتّقدّم على الأقران، فتراه ساهراً يطلب من الله تعالى أن يخلص نيّته له، ويوصله إلى رضوانه، ولهذا «**تَحَنَّكَ في بُرْنُسِه**»، «وهو إدارة العمامة ونحوها من تحت الحنك، وتحنيك الميت إدارة الخرقة تحت الحنك، والبرنس قلنسوة طويلة، وكان النّسّاك يلبسونها في صدر الإسلام، وقد تبرنس إذا لبسه»(٢).

وهنا وصف دقيق لحالة العارف بالله تعالى، الخائف من التَّقصير، والرّاجي لرحمة الله تعالى، فهو متلبّس بهذا اللّباس؛ ليذلّل نفسه بين يدي الله عزَّ وجلَّ، ويقوم اللّيل متخلّياً عن الدُّنيا وأهلها؛ ليفرّغ قلبه لله تعالى؛ وليخلص عمله في سبيله،

---

(١) «الخبّ: الخداع، والخُبث، والغشّ، ورجل مخابّ مدغل، كأنه على خابّ. ورجل خَبّ وخِبّ: خداع جُرْبُز، خبيث منكر»، لسان العرب لابن منظور: ٣٤١/١، (خبب).

(٢) صدر المتألّهين، شرح أصول الكافي: ٢٤٥/٢.

ورغم عمله المتواصل فيه، فهو يعيش الخشية، والهيبة من الله، والخوف من عدم قبول عمله، فهو وجل داعٍ مشفق، «أي خائفاً من عذاب القيامة، متضرّعاً إليه تعالى؛ لطلب المغفرة، حذراً عن سوء العاقبة»[١].

ثمّ هو مقبل على شأنه، يعني مشتغل في إصلاح نفسه، وتهذيبها عن الانشغال بغيرها، فهو يريد «إصلاح نفسه، وتهذيب باطنه، لا كغيره من الَّذين يقبلون على النّاس بالوعظ والنَّصيحة، وقد أهملوا أمر أنفسهم، وإصلاح بواطنهم، وقد تلطَّخت بالرَّذائل والآثام، واعتلت بالأمراض المهلكة، والأسقام»[٢].

ورغم ذلك الانقطاع، والخوف، والحزن، فهو عارف بشؤون النّاس، وبأوضاعهم الفكريّة، والنَّفسيّة، والأخلاقيّة، فهو لم يكن في عزلة عباديّة بعيدة عن النّاس، بل يعيش مع النّاس، ويدرس أحوالهم، ويتأمّل فيها، ويعمل على إصلاحها بعد إصلاح نفسه، فعبادته لم تكن عبادة الرّهبان والمتصوّفة، الَّذين يعتزلون النّاس؛ ليقبلوا على الله، وإنَّما عبادته عبادة الأولياء الصّالحين الَّذين يتعبّدون لله في إصلاح أنفسهم، وإصلاح الآخرين.

وهناك تقسيمات أخرى ليس موضعها في هذا البحث.

ما هِيَ الْعُلومُ الْواجِبُ طَلَبَها؟

قال الفيض الكاشانيّ رحمه الله: «العلم الَّذي طَلَبه فريضة على كلّ مسلم: هو العلم الَّذي يستكمل به الإنسان بحسب نشأته الأخرويّة، ويحتاج إليه في معرفة نفسه، ومعرفة ربّه، ومعرفة أنبيائه، ورسله، وحججه، وآياته، واليوم الآخر، ومعرفة

(١) شرح أصول الكافي: ٢/٢٤٥.

(٢) المصدر نفسه.

العمل بما يسعده ويقرّبه إلى الله تعالى، وبما يشقيه ويبعده عنه جلَّ وعزَّ.

ويختلف مراتب هذا العلم حسب اختلاف استعدادات أفراد النّاس، واختلاف حالات شخص واحد بحسب استكمالاته يوماً فيوماً، فكلّما حصل الإنسان مرتبة من العلم وجب عليه تحصيل مرتبة أخرى فوقها إلى ما لا نهاية له بحسب طاقته وحوصلته؛ ولهذا قيل لأعلم الخلائق ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[(١)]، وقيل وقت الطّلب «من المهد إلى اللَّحد»، هذا أقوم ما قيل فيه، و«بغاة العلم»: طلابه جمع (باغٍ) كهداة جمع (هادٍ)، وباغ العلم عرفاً من يكون اشتغاله به دائماً بحيث يعرف به، ويعدّ ذلك من أحواله كما هو ظاهر»[(٢)].

ومعلوم أنَّ كلّ علم من العلوم الإلهيّة له دورٌ وأثرٌ في بناء الشَّخصيّة الرّبّانيّة، فهو يعالج عوامل النَّقص، والقصور، ويعالج الأمراض النَّفسيّة في مجالي الظّاهر الإنساني وباطنه.

ومن أحسن التَّقاسيم للعلوم ما أفاض به قلم العارف الإلهيّ الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ، قال: «فجميع العلوم النّافعة تنقسم إلى هذه العلوم الثّلاثة: علم راجع إلى الكمالات العقليّة والوظائف الرّوحيّة، وعلم راجع إلى الأعمال القلبيّة ووظائفها، وعلم راجع إلى الأعمال القالبيّة الخارجيّة، ووظائف النَّشأة الظّاهرة للنّفس»[(٣)].

١- العلم الرّاجع إلى الكمالات العقليّة والوظائف الرّوحيّة، قال قُدِّسَ سِرُّهُ: «أمّا العلوم الّتي تقوّي العالم الرّوحانيّ، والعقل المجرّد وتربّيهما، فهي: العلم بالذّات المقدّس الحقّ جلّ وعلا، ومعرفة أوصافه الجماليّة والجلاليّة، والعلم بالعوالم

(١) طه: ١١٤.

(٢) الفيض الكاشانيّ، كتاب الوافي: ١٢٥/١-١٢٦.

(٣) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً: ٣٥٢.

الغيبيّة المجرّدة مثل الملائكة وأصنافهم من أعلى مراتب الجبروت الأعلى والملكوت الأعلى إلى نهاية الملكوت السّفليّ والملائكة الأرضيّة وجنود الحقّ سبحانه، والعلم بالأنبياء والأولياء ومقاماتهم ومدارجهم، والعلم بالكتب المنزّلة، وكيفيّة نزول الوحي، وتنزّل الملائكة والرّوح، والعلم بنشأة الآخرة، وكيفيّة عودة الموجودات إلى عالم الغيب، وحقيقة عالم البرزخ والقيامة، وتفاصيل ذلك.

وملخّص الكلام أنَّ العلم الَّذي يرتبط بالعالم الرّوحانيّ والعقل المجرّد، هو العلم بمبدأ الوجود، وحقيقته، ومراتبه، وبسطه، وقبضه، وظهوره، ورجوعه. ويتكفّل بيان هذا العلم بعد الأنبياءِ، والأولياءِ، الفلاسفةُ، والعظامُ من الحكماء، وأصحابُ المعرفة والعرفان»[١].

٢- العلم الرّاجع إلى الأعمال القلبيّة ووظائفها، قال قُدِّسَ سِرُّهُ: «العلم بالمُنجيات الخُلُقيّة والمهلكات الخُلقية، أي العلم بمحاسن الأخلاق مثل الصَّبر، والشّكر، والحياء، والتّواضع، والرّضا، والشَّجاعة، والسَّخاء، والزُّهد، والورع، والتَّقوى، وغير ذلك من محاسن الأخلاق، والعلم بكيفيّة تحصيلها، وأسباب حصولها، ومبادئها، وشرائطها. والعلم بقبائح الأخلاق مثل الحسد، والكبر، والرّياء، والحقد، والغشّ، وحبّ الرّئاسة والجاه، وحبّ الدُّنيا والنّفس وغير ذلك، والعلم بمبادئها الَّتي تمنحها الوجود، والعلم بكيفيّة التنزّه عنها. والَّذي يتولّى بيان هذه الأمور أيضاً الأنبياء والأوصياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، ثمّ علماء الأخلاق، وأصحاب الرّياضة الرّوحيّة وذوي المعارف»[٢].

٣- العلم الرّاجع إلى الأعمال القالبية الخارجية، ووظائف نشأة النَّفس

---

(١) الأربعون حديثاً: ٣٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٥٢-٣٥٣.

الظّاهرة، قال قُدِّسَ سِرُّه: «والعلوم الّتي تناط بها تربية الظّاهر وترويضه، علم الفقه ومبادئه، وعلم آداب المعاشرة وتدبير المنزل، وسياسة المُدُن، ويتكفّل بشرحها الأنبياء، ثمّ الأولياء عليهم السلام، ثمّ علماء الظّاهر من الفقهاء والمحدّثين. ولا بدّ من معرفة أنَّ كلَّ واحد من هذه المراتب الثّلاث الإنسانيّة المذكورة مترابطة بدرجة، تنعكس آثار كلّ مرتبة على المرتبة الأخرى من دون فرق في ذلك بين الأمور الكماليّة، أو الأمور القبيحة المعيبة»(١).

بناءً على هذا التَّقسيم الجميل يتّضح أنَّ العلوم والمعارف الإلهيّة الّتي يجب أن يعرفها المكلّف هي العلوم التي تغيّر الإنسان بتطهير باطنه من الأمراض النَّفسيّة، كالتّكبّر، والعجب، والغرور، وتُؤَصّل في نفسه الشّعور بالعبوديّة لله تعالى، وتثمر الخشوع، والخضوع، والضَّراعة إلى الله تعالى، وتحرّره من عبوديّة الهوى والشَّيطان، وتَرجّي السّلاطين الطغاة، وتجعله لا يشعر بمؤثّر في الوجود إلا الله تعالى كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصيرَةِ، وَبَاشَرُوا روحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلانوا ما اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفونَ، وَأَنَسوا بِما اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجاهِلونَ، وَصَحِبوا الدُّنْيا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْلى، أولئكَ خُلَفاءُ اللهِ في أَرْضِه، وَالدُّعاةُ إِلى دِينِه**»(٢).

وهذه العلوم مترابطة، ولا يمكن الفصل فيما بينها لمن أراد أن يبني الشّخصيّة الإلهيّة، فكلّ مرتبة لها دور وتأثير على المرتبة الأخرى، فالقيام بالمناسك الظّاهريّة بأصولها المرعيّة المحدّدة، والمرسومة من الشّارع المقدّس لها دور في تربية الرّوح، وتهذيب الأخلاق، ومن قام بتنمية عقله، وتكميل عقائده انعكس

---

(١) الأربعون حديثاً: ٣٥٣.

(٢) نهج البلاغة: ٥١٢، قصار الحكم: ١٣٧.

على تقويم وتحسين أخلاقه، ومن علم كيف يحسّن أخلاقه، وسلوكه انعكس على حركاته؛ لأنَّ للباطن تأثيراً على الظّاهر؛ ولهذا من الخطأ أن يتصوّر أحد أنَّه «يستطيع أن يكون ذا إيمان كامل أو خلق مهذّب من دون الأعمال الظّاهريّة، والعبادات الصّوريّة»[١]، البدنيّة كالصّلاة، والحجّ، وغيرها، ولا يمكن أن يتمّ أعماله الظّاهريّة، ويكمل محاسن أخلاقه من دون إيمان عقليّ سليم.

ولهذا لا ينبغي أن يحسب أنَّه يستطيع أن يكمل شخصيّته الدّينيّة الإلهيّة بواحدة من العلوم دون العلوم الأخرى، فلا يحسب بأنَّ التَّهذيب يكفيه؛ ولهذا ردَّ الإمام الخمينيّ قدس سره على شيخ الإشراق من التَّقسيمات الثّلاثة: «كامل في العلم والعمل، وكامل في العمل، وكامل في العلم»[٢]، فلا يمكن أن يكون كاملاً في العلم من دون العمل به، فما يطلب الإنسان العلم إلا ليعمل به، وإذا لم يعمل بعلمه أصبح علمهُ لقلقةً فارغةً، ومصطلحات جافّة لا قيمة لها، وهذا العمل لا يكمل عقلاً، ولا يهذّب خلقاً، بل ربما يصبح حجاباً بين الإنسان وربّه، وبينه وبين أبناء جنسه لما يصيبه من غرور، وإعجاب، وتفاخر بالعلم؛ لأنَّ «**الْعِلْمَ مَقْرُونٌ إِلَى الْعَمَلِ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَمَنْ عَمِلَ عَلِمَ، وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلا ارْتَحَلَ عَنْهُ**»[٣]، أي «يصيح ويدعو صاحبه بالعمل على طبقه، فإن أجابه وعمل استقرّ فيه، وتمكّن وإلا ارتحل عنه بدخول الشّكّ والشُّبهة عليه، ولو إلى ساعة الارتحال من دار الدُّنيا، ويحتمل أن يكون المراد بمقرونيّة العلم مع العمل عدم افتراق الكامل من العلم عن العمل بحسب مراتب كماله وعدم افتراق بقاء العلم واستكماله عن العمل على وفق العلم، فقوله «**مَنْ عَلِمَ عَمِلَ**» أي علماً كاملاً

(١) الأربعون حديثاً: ٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الكافي: ١٠٩/١، ح/١١٢.

معتبراً مقبولاً باقياً، و«**مَنْ عَملَ عَلم**» أي أبقى علمه واستكمل تفصيل لما أجمل قبله، وقوله «يَهْتِفُ بالْعَمَلِ» أي مطلقاً، فإن أجابه وعمل قوي واستقرَّ، وتمكَّن في قلبه، وإلا ضعف وزال عن قلبه»(١)، وكذلك العمل بلا علم، ومعرفة يوقع الإنسان بالتخبط والعشوائية، فلا يصل إلى كماله، ورشاده؛ لأنَّ الإنسان في كل شأن من شؤونه، وحركة من حركاته يحتاج إلى العلم والمعرفة، و«**الْعامِلُ عَلى غَيْرِ بَصيرةٍ كَالسّائِرِ عَلى غَيْرِ الطَّريقِ، فَلا تَزيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ مِنَ الطَّريقِ إلا بُعْداً**»(٢).

إنَّ من يحاول تهذيب أخلاقه بغير العلم والعمل - كمسلك بعض الصّوفيّة القائم على مخالفة الهوى والشَّهوات أيضاً - قد يجرّه إلى العزلة والتّحجّر، وبالتّالي ينتهي به إلى الجمود والبلادة، فما أمر الله بمجاهدة النَّفس إلا لتهذيب الأخلاق، وما أمر بتهذيب الأخلاق إلا ليكون إنساناً صالحاً نافعاً لنفسه وللآخرين، يسعد نفسه، ويسعد الآخرين، فحسن الخلق سعادة، ورقيّ، وسوء الخلق عذاب يختاره الإنسان بنفسه.

إذن لا بدَّ لبناء الإنسان الكامل من العلم، والعمل، والإيمان، ومن دونها جميعاً لا يحصل على المطلوب، ولا يكتفي بواحدة دون أخرى، ولا بالثّاني من دون الثّالث.

وموجز ذلك كلّه قد لخَّصه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بقوله: «**أَوْلى الْعِلْمِ بكَ ما لا يَصْلُحُ لَكَ الْعَمَلُ إلا به، وَأَوْجَبُ الْعِلْمِ عَلَيْكَ ما أَنْتَ مَسْؤولٌ عَنِ الْعَمَلِ به، وَأَلْزَمُ الْعِلْمِ لَكَ ما دَلَّكَ عَلى صَلاحِ قَلْبِكَ، وَأَظْهَرَ لَكَ فَسادَهُ، وَأَحْمَدُ الْعِلْمِ عاقبَةً ما زادَ في عَمَلكَ الْعاجلِ، فَلا تَشْتَغلَنَّ بعلْمِ ما لا يَضُرُّكَ جَهْلُهُ، وَلا تَغْفَلَنَّ عَنْ علْمِ ما يَزيدُ في جَهْلكَ تَرْكُهُ**»(٣).

---

(١) كتاب الوافي: ٢٠٤/١، (الهامش).

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٤٠١/٤-٤٠٢، ح/٥٨٦٤.

(٣) الدّيلميّ، أعلام الدّين في صفات المؤمنين: ٣٠٥.

النَّقْدُ وَالنَّقْدُ الذّاتِيُّ

قال الإمام الباقر عليه السلام في وصيّته لجابر الجعفيّ: «...وَفكِّرْ فيما قيلَ فيكَ، فَإنْ عرَفْتَ منْ نَفْسكَ ما قيلَ فيك، فَسُقوطُكَ منْ عَيْن الله جَلَّ وعزَّ عنْدَ غَضَبكَ من الْحَقِّ أَعْظَمُ علَيْكَ مُصيبةً، ممّا خفْتَ منْ سُقوطكَ منْ أَعْيُن النّاس، وَإنْ كُنْتَ على خلاف ما قيلَ فيكَ، فثوابٌ اكْتَسَبْتَهُ منْ غَيْر أَنْ يَتْعَبَ بَدَنُكَ.

واعْلَمْ بأَنَّكَ لا تَكونُ لنا وَليّاً حتّى لو اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مصْركَ، وَقالوا: إنَّكَ رَجُلُ سوء لَمْ يَحْزُنْكَ ذلك، وَلَوْ قالوا: إنَّكَ رَجُلٌ صالحٌ لَمْ يَسُرَّكَ ذَلك، وَلكنْ اعْرِضْ نَفْسَكَ عَلى كتاب الله، فَإنْ كُنْتَ سالكاً سَبيلَهُ، زاهداً في تَزْهيده، راغباً في تَرْغيبه، خائفاً منْ تَخْويفه، فَأَثْبتْ وَأَبْشرْ، فَإنَّهُ لا يَضُرُّكَ ما قيلَ فيكَ، وَإنْ كُنْتَ مُبائناً للْقُرْآن فَماذا الَّذي يَغُرُّكَ منْ نَفْسكَ.

إنَّ الْمُؤْمنَ مَعْنيٌّ بمُجاهَدة نَفْسه؛ ليَغْلبَها عَلى هَواها، فَمَرَّةً يُقيمُ أَوَدَها، وَيُخالفُ هَواها في مَحَبَّة الله، وَمَرَّةً تَصْرَعُهُ نَفْسُهُ، فَيَتَّبعُ هَواها، فَيَنْعَشُهُ اللهُ، فَيَنْتَعشُ، وَيُقيلُ اللهُ عَثْرَتَهُ، فَيَتَذَكَّرُ، وَيَفْزَعُ إلى التَّوْبَة وَالْمَخافَة، فَيَزْدادُ بَصيرَةً وَمَعْرفَةً لما زيدَ فيه من الْخَوْف، وَذلكَ بأَنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1]»[2].

(١) الأعراف: ٢٠٠.

(٢) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٢٨٤-٢٨٥.

في هذا الحديث الشَّريف بيان دقيق؛ لمواجهة النَّقد الهدّام الَّذي يستهدف التَّجريح، والتَّشهير، والإسقاط، فكيف يقف المؤمن من هذا الأسلوب؟ وكيف يستفيد منه في معرفة نفسه؟ لينتبه إلى أخطائه، ويؤشّر عليها، ويصحّح أداءه العمليّ من خلال التّأمّل فيما يطرحه المناوئ من تهم، وافتراءات، وأكاذيب؛ فهي إمّا أن تكون صحيحة، وهو واقع في ارتكابها، أو متلبّس بها، وإمّا أباطيل ومفتريات نُسبَت إليه زوراً وبهتاناً، وفي كلتا الحالتين يجب على المؤمن أن يواجهها بهدوء، وتأمّل، وفحص دقيق، فإن كانت صحيحة فقد أفاده المُنْتَقِد بتشخيص أخطائه، وحينئذٍ يجب عليه تلافيها وتصحيحها، وعدم ارتكابها مرّة أخرى، وفي ذلك فائدة كبيرة لا تقدّر بثمن، فالنّاقد هنا تحوَّل إلى طبيب شَخَّصَ المرض، وعلى المريض معالجته، وبذلك يكون قد أهدى له هديّة ينبغي أن يشكره عليها.

إنَّ الإنسان يخشى من ذكر عيوبه ونواقصه على ألسن الآخرين خشية من سقوط هيبته واعتباره من أعين النّاس، ولكنّ الواجب على العاقل الرَّشيد أن يعلم أنَّ سقوطه من أعين النّاس أهون عليه من سقوطه من عين الله؛ لأنَّه يمكن تداركه وعلاجه، ولكن إن سقط من عين الله فهنا المصيبة الكبرى، والشّقاء الدّائم في الدُّنيا والآخرة.

وإن كان ما نسب إليه كذباً، وزوراً، وبهتاناً فينبغي أن يواجهه بروح المؤمن الواثق من دينه، وإنَّ هذا النَّقد سيعود عليه بالنَّفع العظيم، وهو نيل ثوابِ الله تعالى، وهو غاية آمال المؤمنين العارفين، إذن في كلتا الحالتين الأمر بصالحه.

ولاستيفاء الموضوع لا بدَّ أن نعرف حقيقة النَّقد، والنَّقد الذّاتيّ من حيث معناه الحقيقيّ، وأهميّته في حياة المجتمع البشريّ، ومن حيث أساليب النَّقد وأنواعه، ودوره في إصلاح الفرد والمجتمع، أو بالعكس دوره في نشر الرَّذيلة،

ومحاربة الفضيلة.

ما هُوَ النَّقْدُ؟

للنّقد في اللغة معانٍ عدّة، وأبرز تلك المعاني:

١- «النَّقد: خلاف النَّسيئة، والنّقد والتّنقاد: تمييز الدّراهم، وإخراج الزَّيف منها»، أي تمييز الجيّد من الرّديء، فيقال: «نقدت الدّراهم وانتقدتها، إذا أخرجت منها الزّيف»[(١)].

٢- النَّقد يعني ذكر العيب بغرض التَّجريح أو التَّشهير أو الإيذاء، يقال: «نقدْتُ رأسه بإصبعي، أي ضربته»، والشّاهد على ذلك حديث أبي الدرداء: «إن نقدت النّاس نقدوك، وإن تركتهم تركوك»، معنى نَقَدْتَهم، أَي عِبْتَهم واغْتَبْتَهم قابلُوك بمثله[(٢)].

وقصدنا في هذا البحث الإشارة إلى كلا المعنيين؛ لتمييز الصّالح من الطّالح، والقبيح من الجميل، والخير من الشّرّ، وللتَّحذير من ممارسة النّقد الهدّام.

وخلاصة الكلام: النَّقد البنّاء تقويم العمل، أو القول، أو الموقف، أو القرار، والحكم عليه بالحسن أو بالقبح، وتمييز الجيّد من الرّديء، وبالتّالي هو تصحيح هادف مستمر؛ لتلافي الأخطاء، وسدّ النَّقص، ووضع الشَّيء موضعه.

ونقد الإنسان لذاته هو عمليّة رصد ما في النَّفس من مشاعر، وأحاسيس، وخواطر، ورؤى، وما يصدر عنها من أعمال، وأقوال، ومواقف، وقرارات، وعرضها على ميزان العقل، والشَّرع، «**وَلكِنْ اعْرِضْ نَفْسَكَ عَلى كِتابِ اللهِ**»

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٤٢٥/٣، (نقد).

(٢) ينظر تاج العروس للزّبيديّ: ٢٣٤/٩-٢٣٥، (نقد).

لتحديد مواطن الضّعف، والقوّة فيها، والقيام بعمليّة محاسبة دقيقة؛ لتدارك الضّعف وإصلاحه قبل استفحاله، واستحكامه، وتنمية عناصر القوّة وتصعيدها، وبالتّالي هي عمليّة تأمّل، وتفكير، ودراسة واعية؛ لفحص الأعمال، والأقوال، والمواقف، وتحديد الجيّد، ورفض السّيّء، وهذا هو معنى الحديث المشهور: «**حاسِبوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبوا وَزِنوها قَبْلَ أَنْ توزَنوا**»[1].

دَوْرُ النَّقْدِ في حَياةِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ:

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ الإنسان معرّض للخطأ، والانحراف - إلا من عصم الله - نتيجة الغفلة أو النّسيان، أو الغرور والإعجاب، أو الانقياد لفكر منحرف، أو عقيدة سقيمة، أو نتيجة انخداع بمظهر جذّاب، أو عيش في بيئة فاسدة، أو انجرار وراء شهوة أو هوى؛ ولذلك لا بدَّ له من تذكير وتنبيه من نفسه، أو من الآخرين؛ وليس هناك من وسيلة لتلافي الوقوع في الخطر إلا النَّقد السّليم البنّاء الَّذي يهدف إلى التّصحيح، والتّقويم، والتَّرشيد، بل وطرح البديل المناسب، وجميل ما أشار إليه بعض المفكّرين قائلاً: «لو إنَّ عمل العبد الصّالح [الخضر] تكرّر إلى يوم القيامة لما توقّف موسى عليه السلام عن النّقد والاعتراض؛ لو وضع النّقد والانتقاد يوماً على رفّ النّسيان بذريعة الطّاعة لعصفت بالعالم الإسلاميّ أزمةٌ، ولوقع الجميع في أخطاء لا تحمد عقباها، ومن هنا نراه - الشّهيد مطهّري - يؤكّد على لزوم النَّقد بشكل جادّ على جميع المستويات، حين يقول: "كنتُ ولا زلتُ أرى بأنَّ أيّ ذي مقام - غير المعصوم - يجعل نفسه بعيداً عن متناول النَّقد فإنَّه يشكّل خطراً على نفسه، وعلى الإسلام"؛ ولهذا فإنَّ الانقياد للحكومة الدّينيّة، وطاعة المسؤولين

(١) ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ٦٧/٢، ح/١٦٠١.

الدّينيّين لا يعني اتّخاذ موقف اللامبالاة إزاء سياستهم والامتناع عن نقدهم»[١].

وهكذا يتّضح لنا أنَّ النَّقد والانتقاد عمل لا يُستَغْنى عنه بحال من الأحوال، فمن دونه تتوقّف عجلة التّكامل، ويستفحل الخطأ والانحراف، ومن هنا كان أمير المؤمنين عليه السلام يؤكّد على وجوب النَّقد والتَّقويم لكلّ أحد **«وإنْ عَظُمَتْ في الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وتَقَدَّمَتْ في الدّين فَضيلَتُهُ»**[٢].

ورغم عصمته وتطهيره من الرّجس قال عليه السلام: **«فَإنّي لَسْتُ في نَفْسي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلا آمَنُ ذلكَ مِنْ فِعْلي، إلا أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسي ما هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنّي»**[٣].

ويمكن القول: إنَّ ما ورد في النُّصوص الإسلاميّة بعنوان النَّصيحة، والتّناصح بين المؤمنين أحد سبل الانتقاد المصحّح النّاصح، والمرشد المقوّم بأسلوب شفّاف جميل، فنصيحة الإنسان لنفسه تأتي من خلال رصدها ونقدها، وتحرّي كلّ شعور، أو إحساس، أو فعل، أو قول، وتصحيحه وفقَ ميزان الشَّرع والعقل، يقول تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[٤] أي ألزموها بطاعة الله تعالى، واحفظوها عن الزَّيغ والانحراف عن شرعة الله، فإذا فعلتم ذلك فلا أحد يستطيع أن يؤثّر عليكم حتّى لو انحرف النّاس جميعاً، ولا شكَّ أنَّ ذلك لا يتحقّق إلا بمراقبة النَّفس، ومحاسبتها، وليس المحاسبة إلا النَّقد البنّاء، والتَّقويم الرَّشيد، ومن دون ذلك لا يتحقّق التَّغيير والإصلاح، ففي الحديث: **«مَنْ بَصَّرَكَ عَيْبَكَ فَقَدْ**

---

(١) سيّد حسن إسلاميّ، الإمام والأخلاق والسّياسة: ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) نهج البلاغة: ٣٦١، خطبة: ٢١٦.

(٣) المصدر نفسه: ٣٦٢، خطبة: ٢١٦.

(٤) المائدة: ١٠٥.

نَصَحَكَ»(١).

وفي حديث آخر: «**مَنْ ساتَرَكَ عَيْبَكَ، وَعابَكَ في غَيْبِكَ، فَهُوَ الْعَدُوُّ، فَاحْذَرْهُ**»(٢).

فإذا كنت تطمح لتطوير شخصيّتك، فكن مستعدّاً لقبول نقد الآخرين، فالَّذين يريدون بك خيراً ينقدونك بموضوعيّة وتجرّد، «وقد قيل: «الصّراحة قد تجرح، ولكنّها تهدي»، فهي أشبه بوخز الحقنة الطّبّيّة، يؤلمك وخزها، ويشفيك دواؤها»(٣).

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّ أَنْصَحَ النّاسِ أَنْصَحُهُمْ لِنَفْسِهِ، وَأَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ**»(٤).

وقال عليه السلام: «**إِنَّ أَنْصَحَ النّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصاهُمْ لِرَبِّهِ**»(٥).

وأمّا النَّصيحة للنّاس، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ أَعْظَمَ النّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْشاهُمْ في أَرْضِهِ بِالنَّصيحَةِ لِخَلْقِهِ**»(٦).

وعن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال: «**يَجِبُ لِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ النَّصيحَةُ لَهُ في الْمَشْهَدِ وَالْمَغيبِ**»(٧).

---

(١) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤١٥، ح/٩٤٧٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤١٨، ح/٩٥٧٥.

(٣) فنّ النّقد، مؤسّسة البلاغ: ١٩.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٢٥، ح/٤٥٥٩.

(٥) نهج البلاغة: ١٤١، خطبة: ٨٥.

(٦) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣/٥٣٠-٥٣١، ح/٢٢١٣.

(٧) المصدر نفسه: ٣/٥٣٠، ح/٢٢١٠.

ولا يمكن للمؤمن أن ينصح أخاه إلا إذا نقده، وميَّز فيه محاسن العادات، والأعراف، والأفكار، والأخلاق من سيّئاتها، والنَّقد النّاصح بأسلوب جميل يتحاشى فيه النّاقد إثارة الأحاسيس السّلبيّة، فهي من باب (اطرح الصَّحيح يزيح الخطأ)، إذن يمكن أن يكون النَّقد نصحاً بأسلوب أدبيّ رفيع، وهو واجب أخلاقيٌّ على كلّ أحد مهما ارتفعت منزلته، ويمكن الاستفادة من ملاحظة أيّ انسان مهما «**صَغَّرَتْهُ النُّفوسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ الْعيونُ**»، وتفصيل ذلك في خطاب أمير المؤمنين عليه السلام الَّذي جاء فيه:

«**فَعَلَيْكُمْ بِالتَّناصُحِ في ذلكَ، وَحُسْنِ التَّعاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ - وَإِنِ اشْتَدَّ عَلى رِضا الله حِرْصُهُ، وَطالَ في الْعَمَلِ اجْتِهادُهُ بِبالِغٍ حَقيقَةَ ما اللهُ [سُبْحانَهُ] أَهْلُهُ مِنَ الطّاعَةِ لَهُ، وَلَكِنْ مِنْ واجِبِ حُقوقِ اللهِ عَلى الْعِبادِ النَّصيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعاوُنُ عَلى إِقامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ، وَلَيْسَ امْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ في الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ في الدّينِ فَضيلَتُهُ، بِفَوْقِ أَنْ يُعانَ عَلى ما حَمَّلَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ، وَلا امْرُؤٌ - وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفوسُ وَاقْتَحَمَتْهُ الْعُيونُ - بِدونِ أَنْ يُعينَ عَلى ذلكَ أَوْ يُعانَ عَلَيْهِ**»[1].

النَّقْدُ الإيمانِيُّ:

«**الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخيهِ الْمُؤْمِنِ**»[2]؛ ليس هناك بيان أجمل، وأروع، وأدقّ من هذه العبارة؛ لبيان واجب المؤمن إزاء أخيه المؤمن في نقده لنصحه، وتقويمه،

(١) نهج البلاغة: ٣٦٠-٣٦١، خطبة: ٢١٦.

(٢) المتّقي الهنديّ، كنز العمّال: ١/١٥٤، ح/٧٦٨.

وترشيده، ووضعه على جادّة الصّواب، فهو تشبيه يستبطن كثيراً من المعاني الأخلاقيّة الرَّفيعة، والأساليب النّقديّة البديعة، من خلال تشبيه المؤمن بالمرآة، لما يتوفّر في المرآة من خصائص دقيقة في كشف النَّواقص، وحفظ الأسرار كما صوَّرتها ريشة عالم أديب في كرّاس صغير من كراريس مؤسّسة البلاغ بعنوان (فنّ النّقد)، ونحن نستعير هذه الخصائص، ونذكرها منقّطة بالمعنى لا بألفاظها، فمن خصائص المرآة:

١- المرآة الصّافية «ترينا مظاهرنا كما هي، ودون أيّة مجاملة»[1]، وتشير بدقّة متناهية؛ لتقول هذا وسخ، وهذا نظيف، وهذا لائق، وهذا غير لائق، وحينئذ تحدّد لنا مواضع القبح؛ لنتلافاها، ومواضع الجمال؛ لننمّيها.... وهكذا فالمرآة لا تخفي على النّاظر إليها سرّاً، بل تكشف له حقيقته كما هي، وكأنَّ الحديث الشَّريف، يقول للمؤمن: كن لأخيك صادقاً، مخلصاً، ناصحاً، كاشفاً له الحقائق كما تكشف المرآة لك حقيقة مظهرك، **«الْمُؤْمِنُ أَخُ الْمُؤْمِنِ، وَهُوَ عَيْنُهُ، وَمِرْآتُهُ، وَدَلِيلُهُ، لا يَخُونُهُ، وَلا يَخْدَعُهُ، وَلا يَظْلِمُهُ، وَلا يُكَذِّبُهُ، وَلا يَغْتابُهُ»**[2].

وفي رواية أخرى: **«الْمُسْلِمُ أَخو الْمُسْلِمِ، هُوَ عَيْنُهُ، وَمِرْآتُهُ، وَدَلِيلُهُ، لا يَخُونُهُ، وَلا يَخْدَعُهُ، وَلا يَظْلِمُهُ، وَلا يَكْذِبُهُ، وَلا يَغْتابُهُ»**[3].

٢- ولا شكَّ أنَّ الحديث يقصد بالمرآة المرآة الصّافية المستوية، وليس المرآة المقعّرة، أو المحدّبة، أو المصَغّرة، أو المُكَبّرة، فهذه الأنواع من المرايا تشوّه صورة النّاظر إليها وتمسخها، أمّا المستوية الصّافية فإنَّها تنقل «الصّورة كما

(١) فنّ النَّقد: ٦.

(٢) ابن فهد الحلّيّ، عدّة الدّاعي ونجاح السّاعي: ٢١٩.

(٣) الكافي: ٤٢٦/٣، ح/٢٠٤٦.

هي بلا تحريف ولا زيادة ولا نقصان»[١]، والمؤمن النّاصح النّاقد يجب أن يكون كذلك مع مراعاة الفروق بين تعامل الجامد المتحجّر والحيّ المتحرّك، وقد قيل: «المؤمن مرآة أخيه، إن رأى فيه ما لا يعجبه سدَّده، وقَوَّمَه، وحاطه، وحفظه في السّرّ والعلانية، إنَّ لك من خليلك نصيباً، وإنَّ لك نصيباً من ذكر من أحببتَ، فثقوا بالأصحاب والإخوان والمجالس»[٢].

٣- إنَّ المرآة «كتومة إذا رأت منك ما يشين؛ فإنَّها لا تنقل ذلك للقادم الّذي يأتي بعدك؛ لتقول له إنَّها رأت في وجهك هذا العيب أو ذاك، وهذا ما يجعلك تحبّ المرآة؛ لأنَّها لا تحبّ الوشاية»[٣]، وهنا يتجلّى روعة التَّشبيه بأدب رفيع بإشارة خفيّة جذّابة توجب حفظ أسرار المؤمن ولا سيّما عيوبه الّتي تتكشّف لأخيه، وهي من أرفع السّمات الأخلاقيّة إذ تجسّد الأمانة في حفظ أسرار المؤمنين.

٤- «والأهمّ من ذلك أنَّ المرآة بلا ذاكرة، فهي لا تدوّن في ذاكرتها الصّور القديمة، وإنّما تُظْهر لك دائماً ما هو آنيٌّ ومباشر، فإذا سبق لها أن رأت فيك عيباً، ونبّهتك إليه في حينها، فإنَّها لا تعاود التّذكير به ثانية وثالثة؛ لئلا تجرح إحساسك، فإذا جئتها لاحقاً، وقد أصلحت من عيبك فإنَّها تُقَوّم شكلك بعد الإصلاح، وتنسى منه ما كان قبله، وهذا سبب آخر يجعلنا نحبّ المرآة.

المؤمن إذن كالمرآة.. لا يفضحك أمام الآخرين، ولا ينشر ما يراه من عيوبك، بل يتكتّم عليها.. إنَّه يصارحك بها، لكنّه يكتمها عن غيرك، وكأنَّها سرٌّ

(١) فنّ النَّقد: ٧.

(٢) ابن أبي الدُّنيا، الأخوان: ١٠٧، ح/٥٥.

(٣) فنّ النَّقد: ٧.

من الأسرار الَّتي لا يجوز فضحها أو كشفها إلا لمن اطّلع عليها»[١].

٥- «إنّ المرآة لا تكشف فقط محاسن أو قبح المظهر الخارجيّ من وجه وزينة وشعر ولباس، وإنّما تظهر جمال وقبح ما نَقوم به من حركات أيضاً، فإذا وقفت أمامها متّزناً فإنَّها لا تتحيّز ضدّك، وإنّما تظهر اتّزانك ووقارك كما هو، وإذا وقفت إزاءها، ورحت تقوم بحركات بهلوانيّة، فإنَّها لا تبقى على الحياد، بل تقول لك: إنَّك أصبحت مثيراً للسّخرية.

وهكذا تفعل المرآة الثّانية: أخوك الّذي يصدقك القول في الدّين، فإذا خطر لك أن تكذّب المرآة، وتخرج على النّاس من غير إصلاح لهندامك، فإنَّك ستقرأ انتقادهم في عيونهم، وعندها لا تلوم إلا نفسك»[٢].

أَنْواعُ النَّقْدِ:

يتنوّع النَّقد بتنوّع أهداف النّاقد ومنطلقاتها، فمن كان هدفه: التَّقويم والتَّرشيد، والإصلاح يختلف عمَّن هدفه: التَّجريح، والتَّسقيط، والتَّشهير، ومن هنا حدَّد الباحثون والمفكّرون أنواع النَّقد في نوعين:

١- **النَّقد الهادف البنّاء**: ويقوم هذا النّوع على رصد السّلبيّات والمخالفات الشَّرعيّة في النَّفس، أو في المجتمع، ودراسة أسبابها ودوافعها ومنطلقاتها، والعوامل الَّتي أدَّت للوقوع فيها، وتلمّس الأعذار لمن وقع فيها، واختيار الأسلوب الأمثل لمعالجتها، ومَثَل النّاقد هنا كمثل الطَّبيب النّاصح الشَّفيق بالمريض حين يقوم بفحصه بدقّة، ومهارة، وتأنّ؛ لتحديد الجرثوم الَّذي سبّب المرض؛ لاختيار

---

(١) فنّ النّقد: ٧-٨

(٢) المصدر نفسه: ٨

العلاج النّاجع الّذي يقضي عليه، وتعليمه طرق الاستعمال؛ ليعيد للمريض صحّته وسلامته، ودافعه «يأتي من حبّ، وحرص، وإخلاص، وتقدير للمسؤوليّة الشّرعيّة»[1].

٢- **النّقد الهدّام**: أمّا من كان هدفه تحطيم الشّخص، أو الجهة الّتي يوجّه إليها نقده، فسيكون نقده بلا شكّ وسيلة من وسائل التّشهير، والتّحقير، والإيذاء، والتّهديم، وتصفية الحسابات مع الآخرين، وهذا لا يصدر عادة إلا من الّذين استحكمت في أنفسهم الأنانيّة، والعدوان، والحقد، والبغضاء؛ وانعدمت فيها العدالة والإنصاف؛ ولذا ترى النّاقد في هذا النّوع من النّقد يُبرّز السّلبيّات، ويحاول أن يخفي كلّ إيجابيّة مهما كانت واضحة جليّة، «**إنْ رَأى حَسَنَةً أَخْفاها، وإِنْ رَأى سَيِّئَةً أَفْشاها**»[2]، وإذا لم يسعفه الإخفاء لجأ إلى تفسيرها أو تأويلها على عكس معناها، فإن لم ينجح ذلك راح يشكّك في النّوايا كما ورد في بعض الأدعية:

«**اللّهُمَّ، إنّي أَعوذُ بكَ منْ صاحب سوء في الْمَغيب وَالْمَحْضَر، قَلْبُهُ يَراني، وَعَيْناهُ تُبْصِراني، وَأُذُناهُ تَسْمَعاني، إنْ رَأى حَسَنَةً أَخْفاها، وإِنْ رَأى فاحِشَةً أَبْداها**»[3].

وفي دعاء آخر: «**اللّهُمَّ، إنّي أَعوذُ بكَ... منْ خَليل ماكر عَيناهُ تَرَياني، وَقَلْبُهُ يَرْعاني، إِنْ رَأى خَيْراً دَفَنَهُ، وَإِنْ رَأى شَرّاً أَذاعَهُ**»[4].

---

(١) فنّ النَّقد: ١٩.

(٢) جاء هذا النّصّ في وصف جار السّوء في الكافي: ٧٦١/٤، ح/٣٧٧٠.

(٣) السّيّد ابن طاووس، مهج الدّعوات: ٧٣.

(٤) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٥٥٨/٣، ح/٤٩١٧.

آدابُ النَّقْدِ في الإِسْلامِ:

قلنا: إنَّ النَّقد عبارة عن ملاحظات توجّه إلى جهة أو إلى شخص، إمّا لغرض التَّقويم والإصلاح، وإمّا لغرض الهدم والتَّخريب، وكلامنا يدور في القسم الأوّل، وبيان موقف الإسلام من القسم الثّاني، ولكلّ من الصّنفين آداب وأساليب، فقبول النّقد أو ردّه يتوقّف على صحّة الأسلوب وشفّافيّته، وصدق النّيّة، ووضوح الهدف، ومراعاة الظُّروف الزّمانيّة والمكانيّة للأداء، ومداراة الأذواق والأمزجة الفرديّة، ورعاية الآداب والأعراف والتَّقاليد الاجتماعيّة، وحسن الأداء، وبناءً على ذلك لا بدَّ من تحديد آداب النَّقد وأصولها، وأهمّها:

١- **تصحيح النّيّة وتخليصها لله**: من الواجب في النّقد - في الإسلام - فضلاً عن آدابه تخليص النّيّة لله؛ ليكون الدّافع مجرّداً عن الأغراض الذّاتيّة، أو الأحقاد الشّخصيّة، أو المصالح النّفعيّة، فلا يوجد شيءٌ يعطي لعمل الإنسان قيمة ورفعة وأثراً، كالإخلاص، والصّدق؛ ولذا حتّى في مسوّغات الغيبة أكّد بعض فقهائنا أنَّ الجواز مشروط بسلامة الدّافع لها، قال الإمام الخمينيّ قدس سره: «نعم، في الأحوال الَّتي تجب الغيبة فيها، مثل غيبة المتجاهر بالفسق بهدف منعه إذا كان لا يرتدع إلا بها، والموارد الأخرى الَّتي ذكرها العلماء، فلا بدّ من الإقدام عليها، مع السَّعي الحثيث؛ لتخليص النّيّة عن هوى النَّفس، ومتابعة الشَّيطان، ولكن ترك الغيبة في الموارد الجائزة، أولى وأحسن، ينبغي أن لا نفعل كلّ عمل جائز، وخاصّة الأمور الَّتي يكون فيها لمكائد النَّفس والشَّيطان دورٌ بارزٌ»(١).

٢-**نقد الذّات وتقويمها قبل نقد الآخرين**: حينما يريد المؤمن نقد

---

(١) الإمام الخمينيّ، الأربعون حديثاً: ٢٩٣.

ظاهرة، أو شخص، أو جهة سياسيّة، أو اجتماعيّة، يجب عليه أن يدرس جيّداً الأمر الّذي يريد أن يعالجه، ويتأمّل جيّداً في نفسه، هل فيه شيء من تلك الخصلة الّتي ينقدها، أو العمل الّذي يرصده، وتخليص نفسه منها بحيث يظهر في أقواله وأعماله مُبرّأً منها صدقاً وعدلاً؛ لأنَّ الشّخص الّذي ينقد صفة سيّئة عند أحد، وهو متلبّس بها، فسوف تُرَدّ عليه، وترفض جملة وتفصيلاً، بل عدَّ الحكماء أنَّ ذلك من الحماقة، والغباء، والجهل؛ ولذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ رأى مَوْضِعَ كَلامِه مِنْ عَمَلِه، قَلَّ كَلامُهُ إلا فيما يَعْنِيه**»(١).

وعنه صلى الله عليه وآله: «**مَنْ لَمْ يَحْسِبْ كَلامَهُ مِنْ عَمَلِه كَثُرَتْ خَطاياهُ، وَحَضَرَ عَذابُهُ**»(٢).

وتعجّب أمير المؤمنين عليه السلام بمن يعيب النّاس بما فيه مثله بقوله: «**فَكَيْفَ بِالْعائِبِ الَّذي عابَ أَخاهُ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْواهُ! أَما ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ الله عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِه ما هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذي عابَهُ بِه، وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِه فَقَدْ عَصى اللهَ فيما سِواهُ مِمّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ**»(٣).

ولا شكَّ أنَّ ناقد النّاس بما فيه يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾(٤)، بل إنَّ هذه الصّفة (نقد الذّات قبل نقد الآخرين) من سمات

(١) الكافي: ٣٠١/٣، ح/١٨٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢٩٩/٣-٣٠٠، ح/١٨٣٤.

(٣) نهج البلاغة: ٢٢٧، خطبة: ١٤٠.

(٤) الصّفّ: ٢.

الكمال الإنسانيّ، فممّا نسب لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**الْكَمالُ في خَمْسٍ: أَلا يَعيبَ الرَّجُلُ أَحَداً بعَيْبٍ فيه مثْلُهُ، حتّى يُصلِّحَ ذلكَ الْعَيْبَ منْ نَفْسه؛ فَإنَّهُ لا يَفْرُغُ مِنْ إصْلاحِ عَيْبٍ مِنْ عُيوبِهِ حتّى يَهْجُمَ عَلى آخَرَ، فَتَشْغُلُهُ عُيوبُهُ عَنْ عُيوبِ النّاس...**»(١).

ويناسب الحديث أن نذكر ماحكاه الأديب علي الخاقانيّ في قصّة الشَّيخ الواعظ جعفر التّستريّ نقلاً عن والده: «كان العالم العامل والواعظ الزّاهد الشَّيخ جعفر التّستريّ يعظ النّاس في الجهة الشّماليّة من الصَّحن الحيدريّ قرب التّكية، وكنت أحضر مجلسه ووعظه، وكان قوي التّأثير نافذ القول، يجتمع حول منبره الآلاف من الفقهاء والعلماء والتّجّار وأبناء البلد في كلّ يوم ساعة أو يزيد، وكان يختم خطبته فيبتدئ بصلاة المغرب، وفي يوم جاءه رجل من أهل الزُّهد، فسأله أن يعظ النّاس في الغد، ويفهمهم سوء مغبّة التّرف؛ لأنَّ نسيجاً أجنبيّاً وفد على العراق يعرف بـ (الكرمسود)، وهو يعلو بثمنه عشرات المرّات على اللّباس المتعارف، وهو (القدك) أي الخام المصبوغ بالزُّرقة، فيصنع منه معظم الطَّبقات ألبستهم البارزة، وإن بوعظك هذا تقاوم الأجنبيّ؛ لئلا ينتفع من بلادنا ويسلب ثروتنا كما تجعل المساواة بين الغنيّ والفقير باقية، فاستحسن منه ذلك، وما أن جاء اليوم الثّاني إلا والسّائل ينتظر منه الدُّخول في الموضوع، وإذا بالشَّيخ كأن لم يسأل، فوجّه أسباب التّأخير وتصوَّر أن سيخوض الموضوع في اليوم الثّالث، وإذا به لم يفعل، فقال: لعلَّ الشَّيخ بدا له رأي، وهو أعرف بما يبدو له، ولكنّه لم ينقطع عن سماع وعظه والحضور في مجلسه، غير أنَّ الشَّيخ في اليوم العاشر طرق الموضوع

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٩٢/٢٠.

طرقاً عنيفاً، وتبسَّط في وعظه، واستوفى كلّما يجب أن يقال، فإذا بمن كان لابساً من ذلك النَّسيج ودَّ أنَّ الأرض تبتلعه ليرتاح من مشاهدة المستنكرين له، وبعد الفراغ من وعظه جاءه السّائل، فقبّل يده، وقال: جزاك الله خيراً، ولكنّي أودّ أن أعرف سبب التّأخير الَّذي ربما في خلاله تورَّط بعض النّاس في شراء ما نهيت عنه، تنفّس الشّيخ الصُّعداء، وقال له: يا أخي، إنّي رأيتُ أن لا أنهى عن أمر وربما عندي ما يشبهه؛ لذا رأيتُ أن أحاسب نفسي أوّلاً، فإذا بي لم أجد شيئاً، ثمّ فتّشت زوجتي، فلم أجدها عندها شيئاً، فصرتُ أذهب إلى من أعول بهم أو أؤثّر عليهم مباشرة كابن أخي وزوجته وصهري وابنتي، وإذا بعد فحصٍ دام عشرة أيّام توثّقت خلالها من انعدام الشّيء الَّذي أنوي استنكاره؛ لذا ترى أثر الموعظة في النّفوس بالغاً»[1].

٣- التّأنّي وعدم التّسرّع في طرح النُّقود: «**إنَّ الْمُؤْمنَ وَقّافٌ مُتَأَنٍّ، ولَيْسَ كَحاطبِ اللَّيْلِ**»[2]، لا شكَّ أنَّ طرح النّقد قبل تهيئة الأجواء النّفسيّة، ومراعاة الظّروف المناسبة قد يُحدث ردّة فعل سيّئة لا تحمد عقباها؛ ولذا ينبغي للنّاقد الرَّشيد أن ينتهز الفرصة الملائمة؛ لتقديم نقده، أو نصيحته؛ لتعود بالنَّفع، وتحظى بالقبول، وألا يتعجّل فيها قبل تهيئة ظروفها، وما أروع وصيّة الإمام زين العابدين عليه السلام للزُّهريّ إذ قال له: «**وَإيّاكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بما يَسْبقُ إلى الْقُلوب إنْكارُهُ، وَإنْ كانَ عنْدَكَ اعْتذارُهُ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ تُسْمعُهُ شَرّاً يُمْكنُكَ أَنْ تُوسعَهُ عُذْراً**».

ثمّ قال عليه السلام: «**يا زُهْرِيُّ، مَنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلُهُ مِنْ أَكْمَلِ ما فيه، كانَ هَلاكُهُ**

---

(١) علي الخاقانيّ، شعراء الغريّ: ١٢/٤٦٥-٤٦٧.

(٢) الخليل الفراهيديّ، كتاب العين: ٥/٢٢٤.

مِنْ أَيْسَرِ ما فيه»[١].

٤- **لغة النَّقد**: يجب أن تكون لغة النّقد أَدَبيّة شفّافة بألفاظ جزلة مهذّبة هادئة بعيدة عن التَّجريح، والقدح، والذّمّ؛ لأنَّ ذلك يثير الحسّاسيّات، ويجرح العواطف، فكلّما كان النّاقد أديباً في طرحه، مهذّباً في كلماته، حكيماً في أدائه، سليماً في أسلوبه كان تأثيره أكثر، وقبوله ألزم، والعكس صحيح، وبهذا جاء أمر الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾[٢]، ومن هنا يجب أن يتحاشى النّاقد الكلمات الجارحة، وإن كانت صحيحة، وأن يختار الكلمة الطّيّبة الَّتي تلامس القلوب، وتثير العواطف النَّبيلة ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾[٣]، وهذا ديدن مريدي الإصلاح والتَّغيير لا من يهدف التَّجريح والتَّحقير.

إذن «فلا بدَّ فيه من مراعاة مشاعر الشَّخص المنقود من حيث انتقاء الكلمات الأرقّ وقعاً ووطأة على السَّمع، أي الكلمات المهذّبة والدّالّة على الحرص، وعلى التَّسديد والتَّقويم، لا الدّالّة على النَّسف والتَّحطيم»[٤].

وهذا الأسلوب من أهمّ وسائل الدَّعوة والهداية إلى الله عزَّ وجلَّ حتّى مع أعتى فراعنة الأرض؛ ولذا أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يخاطبا فرعون برقة الكلام وليونته، ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[٥].

---

(١) الشّيخ الطّبرسيّ، الاحتجاج: ٣٦٤/٢.

(٢) الإسراء: ٥٣.

(٣) إبراهيم: ٢٤.

(٤) فنّ النّقد: ٢٥.

(٥) طه: ٤٤.

٥- **تقدير المصلحة:** على النّاقد البصير أن يدرس جيّداً المصلحة في طرح نقده، هل نفعه أكثر من ضرره؟ هل فيه مصلحة تعود بالخير على المنقود شخصاً أو جهة سلباً أو إيجاباً؟ وهل تترك أثراً سيّئاً أم تؤثّر تأثيراً طيّباً؛ ولذا لا ينبغي لمؤمن أن يصدر نقداً لأحد قبل دراسة تأثيره من جميع الوجوه.

كَيْفَ نُواجِهُ النُّقودَ؟

ما دامت الأذواق مختلفة، والمصالح متباينة، والإرادات متصارعة، فلا يمكن أن نجد إنساناً يخلو من قادح أو مادح، حامداً كان أو ذامّاً، وليس العجيب أن يَصدر نقدٌ هنا، ونقدٌ هناك ضدّ أصلح النّاس، وأنفعهم للمجتمع، فهو سنّة قائمة من أوّل الدَّهر إلى قيام السّاعة، ولم يسلم من النّقد الجارح حتّى أكمل البشريّة محمّد ﷺ وجميع رسل الله على طول خطّ الرّسالة، وإلى اليوم، وفي رواية: «قال موسى عليه السلام: **يا رَبِّ، إنَّ النّاسَ يَقولونَ فيَّ ما لَيْسَ فيَّ، فَاجْعَلْهُمْ يا رَبِّ، يَقولون فيما فيَّ.** فَأَوْحى اللهُ تَعالى إِلَيْهِ: **يا موسى، لَمْ أَجْعَلْ ذلكَ لِنَفْسي، فَكَيْفَ أَجْعَلُهُ لَكَ؟!**»[1].

وقال المسيح عليه السلام: «**لا يَحْزُنْكَ قَوْلُ النّاسِ فيكَ، فَإِنْ كانَ كاذِباً كانَتْ حَسَنَةً لَمْ تَعْمَلْها، وَإِنْ كانَ صادِقاً كانَتْ سَيِّئَةً عَجِّلَتْ عُقوبَتَها**»[2].

وبناءً على ذلك لا ينبغي أن نواجهَ النَّقد بالانفعال، وردّ فعل، بل يجب أن ندرس حقيقة هذا النَّقد، وننظر أفيه شيء من الصحّة أم لا؟ فإن كان حقيقة فلماذا الغضب والانفعال؟ وقد ورد في الحديث الشَّريف: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْبَصيرَ النّاقِدَ**

(١) ابن عبد البرّ، بهجة المُجالس وأنس المَجالس: ٤٠٥/١.

(٢) المصدر نفسه.

عنْدَ وُرود الشُّبهات»[١] كما أوضحناه في أوّل البحث.

ومنَ الأمور الأَساسيّة في مواجهة النَّقد أن ينظر المنقود إلى القول، لا إلى القائل، ويتأمّل في القول، ولو كان صادراً من الأعداء، ولنعم ما قال أبو حيّان الأندلسيّ[٢]: [من الطّويل]

عداتي لهم فضلٌ عليَّ ومنّةٌ ... فلا أذهب الرَّحمن عنّي الأعاديا

هم بحثوا عن زلّتي فاجتنبتُها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

إذن يمكن للعاقل الرَّشيد أن يستفيد من نقد أعدائه في تقويم سلوكه، وتصحيح مسيره، ويثبت العكس لهم بما يتمتّع به من أخلاق فاضلة، وسلوك حكيم، وممّا ينسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه سُئلَ: «بماذا أسوء عدوّي؟»، فقال عليه السلام: «**بأَنْ تكونَ على غايَة الْفضائل؛ لأنَّهُ إنْ كانَ يَسوؤهُ أَنْ يكونَ لكَ فَرَسٌ فارهٌ، أَوْ كَلْبٌ صَيودٌ؛ فَهو لأَنْ تُذْكَر بالْجَميل، ويَنْسَب إلَيْك أَشَدَّ مَساءَةً**»[٣].

وممّا ينسب إليه عليه السلام قوله: «**أَعْداءُ الرَّجُل قَدْ يَكونونَ أَنْفَع منْ إخْوانه؛ لأنَّهُمْ يَهْدونَ إلَيْه عُيوبَه، فَيَتجَنَّبُها، ويَخافُ شَماتَتهُمْ به، فَيَضْبطَ نعْمته، ويَتحرَّزُ منْ زَوالها بغايَة طَوْقه**»[٤].

وفي وصيّةَ الإمام الخمينيّ رحمه الله لابنه السّيّد أحمد: «ولعلَّ النّاقدين ومروّجي الشّائعات يكونون ذا نفع في علاج معايبنا النّفسيّة، ولا غرابة، فالأمر شبيه بالعمليّة الجراحيّة المؤلمة الّتي تؤدّي بالنّتيجة إلى سلامة المريض؛ إنَّ أولئك المادحين

---

(١) الفيض الكاشانيّ، المحجّة البيضاء: ٨/١٦٠.

(٢) ديوان أبي حيّان الأندلسي: ٤١٥.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠/٢٥٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢٠/٢٧١.

يبعدوننا بمدائحهم عن جوار الله، وهم أصدقاء إلا أنَّهم يؤذوننا بصداقتهم. أمّا أولئك الَّذين يتوهّمون أنَّهم يحاربوننا بالانتقاد والسّبّ، واختلاق الشّائعات فإنَّهم يساهمون في إصلاحنا رغم أنَّهم أعداءٌ لنا - ذلك إذا كُنّا أهلاً للصَّلاح - وهم يحسنون إلينا رغم ظهورهم بمظهر الأعداء، وإذا اقتنعنا أنا وأنت بهذه الحقيقة، وإذا أتاح لنا الشَّيطان والنَّفس فرصة لرؤية الأمور على حقيقتها، فإنَّنا سنضطرب حينها من مدح المادحين، وثناء أهل الثَّناء، تماماً كاضطرابنا اليوم من ذمّ الأعداء، ومفتعلي الشّائعات المغرضين، كما أنَّنا سنفرح بالانتقاد، تماماً كما نفرح اليوم بمدائح وإطراء المادحين، وإذا بلغ قلبَك شيءٌ ممّا ذكرت فلن تزعجك بعد ذلك المنغّصات، ولن يؤلمك اختلاق المختلقين، وسوف تنال طمأنينة القلب، فإنَّ أكثر الآلام والقلق إنَّما هي نتيجة الأنانيّة، رحمنا الله تعالى جميعاً بإنقاذنا منها»[١].

وبناءً على كلّ ما تقدّم يمكن مواجهة النّقود الجارحة بروح منفتحة، وبفعل إيجابيّ يقوم على التّأمّل في ما قيل، وتمييز الصَّحيح من البهتان؛ لتصحيح الخطأ، وتقويم الصَّحيح، ولهذا ينبغي للعاقل الرَّشيد أن يوطّن نفسه على قبول النَّقد سواء كان من المؤالفين أو المخالفين قبل أن يراجع ويرد، وربما ردّ البهتان والافتراء قد يكون واجباً؛ لأنَّ السُّكوت يورث ريبة وشبهة؛ وإلى ذلك يشير الحديث المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا قُذفْتَ بشَيْء، فَلا تَتَهاوَنْ به، وَإنْ كانَ كَذباً، بَلْ تَحَرَّزْ منْ طُرُق الْقَذْف جُهْدَكَ، فَإنَّ الْقَوْلَ، وَإنْ لَمْ يَثْبُتْ يوجبُ ريبَةً وَشَكّاً**»[٢].

---

(١) الإمام الخمينيّ، موعد اللّقاء: ١١٥-١١٦.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٥٨/٢٠.

وأفضل الوسائل في دفع كيد المناوئين التّوسّل بالله تعالى، قال الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق:

«اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآله، وَاجْعَلْ لي يَداً عَلى مَنْ ظَلَمَني، وَلساناً عَلى مَنْ خاصَمَني، وَظَفَراً بمَنْ عانَدَني، وَهَبْ لي مَكْراً عَلى مَنْ كايَدَني، وَقُدْرَةً عَلى مَن اضْطَهَدَني، وَتَكْذيباً لمَنْ قَصَبَني، وَسَلامَةً ممَّنْ تَوَعَّدَني، وَوَفِّقْني لطاعَة مَنْ سَدَّدَني، وَمُتابَعَة مَنْ أَرْشَدَني.

اللّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآله، وَسَدِّدْني لأَنْ أُعارضَ مَنْ غَشَّني بالنُّصْحِ، وَأُجْزيَ مَنْ هَجَرَني بالْبِرِّ، وَأُثيبَ مَنْ حَرَمَني بالْبَذْل، وَأُكافيَ مَنْ قَطَعَني بالصِّلَة، وَأُخالفَ مَن اغْتابَني إلى حُسْنِ الذِّكْر، وَأَنْ أَشْكُرَ الْحَسَنَةَ، وَأُغْضيَ عَنِ السَّيِّئَة»[1].

(١) الصَّحيفة السَّجّاديّة الكاملة: ٨٢-٨٣ دعاء: ٢٠، دعاء مكارم الأخلاق.

السُّخْرِيَّةُ وَالاسْتِهْزاءُ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١).

معنى السّخريّة لغةً، قال ابن منظور: «سَخِرَ منه وبه سَخْراً وسَخَراً ومَسْخَراً وسُخْراً، بالضّمّ، وسُخْرَةً وسِخْرِيّاً وسُخْرِيّاً وسُخْرِيَّة: هزئ به»(٢).

أمّا اصطلاحاً؛ فـ«معنى السّخريّة الاستهانة والتّحقير، والتّنبيه على العيوب والنّقائص، على وجه يضحك منه. وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء. وإذا كان بحضرة المستهزأ به، لم يسمَّ ذلك غيبة، وفيه معنى الغيبة»(٣).

ومعنى الاستهزاء لغةً: قال الزّبيديّ: «هَزَأَ منه وهَزَأَ به... يَهْزَأُ هُزْءاً بالضَّمّ، وهُزُءاً بضمَّتين، وهُزوءاً بالضَّمّ والمدّ، ومَهْزُأَةً على مَفْعُلة بضمّ العين، أَي سَخِرَ منه كتَهَزَّأَ واسْتَهْزَأَ به، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾(٤)»(٥).

---

(١) الحجرات: ١١.

(٢) ابن منظور: لسان العرب: ٣٥٢/٤، (سخر).

(٣) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: ١٣١/٣.

(٤) البقرة: ١٤-١٥.

(٥) الزّبيديّ، تاج العروس: ٥٠٩/١، (هزأ).

أمّا معنى الاستهزاء اصطلاحاً؛ فهو «ارتياد أو طلب الهزء دون أن يسبق من المهزوء منه فعل يقتضي ذلك»[(١)].

وفرّق اللّغويّون بين الاستهزاء والسّخريّة بأنَّ «الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله، والسُّخر يدلّ على فعل يسبق من المسخور منه»[(٢)].

فالسُّخريّة والاستهزاء هي إحدى طرق التَّعبير بقصد الانتقاص والتَّحقير والاستحقار لمن يوجّه إليه الكلام للتّوهين به، وإسقاط قيمته الاجتماعيّة أو السّياسيّة، أو لمحاربته النَّفسيّة، ويستعمل فيها النّقد اللاذع الهدّام؛ لغرض إضحاك الآخرين عليه، وتكبير العيوب والنّواقص سواء كانت بدنيّة، أو نفسيّة، أو عقليّة، وتضخيم الأخطاء، وقلب الحقائق، وتشويه الصّور الحقيقيّة، وبالتّالي هو مسلك إعلاميٌّ من المسالك العدوانيّة، وهو سلاح جارح للمشاعر استعمله الأعداء المناهضون للحقّ منذ فجر التّأريخ لإيقاف تيّار الرّسالة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع عدّة، يقول تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[(٣)].

وهؤلاء نتيجة جهلهم، وإعجابهم واغترارهم بما في أيديهم من مال أو علم، أو بما يجيدون من مهارات وقدرات في الكيد والمكر والحيلة والتّلاعب بالألفاظ والأقاويل... وانخداعهم بزخارف الدُّنيا، وامتلاكها لقلوبهم، وتصوّرهم بأنَّهم بهذه الإمكانات أصبحوا أفضل وأكرم من أولئك؛ ولذا جرَّهم هذا التّصوّر

---

(١) موسوعة نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم ﷺ: ٣٨٧٣/٩.

(٢) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة: ٢١١.

(٣) البقرة: ٢١٢.

إلى السّخريّة والاستهزاء بالآخرين الَّذين يفتقرون إليه، كالَّذين تعرَّضوا لها في بداية الدَّعوة من خلّص المؤمنين كبلال الحبشيّ، وصهيب الرّوميّ، وعمّار بن ياسر، وأمه وأبيه من طغاة قريش، والأمرُ مستمرٌّ في كلّ زمان، ومع كلّ داعية للحقّ والعدل ما دام يتعارض مع مصالح المترفين؛ ولذلك جاءت الآية بصيغة المضارع؛ لأنَّه يفيد الاستمرار والتّجدّد، فهي سلاح قديم جديد يتطوّر ويتكرّر في كلّ زمان، وتتلوّن بحسب مقتضيات الزّمان ما دام هناك أصحاب حقّ وأصحاب باطل، وما دام هناك جهلاء وعلماء، فمهما بلغ داعية الإسلام من الكمال العلميّ والأخلاقيّ والاجتماعيّ، والسّموّ النَّفسيّ والاستقامة السّلوكيّة لا بدَّ أن يقاسي مرارتها ولو كان أكمل البشريّة كما عانى رسول الله ﷺ من مجموعة من عتاة قريش الَّذين كانوا يسخرون منه، ويؤذونه، وكانوا يهمزونه ويستهزؤون به، ويخاصمونه، هؤلاء المستهزئون برسول الله ﷺ خمسة هم: «الوليد بن المغيرة المخزوميّ، والعاص بن وائل السَّهميّ، والأسود بن عبد يغوث الزّهريّ، والأسود بن المطّلب، والحارث بن الطّلاطلة الثّقفيّ»[١].

وأخطر أنواع السّخريّة والاستهزاء: السّخريّة بمبادئ الحقّ والعدل لإيقاف المتمسّك بها والدّاعي إليها؛ لحرفه عنها وتعطيل فاعليّته؛ «لأنَّهم يريدون إسقاط الرّسالة، وتهديم فعاليّتها، تحت تأثير أجواء الاستخفاف والاستهزاء؛ لأنَّ مثل هذه الأجواء تمنع النّاس من الاهتمام الفكريّ بالطُّروحات المقدَّمة إليهم؛ لفقدان روحيّة الاحترام لها»[٢].

وهذا اللّون من السّخريّة تعرّض له جميع دعاة الإسلام من الأنبياء

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٢٧٩/١.

(٢) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ١٧/١٦.

والمرسلين وأوصيائهم وشيعتهم العاملين على طول خطّ الرّسالة، وما سلم رسولٌ، ولا نبيٌّ من استهزاء الكافرين وسخريّتهم من قومه وغيرهم، وهذا ما صرّح به القرآن الكريم:

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾(١).

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾(٢).

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾(٣).

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾(٤).

ولنتأمّل بمَثَل واحد من تلك الأمثلة الَّتي واجهها نوح عليه السلام، فبعد أن بذل قصارى جهده في التَّذكير والدَّعوة والهداية والإرشاد إلى هدى الله بحيث إنَّه ما ترك وسيلة لهدايتهم وإنقاذهم من الجهل الّذي ارتكسوا فيه، وإخراجهم من الظُّلمات إلى النّور، وما ترك وقتاً إلا دعاهم فيه كما وصف تعالى جدّيّته ومثابرته:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۞ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا

(١) الأنعام: ١٠.

(٢) الحجر: ١١.

(٣) يس: ٣٠.

(٤) الزّخرف: ٧.

رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾[1].

وقضى معهم ألف سنة إلا خمسين عاماً إلا أنَّهم لم يسمعوا، ولم يطيعوا، وعذَّبوه بأشدّ العذاب، وما آمن معه إلا قليل، ولمّا أوحى الله: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[2]، ولمّا حانت ساعة إهلاكهم أمره الله أن يصنع الفلك؛ ليغرقهم، ازدادت سخريّتهم واستهزاؤهم كما صوّرها تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[3].

كانوا يسخرون منه، ويستهزئون به بعناد وإصرار؛ لأنَّهم لا يدركون أسرار عمله، فلا يرون إلا الظَّواهر الخارجيّة، وأمّا التَّخطيط الإلهيّ فهم بمنأى منه، بل لا يتبادر إلى أذهانهم، وجهلوا أنَّ الله إذا أراد شيئاً هيّأ أسبابه، فهم لا يرون إلا أخشاباً في أرض يباب لا يمكن بتصوّرهم أن يصلها الماء، فكيف يصنع السَّفينة فيها؟! ولذلك راحوا يسخرون، ويضحكون، لجهلهم بالأسرار الإلهيّة، «يقال: إنّ الملأ من قوم نوح والأشراف كانوا جماعات، وكلّ جماعة تختار نوعاً من السّخريّة والاستهزاء بنوح؛ ليضحكوا ويفرحوا بذلك الاستهزاء! فمنهم من يقول: يا نوح، يبدو أنَّ دعوى النّبوّة لم تنفع وصرتَ نجّاراً آخر الأمر! ومنهم من يقول: حسناً تصنع السَّفينة، فينبغي أن تصنع لها بحراً، أرأيتَ إنساناً عاقلاً يصنع السَّفينة على اليابسة، ومنهم من يقول: واهاً لهذه السَّفينة العظيمة، كان بإمكانك أن تصنع

(١) نوح: ٥-١٠.

(٢) هود: ٣٦.

(٣) هود: ٣٨.

أصغر منها ليمكنك سحبها إلى البحر. كانوا يقولون مثل ذلك ويقهقهون عالياً، وكان هذا الموضوع مثار حديثهم وبحثهم في البيوت وأماكن عملهم، يتحدّث بعضهم مع البعض الآخر في نوح وقلّة فكر أصحابه: تأمّلوا الرَّجل العجوز، وتفرّجوا عليه فكيف انتهى به الأمر، نفهم الآن أنَّ الحقَّ معنا حيث لم نؤمن بكلامه، فهو لا يملك عقلاً صحيحاً!!»(١).

وعَنْ إِسْماعيلَ الْجُعْفيِّ، عَنْ أَبي جَعْفَرٍ عليه السلام، قالَ: «**إنَّ نُوحاً عليه السلام لَمَّا غَرَسَ النَّوى مَرَّ عَلَيْه قَوْمُهُ، فَجعلوا يَضْحَكون ويَسْخَرون، ويَقولونَ: قَدْ قَعَدَ غَرّاساً، حَتّى إذا طالَ النَّخْلُ، وكانَ جَبّاراً طُوالاً قَطَعَهُ ثُمَّ نَحَتَهُ، فَقالوا: قَدْ قَعَدَ نَجّاراً، ثُمَّ أَلَّفَهُ، فَجَعَلَهُ سَفينَةً، فَمَرّوا عَلَيْه، فَجَعَلوا يَضْحَكونَ ويَسْخَرونَ، ويَقولونَ: قَدْ قَعَدَ مَلاحاً في فَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ، حَتّى فَرَغَ مِنْها**»(٢).

وفي تفسير الزّمخشريّ: «﴿**سَخِرُواْ مِنۡهُۚ**﴾ ومن عمله السّفينة، وكان يعملها في بريّة بهماء في أبعد موضع من الماء، وفي وقت عزَّ الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضاحكون ويقولون له: يا نوح، صرتَ نجّاراً بعدما كنت نبيّاً»(٣).

ولكن كلّ هذه الأساليب الرَّخيصة لم تكن لتؤثّر على نوح، فتوقفه عن مواصلة عمله الجادّ، وما كان ردُّه عليهم إلا أن ﴿**قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ**﴾(٤)؛ لأنَّ قومه كانوا في غاية الجهل والتّخلّف، فلا ينفع معهم

---

(١) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤٩٣/٦.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٦٤٣/١٥، ح/١٥٢٤٠.

(٣) الزّمخشريّ، الكشّاف: ٣٩٣/٢.

(٤) هود: ٣٨.

العلم والأدب والأخلاق الحسنة، فلا بدَّ من الرَّدّ عليهم بما يفقهونه، ويرتدعون به، وما قال ذلك إلا بعد أن استنفد كلّ وسائل الهداية والإرشاد والتَّذكير والإقناع، فلم يستجيبوا لها، وقد اختلف المفسّرون في معنى سخريّة نوح لقومه:

فقيل: «وقوله: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ جواب من نوح لهم بأنّا ﴿نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، يعني نذمّكم على سخريّتكم، وسمّاه سخريّة، كما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾[2]، وأطلق عليه اسم السّخريّة على وجه الازدواج»[3].

وقيل: «إنَّ هذا على وجه ازدواج الكلام، ومعناه: إن تستجهلوني فإنّي أستجهلكم إذا نزل العذاب، وقيل معناه: إن تسخروا منّي فسترون عاقبة سخريّتكم»[4].

وقيل: «إنْ تَسْتجهلونا فيما نصنع فإنّا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتّعرّض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منّا، أو إن تستجهلونا فإنّا نستجهلكم في استجهالكم؛ لأنّكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر»[5].

وقيل: «الأرجح أن يريد: إنّا نسخر منكم الآن، أي نستجهلكم لعلمنا بما أنتم عليه من الغَرَر والكون بمدرج عذابه، ثمّ جاء قوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[6]

---

(١) الشّورى: ٤٠.

(٢) آل عمران: ٥٤.

(٣) الشّيخ الطّوسيّ، التّبيان في تفسير القرآن: ٤٨٤/٥.

(٤) السّمعانيّ، تفسير القرآن: ٤٢٨/٢.

(٥) الكشّاف: ٣٩٣/٢.

(٦) هود: ٣٩.

تهديداً»(١).

وقيل: «فيه وجوه: الأوَّل: التَّقدير إن تسخروا منّا في هذه السّاعة، فإنّا نسخر منكم سخريّة مثل سخريّتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدُّنيا والخزي في الآخرة. والثّاني: إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإنّا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتّعرّض لسخط الله تعالى وعذابه، فأنتم أولى بالسّخريّة منّا. الثّالث: إن تستجهلونا فإنّا نستجهلكم، واستجهالكم أقبح وأشدُّ؛ لأنَّكم لا تستجهلون إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر والاغترار بظاهر الحال كما هو عادة الأطفال والجهال»(٢).

وقيل: «نسخر منكم في المستقبل سخريّة مثل سخريّتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدُّنيا، والحرق في الآخرة، ولعلَّ مراده نعاملكم معاملة من يفعل ذلك؛ لأنَّ نفس السّخريّة ممّا لا يكاد يليق بمنصب النّبوّة، ومع ذلك لا سداد له؛ لأنَّ حالهم إذ ذاك ليس ممّا يلائمه السّخريّة أو ما يجري مجراها»(٣).

والأقوال في ذلك كثيرة، وكلٌّ منها له وجه من الصّحّة، وأغلب المفسّرين أشاروا إلى معنى ردّ نوح عليه الصَّلاة والسّلام، ولم يشيروا إلى هدف ردَّه عليهم، وهذا ما بيّنه مفسرون آخرون كالعلامة الطّباطبائيّ رحمه الله بقوله: «والسّخريّة وإن كانت قبيحة، ومن الجهل إذا كانت ابتدائيّة، لكنّها جائزة إذا كانت مجازاة وبعنوان المقابلة، وخاصّة إذا كانت تترتّب عليها فائدة عقلائيّة كإنفاذ العزيمة وإتمام الحجّة، قال تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤)، ويدلّ

---

(١) ابن عطيّة الأندلسيّ، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٥٧٤/٤.

(٢) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: ٢٣٢/١٧-٢٣٣.

(٣) تفسير أبي السّعود: ٢٠٧/٤.

(٤) التّوبة: ٧٩.

على اعتبار المجازاة والمقابلة بالمثل في الآية قوله: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾»[١].

وأدقّ تعليل هو ما طرحه السّيّد فضل الله رَحِمَهُ الله بقوله: «ولكنّ الله أراد لنوح أن يردّ الأسلوب بمثله؛ لأنّ الفكر إنّما يكون لمن يحترمون الفكر، و الحوار ينشأ مع من يريدون الحوار، أمّا من يريدون التّحطيم و التّدمير، عن قصد و تصميم شرّير فلا بدّ من مواجهتهم بأسلوبهم؛ لأنّ ذلك ما تقتضيه الحكمة في مواجهة الموقف بما يتطابق مع مقتضى الحال، و هكذا أراد الله له أن يقول، في ما ألهمه من وحي الحكمة: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، فذلك هو ردّ الفعل على الموقف، و لكنّه يختلف في دوافعه عمّا انطلقتم فيه، فإذا كانت سخريّتكم ناشئة عن عقدة، أو عن جهل لطبيعة العمل الّذي أقوم به، فإنّا نسخر منكم من موقع اطّلاعنا على النّهاية السّيّئة الّتي ستنتهون إليها، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ من دون أن تشعروا، أو تفكّروا، أو تواجهوا ذلك بجدّيّة و مسؤوليّة، فإنّ من يرقص في مأتمه، أو يعبث بما يمثّل قضيّة المصير عنده أدعى للسّخريّة ممّا تسخرون منه؛ لأنّ مقدار العبث فيه أشدّ من العبث الّذي تتصوّرونه في صنع السّفينة، الّتي ستكتشفون أنّ صناعتها أمرٌ جديٌّ كلّ الجدّيّة لا مجال فيه لأيّ عبث، أو جهل، أو ما يشبه ذلك»[٢].

والسّخريّة سلاحٌ جارحٌ لكرامة الإنسان أوعد الله عليه النّار، يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۞ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ۞ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۞ وَمَا

---

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن:١٠/٢٢٥.

(٢) تفسير من وحي القرآن: ٩/٢٢١-٢٢٢.

﴿أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾(١).

وعن النّبيّ ﷺ: «إنَّ الْمُسْتَهْزئين بالنّاس، يُفْتحُ لأَحَدهمْ بابٌ من الْجنَّة، فيُقالُ: هلُمَّ هلُمَّ، فيَجيءُ بكَرْبه وغَمِّه، فإذا جاءَ أُغْلقَ دونَه، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بابٌ آخرُ، فيُقالُ: هلُمَّ هلُمَّ، فيَجيءُ بكَرْبه وغَمِّه، فإذا جاءَ أُغْلقَ دونَه، فما يَزالُ كَذلك، حتّى إنَّ الرَّجلَ ليُفْتحُ لهُ الْباب، فيُقالُ لهُ: هلُمَّ هلُمَّ فما يأتيه»(٢).

أسْبابُ السُّخْرِيَّةِ:

إنَّ السّخريّة أدلّ دليل على جهل السّاخر وغبائه وتخلّفه، وقد أكّد القرآن الكريم ذلك في قصّة موسى عليه السلام مع قومه في قضيّة ذبح البقرة، وتشدّدهم واستغرابهم من طلبه منهم أن يذبحوا بقرة حتّى تصوَّروا أنّه يستهزئ بهم ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، إلا أنَّ ردّ موسى عليه السلام كان استنكاراً لقولهم، واستعاذة بالله أن يكون كذلك، وكأنَّه يقول لهم: إنَّ الاستهزاء مسلك الجهلة، ورسل الله منزّهون منه، فقال: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٣).

وهنا إشارة واضحة صريحة على أنَّ الاستهزاء من خصال الجاهلين والعقل يؤكّد ذلك؛ لأنَّ المستهزئ لو كان يملك عقلاً راجحاً، ومنطقاً سليماً، وعلماً صحيحاً لما سلك سبيل السّخريّة والاستهزاء، لكي يسقط خصمه أو

(١) المطفّفين: ٢٩-٣٤.

(٢) ابن أبي الدّنيا، كتاب الصّمت وآداب اللّسان: ١٦٩، ح/٢٨٥.

(٣) البقرة: ٦٧.

يفحمه، وتلك هي أخلاق الجاهلين اللاهثين وراء شهوات نفوسهم، «لم يُقَوِّمهم أمر من الله تعالى، ولا نهي، فكان الرَّجل يسخر ويلمز ويهمز وينبز بالألقاب، ويظنُّ الظُّنون، فيتكلّم بها ويغتاب، ويفتخر إلى غير ذلك من أخلاق النُّفوس الباطلة، فنزلت هذه الآية تأديباً لأمّة محمّد ﷺ»[١].

وخلاصة القول: إنَّ «أساس السّخريّة والاستهزاء هو الإحساس بالاستعلاء نفسه، والغرور والكبر، وأمثال ذلك إذ كانت تبعث على كثير من الحروب الدّامية على امتداد التّأريخ! وهذا الاستعلاء أو "الأنانيّة" غالباً ما يكون أساسه القيم المادّيّة والظّواهر المادّيّة، فمثلاً فلان يرى نفسه أكثر مالاً من الآخر، أو يرى نفسه أجمل من غيره، أو أنّه يعدُّ من القبيلة المشهورة والمعروفة أكثر من سواها، وربّما يسوقه تصوّره بأنَّه أفضل من الجماعة الفلانيّة علماً وعبادةً ومعنويّةً إلى السُّخريّة منهم، في حين أنَّ المعيار الواقعيّ عند الله هو "التَّقوى" وهذه لها علاقة بطهارة القلب وخلوص النّيّة والتَّواضع والأخلاق والأدب! ولا يصح لأيّ أحد أن يقول أنا أفضل عند الله من سواي؛ ولذلك عُدَّ تحقير الآخرين والتَّعالي بالنَّفس من أسوأ الأمور.. وأقبح العيوب الأخلاقيّة الَّتي يمكن أن تفتضح وأن تُردع في حياة النّاس جميعاً»[٢].

وهناك أسباب أخرى، وأكثرها أسباب نفسيّة، أو أسباب سياسيّة.

أمّا الأسباب النَّفسيّة؛ فقد يقع الإنسان في خطأ التَّقدير لنفسه، فالآية كأنَّها تقول له: وما يدريك أيّها السّاخر بالنّاس، أنَّ هؤلاء النّاس هم خير وأشرف وأرقى منك، فعلامَ هذا الغرور، مع أنَّ هناك قيماً كريمة كثيرة قد خفيت عليك،

---

(١) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٥/٨.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥٤٦/١٦.

ولا تعرفها، فلمَ هذا التّصوّر الاستكباريّ الّذي يدفعك إلى السّخريّة بالآخرين، هل أنت مبرّئ من كلّ نقص وعيب حتّى تنتقص من الآخرين؟ وهل أنت أرقى إنسان على وجه الخليقة؟ ألم يكن هناك من هو أرفع وأقدر وأسمى شرفاً وأرقى علماً؟ لماذا لم تنظر إلى عيب نفسك قبل نظرك لعيب الآخرين، وهذا هو منتهى العيب في الإنسان أن «يرى القشّة في عين أخيه، ولا يرى النَّخلة في عينه»، قال الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**كَفى بِالْمَرْءِ عَيْباً أَنْ يُبْصِرَ مِنَ النّاسِ ما يَعْمى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِه**»[1].

فَالَسَّبب الرَّئيس للسّخريّة هو الجهل، والغرور، والتّكبّر، والإعجاب بالنَّفس، والجريان وراء الأهواء، ولغفلة المغرور المعجب بنفسه ما درى أنَّه سيكون هو نفسه موضعاً لسخريّة الآخرين به، قال الإمام عليّ عليه السلام: «**مَنْ أُعْجِبَ بِنَفْسِه سُخِرَ بِه**»[2].

وهذه الأمراض النّفسيّة هي أمّهات الرّذائل الأخلاقيّة، فما أصيب بها إنسان إلا انحطَّ قدره إلى أسفل السّافلين، قال عبّاس محمود العقّاد: «فالعبث والغرور بابان من أبواب السُّخر، بل هما جماع أبوابه كافّة، وكلّ ما أضحك من أعمال النّاس، فإنَّما هو لون من ألوان الغرور، أو ضرب من ضروب العبث، وكثيراً ما يلتقيان؛ فإنَّ الغرور هو تجاوز الإنسان قدره، والعبث هو السَّعي في غير جدوى، ولا يكون هذا في أكثر الأحيان إلا عن اغترار من المرء بنفسه وتعدّ منه لطوره»[3].

---

(١) الكافي: ٢٨٤/٤، ح/٣٠٤٥.

(٢) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٠٩، ح/٧١٠٩.

(٣) عبّاس محمود العقّاد، المجموعة الكاملة (جحا الضّاحك المضحك): ٣٥٥/١٦.

وقد تكون السّخريّة نتيجة إحساس داخليّ بالحقارة إزاء الآخرين، فيحاول أن يسقط الآخرين حسداً من نفسه ليعوّض عن نقصه.

وقد يكون السَّبب هو نوعاً من التّملّق للأقوياء والأغنياء طمعاً لما في أيديهم، ويحاول من خلال السّخريّة بالآخرين خصوصاً من لهم خصومة معه؛ ليجعل لنفسه مكاناً عندهم، وقد يكون الدّافع هو العداوة، ولأجل أن يحطّ من قيمة عدوّه، فيحاول أن يستهزئ به.

الآثارُ السّلبيَّةُ للسُّخْريَّةِ وَالاسْتِهْزاءِ:

والسّخريّة بعد هذا لها آثار سلبيّة على الإنسان نفسه، وعلى المجتمع، أمّا على الفرد فتسقط قدره، وتحطّ منزلته الاجتماعيّة؛ لأنَّ عموم عقلاء العالم لا ينظرون باحترام لمن يسخر بالنّاس، ويستهزئ بهم؛ ولأنَّ غلبة السّخريّة والاستهزاء على الشَّخص دليل الخفّة والتَّفاهة، وانعدام الوقار والرّزانة، وهي تفقد الإنسان الجدّيّة والفاعليّة، وعندما يصحو على نفسه، ويلتفت إلى ضياع عمره في ما لا طائل به يصيبه النَّدم، ويبقى يطلق الحسرات على ما فرَّط في جنب الله ﴿ **أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ** ﴾[1].

هذا من جانب، ومن جانب آخر هي من أبرز خصال المنافقين الَّذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر كما وصفهم تعالى: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ** ﴾[2].

---

(١) الزّمر: ٥٦.

(٢) البقرة: ١٤.

وفي آية ثانية: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[(١)].

ولعلَّ هذه الصّفة من أسوأ السّاخرين؛ لأنَّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار، وليس هناك دليل أدلّ من هذا على الخسّة والانحطاط.

وأمّا الآثار الاجتماعيّة، فالأمر أشدّ وأنكى؛ فإنَّها تقطع الرَّوابط الاجتماعيّة القائمة على الأخوّة، والألفة، والتّوادد، والتّراحم، وتنشر بذور العداوة والبغضاء، وتورث الأحقاد والأضغان، وتبعث في النَّفس روح العداء والضَّغينة والانتقام، وتكون سبباً مهمّاً لإثارة الفتن، وتفقد الثّقة بين النّاس، وتنشر العبثيّة والهزل والميوعة واللامبالاة، وتفقد النّاس الشّعور بمسؤوليّتهم إزاء الأحداث الّتي تعرّضهم للأخطار.

ولمّا كان للسّخريّة والاستهزاء كلّ هذه الآثار السّلبيّة جاء النّداء موجّهاً بصورة خاصّة إلى المؤمنين، ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ...﴾؛ إذ «إنَّ الله عمَّ بنهيه المؤمنين أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السُّخريّة، فلا يحلّ لمؤمن أن يسخر من مؤمن، لا لفقره، ولا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك»[(٢)]؛ ليربّي فيهم روح الألفة والمحبّة والتّعاون على البرّ والتّقوى، وترسم لهم أسلوب العلاقات الإيمانيّة في المجتمع الإسلاميّ، القائم على أساس الاحترام، والوقار، والحشمة والأدب بين المؤمنين، فليس من المؤمنين من لم يوقّر كبيرهم، ولم يعطف على صغيرهم، فالمؤمن لا بدَّ من أن يحفظ كرامة المؤمن، ومن هنا جاء النَّهي قاطعاً

---

(١) التّوبة: ٦٤.

(٢) تفسير الطّبريّ: ٣٦٦/٢١.

عن السّخريّة بكلّ أنواعها باللّسان، أو بالإشارة بأيّة جارحة من الجوارح، أو الكتابة، أو أيّ شيء آخر؛ لأنَّها تجرح المشاعر، وتمسّ الكرامة، وتنافر القلوب، وهذه الأمور من أشدّ ما منعها الشّارع المقدّس، بل في كثير من الأحيان حرّمها.

ونهت الآية الكريمة عن السّخريّة، فقد نهت وحذَّرت آيات أخر عن الهمز واللَّمز، وهما نوع من السّخريّة تذكر فيهما معايب الآخرين للغضّ من أقدارهم ومنزلتهم.

قال الرّاغب في مفرداته: «اللَّمز الاغتياب وتتبّع المعاب، يقال لمزه يلمِزُهُ ويلمُزُه، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾[١]، ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾[٢]، ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾[٣]، أي لا تلمزوا الناس فيلمزونكم فتكونوا في حكم من لمز نفسه»[٤].

والهمز: هو نوع من الاغتياب، وقد أوعد الله عليه النّار: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾[٥].

والنَّبز: هو التَّلقيب بالألقاب الَّتي يكرهها المخاطب: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾.

ولو لم يكن في ذمّ هذه الأعمال المشينة إلا قوله: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ لكفى، كيف وقد وصف القرآن مرتكبها إذا لم يتب بأنَّه ظالمٌ ﴿وَمَن

---

(١) التّوبة: ٥٨.

(٢) التّوبة: ٧٩.

(٣) الحجرات: ١١.

(٤) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٦٢٩، (لمز).

(٥) القلم: ١١.

﴿ لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١)، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

سَخِرَ اللّٰهُ مِنْهُمْ:

السّخريّة من شأن الجاهلين والضّعفاء والعابثين، ولكنّنا نجد أنَّ النَّبيّ العظيم نوحاً عليه السلام ردَّ على قومه عندما سخروا منه بأنَّه سيسخر منهم كما يسخرون، وقد تقدَّم بيان معنى سخريّته وسببها، وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣)، نُسبَت السّخريّة بالكافرين إليه جلَّ وعلا، فما معنى سخريّته بالمخالفين لحكمه والجاحدين لنعمته؟

والجواب إنّما يسخر ويستهزئ الجاهلون؛ لأنَّهم يفتقرون إلى البرهان والحجّة الدّامغة، وعدم قدرتهم على تحقيق مآربهم بوسيلة أفضل، فيلجؤون إلى هذه الوسيلة، وأمّا من يملك قدرة المجازاة والمعاقبة فليس الأمر كذلك، ولذلك تعدَّدت أقوال المفسّرين في معنى سخريّة الله من السّاخرين، وقد ورد في الأحاديث الشَّريفة عن أهل بيت العصمة والطَّهارة بيان هذه الآية وغيرها، ممّا تثير تساؤلات القارئ، منها ما رُويَ عن عليّ بن الحسن بن فضّال، عن أبيه، عن الرّضا عليّ بن موسى عليه السلام قال: «سألتُه عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾، وعن قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾(٤)، وعن قوله: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾(٥)،

---

(١) الحجرات: ١١.

(٢) آل عمران: ٥٧، و١٤٠.

(٣) التّوبة: ٧٩.

(٤) البقرة: ١٥.

(٥) آل عمران: ٥٤.

وعن قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾(١)، فقال: **إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى لا يَسْخَرُ، ولا يَسْتَهْزِئُ، ولا يَمْكُرُ، ولا يُخادِعُ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وَجَلَّ يُجازيهِمْ جَزاءَ السُّخْرِيَّة، وَجَزاءَ الاسْتِهْزاء، وَجَزاءَ الْمَكْر، وَجَزاءَ الْخَديعَة، تَعالى اللهُ عَمّا يَقولُ الظّالمونَ عُلُوّاً كَبيراً**»(٢).

وتصبُّ أكثرَ أقوال الَّذين كتبوا في بيان الآية ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ وتفسيرها في المعنى نفسه الَّذي أجاب به الإمام الرّضا عليه السلام، ونحن نستعرض آراء المفسّرين، لعلَّنا نتوصّل إلى المعنى الحقيقيّ المقصود الَّذي يتناسب مع مقام الألوهيّة:

قيل: «أي يجازيهم على سخريّتهم بأنواع العذاب... ولمّا كان ضرر سخريّتهم عائداً عليهم جاز أن يقال: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ لا أنَّه يفعل السّخريّة»(٣).

وقيل: «تسمية العقوبة باسم الذّنب، وهي عبارة عمّا حلَّ بهم من المقت والذّلّ في نفوسهم»(٤).

وقيل: «إنّ معنى استهزائه بهم: أنَّه جعل لهم بما أظهروه من موافقة أهل الإيمان ظاهر أحكامهم من الموارثة، والمناكحة، والمدافنة، وغير ذلك من الأحكام، وإن كان قد أعدَّ لهم في الآخرة أليم العقاب بما أبطنوه من النّفاق، فهو سبحانه كالمستهزئ بهم من حيث جعل لهم أحكام المؤمنين ظاهراً، ثمَّ ميَّزهم منهم في الآخرة»(٥).

---

(١) النّساء: ١٤٢.

(٢) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ١٣.

(٣) التّبيان في تفسير القرآن: ٢٦٧/٥.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٣٧٢/٤.

(٥) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٤١/١.

وقيل: «ومعناه: أمهلهم حتّى ظنّوا أنَّه أهملهم... وقيل: معنى ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ جازاهم على سخريّتهم، وجزاء الشَّيء قد يسمّى باسم الشَّيء كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[1]»[2].

وقيل: «إنَّ هذا من قبيل المشاكلة، أو المراد منه لازم السّخريّة، وهو إيقاع الذُّلّ والهوان بهم... ذكره بلفظ الماضي؛ ليعلم أنَّ سخريّة المنافقين نتيجة سخريّة الله بهم في الأزل»[3].

وقيل: «والتَّعبير بذلك للمشاكلة، وليست إنشائيّة للدّعاء عليهم لأن يصيروا ضحكة؛ لأن قوله تعالى جدّه: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، جملة خبريّة معطوفة عليها، فلو كانت دعاء لزم عطف الإخباريّة على الإنشائيّة، وفي ذلك كلام، وإنَّما اختلفتا فعليّة واسميّة؛ لأنَّ السّخريّة في الدُّنيا هي متجدّدة، والعذاب في الآخرة، وهو دائمٌ ثابت»[4].

وقيل: «هذا التَّعبير يسمّى مشاكلة، وما هو إلا العدل في جزاء المماثلة، أي جزاهم بمثل ذنبهم، فجعلهم سخريّة للمؤمنين وللنّاس أجمعين، بفضيحته لهم في هذه السّورة، ببيان هذا الخزي وغيره من مخازيهم وعيوبهم، ولهم فوقه عذاب أليم»[5].

وقيل: «﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ لأنَّهم يحسبون أنفسهم في موقع القوّة في ذلك،

---

(١) الشّورى: ٤٠.

(٢) أبو حيّان الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط: ٩٩/٥.

(٣) النّيسابوريّ، تفسير غرائب القرآن: ٥٠٨/٣-٥٠٩.

(٤) الآلوسيّ، روح المعاني: ١٤٧/١٠.

(٥) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: ٥٦٤/١٠.

وهم في مواقع الضَّعف، ويخيّل إليهم أنَّهم يمثّلون الذَّكاء، وهم يمثّلون الغباء؛ لأنَّهم لا يبلغون ما يريدون من كلّ ذلك، فيضيع جهدهم هباءً، ما يدعو إلى السّخريّة من جهة، أو يجسّد واقع السُّخريّة بهم من جهة أخرى»[١].

وقيل: «ليس المراد من جملة ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ أنَّ الله سيعمل أعمالاً تشابه أعمالهم، بل المراد - كما قاله المفسّرون - أنَّ الله سبحانه وتعالى سيجازيهم على ما عملوا من الأعمال السّيّئة، أو أنَّه تعالى سيحقّرهم كما حقّروا عباده وسخروا منهم»[٢].

ومن خلال عرض أقوال المفسّرين يتبيّن أنَّ الله تعالى سخر منهم بمعنى جازاهم بفعلهم هذا بعد أن استدرجهم بنعمه تعالى حتّى ظنّوا أنَّه أهملهم بعد أن أمهلهم، فأصابهم الإعجاب والغرور والاستكبار، وصاروا يتطاولون، ويستهينون، ويستهزئون بعباد الله، آمنين مكر الله غفلةً منهم، ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[٣].

وهكذا شملتهم سنّة الاستدراج، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[٤].

قال الشّريف المرتضى ﷺ: «يكون معنى الاستهزاء المضاف إليه تعالى أن يستدرجهم، ويهلكهم من حيث لا يعلمون، ولا يشعرون.. ويروى عن ابن

---

(١) تفسير من وحي القرآن: ٣٤٩/٨.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٣٤/٦.

(٣) الأعراف: ٩٩.

(٤) البقرة: ١٥.

عبّاس أنَّه قال في معنى استدراجه إيّاهم: إنّهم كانوا كلّما أحدثوا خطيئة جدَّد لهم نعمة، وإنّما سمّى هذا الفعل استهزاء من حيث غيّب تعالى عنهم من الاستدراج إلى الهلاك غير ما أظهر لهم من النّعم، كما أنَّ المستهزئ منّا المخادع لغيره يضمر أمراً، ويظهر غيره»[1].

وقال الشّريف الرّضيّ قُدِّسَ سِرُّهُ في معنى الآية: «المراد بها أنَّه تعالى يجازيهم على استهزائهم بإرصاد العقوبة لهم، فسمّى الجزاء على الاستهزاء باسمه، إذ كان واقعاً في مقابلته، والوصف بحقيقة الاستهزاء غير جائز عليه تعالى؛ لأنَّه عكس أوصاف الحليم، وضدّ طريق الحكيم»[2].

---

(١) أمالي الشَّريف المرتضى: ٥٥/٤، والمعنى نفسه ذهب إليه الشّيخ الطّبرسيّ في مجمع البيان: ١٤١/١.

(٢) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١١٣-١١٤.

الْغيبَةُ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

تعرّضت الآية الكريمة إلى ثلاثة أمراض من أمراض النَّفس الإنسانيّة، وهي سوء الظَّنّ، والتّجسّس، والغيبة، والأخيران هما من آثار الأوَّل، وهنا أنقل بحثاً عن سوء الظَّنّ سبق أن نشرته في كتاب «دراسات أخلاقيّة» لمناسبته للموضوع الَّذي أنا في صدد بحثه، فأقول:

سوءُ الظَّنِّ:

الصّورة الّتي نكوّنها في نفوسنا عن الأشخاص: صفاتِهم، أخلاقِهم، أعمالِهم، علاقاتِهم، قد تكون صورة جميلة، وقد تكون قبيحة؛ وعلى هاتين الصّورتين تترتّب آثار كثيرة، فإذا كانت الصّورة جميلةً نكون قد أحسنّا الظّنّ، وإذا كانت بالعكس فبالعكس، وهذا الظّنّ الحسن أساس نجاح علاقة الإنسان بالآخرين.

ندرس حالة سوء الظّنّ من خلال الآية على محاور عدّة:

---

(١) الحجرات: ١٢.

١- أسباب سوء الظَّنّ.

٢- آثار سوء الظَّنّ.

٣- علاج سوء الظَّنّ.

٤- الوقاية من مضاعفات حسن الظَّنّ.

أَسْبابُ سوءِ الظَّنِّ:

سوءُ الظَّنّ مرآةٌ لسريرة الإنسان، فالخائن يعتقد أنَّ النّاس كلّهم على شاكلته، وهكذا الكاذب والفاسق؛ لأنَّ «**الرَّجُلَ السّوءَ لا يَظُنُّ بِأَحَد خَيْراً؛ لأَنَّهُ لا يَراهُ إلا بِوَصْفِ نَفْسه**»[(١)]، وقد قيل: «إنَّ الكافر يتصوّر النّاسَ على دينه»؛ فأسباب سوء الظّنّ كثيرة جداً، نذكر منها:

١- **الجبن**: وضعف النّفس، وهبوط الإرادة؛ ولذلك فإنَّ النَّفس تستسلم لكلّ فكر فاسد يتوارد عليها.

٢- **التّلوّث الرّوحيّ والقلبيّ**: إذ إنَّ حسن الظّنّ هو نتيجة للصّفاء القلبيّ والطّهارة النّفسيّة، وسوء الظّنّ بالعكس هو أثر من آثار التّلوّثات الرّوحيّة.

٣- **التّكبّر والأنانيّة**: وهذا نابعٌ عن شعور بالنّقص؛ ولذا فإنَّ هؤلاء يسعون لإثبات شخصيّاتهم، وقوّتهم عن طريق تحطيم شخصيّات الآخرين، وتصغيرهم، وإرضاء هذا الميل الخبيث.

٤- **مجالسة أهل السّوء**: إذ إنَّ الجلوس عند العناصر الفاسدة ينعكس على مجالسيهم، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٣، ح/٥٦٦٧.

«صُحْبَةُ الأَشْرار توجبُ سوءَ الظَّنِّ بالأَخْيار».

«صُحْبَةُ الأَشْرارِ تُكْسِبُ الشَّرَّ كَالرِّيحِ إِذا مَرَّتْ بِالنَّتنِ حَمَلَتْ نَتْناً»[١].

٥- **النّفاق**: المنافق شخصيّة يتظاهر بشيء، وباطنه شيء آخر؛ فهي شخصيّة قائمة على أساس الازدواجيّة، ونحو من أنحاء التّلوّن والتّقلّب.

٦- **الحسد**: الحسد ينقلب على الإنسان، ويتحوّل في نفسه إلى سوء الظّنّ، فعندما يحسد أحداً يستبطن له سوء الظّنّ إذا لم يستطع أن يضرّه، فيُكَوّن في داخله صورة قبيحة عنه.

الآثارُ الّتي تَتَرَتَّبُ عَلى سوءِ الظَّنِّ:

الآثار الّتي تترتّب على سوء الظّنّ كثيرة جدّاً، نذكر منها:

الأوّل: هو مرض روحيٌّ خبيثٌ، يفتك بالفرد والمجتمع، وقد يشتدّ هذا المرض عند المريض، فيجعله يظنّ سوءاً بكلّ إنسان؛ ولذا فهو من الأمراض الاجتماعيّة الّتي تعطّل عجلة الحياة الاجتماعيّة كالغيبة، والبهتان، والنّميمة؛ فهو يخلق حالة ريبة في الآخرين، ويعطّل العلاقات، وخصوصاً إذا صار الشَّكُّ أساسَ العلاقة؛ إذ إنَّ الشَّكَّ والرِّيبة يقلّلان من فرص التّعاون مع الآخرين في الحياة الاجتماعيّة، فلو كانت علاقة صاحب المعمل مبنيّة على أساس سوء الظّنّ فلا يمكن أن يدير المعمل، ولا يستطيع أن يواصل الإنتاج، وهكذا القائد مع جنوده، والتّاجر مع زبائنه... وهلمّ جرّا.

وإنَّ سوء الظّنّ يعطّل حركة المجتمع السّياسيّ، فكلّ قائد يتحرّك لإحداث عمل تغييريّ إذا اكتنفته الشّائعات تختلّ الثّقة بينه وبين القاعدة، فلا

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٣١، ح/٩٨٢٧-٩٨٢٦.

القيادة تثق بالقاعدة، ولا القاعدة تعطي ثقتها للقيادة؛ لذا الآية الكريمة أمرت باجتناب كثير من سوء الظّنّ.

«ولمّا كان الظَّنُّ أمراً غير اختياريّ، فقد أمر الشّارع المقدس بتجنّب ترتيب الأثر عليه، فالمنهيّ عنه هو ترتيب الأثر على ما يخطر في النَّفس من أوهام وخيالات، فلا يوجّه الإهانة والقذف وغير ذلك على المظنون به».

الثّاني: إنَّ سوء الظّنّ يحجب الإنسان عن العمل الاجتماعيّ؛ لأنَّ المصاب به يفقد القدرة على العمل والتّعامل مع المجتمع الّذي يعيش فيه، فهو يسلب ثقة الأفراد بعضهم ببعض، ويمنع التّعاون بينهم، ويفتّت وحدة الكلمة، ويجعل القلوب متنافرة، ويثير الحقد على الآخرين، بل يسبّب الفتن والحروب؛ لأنَّه يطفئ شعلة الحبّ والمودّة، ويزرع بذرة الشّقاق والاختلاف، والفرقة والنّفاق.

الثّالث: إنَّ سوء الظّنّ ينعكس على معاملة الآخرين؛ لأنَّه يجعل المصاب به يستبطن السّوء، ويتظاهر بالإحسان، فيكون ذات نوعين من التّعامل مع الآخرين وبذلك تكون علاقاته مع الآخرين مبنيّة على النّفاق...

الرّابع: ومن آثاره أيضاً أنَّه يعزل الإنسان عن مجتمعه، فلا يستطيع أن ينسجم معه، ولا يستطيع أن يتحرّك به، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ سوءُ الظَّنِّ لَمْ يَتْرُكْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَليلٍ صُلْحاً**»(١).

الخامس: يكون سبباً لمشاكلٍ أخرى، فتترتّب عليه الغيبة والتّجسّس، وأحياناً قد يؤدّي سوء الظّنّ إلى حرب كقضيّة الوليد بن عقبة في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٤، ح/٥٦٨٢.

عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾[1].

السّادس: إنَّ سوء الظَّنّ يؤدّي إلى آلام نفسيّة تؤدّي بالإنسان إلى الاضطراب والقلق، فصاحبُهُ في هَمّ دائم، تملأ نفسه الحسرة والألم.

السّابع: إنَّ المصاب به يعيش حالة الخوف من أيّ شخص، ومن كلّ شيء، ويحسب كلّ صيحة عليه.

الثّامن: إنّه يعيق الإنسان عن التّكامل والرّشد الأخلاقيّ والرّوحيّ والاجتماعيّ؛ لأنه يبقى منشغلاً بعيوب النّاس، وينسى عيوب نفسه.

علاجُ سوءِ الظَّنّ:

إذا توجّه الإنسان إلى نفسه، وأدرك خطورة سوء الظَّنّ فلا بدّ له أن يفكر في علاجه، من خلال الطّرق الآتية:

١- العمل على إصلاح النّفس، وتزكيتها من الأمراض الخبيثة، ومن دون ذلك لا يفلح الإنسان.

٢- التماس وجوه الصّحّة للآخرين: وهذا أمرٌ مهمٌّ في العلاج، وقد وردت أحاديث كثيرة تحثّ على ذلك، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«اطْلُبْ لأَخيكَ عُذْراً، فَإنْ لَمْ تَجدْ لَهُ عُذْراً فَالْتَمسْ لَهُ عُذْراً»[2].

«ضَعْ أَمْرَ أَخيكَ عَلى أَحْسَنه حَتّى يَأْتيَكَ ما يَغْلبُكَ منْهُ، وَلا تَظُنَنَّ بكَلمَة خَرَجَتْ منْ أَخيكَ سُوءاً، وَأَنْتَ تَجدُ لَها في الْخَيْر مَحْملاً»[3].

---

(١) الحجرات: ٦.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٦٢٢/٢.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٩٤/٤، ح/٢٧٧٩.

«إيّاكَ أنْ تُسيءَ الظَّنَّ؛ فإنَّ سوءَ الظَّنِّ يُفْسدُ الْعبادةَ، ويُعَظِّمُ الْوزْرَ».

«سوءُ الظَّنِّ بالْمُحْسنِ شرُّ الإثْم، وأَقْبحُ الظُّلْم».

«لا تَظُنَّنَّ بكَلمةٍ بَدَرَتْ منْ أَحَدٍ سوءاً، وأَنْتَ تجدُ لَها في الْخَيْرِ مُحْتَمَلاً»(١).

«لَيْسَ منَ الْعَدْلِ الْقَضاءُ على الثِّقَة بالظَّنِّ»(٢).

٣- أن يجعل حسن الظُّنّ هو الأصل في نظرته إلى الآخرين، عن محمّد بن فُضَيل، عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام، قال: «جُعِلْتُ فداك، الرّجل من إخواني يبلغني عنه الشّيء الّذي أكرهه، فأسأله عنه، فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات، فقال لي: يا مُحَمَّدُ، كَذِّبْ سَمْعَكَ وبَصَرَكَ عَنْ أَخيكَ، فإنْ شَهِدَ عنْدَكَ خَمْسونَ قَسّامَةً، وقالَ لَكَ قَوْلاً، فَصَدِّقْهُ وكَذِّبْهُمْ، لا تُذيعَنَّ عَلَيْه شَيْئاً تَشينُهُ به، وتَهْدِمُ به مُروءَتَهُ، فَتَكونَ منَ الَّذين قالَ اللهُ في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾(٣)»(٤).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَيُّها النّاسُ، مَنْ عَرَفَ منْ أَخيه وَثيقَةَ دينٍ، وَسدادَ طَريقٍ، فَلا يَسْمَعَنَّ فيه أَقاويلَ الرِّجال، أَما إنَّهُ قَدْ يَرْمي الرّامي، وَتُخْطئُ السِّهامُ، ويَحيكُ الْكَلامُ، وَباطلُ ذلكَ يَبورُ، وَاللهُ سَميعٌ وشَهيدٌ. أَما

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٣-٢٦٤، ح/٥٦٦٨-٥٦٧٢-٥٦٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٧٢، ح/١٠٨٠.

(٣) النوّر: ١٩.

(٤) الكافي: ٣٥٥/١٥، ح/١٤٩٤٠.

إنَّهُ لَيس بَيْنَ الْحَقِّ وَالْباطِلِ إلا أَرْبَعُ أَصابِعَ»، فسُئِلَ عليه السلام عن معنى قوله هذا، فجمع أصابعه، ووضعها بين أذنه وعينه، ثمّ قال: «**الْباطِلُ أَنْ تقولَ سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تقولَ رَأَيْتُ**»[١].

إذن إذا بنى الإنسان على أنّه حَسِنُ الظَّنِّ بالآخرين فإنَّه يتجنّب كثيراً من المآثم، ويكسب حبَّ النّاس، ورد في الحديث: «**مَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ بِالنّاسِ حازَ مِنْهُمْ الْمَحَبَّةَ**»[٢].

قال الغزاليّ: «ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته، وتدعو له بالخير؛ فإنَّ ذلك يغيظ الشّيطان، ويدفعه عنك»[٣].

٤- المكاشفة: عندما نسمع عن إنسان شيئاً علينا أن نكاشفه، وقد ثبت بالتّجربة أنَّ ٩٠٪ من أصل القضيّة وهمٌ لا واقع له؛ فعلى الإنسان أن لا يبقي شيئاً في نفسه على أخيه دون أن يكاشفه بالحسنى؛ فإنَّ إضمار ذلك في نفسه يعقّده، وقد يوقعه في أوهام لا حقيقة لها، وإنَّ المكاشفة بين الإخوان تزيل ما في القلوب من ظنون، وتوقف الإنسان على حقيقة الأمر، وتجعله في بيّنة من أمره.

٥- علينا أن نتذكّر دائماً أنَّ اتّهام المؤمنين يؤدّي إلى زوال الإيمان من قلب الإنسان، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**إذا اتَّهَمَ الْمُؤْمِنُ أَخاهُ انْماثَ**[٤] **الإيمانُ مِنْ قَلْبِهِ كَما يَنماثُ الْمِلْحُ في الْماءِ**»[٥].

---

(١) نهج البلاغة: ٢٢٨، خطبة: ١٤١.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٣، ح/٥٣٣١.

(٣) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: ١٥١/٣.

(٤) ماث يميث ميثاً: أذاب الملح في الماء، لسان العرب لابن منظور: ١٩٢/٢، (ميث).

(٥) الكافي: ٩٣/٤، ح/٢٧٧٧.

وعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**إنَّ أَقْرَبَ ما يَكونُ الْعَبْدُ إلى الْكُفْر أَنْ يُؤاخي الرَّجُلُ الرَّجُلَ عَلى الدّينِ، فَيُحْصي عَلَيْهِ عَثَراتِهِ وزَلاتِهِ؛ لِيُعَنِّفَهُ بِها يَوْماً ما**»(١).

٦- أن ينظر إلى الجوانب الإيجابيّة في النّاس، ويتجاوز عن السّلبيّات، أو يتغافل عنها.

٧- أن يواجه التّصوّرات النّفسيّة والخيالات الوهميّة بروح المؤمن الّذي يعاكس هواه، ويترفّع عن خسائس الأمور، وصغائرها... ويكون مثاله كالشّمس الّتي تطلع على كلّ شيء، وتؤثّر فيه.

٨- أن يُجَنِّبَ نفسه مواضع التُّهم، أي أن لا يدخل في مداخل تثير ظنون النّاس حوله، ولا يتصرّف تصرّفاً مريباً يثير شكوك الآخرين؛ ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**اتَّقوا مَواضِعَ التُّهَمِ**»(٢).

وقال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «**مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَواضِعَ التُّهَمِ فَلا يَلومَنَّ مَنْ أَساءَ الظَّنَّ بِهِ**»(٣).

وقد رُوِيَ: «رأى بعضُ الصّحابة رسولَ الله صلى الله عليه وآله واقفاً في دربٍ من دروب المدينة، ومعه امرأةٌ، فسَلَّمَ عليه، فردَّ عليه، فلما جاوزه ناداه، فقال: **هذه زَوْجَتي فُلانَةٌ**، قال: يا رسول الله، أَوَفيكَ يُظَنّ! فقال: **إنَّ الشَّيْطانَ يَجْري مِنَ ابْنِ آدمَ مَجْرى الدَّمِ**»(٤).

---

(١) الكافي: ٧٨/٤، ح/٣٧٤٨.

(٢) إحياء علوم الدّين: ٣٦/٣

(٣) نهج البلاغة: ٥١٤، قصار الحكم: ١٤٩.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣٨٠/١٨.

وجاء في الحديث المرفوع: «**دَعْ ما يُريبُكَ إلى ما لا يُريبُكَ**»[١].

كَيْفَ نَتَّقي مُضاعَفاتِ سوءِ الظَّنِّ؟

مما يلزم الإشارة إليه أنَّ الإسلام وإن كان قد حرَّم سوء الظَّنّ إلا أنَّه لم يجعل هذا الحكم مطلقاً في الأحوال كلّها؛ ففي الحديث المتقدّم عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**حَتّى يَأْتيكَ ما يَغْلُبكَ مِنْهُ**»، فإذا ثبت انحراف شخصٍ ما فلا ينبغي للمؤمن أن يحسن الظَّنَّ به؛ لأنَّ هذا يفسح المجال أمام الخائبين لأنْ يعبثوا في المجتمع الإسلاميّ، قال أبو عبد الله الصّادق عليه السلام: «**لَيْسَ لَكَ أَنْ تَأْتمنَ مَنْ غَشَّكَ، وَلا تَتَّهِمَ مَنِ ائْتَمَنْتَ**»[٢].

إذن سوء الظَّنّ شيءٌ، والحذر شيء آخر، وقد يكون الجوّ الاجتماعيّ مريضاً، حينئذ حسن الظَّنّ في مثل هذا الجوّ غير محمود، قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**قَدِّمِ الاخْتبارَ، وَأَجِدِ الاسْتِظْهارَ في اخْتِيارِ الإخْوانِ، وَإلا أَلْجَأَكَ الاضْطِرارُ إلى مُقارَنَةِ الأَشْرارِ**»[٣].

وقال عليه السلام: «**إذا اسْتَوْلى الصَّلاحُ عَلى الزَّمانِ وَأَهْلِهِ، ثُمَّ أَساءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ خِزْيَةٌ فَقَدْ ظَلَمَ، وَإذا اسْتَوْلى الْفَسادُ عَلى الزَّمانِ وَأَهْلِه، فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ**[٤]»[٥].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٨/٣٨٠.

(٢) الحميريّ، قرب الإسناد: ٧٢، ح/٢٣١.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤١٦، ح/٩٤٩١.

(٤) قال ابن منظور: «غرّر بنفسه وماله تغريراً وتَغِرّةً: عرَّضهما للهلكة من غير أن يعرف، والاسم: الغرر، والغرر: الخطر»، لسان العرب: ٥/١٣، (غرر).

(٥) نهج البلاغة: ٥٠٥، قصار الحكم: ١٠٨.

ولهذا لا ينبغي للمؤمن أن يطمئنّ إلى كلّ أحد خصوصاً في وقت تصاعد الفتن، واضطراب المجتمع، وفي الظّروف الأمنيّة القاسية، وإنّما ينبغي دائماً أن يختبر الأشخاص والأحداث قبل أن يتعامل معها كي لا يوقع نفسه في مطبّات تعرّضه إلى متاعب هو في غنى عنها؛ لأنّ «**مَن انْقادَ إلى الطَّمْأَنينَة قَبْلَ الْخبْرَة، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ للْهَلَكَة، والْعاقبَة الْمُتْعبَة**»[1]، ولأنّ «**الطَّمْأَنينَةَ قَبْلَ الْخَبْرَة ضدُّ الْحَزْم**»[2]، فالحذر هنا محمود عقلاً وشرعاً.

التَّجَسُّسُ:

المقصود بالتّجسّس هنا: هو تتبّع عورات الآخرين وعثراتهم؛ لغرض التّوصّل للعلم بعيوبهم المستورة، وتعييرهم وتعنيفهم بها يوماً ما، وهذا العمل عدَّه الإسلام مقرّباً للكفر إذا كان بغير حقّ ومصلحة للإسلام والمسلمين، مبعّداً عن الله تعالى؛ فقد جاء عَنْ أَبي جَعْفَر وأَبي عَبْد الله عليهما السلام، قالا: «**أَقْرَبُ ما يَكونُ الْعَبْدُ إلَى الْكُفْر أَنْ يواخيَ الرَّجُلَ عَلى الدّين، فَيُحْصيَ عَلَيْه عَثَراته وزَلاته ليُعَنِّفَهُ بها يَوْماً ما**»[3].

وعَنْ إسْحاقَ بْن عَمّار، قالَ: «سَمعْتُ أَبا عَبْد الله عليه السلام يَقولُ: **قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: يا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بلسانه، ولَمْ يُخْلص الإيمانَ إلَى قَلْبه، لا تَذُمّوا الْمُسْلمينَ، ولا تَتبَّعوا عَوْراتهمْ؛ فَإنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْراتهم، تَتَبَّعَ اللهُ**

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٣٤٠/٧١.

(٢) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٩٠.

(٣) الكافي: ٧٧/٤، ح/٢٧٤٦.

عَوْرَتَهُ؛ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ تَعالى عَوْرَتَه، يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي بَيْتِه»[١].

مَعْنى الْغِيبَةِ:

وأمّا الغيبة لغة: فهو «أن يتكلّم خلف إنسان مستور بما يغمّه لو سمعه، فإن كان صدّقاً سُمّي غيبة، وإن كان كذباً سُمّي بهتاناً»[٢].

تقول: «اغتابه اغتياباً: إذا ذكره بما يكره من العيوب وهو حقّ، والاسم: "الغيبة"، فإن كان باطلاً فهو الغيبة في بُهت»[٣].

و«الغيبة أن يُذكَر الإنسان في غَيْبته بسوء وإن كان فيه، فإذا ذكرته بما ليس فيه فهو البَهْت والبُهتان»[٤].

وأمّا اصطلاحاً، فالمقصود بها ذكر المؤمن بما يهتك عرضه، ويسقط كرامته في الوسط الاجتماعيّ، «وضابط الغيبة: كلّ فعل يُقصد به هتك عرض المؤمن والتّفكّه به، أو إضحاك النّاس منه. فأمّا ما كان لغرض صحيح فلا يحرم: كنصيحة المستشير، والتّظلّم وسماعه، والجرح والتّعديل، وردّ من ادّعى نسباً ليس له، والقدح في مقالة أو دعوى باطلة خصوصاً في الدّين، وغير ذلك»[٥].

وقد ورد في الأحاديث الشّريفة تحديد لمفهوم الغيبة بصورة أوضح منها: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ سَيَابَةَ، قالَ: «سَمِعْتُ أَبا عَبْدِ الله عليه السلام يَقولُ: **الْغِيبَةُ أَنْ تَقولَ**

---

(١) الكافي: ٤/٧٧-٧٨، ح/٢٧٤٧.

(٢) الجوهريّ، الصّحاح: ١/١٩٦؛ (غيب)؛ وينظر: مجمع البحرين: ٢/١٣٦، (غيب).

(٣) الفيّوميّ، المصباح المنير: ٢/٤٥٨.

(٤) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/٣٩٩، (غيب).

(٥) المحقّق الكركيّ، جامع المقاصد: ٤/٢٧.

في أَخيكَ ما سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْه، وَأَمّا الأَمْرُ الظّاهِرُ فيه مِثْلُ الْحِدَّة[١] وَالْعَجَلَة فَلا، وَالْبُهْتانُ أَنْ تَقولَ فيه ما لَيْسَ فيه»[٢].

وعَنْ داوُدَ بْنِ سِرْحانَ، قالَ: «سَأَلْتُ أَبا عَبْدِ الله عليه السلام عَنِ الْغيبَة، قالَ: **هُوَ أَنْ تَقولَ لأَخيكَ في دينِهِ ما لَمْ يَفْعَلْ، وَتَبُثَّ عَلَيْهِ أَمْراً قَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ لَمْ يُقَمْ عَلَيْهِ فيهِ حَدٌّ»**[٣].

وهناك تعريف آخر يقول: إنَّ الغيبة ذكر الإنسان في غيبته بما يكرهه، وبما لا يرضى إظهاره، وكثير من الأخبار تدلّ على ذلك كقوله صلى الله عليه وآله: «**هَلْ تَدْرونَ ما الْغيبَةُ؟**» قالوا: «الله ورسوله أعلم»، قال: «**ذِكْرُكَ أَخاكَ بِما يَكْرَهُ**»[٤].

وهذه الكراهة تأتي من جهات عدّة:

١- إمّا لكونه إظهاراً للعيب المستور.

٢- وإمّا لكونه صادراً على جهة المذمّة والاستخفاف والاستهزاء.

٣- وإمّا لكونه مشعراً بالذّم، وإن لم يقصد المتكلّم كالألقاب المشعرة بالذّم.

ودلَّ عموم الآية الكريمة والرّوايات الشَّريفة المتواترة على حرمة الغيبة، «بل حرمتها من ضروريّات الدّين، وممّا قام عليه إجماع المسلمين، وقد حكم العقل بحرمتها أيضاً لكونها ظلما للمغتاب - بالفتح - وهتكاً له... [بل هي] من

(١) الحِدّة - بالكسر - ما يعتري الإنسان من الغضب والنّزق، والعَجَلَة - بالتَّحريك - السُّرعة.

(٢) الكافي: ٨٥/٤، ح/٢٧٦٣.

(٣) الكافي: ٨٢/٤-٨٣، ح/٢٧٥٩.

(٤) ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ٣٤٠/١، ح/٩٤٩؛ وموسوعة الشّهيد الثّاني (كشف الرّيبة عن أحكام الغيبة): ١٢/٢.

الكبائر الموبقة، والجرائم المهلكة»[١].

ولهذا فهي حرام تلميحاً وتصريحاً، «فأمّا التَّعريض فيه فهو كالتَّصريح، والفعل فيه كما تقول، بالغمز واللّمز بالحركة، وكلّما يفهم فهو داخل في الغيبة، وهو حرامٌ»[٢] كمساوئ اللّسان في المعنى الَّذي حرَّم التّلفّظ به لأجله، ويؤيّد ذلك ما رُويَ عن عائشة أنَّها قالت: «دخلت علينا امرأة، فلمّا ولّت أومأتُ بيدي أنَّها قصيرة، فقال النّبيّ ﷺ: **قَد اغْتَبْتِيها**، ونهاني عن مثل ذلك»[٣].

ولشناعة الغيبة وقبحها صَوّرتها الآية الكريمة بصورة تنقبض منها النُّفوس الطّيّبة، وتنفّر، وتتقزّز لبشاعتها، تصوّر حالتك النّفسيّة لو رأيت أحداً يأكل لحم أخيه، وهو ميت بدلاً من أن يحزن عليه، ويسرع ليجهّزه، ويواري سوأته، وقد رُوي عن أبي ذرّ رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ: «**يا أَبا ذَرّ، إيّاكَ والْغيبةَ، فإنَّ الْغيبةَ أَشَدُّ من الزِّنا**، قلتُ: يا رسول الله، وما ذاك بأبي أنتَ وأمّي؟ قال: **لأنَّ الرَّجُلَ يَزْني، فيَتوبُ إلى الله، فيَتوبُ اللهُ علَيْه، والْغيبَةُ لا تُغْفَرُ حتّى يَغْفرَها صاحبُها**»[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ وُلدَ منْ حَلال، وَهُوَ يَأْكُلُ لُحومَ النّاسِ بِالْغيبَةِ، اجْتَنبِ الْغيبَةَ؛ فإنَّها إدامُ كلابِ النّارِ**»[٥].

---

(١) الميرزا محمّد عليّ التّوحيديّ، مصباح الفقاهة: ٣١٨/١.

(٢) تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ٣٤٠/١؛ وينظر: موسوعة الشّهيد الثّاني (كشف الرّيبة عن أحكام الغيبة): ٢٠/٢.

(٣) تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ٣٤٠/١-٣٤١، ح/٩٥١؛ وموسوعة الشّهيد الثّاني (كشف الرّيبة عن أحكام الغيبة): ٢٠/٢.

(٤) الشّيخ الطّوسيّ، كتاب الأمالي: ٧٨٩؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٢٠٢/٧، ح/٣٩٥٨.

(٥) الفتّال النّيسابوريّ، روضة الواعظين: ٤٦٥/٢، ح/١٦٢٢.

ورُوِيَ مرفوعاً: «**مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخيه في الدُّنْيا قُرِّبَ إلَيْه لَحْمُهُ في الآخرَة، فَقيلَ لَهُ: كُلْهُ مَيْتاً، كَما أَكَلْتَهُ حَيّاً، فَيَأْكُلُه وَيَضجُّ ويَكْلَح**»[١].

ولمّا رجم رسول الله ﷺ ماعزاً في الزّنا، قال رجلٌ لصاحبه: «هذا أقعص كما يقعص[٢] الكلب»، فمرَّ النّبيّ ﷺ معهما بجيفة، فقال: «**انْهَشا مِنْها**»، فقالا: «يا رسول الله، ننهش جيفة؟» فقال ﷺ: «**ما أَصَبْتُما مِنْ أَخيكُما أَنْتَنُ مِنْ هذه**»[٣].

وقال أنس: «قال رسول الله ﷺ: **مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي عَلى قَوْمٍ يَخْمشونَ وُجوهَهُمْ بِأَظافيرِهِمْ، فَقُلْتُ: يا جِبْريل، مَنْ هؤُلاء؟ قالَ: هؤُلاءِ الَّذينَ يَغْتابونَ النّاسَ، وَيَقَعونَ في أَعْراضِهِمْ**»[٤].

الأَسْبابُ الْباعِثَةُ عَلى الْغيبَةِ:

هناك دوافع كامنة تدفع الإنسان إلى اغتياب الآخرين ذكرها العلماء في موسوعاتهم الأخلاقيّة، نذكر أهمّها:

١- الغضب، والحسد، والحقد؛ فالغيبة نتيجة من نتائجها.

٢- اللّعب والهزل والمطايبة؛ لأجل الضّحك.

٣- إرادة التّصنّع والانتقاص من الآخرين لسدّ نقص فيه يشعر هو به.

٤- موافقة الأقران والجلساء.

---

(١) ابن أبي الدّنيا، كتاب الصّمت وآداب اللسان: ١٢٥، ح/١٧٨؛ والكلح: ظهور الأسنان عند العبوس.

(٢) القعص: أن يُضْرَب الإنسانُ فيموت مكانه؛ النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٨٨/٤

(٣) موسوعة الشّهيد الثّاني (كشف الرّيبة عن أحكام الغيبة): ١٥/٢.

(٤) كتاب الصّمت وآداب اللّسان: ١١٩، ح/١٦٥.

٥- أن ينسب إلى المغتاب سوءاً، ويريد أن يتبرّأ منه، فيغتاب غيره لأجل رفعه عن نفسه.

مَفاسِدُ الْغيبَةِ وَأَخْطارُها:

للغيبة مفاسد خطيرة في الدُّنيا والآخرة على المجتمع وعلى الفرد، فعلى المستوى الاجتماعيّ، فهي تنشر الرَّذيلة بين أفراد المجتمع الواحد، وتفكّك أجزائه، وتمسخ هويّته، وتنشر روح الشّكّ والرّيبة بين أفراده، وتثير الفتن، وتزعزع الثّقة بالأفراد لما تثير من بغضاء وشحناء وعداء في القلب...

وعلى المستوى الفرديّ: فهي تسقط قيمة الإنسان اجتماعيّاً، وتسلب الثّقة عنه، ويصبح إنساناً غير محترم وغير موثوق به، هذا أوّلاً.

وثانياً: توقّف عجلة تكامله الرّوحيّ والأخلاقيّ، وتنسيه عيوبه، ومن ينشغل بعيوب النّاس ينسى عيوبه، وبذلك لا يرتقي لا روحيّاً ولا فكريّاً ولا أخلاقيّاً.. وهذا لا يفعله عاقل يحترم نفسه..

وأمّا الأخطار الأخرويّة فكثيرة أهمّها:

١- تحبط الأعمال، وتذهب الحسنات، فقد ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام: **«الْغيبَةُ حَرامٌ عَلى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنَّها لَتَأْكُلُ الْحَسَناتِ كَما تَأْكُلُ النّارُ الْحَطَبَ»**(١).

ورُوي عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنَّه قال: **«يُؤْتى بِأَحَد يَوْمَ الْقيامَة، يوقَفُ بَيْنَ يَدَي الله، وَيُدْفَعُ إِلَيْهِ كِتابُهُ، فَلا يَرى حَسَناته، فَيَقولُ: إِلهي، لَيْسَ هذا**

(١) موسوعة الشّهيد الثّاني (كشف الرّيبة عن أحكام الغيبة): ١٥/٢.

كتابي، فَإنّي لا أَرى فيه طاعَتي، فَيُقالُ لَهُ: إنَّ ربَّكَ لا يَضلُّ ولا يَنْسى، ذَهَبَ عَمَلُكَ باغْتياب النّاسِ؛ ثُمَّ يُؤْتى بآخَر، ويُدْفَعُ إلَيْه كتابُه، فيرى فيه طاعات كَثيرةً، فيَقولُ: إلهي، ما هذا كتابي، فَإنّي ما عَمِلْتُ هذه الطّاعات، فَيُقالُ: لأنَّ فُلاناً اغْتابَك، فَدُفِعَتْ حَسَناتُه إلَيْك»(١).

٢- تبعد الإنسان عن رَحمة الله تعالى، وتنسيه ذكر ربّه؛ لأنَّ من ينشغل بعيوب النّاس ينسى ذكر الله، ويعرض عنه، وتلك هي المعيشة الضَّنك، ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** ﴾(٢).

٣- إنَّ أعماله لا تقبل عند الله أربعين يوماً؛ فقد رُوِيَ عن النّبيّ ﷺ أنَّه قال: **«مَن اغْتابَ مُسْلماً أَوْ مُسْلمةً، لَمْ يَقْبَل اللهُ تَعالى صَلاتَهُ ولا صيامَهُ أَرْبَعين يوْماً ولَيْلَةً إلا أَنْ يَغْفرَ لَهُ صاحبُه»**(٣).

وفي حديث آخر عنه ﷺ: **«ومَن اغْتابَ أَخاهُ الْمُسْلمَ بَطَلَ صَوْمُه، وَانْتَقَضَ وُضوؤُه، فَإنْ ماتَ وَهُوَ كَذلكَ ماتَ وَهُوَ مُسْتَحلٌّ لما حَرَّمَ الله»**(٤).

عِلاجُ الْغيبَة:

لعلَّ من أهمّ المعالجات أن يعيَ حقيقة الغيبة كما نصَّ عليها الكتاب الكريم، والسّنّة الشّريفة، ويتفقّه في أحكامها، ويتأمّل بمخاطرها الدّنيويّة

---

(١) الشّيخ محمّد السّبزواريّ، جامع الأخبار: ٤١٢، ح/١١٤٤.

(٢) طه: ١٢٤.

(٣) جامع الأخبار: ٤١٢، ح/١١٤١.

(٤) الشّيخ الصّدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ٢٨٤.

الأخرويّة، وأن يستحضر في ذهنه وفي قلبه مفاسدها البشعة المترتّبة عليها، وأن يعلم أنَّ «**الْغِيبَةَ جُهْدُ الْعاجِزِ**»(١).

وهذا تعبيرٌ يوحي بالضّعف والهزالة والعجز للشّخص الشّاغل نفسه بما يضرّه ولا ينفعه، الغافل عن سرّ وجوده في هذه الحياة، وإنَّها من شأن سقيم الذَّوق، متعفّن الضّمير، مريض الوجدان، وإلا كيف يروق له أن ينظر لمن يأكل لحم أخيه ميتاً فضلاً عن أن يأكلها هو بنفسه، أو كيف يسقى الصَّديد في النّار، وفي التَّمثيل كفاية؛ إذ إنَّ الميت لا يشعر بالألم، ولا يترتّب عليه ضرر، وإنّما الضَّرر يترتّب على الآكل الَّذي أكل لحوماً ميتة، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ الانسان لو استحضر هذه الحقائق، ووعى مخاطرها لا يمكن أن يقع فيها الا أن يكون فاقد العقل مريض القلب سقيم الذّوق... وقبل هذا وذاك إنَّ أعظم المعالجات على الإطلاق هو استحضار الرّقابة الإلهيّة له، وأن يرسّخ في أعماق قلبه الحقيقة القرآنيّة العظيمة النّاطقة ﴿ **إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾(٢).

فمن كان مؤمناً بالله واليوم الآخر إذا أيقن أنَّ كلّ لفظ يطلقه سيسجّل عليه، ويحفظ في صحيفة أعماله، وسيُبَرّز له يوم حشره، ويوضع بين يديه، ويسأل عنه، ويتحمل جزاءه إن خيراً فخيراً، وإن شرّاً فشرّاً، فلا نشكُّ أنَّ المؤمن إذا استحضر هذه الحقائق الإلهيّة عن إيمان ووعي، فسوف لن يقع في هذا المستنقع الآسن.

(١) نهج البلاغة: ٥٦٠، قصار الحكم: ٤٤٩.

(٢) ق: ١٧-١٨.

وأنا أقطع أنَّ هذا العلاج هو العلاج الشّافي؛ لأنَّه يضع الإنسان في دائرة الرّقابة الإلهيّة، وليس هناك رادع للإنسان أقوى من الشُّعور برقابة الله، والإيمان بهيمنته أبداً، وذلك لمن آمن بالله واليوم الآخر؛ ولذا يمكن القول إنَّ كلّ المعاصي والمفارقات الشّرعيّة نتيجة نقص الإيمان بالله واليوم الآخر، ونسيان ذكر الله، والغفلة عن رقابته، «**عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ، وَلا تَزالُ عَلَيْها رَقيباً**»[1].

ولأهمّيّة هذه الرقابة، قيل:

«مَن راقبَ الله في خَطَرات قلبه، عَصَمَه اللهُ في حركات جوارحه»[2].

«من راقب الله كان الله له من كلّ شيء رقيباً»[3].

«من راقب الله في السّرّ حُرِسَت جوارحه»[4].

«من راقب الله رجع عن سوء ما كان صنع»[5].

«من راقب الله نزع عن قُبح ما كان صنع»[6].

مُجَوِّزاتُ الْغيبَةِ:

لقد جوَّز الفقهاء ذكر بعض الأشخاص في غيبتهم بقصد الإصلاح لهم لا بقصد هتك حرمتهم، أو التَّوهين بهم، والإسقاط لهم، أو تحذير المجتمع من مفاسدهم، ومقياس ذلك كما قال الشَّيخ الأنصاريّ قدس سره: «إنَّ الضّابط في

---

(١) بحار الأنوار: ١٤٢/٦٧.

(٢) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٨٨/١ ح/١١٦.

(٣) المحقّق الدّاماد، اثنا عشر رسالة: ٨٤/٨.

(٤) البيهقيّ، الجامع لشعب الإيمان: ٤١٦/٩، ح/٦٩٠٧.

(٥) ابن عبد البرّ، جامع بيان العلم وفضله: ٦٢٩/١، ح/١٠٨٣.

(٦) ابن قتيبة، كتاب عيون الأخبار: ١٩٠/٣.

الرُّخصة وجود مصلحة غالبة على مفسدة هتك احترام المؤمن، وهذا يختلف باختلاف تلك المصالح، ومراتب مفسدة هتك المؤمن، فإنّها متدرّجة في القوّة والضَّعف... فالواجب التّحرّي في التّرجيح بين المصلحة والمفسدة»[١].

أمّا الّذين جوَّز الفقهاء غيبتهم وذكرهم بما فيهم:

١- المتجاهر بالفسق؛ لأنَّه هو الَّذي هتك حرمته بيده، وأسقط قدره بنفسه، فلم يعد فسقه مخفيّاً على أحد، بل أصبح متجاهراً به على رؤوس الأشهاد؛ «ولأنَّ العيب بالتّجاهر به صار كالمعلوم لدى كلّ أحد»[٢].

ولذا قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إِذا جاهَرَ الْفاسِقُ بِفِسْقِهِ فَلا حُرْمَةَ لَهُ، وَلا غِيبَةَ**»[٣].

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**مَنْ أَلْقى جِلْبابَ الْحَياءِ عَنْ وَجْهِهِ، فَلا غِيبَةَ لَهُ**»[٤].

وفي حديث آخر قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أَرْبَعَةٌ لَيْسَتْ غِيبَتُهُمْ غِيبَةً: الْفاسِقُ الْمُعْلِنُ بِفِسْقِهِ...**»[٥].

وقوله صلى الله عليه وآله: «**أَتَرِعونَ عَنْ ذِكْرِ الْفاجِرِ؟ اذْكُروهُ بِما فِيهِ كَيْ يَحْذَرَهُ النّاسُ**»[٦].

---

(١) الشّيخ مرتضى الأنصاريّ، المكاسب: ٤/٦٠-٦١.

(٢) الشّيخ محمّد حسن الجواهريّ، جواهر الكلام: ٢٢/٦٩.

(٣) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٩٣، ح/٦٨؛ وترتيب الأمالي: ١٩٨/٧، ح/٣٩٥٢.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٧١/٩.

(٥) فضل الله الرّاونديّ، النّوادر: ١٣٣-١٣٤، ح/١٧١.

(٦) ابن حبّان، كتاب المجروحين: ٢٦١/١.

٢- إظهار المظلوم لظلامته لرفع الظُّلم عن نفسه بذكر الشَّخص الَّذي ظلمه عند من يرجو رفعه عنه، وإن كان الظّالم متستّراً على ظلمه، وهذا يستفاد من معنى قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[١].

وجوَّز بعض الفقهاء ذكر الظّالم له مطلقاً، قال المحقّق البحرانيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «ومقتضى ظاهر الآية: العموم. وكذا ظاهر الأخبار المنقولة في تفسيرها»[٢].

وقد استدلّوا على ذلك أيضاً بقضيّة زوجة أبي سفيان لمّا جاءته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وقالت: «إنَّ أبا سفيان رجل شحيح، ولا يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فهل عليَّ في ذلك حرج؟ فقال لها النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **خُذي ما يَكْفيكِ وبَنيكِ بِالْمَعْروفِ**»[٣].

٣- نصح المستشير كحالات الاستشارة في الزّواج أو الرّفقة أو غيرها... وأنَّه يجب أن ينصح المؤمن أخاه المؤمن، لقول النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لفاطمة بنت قيس لما شاورته في خطابها: «**أَمّا أَبو جَهْمٍ فَلا يَضَعُ عَصاهُ عَنْ عاتِقِهِ، وَأَمّا مُعاوِيَةُ فَصُعْلوكٌ لا مالَ لَهُ**»[٤].

واستفاد منها الفقهاء جواز الغيبة لنصح المستشير، قال المحقّق البحرانيّ تعليقاً على الحديث: «فذكرت الشُّحَّ والظُّلم لها ولولدها، ولم يزجرها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إذ

---

(١) الشّورى: ٤١-٤٢.

(٢) المحقّق البحرانيّ، الحدائق النّاضرة: ١٦١/١٨.

(٣) الطّبرانيّ، المعجم الكبير: ٧٢/٢٥؛ ينظر: جواهر الكلام: ٦٦/٢٢.

(٤) ابن سعد، كتاب الطّبقات الكبير: ٢٥٩/١٠؛ ينظر: جواهر الكلام: ٦٧/٢٢.

كان قصدها الاستفتاء»[١]، وبالتّالي فإنّ النّصيحة واجبة للمستشير، فإنّ خيانته قد تكون أقوى مفسدة من مفسدة الغيبة[٢].

٤- المبتدع الَّذي له خطر على الدّين الحنيف ككثيرين من المتلبّسين بثوب الولاء لأهل البيت عليهم السلام؛ والمتطفّلين على العلم والدّين من الخرافيّين، ونحن نرى اليوم من يدّعي المهدويّة، والولاية من الجهلة، الَّذين يريدون الدّين والولاء كما يحلو لهم، وليس كما أنزله الله تعالى؛ ولذا تراهم في كلّ يوم يبتكرون بدعة جديدة؛ ولذا لا بدّ من ذكرهم أمام الآخرين؛ لغرض النُّصح لهم، وردعهم عن الاستمرار في ذلك، وقطع مادّة الفساد؛ ولذا قالوا: «فإذا رأيتَ متفقّهاً يتلبّس بما ليس من أهله، فلك أن تنبّه النّاس على نقصه، وقصوره عمّا يؤهّل نفسه له، وتنبّههم على الخطر اللاحق لهم بالانقياد إليه»[٣].

فعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله: إذا رَأَيْتُمْ أَهْلَ الرَّيْبِ وَالْبدَعِ منْ بَعْدي، فَأَظْهروا الْبَراءَةَ مِنْهُمْ، وأَكْثَروا منْ سَبِّهِمْ، وَالْقَوْلَ فيهِمْ وَالْوَقيعَةَ، وَباهِتوهُمْ؛ كَيْلا يَطْمَعوا في الْفَساد في الإِسْلامِ، ويَحْذَرُهُمُ النّاسُ، وَلا يَتَعَلَّموا مِنْ بِدَعِهِمْ، يَكْتُبِ اللهُ لَكُمْ بِذلكَ الْحَسَناتِ، وَيَرْفَعْ لَكُمْ بِه الدَّرَجاتِ في الآخِرَةِ**»[٤].

(١) موسوعة الشّهيد الثّاني (كشف الرّيبة عن أحكام الغيبة): ٣٥/٢؛ وينظر: الحدائق النّاضرة:١٦٢/١٨.

(٢) ينظر: جواهر الكلام: ٦٧/٢٢؛ ومنهاج البراعة لحبيب الله الخوئيّ: ٣٨٥/٨.

(٣) موسوعة الشّهيد الثّاني (كشف الرّيبة عن أحكام الغيبة): ٣٥/٢؛ وينظر: الحدائق النّاضرة: ١٦٢/١٨-١٦٣.

(٤) الكافي: ١٢٣/٤، ح/٢٨٢٨.

وفي حديث آخر: «**ثلاثةٌ ليْس لهمْ حرْمةٌ، صاحبُ هوًى مبْتدعٍ...**»[١].

٥- جرح الشّهود: فقد أكَّد العلماء على جوازِ جرح شهود الزّور، قال الشَّيخ الأعظم الأنصاريّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «جرح الشُّهود، فإنَّ الإجماع دلَّ على جوازه، ولأنَّ مصلحة عدم الحكم بشهادة الفسّاق أولى من السّتر على الفاسق. ومثْله - بل أولى بالجواز - جرح الرّواة، فإنَّ مفسدة العمل برواية الفاسق أعظم من مفسدة شهادته»[٢].

٦- دفع الضّرر عن المغتاب بذمّه، كرواية عبد الله بن زرارة، قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **اقْرأْ على والدكَ السَّلام، وقلْ لهُ: إنَّما أُعيبكَ دفاعاً منّي عنْكَ، فإنَّ النّاسَ والْعدوَّ يُسارعونَ إلى كلِّ منْ قرَّبْناهُ وحمدْنا مكانَهُ، لإدْخال الأذى في منْ نحبُّهُ ونقرِّبُهُ، ويرْمونَهُ لمحبَّتنا لهُ، وقرْبه ودنوِّه منّا، ويروْنَ إدْخالَ الأذى عليْه وقتْلَهُ، ويحْمدونَ كلَّ منْ عبْناهُ نحْنُ وأنْ نحْمدَ أمْرهُ؛ فإنَّما أعيبكَ لأنَّكَ رجلٌ اشْتهرْتَ بنا، وبميْلكَ إليْنا، وأنْتَ في ذلكَ مذْمومٌ عنْدَ النّاس، غيْرُ محْمود الأثر، لمودَّتكَ لنا، ولميْلكَ إليْنا، فأحْببْتُ أنْ أُعيبكَ ليحْمدوا أمْركَ في الدّين بعيْبكَ ونقْصكَ، ويكونُ بذلكَ منّا دفعَ شرِّهمْ عنْكَ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[٣]، هذا التَّنْزيلُ منْ عنْد الله، لا والله ما عابها إلا لكيْ تسْلمَ من الْملك، ولا تعْطبَ على يديْه، ولقدْ**

---

(١) الحميريّ، قرب الإسناد: ١٧٦، ح/٦٤٥.

(٢) المكاسب: ٤/٥١-٥٢.

(٣) الكهف: ٧٩.

كانَتْ صالِحَةً لَيْسَ لِلْعَيْبِ فيها مَساغٌ، والْحَمْدُ للهِ»[١].

٧- القدح في مقالة باطلة ولا سيّما إذا كانت في الدّين، وإن دلَّ على نقصان قائلها، إذا توقّف حفظ الحق عليه؛ فإنَّ وجوب حفظ الحقّ، ودحض الباطل أهمُّ من احترام المقول فيه، فردُّ الباطل أهمّ من احترام مرتكبه من باب تقديم الأهمّ على المهمّ"[٢].

وقال الشّيخ البهائيّ رَحِمَهُ اللهُ: «وقد جُوِّزت الغيبة في عشرة مواضع: الشّهادة، والنّهي عن المنكر، وشكاية المتظلّم، ونصح المستشير، وجرح الشّاهد والرّاوي، وتفضيل بعض العلماء والصّنّاع على بعض، وغيبة المتظاهر بالفسق الغير المستنكف على قول، وذكر المشتهر بوصف مميّز له كالأعور والأعرج مع عدم قصد الاحتقار والذّمّ وذكره عند من يعرفه بذلك بشرط عدم سامع غيره على قول، والتّنبيه على الخطأ في المسائل العلميّة ونحوها بقصد أن لا يتبعه أحد فيها»[٣].

سَماعُ الْغيبَةِ:

وكما لا تجوز الغيبة كذلك لا يجوز سماعها لما ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**السّامِعُ لِلْغيبَةِ أَحَدُ الْمُغْتابينَ**»[٤].

ولهذا يجب ردّ من سقط في مستنقعها حفظاً لكرامة المؤمن، ودفاعاً عنه،

---

(١) الشّيخ الطّوسيّ، اختيار معرفة الرّجال (رجال الكشّيّ): ٣٤٩/١-٣٥٠، ح/٢٢١.

(٢) ينظر: المكاسب: ٥٩/٤.

(٣) المحدّث المجلسيّ، مرآة العقول: ٤٢٩/١٠.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٢١، ح/٤٤٤٤.

وردعاً لفاعل الحرام؛ لأنَّ السُّكوت عنه أكثر فساداً وإثماً من مرتكب الغيبة، ففي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**أَلا وَمَنْ تَطَوَّلَ عَلى أَخيه في غيبَة سَمعَها فيه في مَجْلس، فَرَدَّها عَنْهُ رَدَّ اللهُ عَنْهُ أَلْفَ باب منَ الشَّرِّ في الدُّنْيا وَالآخرَة، فَإنْ هُوَ لَمْ يَرُدَّها، وَهُوَ قادرٌ عَلى رَدِّها كانَ عَلَيْه كَوزْر منَ اغْتابَهُ سَبْعينَ مَرَّةً**»[١].

وفي وصية النَّبيِّ صلى الله عليه وآله لأبي ذر، قال: «**يا أَبا ذَرّ، مَنْ ذَبَّ عَنْ أَخيه الْمُؤْمن الْغيبَةَ كانَ حَقًّا عَلى الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْتقَهُ منَ النّار، يا أَبا ذَرّ، مَن اغْتيبَ عنْدَهُ أَخوهُ الْمُؤْمنُ، وَهُوَ يَسْتَطيعُ نَصْرَهُ فَنَصَرَهُ، نَصَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الدُّنْيا وَالآخرَة، فَإنْ خَذَلَهُ، وَهُوَ يَسْتَطيعُ نَصْرَهُ خَذَلَهُ اللهُ في الدُّنْيا**»[٢].

وفي وصيّته لعليّ عليه السلام: «**يا عَليُّ، مَن اغْتيبَ عنْدَهُ أَخوهُ الْمُسْلمُ، فَاسْتَطاعَ نَصْرَهُ فَلَمْ يَنْصُرْهُ، خَذَلَهُ اللهُ في الدُّنْيا وَالآخرَة**»[٣].

ثمَّ لا بدَّ من أن نفرّق بين الغيبة والتَّقييم، فالتَّقييم لغرض مصلحة إسلاميّة مهمّة، عكس الغيبة الَّتي تهدف الإسقاط أو التَّوهين، فمثلاً لو سُئلَ المؤمن عن شخص: أيصلح فلاناً للمهمّة الفلانيّة؟ فله أن يبيّن للسّائل حيثيّات هذا الشّخص، وخصائصه بموضوعيّة تامّة من دون توهين أو تجريح ولا سيّما إذا كانت تلك المهمّة لها مساس بالمصلحة العامّة، ولكن ينبغي أن يكون التَّقييم لذلك الشَّخص في حدود الحاجة، ولا يجوز كشف المستور الَّذي لا حاجة ولا ربط فيه بتلك المهمّة.

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ١٥/٤، ح/٤٩٦٨.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، كتاب الأمالي: ٧٩٠؛ وترتيب الأمالي: ٢٠٢/٧، ح/٣٩٥٨.

(٣) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣٧٢/٤، ح/٥٧٦٢.

كَفّارَةُ الْغيبَةِ:

لمّا عرفنا أنَّ الغيبة بهذه المثابة من الخطورة على الفرد والمجتمع، وقد ورد بأنَّها لا تغفر إلا أن يغفرها صاحبها، وأنّها ناقلة للحسنات والسّيّئات[١]؛ فلو ارتكب المؤمن غيبة لأحد من المسلمين، وندم وأراد أن يتداركها، فهل يستطيع أن يكفّر عن ذنبه؟ نعم، وردت في ذلك أحاديث كثيرة، وقد وصفها الشَّيخ الأعظم قُدِّسَ سِرُّهُ بالمستفيضة[٢].

إذن بإمكان الشَّخص الَّذي ارتكب هذا الذَّنب أن يكفَّر عنها؛ ليبرّئ ذمّته، من هذه الأحاديث قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**مَنْ كانَتْ لأَخيه عنْدَهُ مَظْلَمَةٌ في عرْض أَوْ مال فَلْيَسْتَحْللْها منْهُ منْ قَبْل أَنْ يأْتي يومٌ لَيْس هُناكَ دينارٌ ولا درْهَمٌ، إنَّما يُؤْخَذُ منْ حَسَناته، فَإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَناتٌ أُخذَ منْ سيِّئات صاحبه فَزيدَتْ على سيِّئاته**»[٣].

والحديث النّبويّ الآخر: «**مَن اغْتابَ مُسْلماً أَوْ مُسْلمَةً لَمْ يَقْبَل اللهُ تعالى صَلاتَهُ ولا صيامَهُ أَرْبَعين يوْماً ولَيْلَةً، إلا أَنْ يَغْفرَ لَهُ صاحبُه**»[٤].

قال الغزاليّ: «اعلم أنَّ الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسّف على ما فعله، ليخرج من حقّ الله سبحانه، ثمّ يستحلّ المغتاب؛ ليحلّه فيخرج من مظلمته، وينبغي أن يستحلّه وهو حزين متأسّف نادم على فعله، إذ المرائي قد

---

(١) ينظر: المكاسب: ٨/٤

(٢) المصدر نفسه.

(٣) إحياء علوم الدّين: ٣/١٥٣-١٥٤.

(٤) الشّيخ محمّد السّبزواريّ، جامع الأخبار: ٤١٢، ح/١١٤١.

يستحلّ ليظهر من نفسه الورع، وفى الباطن لا يكون نادماً، فيكون قد قارف معصية أخرى»[١].

وبناءً على ذلك يجب على المغتاب أن يقدّم اعتذاره إلى من اغتابه، ويطلب منه أن يغفر له ويبرئه الذّمّة، «ويستحبّ للمعتذر إليه قبول العذر والمحالّة استحباباً مؤكّداً، قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾[٢] الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **يا جبْرَئيلُ، ما هذا الْعفْوُ**؟ قال: **إنَّ الله يأْمُرك أَنْ تعْفُو عمَّنْ ظَلَمَك، وتَصل منْ قَطَعَك، وتُعْطي منْ حرمك**»[٣].

فإن لم يستطع الوصول إليه لسفر أو موت أو خوفاً من إثارة فتنة يستغفر له كلّما ذكره، فقد سُئلَ النّبيّ صلى الله عليه وآله: «ما كفّارة الاغتياب؟ قال: **تَسْتَغْفرُ الله لمَن اغْتَبْتَهُ كُلَّما ذَكَرْتَهُ**»[٤].

وقال صلى الله عليه وآله: «**منْ ظَلَمَ أَحداً ففاتَهُ، فَلْيَسْتَغْفِرِ الله لَهُ، فَإنَّهُ كَفَّارَةٌ لَهُ**»[٥].

وهكذا يتّضح من الأخبار أنَّ الاستحلال لمن كان حيّاً حاضراً يمكن الوصول إليه، والاستغفار لمن اغتيب، ولا يمكن الوصول إليه لموت أو بُعد أو غير ذلك أكَّد ذلك بعض شارحي المكاسب، نذكر منها: «أقول يمكن جعل هذا جمعاً آخر بأن يحمل أخبار الاستحلال على المتمكّن منه، وأخبار الاستغفار على غير المتمكّن منه لموت أو غيبة أو نحوهما، والشّاهد على هذا الجمع دعاء

---

(١) إحياء علوم الدّين: ١٥٣/٣.

(٢) الأعراف: ١٩٩.

(٣) موسوعة الشّهيد الثّاني (كشف الرّيبة عن أحكام الغيبة): ٦٦/٢.

(٤) الكافي: ٨٣/٤ ح/٢٧٦٠.

(٥) المصدر نفسه: ٣٢/٤، ح/٢٦٦٩.

يوم الاثنين»[١]:

«وأَسألُك في حَمْل مَظالم الْعباد عنّا، اللّهُمَّ فأيُّما عَبْد منْ عَبيدكَ أَوْ أَمَة منْ إمائك كانَتْ لهُ قبلي مَظْلَمَةٌ ظَلَمْتُها إيّاهُ في نَفْسه، أَوْ في عرْضه، أَوْ في ماله، أَوْ في أَهْله وولَده، أَوْ غيْبَةٌ اغْتَبْتُهُ بها، أَوْ تَحاملٌ عَلَيْه بمَيْل أَوْ هَوىً أَوْ أَنَفَة أَوْ حَميَّة أَوْ رياء أَوْ عَصَبيَّة، غائباً كانَ أَوْ شاهداً، أَوْ حيّاً كانَ أَوْ ميّتاً، فَقَصُرَتْ يَدي، وضَاقَ وُسْعي عَنْ ردِّها إلَيْه وَالتحَلُّل منْهُ، فأَسْأَلُكَ يا مَنْ يَمْلكُ الْحاجات وَهي مُسْتَجيبَةٌ بمَشيئَته، ومُسْرعَةٌ إلى إرادَته أَنْ تُصلّيَّ عَلى مُحَمَّد وَآل مُحَمَّد وأَنْ تُرْضيَهُ عَنّي بما شئْتَ، وَتهَبَ لي منْ عنْدكَ رَحْمَةً إنَّهُ لا تَنْقُصُكَ المَغْفرَةُ، وَلا تَضُرُّكَ المَوْهبَةُ، يا أَرْحَمَ الرَّاحمينَ»[٢].

---

(١) الميرزا فتاح الشّهيديّ التّبريزيّ، هداية الطّالب إلى أسرار المكاسب: ٣٧٢/١.

(٢) مصباح الكفعميّ: ١٣٤.

التَّوبَةُ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾[1].

يتميّز الإنسان عن الكائنات الأخرى بأن جعله الله كائناً مختاراً، فمنحه القدرة على فعل الطّاعات، وارتكاب المعاصي، وترك له الاختيار في سلوك أيّ السَّبيلين شاء، سبيل الهدى أو سبيل الضَّلال إلا أنَّه أوعده الجنّة إن سلك مسلك الطّاعة، وحذَّره من العقاب إن سلك مسلك المعاصي.

إذن الإنسان معرّض للوقوع في الخطأ عن غفلة، أو سهو، أو نسيان، أو غلبة شهوة، أو إغراء شيطان من الإنس والجنّ، ولعلَّ هذا هو المقصود في الحديث المرويّ عن رسول الله ﷺ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطّاءٌ، فَخَيْرُ الْخَطّائينَ التَّوّابونَ**»[2].

وبناءً على هذه الحقيقة فقد ترك الله تعالى لعبده خطّ الرُّجوع والعودة مفتوحاً يمكن له أن يرجع إليه متى شاء؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[3]، إذن التَّوبة باب من أبواب رحمة الله تعالى.

---

(١) التَّحريم: ٨.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣٤٤/٢٠، ح/١٣٠٤٩.

(٣) النّور: ٣١.

ما هِيَ التَّوْبَةُ؟

التَّوْبَةُ: هِيَ الرُّجوع من الذّنب عن وعي، وإدراك، ومعرفة يقينيّة بضرر الذُّنوب وخطرها على الإنسان في الدُّنيا والآخرة، ثمّ يستتبع العلم، والمعرفة: إرادةً، وعزماً، وتصميماً قاطعاً؛ لتغيير الحالة الَّتي هو عليها، فإذا تحقَّقت الإرادة تحقَّق الشَّوق الَّذي يحرّك التّائب؛ لتغيير نفسه من حالة ظلمة الذُّنوب وكدوراتها، إلى حالة نورانيّة الطّاعة وعطائها.

فالتّوبة إذن تبدأ حركة في داخل النَّفس، فتنفض عنها غبار الغفلة، وتطهير القلب من أدران السّيّئات، ومن قاذورات الأخلاق الذَّميمة، وتتدارك ما صدر منها، وأثر عليها؛ لتمحو آثار الذُّنوب، والسّيّئات من القلب؛ ولتعيده إلى صفاء الفطرة.

وخلاصة الكلام: التَّوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، ثمّ حركة في داخل النَّفس وخارجها لقلب الواقع الملوّث إلى حالة طاهرة طيّبة، أو هي حالة انتقال من تحكيم الشَّهوات إلى تحكيم العقل، وغسل صفحة النَّفس، والقلب من أدران السّيّئات؛ لتجديد العهد مع الله، والتَّعاقد معه على الالتزام على خطّ الفطرة الَّذي جعله الله أمانة عند خليفته في الأرض.

لَوازِمُ التَّوْبَةِ وَأَرْكانُها:

لكي تتحقّق التَّوبة النّصوح فلا بدّ من تحقّق أمور عدّة، لتكون توبة نصوحاً ثابتة، ومؤثّرة في النَّفس، ومغيّرة للفرد وللمجتمع:

الأمر الأوّل: يقظة الضَّمير، والشُّعور بالتَّقصير، والنّدم على المعصية، وهذا الأمر لا يتحقّق إلا بالعلم والمعرفة اليقينيّة بأنَّ الذُّنوب أمراض وسموم تدمّر النَّفس، وتلقي بها إلى قعر جهنّم، وأنَّها أساس الشَّقاء في الدُّنيا والآخرة، فإذا

حصلت المعرفة بذلك فإنَّها ستنفض عن الضَّمير غبار الآثام والذُّنوب، وبذلك تحدث عند الإنسان حالة إحساس بالشُّعور بالذَّنب والتَّقصير، فيندم على ما مضى؛ ولذلك جاء الحديث: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**»(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام: «**كَفى بالنَّدمِ تَوْبَةً**»(٢).

وفي دعاء سيّد السّاجدين عليه السلام: «**إلهي، إنْ كانَ النَّدَمُ عَلى الذَّنْبِ تَوْبَةً فَإنّي وَعَزَّتِكَ مِنْ النّادمينَ**»(٣).

وهذه الحالة ستدفع الإنسان إلى النُّقطة الثّانية.

الأمر الثّاني: الإنابة، والعزم الصّادق، والتَّصميم القاطع على التّحرّك لتحقيق الهدف المنشود، وهذا العزم سيجعل التّائب في حالة تصميم على عدم العودة إلى تلك الذُّنوب، ثمّ إنَّ التَّوبة لا بدَّ أن يتبعها الإيمان، والعمل الصّالح، يقول تعالى: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا** ﴾(٤)، ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ** ﴾(٥)، ليتحرّك لأداء حقوق الله تعالى، فيعمد إلى كلّ حقّ ضيّعه، وفرض لم يؤدّه ليقضيه، وإلى حقوق النّاس فيؤدّيها قدر الإمكان، وبالاستغفار، فإذا تحقَّقت هذه الأركان تحقّقت التَّوبة النّصوح.

مَعْنى التَّوْبَةِ النَّصوحِ:

اختلف المفسّرون في معنى التَّوبة النَّصوح، وكلّ منهم أخذ وجهاً معيّناً من

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣٨٠/٤، ح/٥٨١١.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٢١٨/٤، ح/٢٩٤٧.

(٣) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ١٤٢/٩٤.

(٤) مريم: ٦٠.

(٥) طه: ٨٢.

وجوهها في أقوال عدّة:

«منها: أنَّ المراد توبة تنصح النّاس، أي تدعوهم إلى أن يأتوا بمثلها، لظهور آثارها الجميلة في صاحبها، أو يُنصح صاحبها، فيقلع عن الذُّنوب، ثمّ لا يعود إليها أبداً.

ومنها: أنَّ النَّصوح ما كانت خالصة لوجه الله سبحانه من قولهم: "عسل نصوح" إذا كان خالصاً من الشَّمع، بأن يندم على الذُّنوب لقبحها، وكونها خلاف رضى الله تعالى لا لخوف النّار مثلاً.

ومنها: أنَّ النَّصوح من النَّصاحة وهي الخياطة؛ لأنَّها تنصح من الدّين ما مزَّقته الذُّنوب، أو يجمع بين التّائب وبين أوليائه وأحبّائه، كما تجمع الخياطة بين قطع الثَّوب»[1].

وفي الرّوايات الواردة عنهم عليهم السلام عن أبي بصير، قال: «قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾، قال: **هُوَ الذَّنْبُ الَّذي لا يَعودُ فيه أَبَداً**، قلتُ: وأيّنا لم يعد؟ قال: **يا أَبا مُحَمَّد، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ عِبادِهِ الْمُفْتَّنَ التَّوّابَ**[2]»[3].

ولا خلاف بين هذه الرّواية، وبين التَّفسير المتقدّم إذ إنَّ الإنسان إذا أخلص توبته لله، فسوف تصحُّ نفسه من الأمراض الَّتي تسبّبها الذُّنوب، وتورثه نورانيّة تشعُّ

---

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ١٧/٦.

(٢) المفتن التّوّاب: هو الّذي امتحنه الله تعالى بالوقوع في الذّنب ثمّ يتوب، وقيل: هو من يقترف الذّنوب، ويسارع إلى التّوبة منها، وقيل: هو من كان كثير الذّنب كثير التّوبة.

(٣) الكافي: ٢٢٨/٤، ح/٢٩٦٤.

على الآخرين، ومثل هذه النّفس الّتي رُزِقَت علماً، وعزماً، وإرادةً، وتحرّكاً لا يمكن أن تعود إلى تلك الذّنوب مرّة أخرى.

فالعلم يجلّي لها الخطر المترتّب على الذّنوب؛ والعزم والتّصميم يدفعانها إلى الحركة؛ والحركة تغيّر الواقع؛ وبذلك لا يعود الإنسان إلى ارتكاب الذّنوب، فتصبح صفحة قلبه طاهرة سليمة من الأدران مشعّ نورها على الآخرين، وبذلك ترزق حبّ الله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[1].

وبهذه التّوبة تحقّق الطّهارة، وبتلك الطّهارة أصبح «**التّائبُ مِنَ الذّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ**»[2].

ضَرورَةُ التَّوْبَةِ:

ما دام في الإنسان جنبة تقوى، وجنبة فجور، وما دام الإنسان يسير في خط التّكامل، والقرب من الله، فليس هناك إنسان يستغني عن التّوبة؛ ولذا من باب تأكيد هذا المعنى نجد أنّ رسول الله ﷺ مع كونه معصوماً من الزّلل، وتوجّهه يد الرّحمن إلا أنّه كان يقول: «**إِنّهُ ليُغانُ[3] على قَلْبي؛ حتّى أَسْتَغْفِرَ الله مِئَةَ مَرَّةٍ**»[4].

---

(١) البقرة: ٢٢٢.

(٢) الكافي: ٢٣٢/٤، ح/٢٩٧٠.

(٣) «إنّ المعنى أنّ استغفار النّبيّ ﷺ كان لترك الأولى أو ترك العبادة الأفضل إلى الأدنى، وأمثال ذلك، فكذا ابتلاؤهم كان لتدارك ذلك، والأوّل أظهر كما يدلّ عليه الخبر الآتي وغيره»، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرّسول للمحدّث المجلسيّ: ٣٤٧/١١.

وفي النّهاية: «الغَيْن الغَيْم، وغينت السّماء تُغانُ: إذا أطبق عليها الغيم. وقيل: الغَيْن شجر ملتفّ، أراد ما يغشاه من السّهو الّذي لا يخلو منه البشر؛ لأنّ قلبه أبداً كان مشغولاً بالله تعالى، فإن عرض له وقتاً ما عارضٌ بشريٌّ يشغله من أمور الأمّة والملّة ومصالحهما عدّ ذلك ذنباً وتقصيراً، فيفزع إلى الاستغفار»، النّهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٤٠٣/٣، (غين).

(٤) مسند الإمام أحمد: ٣٩٣/٢٩، ح/١٧٨٤٩؛ و٣٩١/٢٩، ح/١٧٨٤٨؛ والإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: ٢١١/٣، ح/٩٣١؛ والمعجم الكبير للطّبرانيّ: ٣٠٢/١، ح/٨٨٦-٨٨٧-٨٨٨-٨٨٩

ومن هنا قال بعض علماء الأخلاق: «إنَّ التوبة فرض عين في حقّ كلّ شخصٍ يتصوّر أن يستغني عنها أحد من البشر كما لم يستغنِ آدم»[١]؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، والَّذي يضع نفسه على مدرج الكمال، ويريد أن يواصل السَّير إلى الله تعالى لا بدَّ من تكرار التَّوبة إلى أن يصل إلى ما يصبو إليه، ومن هنا جاءت الأوامر الإلهيّة متواصلة للحثّ على التَّوبة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾[٢].

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[٣].

﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾[٤].

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾[٥].

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾[٦].

ثَلاثُ خِصالٍ للتَّوّابينَ:

عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابه، رفعه، قال: «**إنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - أَعْطى التّائبين ثَلاثَ خِصالٍ لَوْ أَعْطى خَصْلَةً منها جَميعَ أَهْلِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ لَنجَوْا بِها:**

---

(١) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: ٩/٤.

(٢) التّحريم: ٨.

(٣) النّور: ٣١.

(٤) هود: ٣.

(٥) هود: ٦١.

(٦) هود: ٩٠.

قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(١)، فمَنْ أَحبَّهُ اللهُ لَمْ يُعذِّبْهُ.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٢).

وقَوْلُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٣)»(٤).

تَوْبَةُ اللهِ عَلى عِبادِهِ وَتَوْبَةُ الرُّسُلِ وَتَوْبَةُ الْعِبادِ إِلى اللهِ:

إنَّ الله سبحانه وصف نفسه بأنَّه توّاب، أي: يهيّئ لعبده مجال التَّوبة، ويقبل التَّوبة منه، إذن توبة الله على عباده هي إفاضة الرَّحمة عليه، قال العلامة الطّباطبائيّ:

(١) التّوبة: ٢٢٢.

(٢) غافر: ٧-٩.

(٣) الفرقان: ٦٨-٧٠.

(٤) الكافي: ٢٢٨/٤-٢٢٩، ح/٢٩٦٥.

«إنَّ توبة العبد محفوفة بتوبتين من الرَّبّ تعالى»[١]، فإنَّ العبد لا يستغني عن ربّه في حال من الأحوال، فرجوعه عن المعصية إليه يحتاج إلى توفيقه تعالى، وإعانته، ورحمته حتّى تتحقّق منه التَّوبة، ثمّ هو بأمسّ الحاجة إلى قبوله تعالى، وعنايته، ورحمته، فتوبة العبد إذا قبلت كانت بين توبتين كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾[٢].

وأمّا توبة العباد: فهي الإقلاع عن المعاصي والرُّجوع إليه تعالى، كما قدَّمنا، فهي رجوعهم عن الذّنب، ليدخلوا في رحمة الله، قال العلامة الطّباطبائيّ: «التّوبة هي الرُّجوع، وهي رجوع من العبد إلى الله سبحانه بالنَّدامة والانصراف عن الإعراض عن العبوديّة، ورجوع من الله إلى العبد رحمة بتوفيقه للرّجوع إلى ربّه أو بغفران ذنبه»[٣].

وأمّا توبة الرُّسل والأنبياء وأولياء الله المعصومين: فإنّنا نجد في القرآن الكريم التّأكيد على أنَّ الأنبياء كانوا يتوبون إلى الله، ويتوسّلون إليه لقبولهم، وهذا ليس معناه توبتهم عن الذُّنوب والمعاصي؛ لأنَّهم من خلال معرفتهم بالله، وعلمهم بعظم حقوقه عليهم يشعرون وهم بدائرة العصمة بالتَّقصير أمامه، وبالشَّوق إلى القرب منه، وبذلك هم يتوبون لكي يتقرّبوا إليه، ويرتفعوا من مقام إلى مقام آخر أقرب إليه تعالى، قال العلامة الطّباطبائيّ: «معنى التّوبة على رجوع بعض المقرّبين من عباد الله الصّالحين من موقفه الَّذي هو فيه إلى موقف أرفع منه وأقرب إلى ربّه

---

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٤٠١/٩.

(٢) التَّوبة: ١١٨.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٢٣٧/٤.

كما يشهد به ما يحكيه تعالى من توبة الأنبياء، وهم معصومون بنصّ كلامه، كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]، وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3]، وقوله تعالى خطاباً لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾[5]»[6].

إذن التّوبة تختلف باختلاف الحالات، ورد في مصباح الشّريعة عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**التَّوْبَةُ حَبْلُ الله، ومددُ عنايته، ولا بُدَّ للْعَبْد منْ مُداومة التَّوْبَة عَلى كُلِّ حال، وَكُلُّ فرْقَة من الْعباد لَهُمْ تَوْبَةٌ، فتوْبَةُ الأَنْبياء منْ اضْطراب السِّرِّ، وتَوْبَةُ الأَوْلياء منْ تَلْوين الْخطَرات، وتَوْبَةُ الأَصْفياء من التَّنفيس، وتَوْبَةُ الْخاصِّ منَ الاشْتغال بغَيْر الله تَعالى، وتَوْبَةُ الْعامِّ منَ الذُّنوب، ولكُلِّ واحد منْهُمْ مَعْرفَةٌ وَعلْمٌ في أَصْل تَوْبَته، ومُنْتَهى أَمْره**»[7].

---

(١) البقرة: ٣٧.

(٢) البقرة: ١٢٧–١٢٨.

(٣) الأعراف: ١٤٣.

(٤) غافر (المؤمن): ٥٥.

(٥) التّوبة: ١١٧.

(٦) الميزان في تفسير القرآن: ٤/٢٤٥–٢٤٦.

(٧) مصباح الشّريعة: ٩٧.

وَسائِلُ تَحْقيقِ التَّوْبَةِ:

لكي يحقّق العبد التَّوبة لنفسه، ويجني ثماره لا بدَّ من سلوك وسائل سليمة يتوصّل بها إلى تحقيق ما يصبو إليه، وقد ذكر علماء المعرفة أساليب عدّة نذكر منها:

أ- **العزلة الوقتيّة**: يستعيد فيها حساباته مع نفسه إذ يقف على ما كان عليه من أعمال وأحوال بدقّة، وصراحة، ثمّ يَجِدُ فيما يريد أن يحقّقه، وفي هذه المدّة يتدبّر حاله السّابق، ويحاول أن يستمطر رحمة الله بتفريغ قلبه إليه؛ ليعينه على نفسه، ويتوسّل إليه تعالى أن يسدّده ويؤيّده في مسيرته الجديدة، ويكون بذلك مصداقاً لدعاء الإمام السّجّاد عليه السلام: «**فَها أَنا ذا، يا إلهي، واقفٌ بباب عِزِّكَ وُقوفَ الْمُسْتَسْلِمِ الذَّليل، وَسائلُكَ على الْحَياء منّي سُؤالَ الْبائس الْمُعيل، مُقرٌّ لَكَ بأَنّي لَمْ أَسْتَسْلِمْ وَقْتَ إحْسانكَ إلا بالإقْلاعِ عَنْ عصْيانك**»[1].

فالتّائب في هذه المرحلة إذن يستسلم إلى الله استسلام العبد الذّليل إذ يشعر بالانكسار، والخضوع، والتّقصير بين يديّ الله تعالى، يعترف بذنوبه، وآثامه، وتجاوزه عن حدود الله تعالى، كما قال الإمام السّجّاد عليه السلام: «**بَلْ أَقولُ مَقالَ الْعَبْد الذَّليل الظّالم لنَفْسه، الْمُسْتخفِّ بحُرْمَة ربِّه، الَّذي عَظُمَتْ ذُنوبُهُ، فَجلَّتْ، وَأَدْبَرتْ أَيّامُهُ، فَوَلَّتْ، حَتّى إذا رأَى مُدَّةَ الْعَمَلِ قد انْقَضَتْ، وَغايَةَ الْعُمُر قد انْتَهَتْ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ لا مَحيصَ لَهُ منْكَ، وَلا مَهْرَبَ لَهُ عَنْكَ، تَلَقّاكَ بالإنابَة، وَأَخْلَصَ لَكَ التَّوْبَةَ، فَقامَ إلَيْكَ بقَلْب طاهر نَقيٍّ، ثُمَّ دَعاكَ بصَوْت حائل خَفيٍّ، قَدْ تَطَأْطَأَ لَكَ فَانْحنى، وَنَكَّسَ رَأْسَهُ فَانْثنى، قَدْ أَرْعَشَتْ خَشْيَتُهُ**

(١) الصَّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ٥٣، دعاء: ١٢.

رِجْلَيْه، وَغَرَّقَتْ دُمُوعُه خَدَّيْه»[1].

ب- الرُّجوع إلى كتابَ الله عزَّ وجلَّ، وأحاديث رسوله ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام، وكلمات العلماء العارفين، والتّأمّل في أوامر الله تعالى ونواهيه، واستحضار صورة العذاب الَّتي يرسمها القرآن ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2].

ج- ومن العوامل المساعدة قلّة الأكل والنَّوم؛ ليكسر جماح شهوات النَّفس الأمّارة بالسّوء، فإنَّ النَّفس عندما يطغى عليها كثرة الأكل تتهيّج غرائزها البهيميّة، وتثور خصوصاً بعض المأكولات المهيجة، وقلّة الأكل يخمدها أو يضعفها؛ وليكن الأكل بمقدار ما يقوّي الإنسان على أداء واجباته، وهذا القوت لا بدَّ أن يحرزه الإنسان من مكسب حلال طيّب، فإنَّ الرّزق الحلال له دور مهمٌّ في بناء شخصيّة الإنسان، وتزكية روحه، والعكس صحيح.

د- ترك الخوض في الشُّبهات، والحذر من الوقوع فيها، سواء كان كلاماً، أو فكراً، أو طعاماً، أو نظراً، أو سماعاً، وهذا يحتاج أن يجعل الإنسان على نفسه رقيباً من نفسه ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[3].

اخْتِلافُ التَّوْبَةُ بِاخْتِلافِ الذُّنوبِ:

أو بالأحرى ما يترتّب على التَّوبة يختلف باختلاف الذّنوب، فالذُّنوب تنقسم على قسمين:

---

(١) الصَّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ٥٤، دعاء: ١٢.

(٢) الشُّعراء: ٨٨-٨٩.

(٣) القيامة: ١٤.

١- ذنب بين العبد وبين الله تعالى كترك الصَّلاة، والاستخفاف بالفرائض، والاستهانة بالنَّواهي، وفي هذه الحالة يجب أن يعمد التّائب إلى كلّ فريضة ضيَّعها، فيؤدّي حقّها.

٢- ذنب يتعلّق بحقوق العباد كإزهاق روح، أو سلب مال، أو هتك عرض، وما إلى ذلك، وفي هذا ينبغي أن يرجع إلى ذلك الَّذي ظلمه، ويعيد إليه حقوقه بالطُّرق الشّرعيّة، ويكسب رضاه، ويطيب نفسه.

أَقْسامُ التّائِبينَ في دَوامِ التَّوْبَةِ:

١- الطَّبقة الأولى: أن يتوب المذنب العاصي توبة خالصة نصوحاً، ويستقيم عليها، ولا يحدث نفسه بالعودة إليها مرّة أخرى، وهؤلاء هم الَّذين هاموا في ذكر الله، فملك قلوبهم، وحكم مشاعرهم، وسيطر على أحاسيسهم، رَوَّضوا أنفسهم، فانكسرت شهواتهم بنور المعرفة، وهؤلاء هم أصحاب النُّفوس المطمئنّة بذكر الله.

٢- الطَّبقة الثّانية: طبقة (المفتّن التّوّاب) وهذه الطبقة قد استقامت على أداء الطّاعات المهمّة، واجتناب الفواحش الكبيرة إلا أنَّه تعرض لهم حالات يقعون في مخالفات شرعيّة، ثمَّ يتداركون أنفسهم باللَّوم، والمراجعة، وغايتهم أن تغلب قوى التَّقوى على قوى الفجور، ولا تقدمها، وهؤلاء هم أصحاب النُّفوس اللّوّامة.

٣- الطَّبقة الثالثة: يتوب ويستمر على التَّوبة؛ إلا أنَّه يقع في الحرام لعجزه عن قهر الشَّهوات النَّفسيّة، فإذا ما فرغ منها ندم، وتمنّى لو لم يكن قد فعل، وهؤلاء هم أصحاب النّفوس المسوّلة، ويتميّز على الصّفة الثّانية أنَّ هؤلاء أقبلوا على الشَّهوات برغبة وشوق، بينما الثّانية وقعت مصادفة وابتلاء، والطَّبقة الثّالثة هم

المعنيّون بقوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[١].

٤- الطَّبقة الرّابعة: أن يتوب ويبقى مدّة من الزّمن ثابتاً على توبته، ثمّ يرتكب المحرّمات، ولا يحدّث نفسه بالتّوبة، ولا يلزم نفسه عن ارتكاب المحرّمات، بل ينهمك فيها، وهذه هي النَّفس الأمّارة بالسّوء.

الْمَوارِدُ الَّتي لا تُقْبَلُ فيها التَّوْبَةُ:

لقبول التوبة شروط لا بد أن تتوفر فيها، ومن دونها لا تقبل، وهذه الشروط نجدها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢].

فهنا نجد أنَّ قبول التَّوبة مشروط بشرطين:

الأوّل: الَّذين يعملون السّوء بجهالة، والمقصود بالجهالة «في باب الأعمال إتيان العمل عن الهوى، وظهور الشّهوة والغضب من غير عناد مع الحقّ، ومن خواصّ هذا الفعل الصّادر عن جهالة أن إذا سكنت ثورة القوى، وخمد لهيب الشّهوة، أو الغضب باقتراف للسّيّئة، أو بحلول مانع، أو بمرور زمان، أو ضعف القوى بشيب، أو مزاج عاد الإنسان إلى العلم، وزالت الجهالة، وبانت النّدامة»[٣].

---

(١) التَّوبة: ١٠٢.

(٢) النّساء: ١٧-١٨.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٢٣٩/٤-٢٤٠.

الثّاني: عن قريب، والمقصود بالقرب ليس القرب الزّمانيّ من المعصية، وإنَّما المقصود أنَّ التَّوبة مقبولة قبل اليقين بالموت بحيث «لا يؤخّر الإنسانُ التَّوبة إلى حضور موته كسلاً، وتوانياً، ومماطلة»[1].

ولذا ذهب بعض العلماء أنَّ الموارد الَّتي لا تقبل فيها التّوبة هي:

١- إذا ارتكب الإنسان المعصية، وهو مستكبر متمرّد على الله تعالى، مُصِرٌّ على ارتكاب المعصية بحيث يصل إلى حدّ يبطل منه الرّجوع والتّذلّل لله تعالى.

٢- أن يتساهل ويتسامح في أمر التَّوبة، بحيث يؤدّي فوات الفرصة المتاحة له حتّى حضور الموت.

٣- من مات على الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2].

إذن التَّوبة مقبولة للمؤمن العاصي إذا مات من غير استكبار، ولا تساهل في التَّوبة مع الاختيار، والقدرة، وعدم الإصرار.

تَنْبيهاتٌ حَوْلَ التَّوْبَةِ:

١- ينبغي أن ينتبه الإنسان إلى أنَّ أخطر المخاطر في التَّوبة هي التَّسويف، والتّساهل، والتّماهل، فيؤجّل اليوم أو غد حتّى يتمادى به العمر، ولا يدري ماذا يضمر الدَّهر الخؤون له، علماً أنَّ التَّسويف يؤدّي إلى الاغترار، ونسيان رحمة الله تعالى، وبالتّالي يكون الإنسان فريسة إبليس لعنه الله، يلعب به كيف شاء، ورد عن

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢٤١/٤.

(٢) النّساء: ١٨.

أبي جعفر الثّاني عليه السلام قال: «**تَأْخيرُ التَّوْبَةِ اغْترارٌ، وطولُ التَّسْويفِ حَيْرَةٌ، وَالاعْتلالُ على الله هَلَكَةٌ، والإِصْرارُ على الذَّنْب أَمْنٌ لمَكْرِ الله، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾**[1]»[2].

٢- في مرحلة الشَّباب والقوّة، التَّوبة أهون تناولاً منها في مرحلة الشَّيخوخة؛ فإنَّ الحرص، وطول الأمل، وحبّ المال والجاه، وغير ذلك يكون أقوى وأحكم في نفس الإنسان في الشَّيخوخة من مرحلة الشَّباب، ورد في الحديث: «**يَشيبُ ابْنُ آدَمَ، ويَشِبُّ فيه خِصْلَتان: الْحِرْصُ وَطولُ الأَمَلِ**»[3].

مَنِ التّائِبُ؟

التَّوبة تنقل الإنسان من حالة إلى أخرى، فهي ولادة جديدة، وحياة متجدّدة، تتبدّل فيها أوضاع الإنسان كلّيّاً، ولذا ورد عن النّبيّ صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**أَتَدْرونَ مَنِ التّائبُ؟**» قالوا: «اللّهم، لا»، قال: «**إذا تابَ الْعَبْدُ، ولَمْ يُرْضِ الْخُصَماءَ فَلَيْسَ بتائب، ومَنْ تابَ ولَمْ يُغَيِّرْ مَجْلِسَهُ وطَعامَهُ فَلَيْسَ بتائب، ومَنْ تابَ ولَمْ يُغَيِّرْ رُفَقاءَهُ فَلَيْسَ بتائب، ومَنْ تابَ ولَمْ يَزِدْ في الْعبادَةِ فَلَيْسَ بتائب، ومَنْ تابَ ولَمْ يُغَيِّرْ لِباسَهُ فَلَيْسَ بتائب، ومَنْ تابَ ولَمْ يُغَيِّرْ فِراشَهُ ووِسادَتَهُ فَلَيْسَ بتائب، ومَنْ تابَ ولَمْ يَفْتَحْ قَلْبَهُ ولَمْ يُوَسِّعْ كَفَّهُ فَلَيْسَ بتائب، ومَنْ تابَ ولَمْ يُقَصِّرْ أَمَلَهُ ولَمْ يَحْفَظْ لِسانَهُ فَلَيْسَ بتائب، ومَنْ تابَ ولَمْ يُقَدِّمْ فَضْلَ قُوَّتِهِ**

---

(١) الأعراف: ٩٩.

(٢) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٤٥٦.

(٣) بحار الأنوار: ٢٢/٧٣.

منْ يَديه فَلَيْسَ بتائب، وَإذا استَقامَ عَلى هذه الْخصال فَذاكَ التّائبُ»(١).

وفي حديث آخر قال النّبيّ ﷺ: «التّائبُ إذا لَمْ يَسْتَبنْ عَلَيْه أَثَرَ التَّوْبَة فَلَيْسَ بتائب: يُرْضي الْخُصَماءَ، وَيُعيدُ الصَّلَوات، وَيَتَواضَعُ بَيْنَ الْخَلْق، وَيَتَّقي نَفْسَهُ عَن الشَّهَوات، وَيُهزّلُ رَقَبَتَهُ بصيام النَّهار، وَيُصْفرُ لَوْنَهُ بقيام اللَّيْل، وَيُخْمصُ بَطْنَهُ بقلَّة الأَكْل، وَيُقوّسُ ظَهْرَه منْ مَخافَة النّار، وَيُذيبُ عظامَهُ شَوْقاً إلى الْجَنَّة، وَيرقُّ قَلْبَهُ منْ هَوْل مَلَك الْمَوْت، وَيُجَفّفُ جلْدَهُ عَلى بَدَنه بتَفَكُّر الآخرَة، فَهذا أَثَرُ التَّوْبَة، وَإذا رَأَيْتُمْ الْعَبْدَ عَلى هذه الصِّفَة فَهُوَ تائبٌ ناصحٌ لنَفْسه»(٢).

(١) الشّيخ محمّد السّبزواريّ، جامع الأخبار: ٢٢٧، ح/٥٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٦، ح/٥٧٦.

الأُصولُ الأَخْلاقِيّةُ في التّعامُلِ الاجْتِماعِيِّ

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾(١).

تجمع هذه الآيات الكريمة أهمّ الأصول الأخلاقيّة في التّعامل الاجتماعيّ بمختلف اتّجاهاته، ولا سيّما في أسلوب الدَّعوة إلى الله، وما يكتنف الدّاعية من تحدّيات عسيرة في كدحه إلى الله لهداية خلقه، وتعبيدهم لله تعالى، فنرى ثلاثة أوامر متوالية جاءت بصيغة الوجوب: «خُذْ»، «أُؤْمُرْ»، «أَعرِضْ»، ولا سبيل للتّهاون فيها، أو التّوقّف عندها، بل أخذ، وقبول، وعطاء، وبذل جهد حكيم، وإعراض، وتجاهل، وتنزّه؛ ليتحقّق الالتزام بقوّة، والتّمسّك بوعي، والتّنفيذ بحكمة واختيار؛ ولذا قيل: «هذه الآية من ثلاث كلمات، قد تضمَّنت قواعد الشَّريعة: المأمورات والمنهيّات حتّى لم يبقَ فيه حسنةٌ إلا أوضحتها، ولا فضيلةٌ إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها، وأخذت الكلمات الثَّلاث أقسام الإسلام الثّلاثة.

فقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ تولي بالبيان جانب اللّين، ونفي الحرج في الأخذ، والإعطاء، والتّكليف.

---

(١) الأعراف: ١٩٩-٢٠٢.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ تناول جميع المأمورات والمنهيّات، وإنَّهما ما عُرِف حكمه، واستقرَّ في الشَّريعة موضعه، واتَّفقت القلوب على علمه.

وقوله ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ تناول جانب الصَّفح بالصَّبر الّذي به يتأتّى للعبد كلّ مراد في نفسه، وغيره»(١).

قال القرطبيّ: «هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمَّنت قواعد الشَّريعة في المأمورات والمنهيّات؛ فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرّفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين، ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغضّ الأبصار، والاستعداد لدار القرار، وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحضّ على التّعلّق بالعلم، والإعراض عن أهل الظُّلم، والتّنزّه عن منازعة السُّفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرّشيدة»(٢).

ثمَّ استشهد القرطبيّ لشموليّة هذه الآية وجامعيّتها برواية عن الإمام الصّادق عليه السلام بقوله: «**أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاقِ فِي هذِهِ الآيَةِ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَجْمَعُ لِمَكَارِمِ الأَخْلاقِ مِنْ هذِهِ الآيَةِ**»(٣).

وعلَّل بعض المفسّرين جامعيّة الآية الكريمة؛ لكونها تجمع أساليب المعاملة مع النَّفس، ومع الله، ومع النّاس عالمهم وجاهلهم، ولكونها تؤشّر إلى القوى الإنسانيّة الثّلاث: العقليّة، والغضبيّة، والشّهويّة، وتحدّد الموقف الحكيم إزاء توجيه

---

(١) ابن العربي، أحكام القرآن: ٣٦٣/٢.

(٢) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: ٣٤٤/٧.

(٣) المصدر نفسه: ٣٤٥/٧؛ ورواه الطّبرسي في جوامع الجامع: ٧٣٢/١.

طاقات كلّ من القوى الثّلاث بتوجيه إلهيّ[١].

أمّا معنى العفو: «قد يأتي بمعنى الزّيادة في الشّيء أحياناً، كما قد يأتي بمعنى الحدّ الوسط، كما يأتي بمعنى قبول العذر، والصّفح عن المخطئين والمسيئين، وتأتي أحياناً بمعنى استسهال الأمور»[٢].

والعفو في هذه الآية الكريمة يعني الاستسهال في التّعاطي الأخلاقيّ مع من يوجّه إليهم الدّاعية خطابه؛ ليجذبه إلى الإسلام، أي على داعية الإسلام أن يكون مرن التّعامل يرضى من النّاس بالقليل اليسير من قبولهم ليُمَرْحِل هدايتهم، فلا يطلب منهم ما يرهقهم، وما يصعب عليهم في تحمّله؛ لئلا ينفروا من الإسلام، والمعنى الجامع لذلك في قوله تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾[٣].

فالآية الكريمة تجمع كلّ أصول الأخلاق ومكارمه، وإلى ذلك أشارت الرّوايات الشّريفة؛ فقد رُوِيَ: «إنّ جبريل نزل على النّبيّ صلى الله عليه وآله، فقال له النّبيّ صلى الله عليه وآله: **ما هذا يا جبْريلُ؟** فقال: **لا أَدْري حَتّى أَسْأَلَ الْعالِمَ**، [و]في رواية: **لا أَدْري حَتّى أَسْأَلَ رَبّي**، فذهب، فمكث ساعة، ثمّ رجع، فقال: **إنَّ اللهَ تَعالى يأْمُرُكَ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتُعْطي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ**»[٤].

---

(١) ينظر: عمدة القاري للعينيّ: ١٨/٣٢٨-٣٢٩.

(٢) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥/٣٣٩.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٧/٣٤٥.

وقد نظم بعض الشّعراء هذا المعنى، فقال[١]: [من الرّجز]

مكارم الأخلاق في ثلاثة ... من كملت فيه فذلك الفتى

إعطاء من تحرمه، ووصل من ... تقطعه، والعفو عمّن اعتدى

وقال شاعر آخر: [من البسيط]

كلّ الأمور تزول عنك وتنقضي ... إلا الثّناء فإنَّه لك باقي

ولو أنَّني خُيِّرت كلّ فضيلة ... ما اخترتُ غير مكارم الأخلاق

وعلى كلّ حال، فالآية الكريمة بيان لأسلوب التّعامل الأفضل مع المدعوّين في الإسلام لقبوله، وحمله، والعمل به، وهذا أصل أخلاقيٌّ دعويٌّ يخطّط لكسب القلوب؛ لتغيير العقول، عن أبي جُري جابر بن سليم: «ركبت قَعودي، ثمّ انطلقت إلى مكّة، فطلبته [رسول الله ﷺ]، فأنخت قعودي بباب المسجد، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر، فقلْتُ: السَّلام عليك يا رسول الله، وقال: **وَعَلَيْكَ السَّلامُ**، قلتُ: إنَّا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء، فعلّمني كلمات ينفعني الله بها، قال: **ادْنُ**، ثلاثاً، فدنوتُ، فقال: **أَعدْ عَلَيَّ**، فأعدتُ عليه، فقال: **اتّقِّ اللهَ، وَلا تُحَقِّرَنَّ منَ الْمَعْروف شَيْئاً، وَأَنْ تَلْقى أَخاكَ بوَجْه مُنْبَسط، وَأَنْ تُفْرغَ منْ فَضْل دَلْوكَ في إناء الْمُسْتَسْقى، وَإن امْرُؤٌ سَبَّكَ بما يَعْلَمُ منْكَ فَلا تَسُبَّهُ بما تَعْلَمُ منْهُ، فَإنَّ اللهَ جاعلٌ لَكَ أَجْراً، وَعَلَيْه وزْراً، وَلا تَسُبَّنَّ شَيْئاً ممّا خَوَّلَكَ اللهُ تَعالى**، قال أبو جُرَيّ: فو الّذي نفسي بيده، ما سببت بعده شيئاً لا شاةً ولا بعيراً»[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣٤٥/٧-٣٤٦.

(٢) الجصّاص، أحكام القرآن: ٢١٣/٤-٢١٤.

ثمّ جاء الأمر الثّاني: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ العرف لغةً: «ضدّ النّكر، ومثله المعروف، والعارفة: وهو كلّ خصلة حميدة تعرف صوابها العقول، وتطمئنّ إليها النّفوس»(١).

وفي الاصطلاح: العرف «هو كلّ ما حسن في العقل فعله، أو في الشَّرع، ولم يكن منكراً، ولا قبيحاً عند العقلاء»(٢).

ثمَّ تشير الآية الكريمة إلى الأصل الثّالث: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، والجاهلون هنا هم الَّذين ضعف إدراكهم، وصعب تقبّلهم، وتعالى تعنّتهم، وتحدّيهم لمن يدعوهم إلى الهدى والحقّ، فهؤلاء لا ينبغي للدُّعاة أن يدخلوا معهم في نقاش وبحث؛ لأنَّهم جاهلون لا يدركون قيم الأشياء، والأشخاص، والكلمات، فيما يبدو منهم من أنواع السَّفاهة، والإيذاء، والبحث، والأخذ؛ والرَّدُّ على هؤلاء لا يجدي نفعاً؛ ولذا فإنَّ علاجهم الوحيد هو الإعراض عنهم؛ لأنَّ الكلام معهم هواء في شبك، إذ ينبغي عدم إجابتهم، والسّكوت عنهم، احتراماً للنَّفس، وصوناً للعقل من الابتذال، فالبحث معهم لغوٌ، ولا ينبغي للعاقل أن يلغو؛ ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أَحْكَمُ النّاسِ مَنْ فَرَّ مِنْ جُهّالِ النّاسِ**»(٣).

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «**قَطيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعاقِلِ**»(٤).

وقال صلى الله عليه وآله في صفة الجاهل: «**وَصِفَةُ الْجاهِلِ: أَنْ يَظْلِمَ مَنْ خالَطَهُ، وَيَتَعَدّى عَلى مَنْ هُوَ دونَهُ، وَيَتَطاوَلُ عَلى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ، كَلامُهُ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ، إِنْ**

(١) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤/٧٨٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الشَّيخ الصَّدوق، معاني الأخبار: ١٩٦.

(٤) نهج البلاغة: ٤٢٨، كتاب: ٣١.

تكلَّمَ أثم، وإنْ سكتَ سها، وإنْ عرضتْ له فتنةٌ سارعَ إليْها فأرْدَتْه[١]، وإنْ رأى فَضيلةً أعْرضَ وأبْطأَ عنْها، لا يَخافُ ذُنوبَه الْقديمةَ، ولا يرْتدعُ فيما بَقيَ منْ عُمْره منَ الذُّنوب، يَتوانى عَن الْبرِّ، ويُبْطئُ عَنْهُ، غَيْرَ مُكْتَرث لما فاتَه منْ ذلكَ أَوْ ضيَّعَه، فَتلْكَ عَشْرُ خصالٍ منْ صفَة الْجاهلِ الَّذي حَرمَ الْعَقْلَ»[٢].

بعد بيان هذه الأصول الثّلاثة، يأتي البيان لمواجهة تحدّيات إبليس في ضغطه على المؤمن داخليّاً، فيقول تعالى: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[٣].

«النَّزغ، والنَّسغ، والنَّخس بمعنى وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا أو ما يشبه ذلك في الجلد»[٤]، وهو أسلوب من أساليب الضَّغط النَّفسيّ؛ ليثير الغضب، ويبعث الحميّة، وعلاج ذلك هو الاستعاذة، والتّحصّن بالله تعالى من هذا الاستفزاز الشَّيطانيّ، أي إنَّ المؤمن عندما يتعرّض إلى وسوسات إبليس وخداعه، وضغوط جنده، فليس هناك حصن يحمي الإنسان منه إلا التّحرّز بالله تعالى، والآية ختامها: ﴿ **إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾، أي إنَّك أيّها المؤمن، إنَّك في عين الله، وفي علمه يسمع ما تقول، وينظر ما تفعل، ويكتب ما تكسب؛ ولذا يجب عليك أن تتيقّن بذلك، فإذا أيقنت بأنَّ الله هو الحامي لك، فلا سبيل لإبليس وجنده عليك؛ لأنَّك دخلت حصن الله تعالى.

---

(١) فأردته أي فأهلكته، أصله الرّدى بمعنى الهلاك والسّقوط.

(٢) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٢٩.

(٣) الأعراف: ٢٠٠.

(٤) الآلوسيّ، روح المعاني: ١٤٧/٩.

ثمَّ توضّح الآية الأخرى صفة المؤمنين، ومواقفهم من استفزازات الشَّيطان، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

وهنا إشارات جميلة، وهي:

١- إنَّ ملكة التَّقوى هي القوّة القاهرة لإبليس وجنده، فلا سبيل له على المتّقي؛ لأنَّ التَّقوى في شخصيّة المؤمن حُصنٌ حَصينٌ لا يمكن لإبليس وجنده اختراقه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**اعْلَموا عبادَ الله، أَنَّ التَّقْوى دارُ حصْنٍ عزيز، وَالْفُجورُ دارُ حصْنٍ ذَليل، لا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلا يُحْرِزُ مَنْ لجَأَ إِلَيْه، أَلا وَبِالتَّقْوى تُقْطَعُ حُمَةُ**[١] **الْخَطَايا**»[٢].

وفي نصٍّ آخر قال عليه السلام: «**فَاعْتَصِموا بِتَقْوى الله، فَإِنَّ لَها حَبْلاً وَثيقاً عُرْوَتُه، ومَعْقَلاً مَنيعاً ذِرْوَتُه**»[٣].

٢- إنَّ الشَّيطان لا يستطيع أن يغور إلى عمق النَّفس، وإنَّما يطوف ويدور حولها، ولا سيّما إذا تَحَصَّنَت بحصن الله تعالى، فالشّيطان إذن لا يستطيع أن يوغل في النّفس، بل لا يستطيع أن يفتح بابها ما لم يفتح الإنسان نفسه للشَّيطان، فإذا أغلق الإنسان قلبه بوجه الخواطر الشَّيطانيّة، فسيرجع الشَّيطان مدحوراً، والعكس بالعكس: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[٤].

٣- إنَّ السّلاح الأقوى في وجه الشَّيطان هو التّذكّر، والتّبصّر، فإنَّ التَّبصّر

---

(١) الحمة: إبرة العقرب وسمّها، والمراد: سطوة الذّنب.

(٢) نهج البلاغة: ٢٥٢، خطبة: ١٥٧.

(٣) المصدر نفسه: خطبة ١٩٠.

(٤) النّساء: ٧٦.

بدين الله تعالى يضع المؤمن على جادّة الصَّواب في مواجهة التّحديّات، والتّذكّر يجعله يشعر بأنَّ الله معه، ومن كان الله معه كفاه كلّ معضلة؛ لهذا فإنَّ الآية الكريمة تصوّر هذه الحقيقة بأروع بيان وأجمله للمواجهة، فعندما يستحضر الإنسان موقفه وحضوره بين يديّ الله فسوف يخشع قلبه، وتنبعث في نفسه قوّة، وثورة بوجه الخواطر الإبليسيّة، وعندما يتبصّر بدينه، فإنَّ تلك البصيرة[1] تُرسّخ في نفسه عداوة الشَّيطان، ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾[2]، فتتصاعد عداوته لإبليس، ويشهر بوجهه سلاح الإيمان والتَّقوى، وهو سلاح لا ينبو، ولا يقهر، ورغم كلّ ذلك تبقى عداوة الشَّيطان، ورصده للمؤمن قائمة، فجند الشَّيطان يمدّون أولياءهم بالقوّة، ويحرّكونهم، ويستفرغون كلّ طاقتهم للإضلال والانحراف، ومن هنا لا ينبغي أن يتصوّر المؤمن أنَّه أصبح في مأمَّنٍ من كيد الشَّيطان، فهو جالس في صراط الله يتربّص بالمؤمنين ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[3].

والتَّطبيق العمليّ لهذه الآية جاء مجسّماً في موقف أئمّة أهل البيت عليهم السلام كما في موقف الإمام الحسين عليه السلام من الشّاميّ الَّذي أراد استفزازه، قال عصام بن المصطلق: «دخلت المدينة، فرأيت الحسين بن عليّ عليه السلام، فأعجبني سمته ورواؤه،

---

(١) البصيرة هي الدّلالة الَّتي يستبصر بها الشَّيء على ما هو به، وهي نور القلب الَّذي يستبصر به، وإنَّ البصر نور العين الَّذي به تبصر، وهي تكامل العلم والمعرفة بالشّيء، وبالتّالي هي الرّؤية الدّاخليّة للإنسان، وبها يعرف موقعه ودوره في الحياة وموقفه إزاء الأحداث الَّتي تواجه الإسلام ومسؤوليّته أمام الله.

(٢) فاطر: ٦.

(٣) الأعراف: ١٦-١٧.

وأثار من الحسد ما كان يخفيه صدري لأبيه من البغض، فقلت له: أنت ابن أبي تراب؟ فقال: **نَعَمْ**. فبالغت في شتمه وشتم أبيه. فنظر إليَّ نظرة عاطف رؤوف، ثمّ قال: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ **خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۞ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ** ﴾.

ثمّ قال لي: **خفِّضْ عَلَيْكَ، اسْتَغْفِر اللهَ لي ولَكَ، إِنَّكَ لو اسْتَعَنْتَنا لأَعنّاكَ، ولَو اسْتَرْفَدْتَنا لَرَفَدْناكَ، ولَو اسْتَرْشَدْتَنا لَرَشَدْناكَ**».

قال عصام: «فتوسّم منّي النَّدم على ما فرط مني. فقال: ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ** ﴾ **أَمِنْ أَهْلِ الشّامِ أَنْتَ**؟ قلتُ: نعم. فقال: **شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُها مِنْ أَخْزَمَ**[1]، **حَيّانا اللهُ وَإِيّاكَ، انْبسطْ إِلَيْنا في حَوائِجِكَ، وما يَعْرِضُ لَكَ تَجِدُني عِنْدَ أَفْضَلِ ظَنِّكَ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالى**».

قال عصام: «فضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، ووددت لو ساخت بي، ثم سللت منه لواذاً، وما على الأرض أحب إليَّ منه ومن أبيه»[2].

---

(١) قال ابن الأثير في النّهاية في غريب الحديث والأثر ٥٠٤/٤: «الشِّنْشِنَة: السّجيّة والطّبيعة. وقيل: القطعة والمضغة من اللَّحم، وهو مثل، وأوّل من قاله أبو أخزم الطّائيّ، وذلك أنَّ أخزم كان عاقاً لأبيه، فمات وترك بنين عقّوا جدّهم وضربوه وأدموه، فقال: [من الرّجز]

إنَّ بنيّ زمّلوني بالدَّم ... شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزمِ»

(٢) الشّيخ عبّاس القمّيّ، سفينة البحار: ٧٠٥/٢-٧٠٦؛ وقد روى القرطبيّ هذه الواقعة في تفسيره عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: ٣٥٠/٧.

وفي تاريخ مدينة دمشق أنّ عصاماً قال: «فلم أبرح وعلى وجه الأرض أحبُّ إليّ منه ومن أبيه، وقلْتُ: " الله أعلم حيث يجعل رسالاته "، ثمَّ أنشأت أقول: [من الطّويل]

ألم تر أنَّ الحلمَ زينٌ لأهله ... ولا سيّما إن زان حلمَك منصبُ
سليل رسول الله يقتصّ هديه ... عليه خباءُ المكرمات مطنّبُ
قريب من الحُسنى بعيدٌ من الخنا ... صفوحٌ إذا استعتبته فهو مُعْتَبُ
صفوحٌ على الباغي ولو شاء لاقه ... بشنعاء فيها لامرئ متأدَّبُ
فقل لمسامي الشَّمس أنّى تنالها ... تأمَّل سناها وانظرْنَ كيف تعربُ»(١)

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٢٢٥/٤٣.

أُسُسُ الانْضِباطِ الاجْتِماعِيِّ في الإِسْلامِ

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۞ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(١).

قال الخليل الفراهيديّ في معنى الضّبط في اللّغة: «الضَّبط: لزوم شيء [لا يفارقه] في كلّ شيء. ورجل ضابط: شديد البطش، والقوّة، والجسم. ورجل أضبط، أي أعسر يسر، يعمل بيَديه معاً، وامرأة ضَبْطاء»(٢).

وقال ابن الأثير: «وفيه [الحديث] «أنَّه سئل عن الأضبط»، هو الَّذي يعمل بيديه جميعاً، يعمل بيساره، كما يعمل بيمينه... الضّابط: القويّ على عمله.. يقال: تضبّطت فلاناً إذا أخذته على حبس منك له وقهر»(٣).

وقال ابن منظور: «لزوم الشَّيء وحَبْسُه، ضَبَطَ عليه وضَبَطَه يَضْبُط ضَبْطاً وضَباطةً، وقال اللّيث: الضّبْطُ لزومُ شيء لا يفارقه في كلّ شيء، وضَبْطُ الشّيء حفْظُه بالحزم، والرَّجل ضابطٌ أَي حازمٌ ورجل ضابطٌ... قويٌّ شديدٌ، وفي التَّهذيب: شديد البطش والقُوَّة والجسم، ورجل أَضْبَطُ: يعمل بيديه جميعاً، وأَسَدٌ أَضْبَطُ: يعمل بيَساره كعمله بيمينه»(٤).

---

(١) النّساء: ١٤٨-١٤٩.

(٢) الخليل الفراهيديّ، كتاب العين: ٢٣/٧، (ضبط).

(٣) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٧٢/٣-٧٣، (ضبط).

(٤) ابن منظور، لسان العرب: ٣٤٠/٧، (ضبط).

والانضباط في الإسلام هو الالتزام بوعي، وجدّية، ودقّة، وإخلاص، وهدفيّة بنّاءة واضحة بمبادئ الإسلام، وأحكامه، وآدابه، وأخلاقه نظريّاً وعمليّاً، قولاً وفعلاً، وتجسيد ذلك سلوكيّاً.

ومن هنا فإنَّ أهمّ الأسس التّربويّة في الإسلام انضباط الإنسان في أقواله وأفعاله، من خلال التّأمّل، والتّفكير، في كلّ ما يتفوّه به، وما يروم فعله ولا سيّما فيما يتعلّق بالآخرين، فالإنسان في التّشريع الإسلاميّ مسؤول عن كلّ قول يقوله، وكلّ فعل يفعله، ومع هذا فإنَّ أقواله وأفعاله محفوظة له في سجلّ أعماله، ومحاسب عليها، ولا يضيع منها ولو مثقال ذرة، يقول تعالى: ﴿ **مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾(١)، بل هو مرهون بأعماله ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾(٢)، وسوف يجد تلك الأعمال مُحضرة بخيرها وشرّها ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا** ﴾(٣).

بناءً على ذلك أكّد النّظام الإسلاميّ على إلزام المؤمن بعدم العشوائيّة والارتجال في الأقوال والأفعال، فلا يتكلّم بكلام إلا بعد التّفكير والتّأمّل بعواقبه، ولا يقدم على عمل إلا بعد التّفكير بدقّة، والتّخطيط له بإحكام، عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**إنَّ رَجُلاً أَتى النَّبيَّ صلى الله عليه وآله، فَقالَ لَهُ: يا رَسولَ الله، أَوْصني، فَقالَ لَهُ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: فَهَلْ أَنْتَ مُسْتَوْصٍ(٤) إنْ أَنا أَوْصَيْتُك؟ حَتّى قالَ لَهُ ذلكَ ثَلاثاً، وَفي كُلِّها يَقولُ لَهُ الرَّجُلُ: نَعَمْ، يا رَسولَ الله، فَقالَ لَهُ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله:**

---

(١) ق: ١٨.

(٢) المدّثر: ٣٨.

(٣) آل عمران: ٣٠.

(٤) أي هل أنت طالب للوصيّة قابل لها، وعامل بها.

فَإنّي أُوصيكَ إذا أَنْتَ هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدبَّرْ عاقِبَتَه فَإنْ يَكُ رُشْداً فَأمْضِه، وإنْ يَكُ غَيّاً فَانْتَهِ عَنْه»[١].

وأعظم من ذلك جاءت الآيتان المتقدّمتان مؤكّدة لوجوب الانضباط في كلّ كلمة، فليس للإنسان حرّيّة مطلقة لأن يتكلّم بما يريد بلا ضوابط ولا قيود، بل يجب أن يحسب لكلّ كلمة حساباً، وعلى المستويين: الذّمّ والمدح، فلا يذمّ إلا ضمن الشّروط الشّرعيّة، ولا يمدح أحداً إلا بما يستحقّه من المدح مع ملاحظة دوافع ذلك المدح، وما تنطوي عليه من أهداف نفسيّة، أو مصلحيّة.

ونعود للآية الكريمة؛ لنقف على بعض أسرارها التّربويّة والاجتماعيّة:

١- ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، فعدم حبّ الله تعالى لهذا الفعل «كناية عن الكراهة التّشريعيّة أعمُّ من التَّحريم والإعانة»[٢]، فالله تعالى لا يريد لعباده، ولا يرضى لهم أن يكشفوا أسرار الآخرين، وينشروها بين النّاس، وإذا لم يحبّ الله فعلاً ما بمعنى لا يحبّ فاعله، وإذا لم يحبّ الله أحداً عرضه لنقمته وعذابه، ومن هنا يجب على المؤمن أن يلحظ هذا الأمر بدقّة، ويفكّر بكلّ كلمة قبل أن يتفوّه بها، فإذا أراد أن يجهر بكشف سرّ لأحد أن يدرس دوافعه الذّاتيّة من هذا الكشف، وينبغي أن يعرف طبيعة دوافع ذلك الشَّخص، بل لعلّه يجب أن يسلك معه طريق النَّصيحة، والموعظة، والتَّذكير، وإذا لم ينفع ذلك معه فله حينئذٍ أن يكشف أسراره القبيحة بين النّاس لا سيّما أهل البدع، والفسقة، والفجّار؛ لِيَحْذَرهم النّاس، ولا يقعوا في شباكهم، فعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «لا

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٥/٣٥٩-٣٦٠، ح/١٤٩٤٥.

(٢) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٥/١٢٣.

تَصْحَبوا أَهْلَ الْبدَع، ولا تُجالسوهُمْ؛ فَتَصيروا عنْدَ النّاس كَواحد منْهُمْ، قالَ رَسولُ الله ﷺ: الْمَرْءُ عَلى دين خَليله وقَرينه»[١].

وفَي حديث آخر، عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**قالَ رَسولُ الله ﷺ: إذا رَأَيْتُمْ أَهْلَ الرَّيْب وَالْبدَع منْ بَعْدي، فَأَظْهروا الْبَراءَةَ منْهُمْ، وَأَكْثروا منْ سَبِّهِمْ، وَالْقَوْلَ فيهِمْ والْوَقيعَةَ، وباهتُوهُمْ كَيْلا يَطْمَعوا في الْفَساد في الإسْلام، ويَحْذَرَهُمُ النّاسُ، ولا يَتَعَلَّموا منْ بدَعهمْ، يَكْتُب اللهُ لَكُمْ بذلكَ الْحَسَنات، ويَرْفَعْ لَكُمْ به الدَّرَجات في الآخرَة**»[٢].

وفي حديث آخر: «**لا غيبَةَ لفاسق**»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**اذْكُروا الْفاسقَ بما فيه لِيَحْذَرَهُ النّاسُ**»[٤].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**إذا جاهَرَ الْفاسقُ بفسْقه فَلا حُرْمَةَ لَهُ وَلا غيبَةَ**»[٥].

وينبغي أن يفكّر المؤمن جيّداً أنَّ فضح هذا الفاسق أيقلّص من فسقه أم يدفعه، ويتمادى به، ويصبح ظاهرة بين النّاس، فقد أثبتت التَّجارب أنَّ بعض الفاسقين في السّرّ إذا كشفت أسرارهم يتمادون في فسقهم، ويعملون على نشره في أوساط النّاس، وحينئذ يتفاقم الخطر، ولعلَّ حفظ أسراره مع نصحه ووعظه وتذكيره يرجعه إلى جادّة الصَّواب، ويهتدي إلى صراط الله بعد أن شطَّت قدمه

---

(١) الكافي: ١٢٢/٤، ح/٢٨٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ١٢٣/٤، ح/٢٨٢٨.

(٣) ابن أبي جمهور، عوالي اللّئالي: ٤٣٨/١.

(٤) النَّوويّ، المجموع: ٨٦/٢٣

(٥) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٩٣، ح/٦٨؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ١٩٨/٧، ح/٣٩٥٢.

عن هدى الله تعالى.

خلاصة الكلام: يجب على الإنسان أن يتأنّى جيّداً عندما يريد أن يكشف أسرار أحد، ويدرس الظّروف الموضوعيّة له، ومدى قدرته لإصلاحها، ويجب أن يدرس دوافعه من وراء ذلك، ويجب أن يكون الكشف بحدود مخالفاته، ولا يكشف جميع مخفيّاته؛ فإنَّ ذلك يوقعه في العداء المحرّم.

وأمّا الجهر بالسّوء الَّذي لا يحبّه الله، فقد اختلف المفسّرون فيه على أقوال: فقيل: هو الشَّتم والسّبّ حالة الانتصار، وقيل: هو الدّعاء على أحد، وقيل: هو الشَّكوى والذّمّ، والحقيقة «أنَّ كلمة (سوء) تشمل كلّ أنواع القبح والفضيحة، والمقصود من عبارة (الجهر من القول...) هو كل حالة من الكشف والفضح اللَّفظيّ، سواء كان بصورة شكوى، أو على شكل حكاية، أو لعن، أو ذمّ، أو غيبة»[١].

ثمَّ إنَّ الآية الكريمة لم تحرّم القول بالسّوء بصورة مطلقة، فقد استثنت حالة الدّفاع عن النَّفس لرفع الظُّلم عنها، بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، فقد أباحت الشَّريعة المقدّسة للإنسان أن يجهر بالقول في فضح الظالم «سواء عن طريق الشَّكوى، أو فضح مساوئ الظالم، أو توجيه النَّقد والانتقاد له، أو استغابته، ولا يسكت على الظُّلم حتّى استعادة حقوقه من الظّالم»[٢].

وفي الآية إشارة رائعة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾، أي إنَّك أيّها الإنسان عليك أن تعلم أنَّ الله يسمع ما تقول، ويعلم ما تفعل، ويعرف بدقّة أهدافك، ودوافعك من وراء القول، فكن حذراً دقيقاً، ولا تتعدّى الحدّ المسموح إليك، فلا

(١) الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٤٥٢/٣.

(٢) المصدر نفسه: ٤٥٣/٣.

تقل إلا الحقّ، فلا تهتك ستر أحد من دون سبب شرعيّ مقبول، ونيّة خالصة لله، فلا ينبغي لك الجهر بالسّوء من دون مبرّر شرعيّ، وذلك أنَّ هتك أستار الآخرين، وفضحهم لإسقاطهم من أعين الآخرين من أفحش الظُّلم، وأعظم الإثم، بل عدَّ الشّارع المقدّس السّتر على المؤمن من أعظم القربات عند الله تعالى، فقد ورد في الحديث الشَّريف عن أبي عبد الله عليه السلام: «**وَمَنْ سَتَرَ عَلى مُؤْمِن عَوْرَةً يَخافُها، سَتَرَ اللهُ عَلَيْه سَبْعينَ عَوْرَةً مِنْ عَوْرات الدُّنْيا وَالآخرَة**»[1]، والأحاديث في ذلك كثيرة نذكر منها:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّما اسْتَحْيا مَوْؤودَةً مِنْ قَبْرِها**»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله: «**مَنْ سَتَرَ أَخاهُ الْمُسْلِمَ في الدُّنْيا سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنْيا وَالآخرَة**»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله: «**مَنْ عَلِمَ مِنْ أَخيهِ سَيِّئَةً فَسَتَرَها عَلَيْه سَتَرَ اللهُ عَلَيْه يَوْمَ الْقيامَة**»[4].

وعنه صلى الله عليه وآله: «**مَنْ سَتَرَ أَخاهُ في فاحِشَةٍ رَآها عَلَيْه، سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنْيا وَالآخرَة**»[5].

وَعنه صلى الله عليه وآله: «**مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخيهِ الْمُسْلِم، سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقيامَة،**

---

(١) الكافي: ٥١١/٣، ح/٢١٧٣.

(٢) البيهقيّ، الجامع لشعب الإيمان: ١٥٥/١٢، ح/٩٢٠٤.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣٢٥/١٣، ح/٧٩٤٢.

(٤) الطّبرانيّ، المعجم الكبير: ٣٤٩/١٧، ح/٩٦٢.

(٥) عبد الرّزّاق الصّنعانيّ، المصنّف: ٢٢٨/١٠، ح/١٨٩٣٥.

ومَنْ كَشَفَ عوْرَةَ أَخيه الْمُسْلِم، كَشَفَ الله عوْرَتَهُ حَتّى يَفْضَحَهُ بها في بيْته»(١).

وعنه ﷺ: «**كانَ بالْمَدينَة أَقْوامٌ لَهُمْ عُيوبٌ، فَسَكَتوا عَنْ عُيوب النّاس، فَأَسْكَتَ اللهُ عَنْ عُيوبهمُ النّاسَ، فماتوا ولا عُيوبَ لَهُمْ عنْدَ النّاس، وكانَ في الْمَدينَة أَقْوامٌ لا عُيوبَ لهُمْ، فتَكَلَّموا في عُيوب النّاس، فَأَظْهَرَ اللهُ لَهُمْ عُيوباً لَمْ يَزالوا يُعْرَفون بها إلى أَنْ ماتوا**»(٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**اسْتُرْ عَوْرَةَ أَخيكَ كَما تَعْلَمُها فيكَ**»(٣).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**يَجبُ للْمُؤْمن على الْمُؤْمن أَنْ يَسْتُرَ عَلَيْه سَبْعين كَبيرَةً**»(٤).

هذا بالنّسبة للآية الأولى، أمّا في الآية الثّانية: ﴿**إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ...**﴾، فهذه الآية كأنّها توضّح الضّدّ لما تقدّم؛ لأنَّ الشّيء يعرف بضدّه، فكما أنَّ الأولى حذَّرت من هتك ستر الآخرين، فهذه الآية أباحت الحديث عن أفعال الخيّرين سواء كان الحديث عن أفعال الخير الخاصّة بالشّخص نفسه، أو عند الآخرين، فإبداء الخير وإظهاره سواء كان فعلاً، أو قولاً، أو موقفاً هو من باب شكر المنعم، وتشجيع المحسن، وتشويق فاعل المعروف، وكلّ ذلك دفع وتشويق لفعل الخير.

---

(١) سنن ابن ماجة: ٨٥٠/٢، ح/٢٥٤٦.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، كتاب الأمالي: ٧٨؛ وترتيب الأمالي: ١٩٠/٧، ح/٣٩٣٩.

(٣) الكافي: ٧٣/١٥، ح/١٤٨١٩.

(٤) المصدر نفسه: ٥٢٨/٣، ح/٢٢٠٦.

وأمّا الإخفاء ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ هنا لفعل الخير من باب الحذر من الوقوع في الرّياء؛ لأنَّه الشّرك الأصغر كما في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

ثمَّ أشارت الآية الكريمة إلى إحدى خلال الإيمان، وهي: ﴿تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ﴾ العفو عن إساءات الآخرين، والعفو هنا باب من أبواب التّسامح، وغفران سيّئات الآخرين، والتَّجاوز عنها تقرّباً إلى الله، ولا يتّصف بهذه الصّفة إلا كبار النُّفوس ممَّن سمت نفوسهم عن السّفاسف والصّغائر، وارتفعت عن تراب الأرض إلى نور السّماء، وتحلّت بالأخلاق الإلهيّة.

شُروطُ الْعَفْوِ عَنِ الْمُسيِءِ:

للعفو والصَّفح عن المسيء شروط إذا فقدت لا يعدّ عفواً، وإنَّما قد تكون له مضاعفات تضرّ العافي والمعفوّ عنه، هذه الشُّروط هي:

١- أن تكون بنيّة خالصة لله تعالى، وليس فيها دافع آخر كإثبات سعة الصَّدر، والحلم، وكظم الغيظ أمام الآخرين، فهذه قد تنفعه عند النّاس، ولكن تخسره رضوان الله بينما مع إخلاص النّيّة لطلب رضا الله فإنَّ الله يمنحه رضاه، ويرضى النّاس عنه؛ لأنَّ «**مَنْ أَصْلَحَ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الله، أَصْلَحَ اللهُ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ النّاسِ، ومَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخرتَه، أَصْلَحَ اللهُ لَهُ أَمْرَ دُنْياه**»[2].

---

(١) البقرة: ٢٧١.

(٢) نهج البلاغة: ٤٩٩، قصار الحكم: ٨٤

٢- أن يكون العفو عن قدرة إمضاء العقوبة وإمكانيّته باقتدار، وليس عن عجز وضعف وخوف، وقد أكّدت السُّنّة على ذلك بكثير من الأحاديث نذكر منها عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**مَنْ عَفا عِنْدَ قُدْرَةٍ عَفا اللهُ عَنْهُ يومَ الْعُسْرَةِ**»[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال:

«**إذا قَدَرْتَ عَلى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْه**»[٢].

«**أَوْلى النّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلى الْعُقوبَةِ**»[٣].

«**الْعَفْوُ مَعَ الْقُدْرَةِ جُنَّةٌ مِنْ عَذابِ اللهِ سُبْحانَهُ**»[٤].

٣- أن يُقَدِّر أنّ العفو يكون سبباً لإصلاح المعفوّ عنه، أي أن يعرف الحالة النّفسيّة لذلك الشَّخص الَّذي يريد أن يعفو عنه، هل العفو يزيده طغياناً، ويشعره بضعف الآخرين؟ أم يشعره بسموّ أخلاقهم؟ وبذلك يكون العفو طريقاً إلى الإصلاح، أمّا إذا عرف المؤمن أنَّ العفو يزيده سوءاً، فلا ينبغي له العفو عنه، وإلى هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لولده الحسن عليه السلام: «**احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخيكَ عِنْدَ صَرْمِه عَلى الصِّلَة، وعِنْدَ صُدوده على اللَّطَف والْمُقارَبَة، وَعِنْدَ جُموده عَلى الْبَذْل، وَعِنْدَ تَباعُده على الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شدَّته على اللّين، وَعِنْدَ جُرْمه عَلى الْعُذْر حَتّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وكَأَنَّهُ ذو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ، وإيّاكَ أَنْ تَضَعَ ذلكَ في غَيْرِ مَوْضِعِه أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِه**»[٥].

---

(١) المعجم الكبير: ٨/١٥١، ح/٧٥٨٥.

(٢) نهج البلاغة: ٤٨٨، قصار الحكم: ٧.

(٣) المصدر نفسه: ٤٩٤، قصار الحكم: ٤٧.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٤٢، ح/٧٨٢٦.

(٥) نهج البلاغة: ٤٢٦، كتاب: ٣١.

وقال عليه السلام: «**الْعَفْوُ يُفْسِدُ مِنَ اللَّئِيمِ بِقَدْرِ إِصْلاحِهِ مِنَ الْكَرِيمِ**»(١).

وعنه عليه السلام قال: «**جازِ بِالْحَسَنَةِ، وَتَجاوَزْ عَنِ السَّيِّئَةِ ما لَمْ يَكُنْ ثَلْماً فِي الدِّينِ، أَوْ وَهْناً فِي سُلْطانِ الإِسْلامِ**»(٢).

ولنعم ما قيل(٣): [من الوافر]

متى تضع الكرامة من لئيم ... فإنّك قد أسأت إلى الكرامة

وقديماً قال المتنبيّ(٤): [من الطّويل]

إذا أنت أكرمت الكريم ملكتَهُ ... وإن أنتَ أكرمت اللّئيم تمرّدا

ووضع النّدى في موضع السَّيف بالعلى ... مُضِرٌّ كوضع السّيف في موضع النّدى

---

(١) الشّيخ المفيد، الإرشاد: ٢٩٨/١.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٥، ح/٥٠١٤.

(٣) النّويريّ، نهاية الأرب في فنون الأدب: ٦٧/٦.

(٤) البرقوقيّ، شرح ديوان المتنبيّ: ١٩١/١.

الْعَمَلُ فِي الإِسْلامِ عِبادَةٌ

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[1].

اختلفت المذاهب الاجتماعيّة، والأديان المحرّفة في نظرتها إلى الإنسان والحياة، فبعض الأديان المحرّفة عن شرعة السّماء اهتمّت بالجانب الرّوحيّ وأسرفت فيه، وجعلته هو الأساس والمرتكز في حياة الإنسان، واستغرقت فيه على حساب الجانب المادّيّ؛ ولذلك سنَّت الرّهبانيّة، فعدَّت العزلة واجتناب ملاذ الحياة هو أساس السّموّ الإنساني، وإنَّ الانصراف إلى العمل المادّيّ ليس من شأن عباد الله جاء في الإنجيل: «لا تستطيعون أن تعملوا لله وللمال؛ لذلك أقول لكم: لا يهمّكم للعيش ما تأكلون، ولا للجسد ما تلبسون»[2].

هكذا عدَّت الدّيانة المسيحيّة أنَّ الحياة الرّوحيّة والطَّهارة القلبيّة واجتناب ملاذّ الحياة هي رمز الرّفعة الإنسانيّة، وأهملت الجانب المادّيّ من الإنسان، وبذلك خالفت فطرة الإنسان، ودقَّت إسفيناً دون سعادته ورقيّه؛ ولذلك تمرَّد عليها أهلها.

وعلى عكس المسيحيّة المحرَّفة جاءت المذاهب المادّيّة الَّتي كانت في أحسن التَّقادير ردّة فعل على ما فرضته المسيحيّة من قيود على الإنسان خالفت فيه الفطرة البشريّة، فضربت بالجانب الرّوحيّ والمعنويّ عرض الحائط، وعدَّته حجر

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) الكتاب المقدّس، العهد الجديد: ٣٤، إنجيل متّي، الإصحاح السّادس: ٢٤-٢٥.

عثرة في طريق رقيّ الإنسان وتقدّمه؛ ولذلك شاع قول لينين: «الدّين أفيون الشُّعوب»، وتنكّرت للجانب الخلقيّ، وجعلته مَعْلماً من معالم العجز، وضرباً من ضروب الضَّعف، قال **انجلز**: «إنَّنا نرفض شتّى المحاولات الَّتي تحاول أن تفرض علينا أخلاقاً تستند إلى المثاليّات»(١).

وقال كاليكليس في محاورة جورجياس الّتي كتبها أفلاطون: «إنَّ الأَخْلاقَ ابتكار الضُّعفاء؛ لتقييد الأقوياء»(٢).

وهكذا ثاروا ضدّ الأديان، والمثل الإنسانيّة، والقيم، والأخلاق، وعدّوا العمل المادّيّ هو الأساس في تقدّم المجتمع ورقيّه، فحاربوا الأديان، وعطّلوا المساجد والكنائس، ومنعوا من إقامة الشَّعائر الدّينيّة بكلّ أشكالها، وبسلوكهم هذا الّذي دام أكثر من سبعين سنة في الاتّحاد سوفيتي لم يستطيعوا أن يستأصلوا الفطرة الدّينيّة من نفوس النّاس؛ ولذلك ما أن تمزّق الاتّحاد السّوفيتي حتّى ارتفعت أصوات التّوحيد منادية: «**اللهُ أَكْبَرُ**».

وكلّ الأديان الأخرى والمذاهب الاجتماعيّة نحت أحد هذين المسلكين، كلّ على مسلكه، أمّا الإسلام: فقد وازن بين الجانب المادّيّ والجانب الرّوحيّ والأخلاقيّ، وعدَّ كليهما من مقوّمات الحياة الإنسانيّة، ولا يمكن الاستغناء عنهما، بل لا يمكن أن تستقيم حياة الإنسان بإحداهما من دون الآخر؛ فقد جاء في الحديث الشّريف عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**لَيْسَ مِنّا مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ، وَلا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ**»(٣).

---

(١) الشّيخ باقر شريف القرشيّ، مناهج الأنظمة الإسلاميّة (نظام العمل وحقوق العامل): ٨٧/٣

(٢) ول ديورانت، مباهج الفلسفة: ١٣٩/١.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ١٥٦/٣، ح/٣٥٦٨.

فلا بدَّ إذن من التّوازن بين الجانبين، فـ«المنهج الإسلاميّ يتّسم بالتّوازن بين العمل لمقتضيات الحياة في الأرض، وبين العمل في تهذيب النَّفس والاتّصال بالله تعالى، وابتغاء رضوانه، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾(١)»(٢).

وهذه الموازنة قائمة على أساس فطريّ في الإنسان، فالإنسان يتكوّن من روح وبدن، وهما متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر إلا بالموت، وكلّ منهما يتقوّم بالآخر، ولا يمكن أن نُقَوّم الرّوح، ونترك البدن، أو بالعكس.

«لم يقتصر الإسلام في نظامه الرّفيع، ودستوره الخالد على المادّة وإهمال الرّوح، بل نظر إليهما نظرة واحدة، فجعل الإنسان مرتبطاً بهما، ومفتقراً إليهما، لا يستغني عنهما، ولا يستقيم له أمر إلا بهما، فلا يصح من المسلم أن يترهّب ويترك متع الدّنيا، كما لا يصحّ منه أن يقبل على المادّة، ويهيم في طلبها بأيّ طريق كان، وإلى ذلك يشير الحديث الشَّريف: «**لَيْسَ مِنّا مَنْ تَرَكَ دُنْياهُ لآخِرَتِه، ولا آخِرَتَهُ لِدُنْياهُ**»(٣).

وجاء في حديث آخر الحثّ على العمل للدّنيا والآخرة معاً، يقول صلى الله عليه وآله: «**اعْمَلْ لِدُنْياكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَداً، وَاعْمَلْ لآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَداً**»(٤)، على هذا التّوازن بنى الإسلام حضارته الخالدة الَّتي شقَّت أجواء التّاريخ، ونفذت

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) مناهج الأنظمة الإسلاميّة (نظام العمل وحقوق العامل): ٣/١٠٠-١٠١.

(٣) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣/١٥٦، ح/٣٥٦٨.

(٤) المصدر نفسه: ح/٣٥٦٩، والحديث فيه مرويّ عن العالم عليه السلام، أي الإمام الكاظم عليه السلام.

إلى أعماق القلوب، وأنقذت الإنسان من ضراوة المادّة وخمول الرّهبانيّة»[١].

الْعَمَلُ فِي الإِسْلامِ:

بعد هذه المقدّمة نحاول أن نبحث قيمة العمل في الإسلام من النّاحية الاقتصاديّة، وبيان حثّ القرآن الكريم والسّنّة الشّريفة عليه، فقد جاء ذكر العمل في القرآن الكريم في (٣٦٠) موضعاً تعرَّضت الآيات فيه لقيمة العمل وأحكامه بصورة عامّة، يقول عزَّ وجلّ:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٢].

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٣].

أمّا السّنّة المطهّرة، فقد أكّدت على أهمّيّة العمل الاقتصاديّ، وبمختلف الأساليب المشروعة، نذكر منها حسبما سلسله العلامة الشّيخ باقر شريف القرشيّ رحمه الله في كتاب «نظام العمل وحقوق العامل»[٤]:

أَوّلاً: الْعَمَلُ شَرَفٌ وَكَرامَةٌ:

عدَّ الإسلام كرامة الإنسان وشرفه بمقدار ما يقدّمه من عمل من أجل مطلب

---

(١) مناهج الأنظمة الإسلاميّة (نظام العمل وحقوق العامل): ١٨/٣.

(٢) النّحل: ٩٧.

(٣) الجمعة: ١٠.

(٤) ينظر: مناهج الأنظمة الإسلاميّة (نظام العمل وحقوق العامل): ١٠٢/٣-١٠٨.

مشروع، وبصورة خالصة إذا كان في سبيل الله سبحانه وتعالى بما تشتمل عليه كلمة (**سبيل الله**) من أبعاد، فلا يرتفع بالإنسان نسبه، بل قيمته بعمله الَّذي يؤدّيه بنيّة خالصة لله، قال الإمام عليّ عليه السلام: «**مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ حَسَبُهُ**»[١].

وعدَّ الإسلامُ مدَّ الإنسان يده إلى الآخرين ذلّة، ولا يجوز له أن يذلّ نفسه، ففي الحديث الشَّريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وَالَّذي نَفْسي بِيَدِه؛ لَئِنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَذْهَبَ إلى الْجَبَلِ، فَيَحْتَطِبَ، ثُمَّ يَأْتِيَ بِهِ يَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهُ، فَيَأْكُلَ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النّاسَ**»[٢].

وقال الأصمعيّ: «مررت بكنّاس بالبصرة يكنس كنيفاً، ويغنّي: [من الوافر]

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فقلتُ له: أمّا سداد الكنيف فأنت مليء به، وأمّا الثغر فلا علم لي بك، كيف أنت فيه؛ وكنت حديث السّنّ، فأردت العبث به، فأعرض عني مليّاً، ثمّ أقبل عليّ، فأنشد متمثّلاً: [من الطّويل]

وأكرم نفسي، إنّني إن أهنْتُها وحقّك لم تَكْرُم على أحد بعدي»

قال: فقلتُ له: والله ما يكون من الهوان شيءٌ أكثر ممّا بذلتها له، فبأيّ شيء أكرمتها؟ فقال: بلى، والله، إنَّ من الهوان لشرّاً ممّا أنا فيه. فقلتُ: وما هو؟ فقال: الحاجة إليك وإلى أمثالك من الناس. فانصرفت عنه أخزى النّاس»[٣].

---

(١) نهج البلاغة: ٤٨٩، قصار الحكم: ١٩.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤٥٩/١٢، ح/٧٤٩٠.

(٣) أبو الفرج الأصفهانيّ، الأغاني: ٤٠١/١.

ثانياً: الْعَمَلُ جِهادٌ في سَبيلِ اللّٰهِ تَعالى:

الجهاد من أهمّ فرائض الإسلام، بل هو ذروة سنامه، فهو أشرفها وأعظمها، وبالرّغم من ذلك فقد أُنْزِلَ العمل منزلة الجهاد في سبيل الله تعالى، فما يبذله من جهد في الكدّ على عياله من أفضل الطّاعات والقربات عند الله سبحانه وتعالى؛ فعَنْ زَكَرِيّا ابْنِ آدَمَ، عَنْ أَبي الْحَسَنِ الرِّضا عليه السلام، قالَ: «**الَّذي يَطْلُبُ مِنْ فَضْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ ما يَكُفُّ بِهِ عِيالَهُ أَعْظَمُ أَجْراً مِنَ الْمُجاهِدِ في سَبيلِ الله عَزَّ وَجَلَّ**»(١).

وَعَنْ فُضَيْلِ بْنِ يَسارٍ، عَنْ أَبي عَبْدِ الله عليه السلام، قالَ: «**إِذا كانَ الرَّجُلُ مُعْسِراً، فَيَعْمَلُ بِقَدْرِ ما يَقوتُ بِهِ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ، وَلا يَطْلُبُ حَراماً، فَهُوَ كَالْمُجاهِدِ في سَبيلِ الله**»(٢).

وعن كعب بن عجرة، قال: «مرَّ على النّبيّ صلى الله عليه وآله رجلٌ، فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إِنْ كانَ خَرَجَ يَسْعى عَلى وَلَدِهِ صِغاراً فَهُوَ في سَبيلِ الله، وَإِنْ كانَ خَرَجَ يَسْعى عَلى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبيرَيْنِ فَهُوَ في سَبيلِ الله، وَإِنْ كانَ خَرَجَ يَسْعى عَلى نَفْسِهِ يَعُفُّها فَهُوَ في سَبيلِ الله، وَإِنْ كانَ خَرَجَ رِياءً وَمُفاخَرَةً فَهُوَ في سَبيلِ الشَّيْطانِ**»(٣).

وعن أبي الحسن موسى عليه السلام: «**مَنْ طَلَبَ هذا الرِّزْقَ مِنْ حِلِّهِ؛ لِيَعودَ بِهِ**

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٥٦٧/٩، ح/٨٤٣٧.

(٢) الكافي: ٥٦٧/٩، ح/٨٤٣٨.

(٣) الطّبرانيّ، المعجم الكبير: ١٢٩/١٩.

عَلى نَفْسه وعَياله، كانَ كَالْمجاهد في سَبيلِ الله عَزَّ وَجَلَّ»[١].

والأحاديث في هذا البحث أكثر من أن تحصى.

ثالثاً: الْعَمَلُ عبادَةٌ:

العبادة في معناها الشّرعيّ الشّموليّ: كلّ عمل يقوم به الإنسان في عمل مشروع طاعةً لله، وتقرّباً إليه، ومن أجل كسب رضاه فهو عبادة، وليس العبادة الصّوم والصّلاة وحسب... فالعمل في سبيل كسب العيش، وحفظ ماء الوجه من مدّ اليد إلى الآخرين عبادة، فعَنْ أَبي خالد الْكوفيّ، رفَعَهُ إلى أَبي جَعْفَر عليه السلام، قالَ: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: الْعبادَةُ سَبْعونَ جُزْءاً أَفْضَلُها طَلَبُ الْحَلالِ**»[٢].

وفي حديث آخر: «**مَنْ باتَ كالاً منْ طَلَب الْحَلال، باتَ مَغْفوراً لَهُ**»[٣].

فالعبادة هنا في العمل لأجل كسب العيش، وكفّ اليد عن الآخرين، بل إنّ هذا أفضل العبادات عند الله الّتي يتقرّب بها العبد إليه جلّ جلاله.

فعَنْ سُلَيْمانَ بْن مُعَلّى بْن خُنَيْس، عَنْ أبيه، قالَ: «سَأَلَ أَبو عَبْد الله عليه السلام عَنْ رَجُل وأَنا عنْدَهُ، فَقيلَ لَهُ: أَصابَتْهُ الْحاجَةُ، قال: **فَما يَصْنَعُ الْيَوْمَ؟** قيلَ: في الْبَيْت يَعْبُدُ رَبَّهُ، قالَ: **فَمنْ أَيْنَ قوتُهُ؟** قيلَ: منْ عنْد بَعْض إخْوانه، فَقالَ أَبو عَبْد الله عليه السلام: **وَالله، لَلَّذي يَقوتُهُ أَشَدُّ عبادَةً منْهُ**»[٤].

وذلك لأنَّ المسلمَ لا يصحّ أن يلقي كَلَّه على النّاس، قال الإمام الصّادق

---

(١) الكافي: ٥٨٠/٩، ح/٨٤٥٩.

(٢) المصدر نفسه: ٥٤٢/٩، ح/٨٣٩٢.

(٣) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٢١٤؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٢٥٥/٩، ح/٥٤١٤.

(٤) الكافي: ٥٤١/٩، ح/٨٣٩٠.

عليه السلام: «**استَعينوا ببَعْضٍ هذه علَى هذه، ولَا تَكونوا كُلولاً علَى النّاس**»(١).

وعَنْهُ عليه السلام قالَ: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: مَلْعونٌ مَلْعونٌ مَنْ أَلْقى كَلَّهُ على النّاسِ**»(٢).

رابِعاً: الْعَمَلُ سيرَةُ الأَنْبِياءِ وَالأَوْلِياءِ:

عندما نستقرأ حياة الصّالحين من الأنبياء والأئمّة وأتباعهم المخلصين نجد أنَّهم كانوا يعملون بأنفسهم؛ لأجل كسب عيشهم، ولم يرضوا أن يقوم بعملهم غيرهم، فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله قبل البعثة كان يعمل، ويتّجر بأموال خديجة عليها السلام... بل كان يرفض أن يتميّز على أصحابه في تكاليف عيشه، فقد رُوِيَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله «كان في بعض أسفاره، فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله، عليَّ ذبحها، وقال آخر: عليَّ سلخها، وقال آخر: عليَّ طبخها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **وَعَلَيَّ جَمْعُ الْحَطَب**، قالوا: يا رسول الله، نحن نكفيك، فقال: **عَلمْتُ أَنَّكُمْ تَكْفوني، ولَكنّي أَكْرَهُ أَنْ أَتَميَّزَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللهَ يَكْرَهُ منْ عَبْده أَنْ يَراهُ مُمَيَّزاً بَيْنَ أَصْحابه**، وقام فجمع الحطب»(٣).

وهذا نبيّ الله داود عليه السلام كان يعمل سفائف الخوص، ويأكل من ثمنها، وصف ذلك أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «**وَإِنْ شئْتَ ثَلَّثْتُ بداوُدَ صاحبِ الْمَزامير، وَقارِئِ أَهْلِ الْجَنَّة، فَلَقَدْ كانَ يَعْمَلُ سَفائفَ الْخوصِ بيَده، وَيَقولُ لجُلَسائه:**

(١) الكافي: ٥٢٥/٩، ح/٨٣٦١

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٣/٧-٢٣٤، ح/٦٠٤٤.

(٣) النّويريّ، نهاية الأرب في فنون الأدب: ٢٥٨/١٨.

أيُّكُمْ يَكْفيني بيْعَها، ويأْكُلُ قُرْصَ الشَّعير منْ ثَمَنها»[١].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «أنَّ أَمير الْمؤْمنين عليه السلام قال: أَوْحى اللهُ عزَّ وَجَلَّ إلى داودَ عليه السلام: أَنَّكَ نعْمَ الْعَبْدُ لَوْلا أَنَّكَ تأْكُلُ منْ بَيْت الْمال، ولَا تَعْمَلُ بيَدكَ شَيْئاً، قال: فَبَكى داودُ عليه السلام أَرْبعين صَباحاً، فَأَوْحى اللهُ عزَّ وَجَلَّ إلى الْحَديد: أَنْ لنْ لعَبْدي داود، فَأَلانَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ لَهُ الْحَديدَ، فَكانَ يَعْمَلُ كُلَّ يَوْمٍ درْعاً»[٢].

وهكذا كان الأنبياء وأوصياؤهم يعملون بأيديهم، فيراهم من يجهل عقائدهم ونظامهم في الحياة، فيوجّهون العتاب إليهم، ويلومونهم على ما هم فيه من التّعب في العمل، فيردّون عليهم بأنَّ ذلك طاعةٌ لله سبحانه وتعالى.

عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «إنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْكَدر كانَ يَقولُ: ما كُنْتُ أَرى أَنَّ عَليَّ بْنَ الْحُسَيْن عليهما السلام يَدَعُ خَلَفاً أَفْضَلَ منْهُ، حَتّى رأَيْتُ ابْنَهُ مُحَمَّدَ بْنَ عَليٍّ عليهما السلام، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعظَهُ، فَوَعَظَني، فَقَالَ لَهُ أَصْحابُهُ: بأَيِّ شَيْءٍ وَعَظَكَ؟ قال: خَرَجْتُ إلى بَعْض نَواحي الْمَدينَة في ساعَة حارَّة، فلَقيَني أَبو جَعْفَر مُحَمَّدُ بْنُ عَليٍّ، وَكانَ رَجُلاً بادناً ثَقيلاً، وَهُوَ مُتَّكئٌ عَلى غُلامَيْن أَسْوَدَيْن، أَوْ مَوْلَيَيْن، فَقُلْتُ في نَفْسي: سُبْحانَ الله! شَيْخٌ منْ أَشْياخ قُرَيْش في هذه السّاعَة عَلى هذه الْحال في طَلَب الدُّنْيا! أَما لأَعظَنَّهُ، فَدَنَوْتُ منْهُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْه، فَرَدَّ عَلَيَّ بنَهْرٍ[٣] وَهُوَ يَتَصابُّ عَرَقاً، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللهُ، شَيْخٌ

---

(١) نهج البلاغة: ٢٥٧، خطبة: ١٦٠.

(٢) الكافي: ٥٣٢/٩، ح/٨٣٧٥

(٣) النّهر: الزّبر، والزّجر، والانتهار، وفي بعض النّسـخ: «ببهر» بالباء، وهو تتابع النّفس يعتري الإنسـان عند السّعي الشّديد والعدو.

منْ أَشْياخ قُرَيْش في هذه السّاعَة علَى هذه الْحال في طَلَب الدُّنْيا! أرأَيْتَ لَوْ جاءَ أَجَلُك، وأَنْتَ علَى هذه الْحال، ما كُنْتَ تَصْنَعُ؟ فَقَالَ: لَوْ جاءَني الْمَوْتُ، وَأَنا علَى هذه الْحال، جَاءَني وأَنا في طاعَة منْ طاعة الله عزَّ وَجَلَّ، أَكُفُّ بها نَفْسي وَعيالي عَنْكَ، وعَنِ النّاس، وإِنَّما كُنْتُ أَخافُ أَنْ لَوْ جاءَني الْمَوْتُ، وأَنا علَى مَعْصية منْ مَعاصي الله، فَقُلْتُ: صَدَقْتَ يرْحَمُكَ اللهُ، أَرَدْتُ أَنْ أَعظَكَ، فَوَعَظْتَني»[١].

(١) الكافي: ٥٢٨/٩-٥٣٠، ح/٨٣٧١.

بَدْءُ وُقوعِ الْفِتَنِ

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّما بَدْءُ وُقوعِ الْفِتَنِ أَهْواءٌ تُتَّبَعُ، وأَحْكامٌ تُبْتَدَعُ، يُخالَفُ فيها كتابُ الله، ويتولَّى عَلَيْها رجالٌ رجالاً، على غَيْرِ دين الله، فَلَوْ أَنَّ الْباطلَ خَلَصَ منْ مزاجِ الْحَقِّ، لَمْ يَخْفَ على الْمُرْتادينَ؛ ولَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ منْ لَبْسِ الْباطلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعاندين، ولَكنْ يُؤْخَذُ منْ هَذا ضغْثٌ، ومنْ هذا ضغْثٌ، فَيُمْزَجان، فَهُنالكَ يَسْتَوْلي الشَّيْطانُ على أَوْليائه، ويَنْجو الَّذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ منَ الله الْحُسْنى**»[1].

في هذا النَّصِّ الشَّريف بيان لحقائق مهمّة لها دور خطير في حياة النّاس، وفي مسيرة الإسلام التّصاعديّة.

الفتنة مأخوذة من الفَتْن، وأصله «إدخال الذَّهب النّار؛ لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النّار، قال: ﴿**يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ**﴾[2]»[3].

فالفتَن هي الاختبارات الَّتي يمرّ بها الإنسان في حياته الدّنيويّة مُسرّة له كالمال والبنين والمناصب والإغراءات الأخرى، أو محزنة له ثقيلة على نفسه كالخوف والجوع والنَّقص في الأنفس والثَّمرات، وقد تجرفه ويسقط في تيّارها، ويعيش الشَّقاء في دنياه وآخرته، وقد يثبت ويصمد أمامها، فينصره الله، وتزكو

---

(١) نهج البلاغة: ١٠٦، خطبة: ٥٠.

(٢) الذّاريات: ١٣.

(٣) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: ٥١٣، (فتن).

نفسه، ويصحّ دينه، ويفوز بسعادة الدّارين.

والفتنة الَّتي يشير النَّصُّ إليها هنا ليس فتنة الأموال، أو الأولاد، أو الحكم، إنَّما هي فتنة فكريّة اجتماعيّة يعمّ بلاؤها المجتمع، وتظهر من خلالها المذاهب الفاسدة، والآراء المنحرفة المتلبّسة بثوب الحقّ، ويختلط فيها الحقّ بالباطل حيث يصعب التّمييز فيما بينهما، وهنا يكمن الخطر؛ فالانحراف، والفساد لم يكن صريحاً واضحاً، بل هو باطلٌ مغلّف بثوب الحقّ، ظاهره جميل، وباطنه قبيح، بل ظاهره إيمان وباطنه كفر؛ لأنَّ أصحاب هذه المسالك لم يأتوا بأطروحاتهم صريحة واضحة، بل يأتون بمقدّمات صحيحة يدخلون من خلالها أفكارهم ورؤاهم مغلّفة بأستار: الحقّ، والعدل، والخير، والجمال، والتّقدّم، والازدهار باسم الحضارة والتّمدّن مرة، وبذريعة الدّفاع عن حقوق المظلومين والفقراء والمساكين مرّة ثانية، وهلمَّ جرّاً من ذرائع وهميّة لا حقيقة لها؛ ليصلوا إلى نتائج مخالفة للحقّ والعدل باسم الحقّ والعدل، قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة: «ومستند وقوع هذه الشُّبهات امتزاج الحقّ بالباطل في النّظر الَّذي هو الطَّريق إلى استعلام المجهولات، فلو أنَّ النّظر تُخَلّص مقدّماتُه، وترتّب قضاياه من قضايا باطلة، لكان الواقع عنه هو العلم المحض، وانقطع عنه ألسن المخالفين، وكذلك لو كان النّظر تخلّص مقدماته من قضايا صحيحة، بأن كان كلّه مبنيّاً على الفساد، لظهر فساده لطلبة الحقّ، وإنَّما يقع الاشتباه لامتزاج قضاياه الصّادقة بالقضايا الكاذبة، مثال ذلك احتجاجُ من أجاز الرُّؤية بأنَّ البارئ تعالى ذاتٌ موجودة، وكلّ موجود يصحّ أن يُرى، فإحدى المقدّمتين حقٌّ، والأخرى باطل، فالتبس أمرُ النَّتيجة على كثير من النّاس»[1].

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٤٠/٣.

وفي النَّصّ الشّريف بيان دقيق لبداية وقوع الفتن، وأسباب نشوئها وطلوع جنينها وهذه الأسباب:

أوّلاً: اتّباع الأهواء:

قال الرّاغب الأصفهانيّ: «الهوى ميل النَّفس إلى الشَّهوة، ويقال ذلك للنَّفس المائلة إلى الشَّهوة، وقيل سمّي بذلك؛ لأنّه يهوي بصاحبه في الدُّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، والهُويُّ سقوطٌ من عُلو إلى سفل»(١).

وقال ابن منظور: «وهَوى النّفسِ: إرادتها، والجمع الأَهْواء. التَّهذيب: قال اللّغويّون: الهَوَى محبّةُ الإِنسان الشّيء وغَلَبَتُه على قلبه؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾(٢)؛ معناه نَهاها عن شَهَواتِها، وما تدعو إِليه من معاصي الله عزَّ وجلَّ»(٣).

ففي اللّغة: الأهواء جمع لمفردة: هوى، «وهو محبّة الإنسان الشّيء، وغلبته على قلبه، واصطلاحاً: ميل النَّفس إلى خلاف ما يقتضيه الشّرع»(٤).

فعندما ينساق الإنسان وراء أهوائه ونزواته يستحوذ عليه المقياس الذّاتيّ، ويفقد المقياس الموضوعيّ الشَّرعيّ، وبذلك يخرج الإنسان من كونه عبداً لله إلى عبدٍ لرغباته، وشهواته، وأهوائه، يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٧١٧، (هوى).

(٢) النّازعات: ٤٠.

(٣) ابن منظور، لسان العرب: ٣٧٢/١٥.

(٤) د. محمود عبد الرّحمن، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة: ٣٣٨/١.

اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[١].

فالهوى إذن يمكن أن يتحوّل إلى معبود من دون الله عزَّ وجلّ؛ لأنَّه يسيطر على قلب الإنسان وسمعه وبصره، ويضرب عليها حجاباً كثيفاً لا يترك له مجالاً لرؤية الحقّ، وحينئذٍ يصبح عبداً لهواه، فلا يبالي بما يحدث، حتّى لو أهلك الحرث والنَّسل؛ فلا يرى غير ما يهوى، وهكذا يتعامى عن الحقّ ويصدّ عنه، ويصبح عنصر تخريب ودمار، وعامل إفساد وتحريف، يقول تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾[٢].

ويتعاظم هذا الخطر إذا كان الشَّخص له دور علميٌّ أو سلطويٌّ أو اقتصاديٌّ؛ فإنَّه قد يتّخذ العلم ذريعة؛ لتحقيق مآربه ونزواته، ويصبح لعلمه وسلوكه أثرٌ سلبيٌّ على المجتمع البشريّ، إضافة إلى استعلائه بما يحمل من علم، ولعلّه يردّد في نفسه ما قاله قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾[٣].

وإذا كان الأمر سلطويّاً فإنَّه أمَرُّ وأدهى؛ لأنَّه سيستغلُّ السُّلطة؛ لتنفيذ مآربه النَّفسيّة، ولو جَرْت الويلات الكبرى على البشريّة جمعاء، وهذه الفتنة لا تقتصر على صاحبها، بل تنجرّ على الآخرين، وتجرف كثيرين في تيّارها، وهنا يكمن الخطر الكبير، ويشتدّ الخطر أكثر إذا كان مُتّبعه ذا قدرة على التّبرير والتّخريج

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) المؤمنون: ٧١.

(٣) القصص: ٧٨.

لأهوائه وأعماله بمخرج عقليّ أو شرعيّ مقبول عند النّاس، والتّمظهر بمظهر المصلحين، فيفتتن النّاس به، ويتّبعون أهواءه من حيث لا يعلمون، وبذلك يخرجهم من جادّة الحقّ إلى طريق الضّلال؛ فإنَّ «تغليب المقياس الذّاتيّ في القيم على المقياس الموضوعي «**أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ**»، فبدلاً من أن يكون المرجع في القيم النّظام العقيديّ والتّشريعيّ للمجتمع، يتجاوز روّاد الفتنة هذا النّظام، فيرجعون إلى النّوازع الذّاتيّة والعاطفيّة والمصلحيّة، فتكون هي المقياس بالمعتمد، وهو المرجع الأخير في القيم والسُّلوك، وعلى ضوء ما تمليه، تتّخذ المواقف من الأحداث والأشخاص»[1].

ثانياً: الأحكام المبتدعة:

البدعة هي كلُّ أمر أو حكم ينسب إلى دين الله، وليس له أصل سابق فيه من كتاب الله أو سنّة رسوله ﷺ كالعمل بالرّأي والقياس وغير ذلك، وفي هذه النّقطة بالذّات يتمّ «سقوط القانون، وانتهاك حرمته على الصّعيد العمليّ: «...**وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ يُخَالَفُ فيها كتابُ الله**»، وتغلّب العامل الشّخصيّ بالاحتيال على الشّريعة القانونيّة الّتي يحتفظ لها المفتونون بالاحترام النّظريّ، ويتظاهرون بتطبيقها، بينما هي على الصّعيد العمليّ تنتهك كلّما تمكّن الأقوياء من انتهاكها»[2].

وبتأثير هذين العاملين خرجت مذاهب دينيّة ومدارس فكريّة، وآراء وأفكار ليس لها في كتاب الله وسنّة رسوله عين ولا أثر، وكثرت التّشعّبات والفرق في الأمّة حتّى عانت منها أشدّ المعاناة، ولم يستطع حتّى الإمام عليّ عليه السلام، وهو

(١) الشّيخ محمّد مهدي شمس الدّين، حركة التّاريخ عند الإمام علي عليه السلام: ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٨.

أقوى شخصيّته بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأرسخ قدماً في التّاريخ الجهاديّ، والعلميّ، والعمليّ، والحركيّ، رغم تلك المزايا كلّها لم يستطع أيّام حكمه من القضاء على تلك الأحكام المبتدعة الَّتي سنَّها من سبقه بما فيها من مخالفة صريحة للشَّريعة المقدّسة، وطالماً تألَّم وشكا من ذلك، فإذا ما نهاهم عن أمرٍ اعتادوه صاحوا: «وا سنّة عمراه» كما حدث ذلك في الكوفة؛ فقد رُوِيَ: «أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا اجتمعوا إليه بالكوفة، فسألوه أن ينصب لهم إماماً يصلّي بهم نافلة شهر رمضان، زجرهم، وعرَّفهم أنَّ ذلك خلاف السُّنّة، فتركوه، واجتمعوا لأنفسهم، وقدّموا بعضهم، فبعث إليهم ابنه الحسن عليه السلام، فدخل عليهم المسجد، ومعه الدّرّة، فلما رأوه تبادروا الأبواب، وصاحوا: وا عمراه!»[1].

وقد جاء في كلام له عليه السلام يشير إلى ذلك، فقال: «**قَدْ عَمِلَت الْوُلاةُ قَبْلي أَعْمالاً خالَفوا فيها رَسولَ الله صلى الله عليه وآله، مُتَعَمِّدين لخلافه، ناقضين لعَهْده، مُغَيِّرينَ لسُنَّته، وَلَوْ حَمَلْتُ النّاسَ عَلى تَرْكها، وَحَوَّلْتُها إلى مَواضعها، وَإلى ما كانَتْ في عَهْد رَسول الله صلى الله عليه وآله لَتَفَرَّقَ عَنّي جُنْدي حَتّى أَبْقى وَحْدي، أَوْ قَليلٌ مِنْ شيعَتي الَّذين عرفوا فَضْلي، وَفَرْضَ إِمامَتي مِنْ كِتابِ الله، وَسُنَّةِ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله**»[2].

وقد تنبّأ رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ قال في الخطبة نفسها: «**إِنّي سَمِعْتُ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله يَقولُ: كَيْفَ أَنْتُمْ إذا لَبَسَتْكُمْ**

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٨٣/١٢.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٥٤/١٥، ح/١٤٨٣٦؛ وينظر: كتاب الوافي للفيض الكاشانيّ: ٥٦/٢٦؛ وبحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٢٠٣/٩٦؛ والحدائق النّاضرة للمحقّق البحرانيّ: ٣١١/٧؛ وجواهر الكلام للشّيخ الجواهريّ: ١٤١/١٣.

فِتْنَةٌ يَرْبو فيها الصَّغير، ويَهْرَمُ فيها الْكَبير، يَجْري النّاسُ عَلَيْها، ويَتَّخذونَها سُنَّةً، فَإذا غُيِّرَ منْها شَيْءٌ قيلَ: قَدْ غُيِّرَت السُّنَّةُ، وَقَدْ أَتى النّاسُ مُنْكَراً، ثُمَّ تَشْتَدُّ الْبَلِيَّةُ، وتُسْبى الذُّرِّيَّةُ، وتَدُقُّهُمُ الْفِتْنَةُ كَما تَدُقُّ النّارُ الْحَطَبَ، وكَما تَدُقُّ الرَّحى بثفالها[١]، ويَتفقَّهونَ لغَيْرِ اللهِ، ويَتعلَّمونَ لغَيْرِ الْعمَلِ، ويَطْلُبونَ الدُّنْيا بأَعْمالِ الآخِرَة»[٢].

وقد حاول أمير المؤمنين عليه السلام تغيير أمور اعتادها النّاس، وعدّوها من الدّين، وهي خلاف أحكامه الواقعيّة كتغيير مقام إبراهيم، وردّ فدك، ورد صاع رسول الله صلى الله عليه وآله والتّسوية في العطاء، والمسح على الخفّ، والحدّ على النَّبيذ، وتحليل المتعة بعد أن حُرّمت، ونهيه عن صلاة التّراويح... وغيرها، ولم تقبل منه، رغم علمهم بعلمه، وسموّ مكانته في الإسلام، وقد أشار صلوات الله عليه وسلامه إلى ما وصلت له الأمّة من تمرّد على سنن رسوله صلى الله عليه وآله وعصيان لأوليائه؛ ولهذا طالما شكى، وتذمّر من هذه المصائب الّتي حلت بدين الله، ممّا يشيب لها الرُّضّع، ولنستمع ذلك من لسانه عليه السلام حيث قال، والألَم يُقطّع نياط قلبه:

«أرأَيْتُمْ لَوْ أَمَرْتُ بمَقام إبْراهيمَ عليه السلام[٣]، فَرَدَدْتُهُ إلى الْمَوْضعِ الَّذي وَضَعَهُ فيه رَسولُ الله صلى الله عليه وآله، ورَدَدْتُ فَدَكاً إلى وَرَثَة فاطمَةَ عليها السلام، ورَدَدْتُ صاعَ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله كَما كانَ، وأَمْضَيْتُ قَطائعَ أَقْطَعَها رَسولُ الله صلى الله عليه وآله

---

(١) «الثّفال - بالكسر - جلدة تُبْسَط تحت رحا اليد ليقع عليها الدّقيق، ويسمّى الحجر الأسفل: ثفالاً بها»، النّهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٢١٥/١، (ثفل).

(٢) الكافي: ١٥/١٥٣-١٥٤، ح/١٤٨٣٦.

(٣) إشارة إلى ما فعله عمر من تغيير المقام عن الموضع الّذي وضعه فيه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى موضع كان فيه في الجاهليّة رواه الخاصّة والعامّة، راجع كتاب النّصّ والاجتهاد للعلامة الجليل سماحة السّيّد شرف الدّين العامليّ رحمه الله.

لأَقْوَامٍ لَمْ تُمْضَ لَهُمْ ولَمْ تُنْفَذْ(١)، ورَدَدْتُ دارَ جَعْفَر إلى وَرَثَته وهَدَمْتُها مِنَ الْمَسْجِدِ(٢)، ورَدَدْتُ قَضَايا مِنَ الْجَوْرِ قُضِيَ بها(٣)، ونَزَعْتُ نساءً تحْتَ رجالٍ بغَيْرِ حَقٍّ، فرَدَدْتُهنَّ إلى أَزْوَاجِهنَّ(٤)، واسْتَقْبَلْتُ بهنَّ الْحُكْمَ في الْفُرُوجِ والأَحْكَامِ، وسَبَيْتُ ذَرَارِيَّ بَني تَغْلِبَ(٥)، ورَدَدْتُ ما قُسِمَ مِنْ أَرْضِ خَيْبَرَ، ومَحَوْتُ دَواوِينَ الْعَطَايا(٦)، وأَعْطَيْتُ كما كانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله يُعْطي

---

(١) القطيعة: طائفة من أرض الخراج، وأقطعها: أي عيَّنها وعزلها.

(٢) كأنّهم غصبوها وأدخلوها في المسجد.

(٣) ذلك كقضاء عمر بالعول والتَّعصيب في الإرث، وكقضائه بقطع السّارق من معصم الكفّ ومفصل ساق الرّجل، خلافاً لما أمر به النّبيّ صلى الله عليه وآله من ترك الكفّ والعقب، وإنفاذه في الطّلاق الثّلاث المرسلة، ومنعه من بيع أمّهات الأولاد وإن مات الولد ،وقال: هذا رأي رأيته، فأمضاه على النّاس إلى غير ذلك من قضاياه وقضايا الآخرين.

(٤) كمن طلّقت بغير شهود، وعلى غير طهر، كما أبدعوه ونفّذوه، وغير ذلك

(٥) لأنَّ عمر رفع عنهم الجزية، فهم ليسوا بأهل ذمّة، فيحلّ سبي ذراريهم كما روي عن الرّضا عليه السلام أنّه قال: إنّ بني تغلب من نصارى العرب أنفوا واستنكفوا من قبول الجزية، وسألوا عمر أن يعفيهم عن الجزية، ويؤدّوا الزّكاة مضاعفاً فخشي أن يلحقوا بالرّوم فصالحهم على أن صرف ذلك عن رؤوسهم، وضاعف عليهم الصّدقة، فرضوا بذلك؛ وقال محيي السّنّة (البغوي): رُوِيَ أنَّ عمر بن الخطّاب رام نصارى العرب على الجزية، فقالوا: نحن عرب لا نؤدّي ما يؤدّي العجم، ولكن خذ منّا كما يأخذ بعضكم من بعض يعنون الصّدقة، فقال عمر: هذا فرض الله على المسلمين، قالوا: فزد ما شئتَ بهذا الاسم، لا باسم الجزية، فراضاهم على أن ضعّف عليهم الصَّدقة.

(٦) أشار بذلك إلى ما ابتدعه عمر في عهده من وضعه الخراج على أرباب الزّراعات والصّناعات والتّجارات لأهل العلم وأصحاب الولايات والرّئاسات والجند، وجعل ذلك عليهم بمنزلة الزّكاة المفروضة، ودوَّن دواوين، وأثبت فيها أسماء هؤلاء، وأسماء هؤلاء، وأثبت لكلّ رجل من الأصناف الأربعة ما يعطى من الخراج الَّذي وضعه على الأصناف الثّلاثة، وفضَّل في الإعطاء بعضهم على بعض، ووضع الدَّواوين على يد شخص سمّاه صاحب الدّيوان، وأثبت له أجرة من ذلك الخراج، وعلى هذه البدعة جرت سلاطين الجور وحكّامهم إلى الآن، ولم يكن شيء من ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا على عهد أبي بكر، وإنَّما الخراج للإمام فيما يختصّ به من الأراضي خاصّة يصنع به ما يشاء.

بالسَّويَّة، ولَمْ أَجْعَلْها دولَةً بَيْنَ الأَغْنياء، وأَلْقَيْتُ المساحةَ(١)، وسَوَّيْتُ بَيْنَ الْمَناكحِ(٢)، وأَنْفَذْتُ خُمسَ الرَّسولَ كَما أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وَجلَّ وفَرَضَهُ(٣)، ورَدَدْتُ مَسْجدَ رَسُول الله ﷺ إلى ما كانَ علَيْه(٤)، وسَدَدْتُ ما فُتحَ فيه منَ الأَبْواب، وفَتَحْتُ ما سُدَّ منْهُ(٥)، وحَرَّمْتُ الْمَسْحَ على الْخُفَّيْن(٦)، وحَدَدْتُ عَلى النَّبيذ(٧)، وأَمَرْتُ بإحْلال الْمُتْعَتَيْن(٨)، وأَمرْتُ بالتَّكْبير عَلى الْجَنائز

---

(١) إشارة إلى ما عدَّه الخاصّة والعامّة من بدع عمر أنَّه قال: ينبغي مكان هذا العشر ونصف العشر دراهم نأخذها من أرباب الأملاك، فبعث إلى البلدان من مسح على أهلها، فألزمهم الخراج، فأخذ من العراق يوماً، يليها ما كان أخذه منهم ملوك الفرس على كلّ جريب درهماً واحداً وقفيزاً من أصناف الحبوب، وأخذ من مصر ونواحيها ديناراً وإردباً عن مساحة جريب كما كان يأخذ منهم ملوك الإسكندريّة، وقد روى محيي السّنّة وغيره عن علمائهم عن النّبيّ ﷺ أنَّه قال: «مُنعْتُ الْعراقَ درْهَمَها وقَفيزَها، وَمُنعْتُ الشّامَ مُدَّها ودينارَها، ومُنعْتُ مصْرَ إرْدَبّها ودينارَها»، والإردب لأهل مصر أربعة وستون منّاً، وفسّره أكثرهم بأنَّه قد محى ذلك شريعة الإسلام، وكان أوّل بلد مسحه عمر بلد الكوفة، وتفصيل الكلام في ذكر هذه البدع موكول إلى الكتب المبسوطة الَّتي دوَّنها أصحابنا لذلك كالشّافي للسّيّد المرتضى.

(٢) بأن يزوّج الشّريف والوضيع كما فعله رسول الله ﷺ، وزوّج بنت عمّه مقدادا. أو إشارة إلى ما ابتدعه عمر من منعه غير قريش أن يتزوّج في قريش، ومنعه العجم من التّزويج في العرب.

(٣) إشارة إلى منع عمر أهل البيت عليهم السلام خمسهم.

(٤) يعني أخرجت منه ما زادوه فيه.

(٥) إشارة إلى ما نزل به جبرئيل عليه السلام من الله سبحانه من أمره النّبيّ ﷺ بسدّ الأبواب من مسجده إلا باب عليّ عليه السلام، وكأنَّهم قد عكسوا الأمر بعد رسول الله ﷺ.

(٦) إشارة إلى ما ابتدعه عمر من إجازته المسح على الخفَّين في الوضوء ثلاثاً للمسافر، ويوماً وليلة للمقيم، وقد روت عائشة عن النّبيّ ﷺ أنَّه قال: «**أَشَدُّ النّاس حَسْرَةً يَوْمَ الْقيامَة مَنْ رأَى وَضوءَه عَلى جلْد غَيْره**».

(٧) وذلك أنَّهم استحَلّوه.

(٨) يعني متعة النّساء ومتعة الحجّ، قال عمر: «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، وأنا أحرّمهما، وأعاقب عليهما: متعة النّساء ومتعة الحجّ».

خَمْسَ تَكْبِيرَاتٍ(١)، وَأَلْزَمْتُ النّاسَ الْجَهْرَ بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(٢)، وَأَخْرَجْتُ مَنْ أَدْخَلَ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ في مَسْجِدِهِ مِمَّنْ كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ أَخْرَجَهُ(٣)، وَأَدْخَلْتُ مَنْ أُخْرِجَ بَعْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ مِمَّنْ كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ أَدْخَلَهُ(٤)، وَحَمَلْتُ النّاسَ عَلى حُكْمِ الْقُرْآنِ، وَعَلَى الطَّلاقِ عَلى السُّنَّةِ(٥)، وَأَخَذْتُ الصَّدَقاتِ عَلى أَصْنافِها وَحُدودِها(٦)، وَرَدَدْتُ الْوُضوءَ وَالْغُسْلَ وَالصَّلاةَ إِلى مَواقيتِها وَشَرائِعِها وَمَواضِعِها(٧)، وَرَدَدْتُ أَهْلَ نَجْرانَ

---

(١) وذلك أنَّ النّبيّ ﷺ كان يكبّر على الجنائز خمساً، لكنّ الخليفة الثّاني راقه أن يكون التَّكبير في الصلاة عليها أربعاً، فجمع النّاس على الأربع، نصّ على ذلك جماعة من أعلام الأمّة كالسّيوطيّ (نقلاً عن العسكريّ)، حيث ذكر أوّليّات عمر من كتابه (تاريخ الخلفاء)، وابن الشحنة حيث ذكر وفاة عمر سنة ٢٣هـ من كتابه (روضة المناظر) المطبوع في هامش تاريخ ابن الأثير، وغيرهما من أثبات المتتبّعين (نقلاً عن كتاب النّصّ والاجتهاد ص١٥٢).

(٢) وذلك أنَّهم يتخافتون بها، أو يسقطونها في الصَّلاة.

(٣) لعلَّ المراد إخراجهما حيث دفنا، والمراد بإخراج الرّسول إيّاهما سدَّ بابهما عن المسجد.

(٤) لعلَّ المراد به نفسه عليه السلام، وبإخراجه سدّ بابه، وبإدخاله فتحه.

(٥) وذلك أنَّهم خالفوا القرآن في كثير من الأحكام، منها وجوب الإشهاد على الطّلاق، وعدم وجوبه على النّكاح؛ فإنَّهم عكسوا الأمر في ذلك، وأبطلوا عدّة من أحكام الطّلاق، وأبدعوا فيه بآرائهم.

(٦) أي أخذتها من أجناسها التّسعة، وهي الدّنانير والدّراهم والحنطة والشّعير والتّمر والزّبيب والإبل والغنم والبقر؛ فإنَّهم أوجبوها في غير ذلك، وتفصيل الكلام توجد في كتب القوم، وقوله عليه السلام: «وحدودها» أي نصابها.

(٧) ذلك أنَّهم خالفوا في كثير منها كإبداعهم في الوضوء: مسح الأذنين، وغسل الرّجلين، والمسح على العمامة والخفّين، وانتقاضه بملامسة النّساء، ومسّ الذّكر، وأكل ما مسّته النّار وغير ذلك ممّا لا ينقضه، وكإبداعهم الوضوء مع غسل الجنابة، وإسقاط الغسل في التقاء الختانين من غير إنزال، وإسقاطهم من الأذان «**حيَّ على خير العمل**»، وزيادتهم فيه: «الصّلاة خير من النّوم»، وتقديمهم التَّسليم على التّشهّد الأوّل في الصّلاة، مع أنَّ الفرض من وضعه التَّحليل منها، وإبداعهم وضع اليمين على الشّمال فيها، وحملهم النّاس على الجماعة في النّافلة، وعلى صلاة الضّحى، وغير ذلك... راجع في إثبات كلّ ذلك كتاب الشّافي للسّيّد المرتضى رحمه الله، وكتاب النّصّ والاجتهاد للعلامة العامليّ.

إلى مَواضعهمْ(١)، وردَدْتُ سَبايا فارِسَ وَسائِرِ الأُمَمِ إلى كتابِ الله، وَسُنَّةِ نبيِّه ﷺ، إذَنْ لَتفرَّقوا عنّي.

واللهِ، لَقَدْ أَمَرْتُ النّاسَ أَنْ لا يَجْتَمِعوا في شَهْرِ رَمَضانَ إلا في فَريضَة، وَأَعْلَمْتُهُمْ أَنَّ اجْتماعَهُمْ في النَّوافِلِ بِدْعَةٌ، فَتَنادى بَعْضُ أَهْلِ عَسْكَري مِمَّنْ يُقاتِلُ مَعي: يا أَهْلَ الإسْلامِ، غُيِّرَتْ سُنَّةُ عُمَرَ، يَنْهانا عَنِ الصَّلاةِ في شَهْرِ رَمَضانَ تَطَوُّعاً، وَلَقَدْ خِفْتُ أَنْ يثوروا في ناحِيَةِ جانِبِ عَسْكَري(٢) ما لَقيتُ مِنْ هذه الأُمَّة مِنَ الْفُرْقَةِ(٣)، وَطاعَةِ أَئِمَّةِ الضَّلالَةِ، وَالدُّعاةِ إلى النّارِ، وَأَعْطَيْتُ(٤) مِنْ ذلكَ سَهْمَ ذي الْقُرْبى الَّذي قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾(٥)، فَنَحْنُ وَاللهِ عَنى بِذي الْقُرْبى الَّذي قَرَنَنا اللهُ بِنَفْسِه وَبِرَسولِه ﷺ(٦)، فَقالَ تَعالى: ﴿فَلِلَّهِ

(١) نَجْران – بالفتح ثمّ السّكون وآخره نون – وهو في عدّة مواضع: منها نجران من مخاليف اليمن من ناحية مكّة، وبها كان خبر الأخدود، وإليها تنسب كعبة نجران، وكانت لربيعة بها أساقفة مقيمون، منهم السّيّد والعاقب اللّذين جاءا إلى النّبيّ ﷺ في أصحابهما، ودعاهم إلى المباهلة، وبقوا بها حتّى أجلاهم عمر، ونجران أيضاً موضع على يومين من الكوفة.

(٢) يثوروا أي يهيجوا.

(٣) وقوله: «ما لَقيتُ مِنْ هذه الأُمَّة» كلام مستأنف للتّعجّب.

(٤) رجوع إلى الكلام السّابق، ولعلَّ التّأخير من الرّواة.

(٥) الأنفال: ٤١، وصدر الآية: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم ...﴾.

(٦) لأنَّ سهمهم دائم قادم لهم إلى يوم القيامة كما كان لله ولرسوله، وأمّا اليتيم إذا انقطع يتمه ليس له سهم وكذلك أخويه.

﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فينا خاصَّةً: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[1] **في ظُلْمِ آلِ مُحَمَّد**»[2].

وهكذا تتأصَّل الأحكام المبتدعة في نفوس النّاس، وتصبح بنظرهم جزءاً من الدّين، فإذا أراد الإمام أو العلماء تغييرها واجهوا مقاومة شديدة، وعُدَّ التّغيير مروقاً عن الدّين، وما أكثر ما حدث مثل ذلك في التّأريخ.

ومن تأثير هذين العاملين في نشوء الفتنة يخرج المفتون من حيث لا يعلم من ولاية الله ورسوله إلى ولاية المبتدعين «**وَيَتَوَلّى عَلَيْها رِجالٌ رِجالاً، عَلى غَيْرِ دِينِ الله**»، وهذه هي القاصمة للظَّهر إذا تولّى الإنسان مبتدعاً، وحسب أنَّه بولايته لهذا المبتدع يتولّى الله تعالى ورسوله، ويروّج بدعة، ويحسبها الجاهلون به المخدوعون بترّهاته وأباطيله أنَّها أحكام الله تعالى.

ثمَّ بيَّن عليه السلام أهمَّ سبب من أسباب انخداع النّاس بأحكام المبتدعين، وهو: اختلاط الحقّ بالباطل، وإخراج الباطل بثوب الحقّ، وعدم قدرة المقلّدين من النّاس التّمييز بينهما، « **فَلَوْ أَنَّ الْباطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزاجِ الْحَقِّ، لَمْ يَخْفَ عَلى الْمُرْتادِينَ؛ وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْباطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعانِدِينَ**».

---

(١) الحشر: ٧، وصدر الآية: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ...﴾.

(٢) الكافي: ١٥٤/١٥-١٦٠، ح/١٤٨٣٦؛ هذه الشّروحات أخذتها من هامش كتاب الكافي في طبعته القديمة (٥٩/٨-٦٣) على طولها وذلك لفائدتها في بيان معاني كلامه الشّريف صلوات الله عليه، وقد نُقِلَتْ في الكافي من بعض الشّرّاح كالفيض الكاشانيّ والعلامة المجلسيّ وغيرهم.

وهؤلاء يعلمون أنَّ أكثر النّاس لا يقبلون الباطل الصّريح، فلو أبرزوه بصراحة ووضَّحوه لرفضه النّاس، ولهذا يجعلون مقدّمات دعواتهم حقائق مقبولة، ثمّ يدسّون فيها السّمّ بالعسل، وهذا ما يخفى على أغلب النّاس ممّن يأخذون الأمور على ظاهرها، ولا يدقّقون فيما وراءها من غايات وأهداف، فهم إذن يخلطون الحقَّ بالباطل، ويُرَوّجون الباطل مخفيّاً بطيّات الحقّ؛ ليكون مقبولاً؛ وليتجنّبوا حسّاسيّة الأمّة من بدعهم، وهذا الأمر قد أشار إليه المفكّر العظيم الشّهيد الصّدر قدس سره في مقدّمة كتابه اقتصادنا قبل أكثر من نصف قرن عندما بحث المذاهب المبتدعة كالاشتراكيّة، والدّيمقراطيّة، والشّيوعيّة، والرّأسماليّة.

قال رحمه الله: «نادت بالاشتراكيّة؛ لأنَّها أدركت أنَّ القوميّة وحدها لا تكفي، بل هي بحاجة إلى نظام، ونادت بها في إطار عربيّ؛ تفادياً لحسّاسيّة الأمّة ضدّ أيّ شعار أو فلسفة مرتبطين بعالم المستعمرين، فحاولت عن طريق توصيف الاشتراكيّة بالعربيّة تغطية الواقع الأجنبيّ المتمثّل في الاشتراكيّة من النّاحية التّأريخيّة والفكريّة»[1].

وهذا ديدن كلّ المبتدعة والطّغاة عندما يحاولون ترويج فكرة أو عقيدة، فإنَّما يطرحونها بهدوء موافق لعقيدة القوم؛ لئلا يثيرون حسّاسيّتهم ومقاومتهم؛ ولهذا نرى اليوم كثيراً منهم يتلبّسون بثوب الإسلام، ويظهرون الدّفاع عنه، لإنقاذه من أيدي المتلاعبين به، المستغلّين له - بحسب زعمهم -؛ ليستغفلوا الأمّة، ويلقوا بها في الهاوية السَّحيقة، مثال ذلك أنَّ **نابليون بونابرت** عندما أراد احتلال مصر ادّعى أنّه جاء لينقذ الإسلام والمسلمين من أيدي المماليك؛ ولينشر العدل والحرّيّة بين المصريّين، بل أكثر من هذا ادّعى أنَّه يؤمن بالإسلام؛ وفي إيران روَّج البهائيّة

---

(١) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصَّدر، اقتصادنا: ٢٣.

جاسوساً روسيّاً تظاهر بالإسلام، ودرس في الحوزة العلميّة في كربلاء، ولبس زيّ العلماء إلى أن استطاع أن يخدع أحد الأغبياء، ويجعله جسراً يعبر عليه لتمرير أهدافه الدَّنيئة، واليوم نرى كثيراً من فراعنة العصر ولا سيّما في العالم العربيّ يتظاهرون بالإسلام، ويؤدّون طقوسه، ويرفعون رايته، ويضعون شعار التَّوحيد في أعلامهم كذباً وزوراً ومخادعة؛ لعلمهم أنَّهم لو ظهروا على حقيقتهم لرَفَضَتهم الأمّة، وهذا ليس غريباً في تاريخ الإسلام، فقد رفع معاوية القرآن ليحارب به أعدل النّاس، وأعلمهم، وأرسخهم إيماناً، وهو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وفعلاً نجحت تلك اللّعبة الشّيطانيّة، وانشقّ معسكر الإمام عليه السلام وذهب ضحيّتها آلاف النّاس المُغرّر بهم.

كلّ ذلك تمَّ من خلال مزج الحقّ بالباطل؛ لإخفاء الحقيقة عن النّاس، لخداعهم، وتمرير اللّعب السّياسيّة، والطّموحات الشّخصيّة، وهذه الأساليب الخبيثة جرَّت الويلات على الأمّة منذ رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا تزال مستمرّة إلى اليوم، ولن تنتهي إلى قيام قائم آل محمّد عجل الله تعالى فرجه الشريف، وهي الّتي وضعت العراقيل الكثيرة في طريق تقدّم المسلمين، بل إنَّ سبب تفرّق المسلمين، وتمزّق صفوفهم، وانحطاطهم، وتأخّرهم هو غفلة المسلمين عن هذه المكائد الكبرى الّتي اتّخذت أشكال وأطوار مختلفة، واستعملت العلوم الإنسانيّة وسخّرتها لتلك الأهداف الدّنيئة، فعلمُ الاجتماع والنّفس والإعلام والسّياسة، والعلاقات كلّها سُخّرت لتمرير المؤامرات على الأمّة، حتّى فرّقتها أيدي سبأ.

كَيْفَ نُواجِهُ الْفِتَنَ؟

إنَّ مواجهة أمثال تلك المحن من الأمور الشّائكة ولا سيّما في عصر غيبة

الإمام المعصوم عليه السلام، أمّا في حالة وجود الإمام المعصوم عليه السلام فإنَّه يكون بمثابة ميزان لتمييز الحقّ من الباطل، وسراج يمزّق الظُّلم، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّما مَثَلي بَيْنَكُمْ مِثْلُ السِّراجِ في الظُّلْمَة، يَسْتَضيءُ بِه مَنْ وَلَجَها. فَاسْمَعوا أَيُّها النّاسُ وَعوا، وأَحْضِروا آذانَ قُلوبِكُمْ تَفْهَموا**»[1].

أمّا اليوم في عصر الغيبة، فعلينا أن ننتبه جيّداً لكلّ ما يُرَوّج باسم الإسلام، ونتحقّق من كلّ دعوة تُطرح، ونضعها في ميزان كتاب الله الكريم، وندرس بوعي ما تنطوي عليه من أهداف، وما تسلكه من وسائل، وما تطرحه من أفكار، ونعرض ذلك كلّه على كتاب الله المجيد، وسنّة رسوله المطهّرة، وهذا يتطلّب منّا وعيا رساليّاً دقيقا لأحكام الله تعالى.

ونتيجة عدم الوعي الرّساليّ والسّياسيّ فقد سُرقت جهود إسلاميّة كبرى نتيجة حسن الظّنّ المطلق بكلّ من يدّعي الإسلام والإيمان به، وقد حذّر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله مع عصمته ودقّته من كيد هؤلاء الماكرين، يقول تعالى:

﴿ **وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ لَفَٰسِقُونَ** ﴾[2].

﴿ **وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا** ﴾[3].

نعم حذّر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله، ولا شكّ أنّ التّحذير موجّه إلينا بالذّات، فالنّبيّ صلى الله عليه وآله معصوم ومُثَبّت من الله تعالى، ولا يمكن أن يغفل عن حكم الله، وينساق مع أهواء الكافرين، ورغم ذلك فإنّ «أمره تعالى نبيّه بالحذر عن فتنتهم مع كونه صلى الله عليه وآله

(١) نهج البلاغة: ٣٠٧، خطبة: ١٨٧.

(٢) المائدة: ٤٩.

(٣) الإسراء: ٧٣.

معصوماً بعصمة الله إنَّما هو من جهة أنَّ قوّة العصمة لا توجب بطلان الاختيار، وسقوط التَّكاليف المبنيّة عليه؛ فإنَّها من سنخ الملكات العلميّة، والعلوم والإدراكات لا تخرج القوى العاملة والمحرّكة في الأعضاء والأعضاء الحاملة لها عن استواء نسبة الفعل والتّرك إليها.

كما إنَّ العلم الجازم بكون الغذاء مسموماً يعصم الإنسان عن تناوله وأكله، لكنّ الأعضاء المستخدمة للتّغذّي كاليد والفم واللّسان والأسنان من شأنها أن تعمل عملها في هذا الآكل وتتغذّى به، ومن شأنها أن تسكن فلا تعمل شيئاً مع إمكان العمل لها، فالفعل اختياري، وإن كان كالمستحيل صدوره ما دام هذا العلم»[1].

وهذا التَّحذير من باب: «إيّاك أعني، واسمعي يا جاره»؛ لأن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أسمى وأكبر وأعظم من أن يستطيع أحد أن يفتنه[2]؛ فلقد حدَّثنا التّأريخ أنَّ العروض كثرت على الرّسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ؛ ليداهن في دينه، أو يتراجع ولو شيئاً قليلاً، أو يحكم بحكم غير الله تعالى، وكلّ تلك المحاولات باءت بالفشل الذّريع، ومن تلك المحاولات أنَّ أحبار اليهود اجتمعوا ووضعوا خطّة يريدون أن يخدعوا الرَّسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، ويفتنوه عن دينه بوعده بالإيمان به إذا حكم لهم على غير حكم الله تعالى؛ قال ابن عبّاس: «إنَّ جماعةً من اليهود، منهم كعب بن أسد، وعبد الله بن صوريا، وشاس بن قيس، قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمّد، فلعلّنا نفتنه عن دينه، فأتوه، فقالوا: يا محمّد، قد عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم، وإنّا إن اتّبعناك اتّبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإنّ بيْننا وبين قوم خصومة، ونحاكمهم إليك، فتقضي

(١) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٣٥٤/٥.

(٢) قال الشَّهيد الثّاني: «وليعلم أنّ القرآن كلَّه نزل من باب: إيّاك أعني واسمعي يا جاره»، موسوعة الشّهيد الثّاني (الفوائد الملّيّة لشرح الرّسالة النّفليّة): ١٨٣/١٣.

لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدّقك، فأبى ذلك رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾[١]»[٢].

فلكي لا نُفْتَن عن ديننا، ولا نخدع عن حكم ربّنا علينا أن نكون حذرين في التّعامل مع الأحداث، والطّروحات الفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة، بل والدّينيّة من كلّ أحد، حتّى نتأكّد من سلامة الأفكار والأهداف والوسائل... فكم من كلمة حقّ يراد بها باطل، ودعوة تتظاهر بالحقّ، وهي تهدف قتل أهل الحقّ[٣]... ولا سيّما اليوم الَّذي توسَّعت فيه الدّعوات، وتطوَّرت فيه ما يسمّى بالعلوم الإنسانيّة الّتي سخّرت للمكائد الاستعماريّة.

---

(١) المائدة: ٤٩.

(٢) الواحديّ، أسباب نزول القرآن: ٣٤٦.

(٣) وأنا أكتب هذه السّطور تواردت إلى ذهني صورة الفاجعة الَّتي أحدثها أحد الدّجّالين، واسمه «ضياء الكرعاويّ» عليه لعائن الله، الَّذي ادّعى أنَّه الإمام الحجّة بن الحسن عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ، وصدَّقته بعض (أغنام الله) ممّن هم في عقول الأنعام، ودعمته كتل سياسيّة، ودوائر استخباراتيّة بأموال ضخمة وأسلحة مهولة، وذهب ضحيّة ذلك أكثر من ألف مغفّل في معركة خطّطت لها دوائر الاحتلال وذيوله، وكانت خلاصة الخطّة أن يقتل أعلام الحوزة العلميّة، ومراجع الدّين، وطلبة العلوم الإسلاميّة في النجف الأشرف، وينصب من خلال ذلك منارة من رؤوس القتلى، كلّ ذلك تَمَّ باسم الإمام والإسلام، ولا نشكّ أنّ هؤلاء الظّالمين لا يؤمنون بإسلام ولا إمام، وإنّما استغلّوا جهل الأمّة بالإسلام وعاطفتها الساذجة بحبّ الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ منفّذين ما خطّط لهم في دوائر الاحتلال وذيوله، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، وقد وقعت هذه الحادثة قريباً من الحوزة العلميّة في النَّجف الأشرف في منطقة تسمى (الزرگة)، وبعد كشف المخطّط تبيَّن أنَّها من تخطيط الاستخبارات الأمريكيّة، ورغم إبادتهم جميعا ولّدوا مجموعات أخرى من أوباش الناس وغوغائهم.

الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[(١)].

لا بدَّ للإنسان في حياته العاصفة بالمشاكل اليوميّة، والتّغييرات والتّقلّبات المستمرّة إلى معين يستمدّ منه الأمن، والأمان، واستقرار البال، وهدوء الخاطر... وهذا لا يحصل بشكل دائم إلا من خلال الاتّصال الوثيق بالله تعالى، وفي الآيات المتقدّمة بيان لأهمّيّة الذّكر، وتعريف بخطورة الانقطاع عن الله تعالى؛ إذ يؤدّي إلى الشَّقاء والتّعاسة الدّائمة في الدُّنيا والآخرة، والذّكر المقصود في الآية الكريمة هو القرآن الكريم، أو مطلق الكتب السّماويّة كما يؤيّد قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾، أو هو «الدّعوة الحقّة، وتسميتها ذكراً؛ لأنَّ لازم اتّباعها والأخذ بها ذكره تعالى»[(٢)]، فالإعراض عن القرآن الكريم، والتَّجافي عن أحكامه يوقع الإنسان في الضّلال؛ لأنَّ «**مَنْ طَلَبَ الْهُدى**[(٣)] **في غَيْرِه أَضَلَّه**

(١) طه: ١٢٤-١٢٦.

(٢) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٢٢٤/١٤.

(٣) قال السّيّد علي خان المدنيّ الشّيرازيّ: «طلب الهدى في غيره إنّما يكون لظنّ أنّ غيره حقّ أو أحقّ، وكلاهما كفر وضلال، ولذلك جاء في الحديث النّبويّ: **مَنِ ابْتَغى الْهُدى في غَيْرِه أَضَلَّه الله**»، رياض السّالكين: ٤٥١/٥.

الله»[1].

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى ذلك حين أخبره أحد أصحابه بما تجري من مجادلات لا تستند إلى كتاب الله وسنّة رسوله كما روى الحارث الأعور[2]، قال: «دخلْتُ المسجد، فإذا أناس يخوضون في أحاديث، فدخلت على عليّ عليه السلام، فقلتُ: ألا ترى أنَّ أناساً يخوضون في الأحاديث في المسجد، فقال: **قَدْ فَعَلوها؟**، قلْتُ: نعم، قال: **أَما إنّي سَمعْتُ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله يَقولُ: سَتَكونُ فتَنٌ، قُلْتُ: وَما الْمَخْرَجُ منْها؟ قالَ: كتابُ الله، فيه نبَأُ ما قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ ما بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ ما بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، هُوَ الَّذي مَنْ تركَهُ منْ جَبّارٍ قَصَمَهُ الله،**

(١) التَّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٤٥٠، ح/٢٩٧.

(٢) «الحارث الأعور: هو الحارث بن عبد الله الهمدانيّ، يكنّى أبا زهر، من خواصّ أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأوليائه، وله مكانة عنده، وثّقه رجال الخاصّة والعامّة إلاّ أنّ بعضهم ذكر أنّ الشّعبي كذّبه. ويعجبني أن أشير إلى ما علّق به الأستاذ عبد الوهّاب عبد اللَّطيف الأستاذ بكلّيّة الشَّريعة في الأزهر في المقام حيث ذكر ابن حجر ذلك في التّقريب: ١٤١/١؛ فقال الأستاذ: «وكان الحارث فقيهاً فرضيّاً، ويفضّل عليّاً على أبي بكر، متشيّعاً غالياً، والعلّة عند من ردّه: التّشيّع! وقد وثّقه ابن معين، والنّسائيّ، وأحمد بن صالح، وابن أبي داود، وغيرهم، وتكلّم فيه الثّوريّ، وابن المدينيّ، وأبو زرعة، وابن عديّ، والدّارقطنيّ، وابن سعد، وأبو حاتم، وغيرهم، ومن جرحه إمّا لتشيّعه وإمّا لغير ذلك غير مفسّر لجرحه، والصَّحيح عند أرباب الصّناعة أنّ التّشيّع وحده ليس بجرح في الرّواية، والمدار على الظّنّ بصدق الرّاوي أو كذبه، والجرح الَّذي لم يفسّر لا يقبل، ولذا حُملَ قول من كذّبه على الكذب في الرَّأي والعقيدة؛ ولذا قال الذّهبيّ: والجمهور على توهينه مع روايتهم لحديثه في الأبواب، قال: والظّاهر أنّ الشّعبيّ يكذّب حكاياته لا في الحديث، اهـ؛ وقد بسطت القول فيه في: التَّكملة في تواريخ العلماء والنَّقلة، وهو ذيل لكتابي (المختصر في علم رجال الأثر)»، هامش موسوعة ابن إدريس الحلّيّ (مستطرفات السّرائر): ٢٦٢/١٤-٢٦٣.

وَمَن ابْتَغى الْهُدى في غَيْره أَضَلَّه اللهُ، فَهُوَ حَبْلُ الله الْمَتين، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكيم، وَهُوَ الصِّراطُ الْمُسْتَقيم، وَهُوَ الَّذي لا تزيغُ به الأَهْواءُ، وَلا تَلْتَبس به الأَلْسنَةُ، وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَماء، وَلا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَة الرَّدِّ، وَلا تَنْقَضي عَجائبُهُ، وَهُوَ الَّذي لَمْ يَنْتَه الْجنُّ إِذْ سَمعَتْهُ أَنْ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾[١]، هُوَ الَّذي مَنْ قالَ بِه صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِه عَدَلَ، وَمَنْ عَمَلَ بِه أُجرَ، وَمَنْ دَعا إِلَيْه هُديَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيم، خُذْها إِلَيْكَ يا أَعْوَرُ»[٢].

وفي الآيات مباحث مهمّة نشير إليها تباعاً:

أوّلاً: الإعراض هو حالة صدود وانقطاع عن الله تعالى، أو جعل أحكام الله ظهريّاً، أو التّمرّد عليها، وبعبارة مختصرة هو التّنكّر لنعم الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾[٣]، وسببه النّسيان أو التّناسي لآيات الله ونعمه، والتّعامي عنها عناداً، وطغياناً، واستكباراً في الأرض؛ لجهل، أو غفلة، أو ظلم وإجرام، وتمرّد على أحكام الله، أو ارتكاس في الرّذائل، ومن هنا وصف الله تعالى المعرضين عن آيات الله بأنّهم أظلم النّاس، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[٤]، وهذه الحالات هي تمام الشّقاء في الدّنيا والآخرة.

تلك هي عاقبة الإعراض عن الله (معيشة ضنكا) مهما ملك من زخارف

---

(١) الجنّ: ١.

(٢) سنن الدّارميّ: ٢/٥٢٦-٥٢٧، ح/٣٣٣١.

(٣) فصّلت: ٥١.

(٤) السّجدة: ٢٢.

الدُّنيا، ومهما استطال فيها، ولا يمكن أن نتصوّر كلمة تصوّر حالة المعرض عن الله أدقّ وأروع وأبين منها، فهي عمى البصيرة في الدُّنيا، وعمى البصر في الآخرة، وحين تنكشف الحجب عن بصيرته يشعر بثقل الأوزار الَّتي عملها في الدُّنيا: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1].

ثانياً: الذّكر في الآية أعمّ من الذّكر اللّسانيّ والقلبيّ، بل هو عمليّة انفتاح عقليّ، ونفسيّ، وروحيّ، وتوجّه خالص لله تبارك وتعالى، واستسلام وتسليم مطلق لإرادته جلَّت قدرته، وإحساس وشعور بهيمنته المطلقة، حتّى ينشرح قلب المؤمن، فيصبح لا يرى شيئاً إلا ويرى الله قبله وفيه وبعده، ثمَّ هو استمداد للألطاف الإلهيّة ببذل الطّاقة النّفسيّة، في التّفكّر في عظمة الله عزَّ وجلَّ، فعمليّة الذّكر إذن تحتاج إلى جهد فكريّ، وتوجّه نفسيّ، ووجل قلبيّ، وصدق عمليّ، وإخلاص نيّة، وقبل ذلك كلّه معرفة يستحضر الذّاكر فيها هيمنة الله عليه، ومعيّته له، ورقابته له، وقدرته عليه؛ ولهذا فليس الذّكر مجرّد حركة اللّسان، بل ما في العقل من معرفة لله تتفاعل مع العواطف، والمشاعر، والأحاسيس الوجدانيّة، والمعارف النّفسيّة والآفاقيّة الَّتي تترسّخ في العقل، ثمَّ تنساب إلى القلب، ومنه يجري الذّكر على اللّسان، وتمتزج الفكرة بالعاطفة، لتبرز سلوكاً يحكم الجوارح، ويضعها على صراط الله المستقيم.

«يا رَبِّ يا رَبِّ، قَوِّ عَلى خِدْمَتِكَ جَوارِحي، وَاشْدُدْ عَلى العَزيمَةِ جَوانحي، وَهَبْ لِيَ الجِدَّ في خَشْيَتِكَ، وَالدَّوامَ في الاتِّصالِ بِخِدْمَتِكَ حَتّى أَسْرَحَ إِلَيْكَ في مَيادينِ السّابِقينَ، وَأُسْرِعَ إِلَيْكَ في الْبارِزينَ، وَأَشْتاقَ إِلى قُرْبِكَ فِي الْمُشْتاقينَ، وَأَدْنُوَ مِنْكَ دُنُوَّ الْمُخْلِصينَ، وَأَخافَكَ مَخافَةَ الْمُوقِنينَ،

---

(١) ق: ٢٢.

وَأَجْتَمِعَ فِي جِوارِكَ مَعَ الْمُؤْمِنينَ»(١).

فالذّكر إذن أشمل وأعمّ من الألفاظ، بل هو استذكار، واستحضار لأوامر الله لعبده، وإحساس العبد برقابة ربّه، وشعوره بالمسؤوليّة أمامه، وإحساس بهيبته ورعايته، ورقابته؛ فيدفعه ذلك الشّعور بأهمّيّة كلّ طاعة، ويوقفه عن كلّ معصية، فكلّ طاعة هي ذكر لله تعالى، فعن الإمام الصّادق، عن أبيه عليهما السلام، أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**مَنْ أَطاعَ اللهَ فَقَدْ ذَكَرَ اللهَ، وإنْ قَلَّتْ صَلاتُهُ، وَصِيامُهُ، وَتِلاوَتُهُ، وَمَنْ عَصَى اللهَ فَقَدْ نَسِيَ اللهَ، وإنْ كَثُرَتْ صَلاتُهُ وَصِيامُهُ وَتِلاوَتُهُ لِلْقُرْآن**»(٢).

وفي رواية أخرى عن الأصبغ، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: **ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذلِكَ ذِكْرُ اللهِ عِنْدَ ما حَرَّمَ عَلَيْكَ، فَيَكُونُ حاجِزاً**»(٣).

وفي رواية ثالثة عن أبي عبيدة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**مِنْ أَشَدِّ ما فَرَضَ اللهُ عَلى خَلْقِهِ ذِكْرُ اللهِ كَثيراً**»، ثمَّ قال: «**لا أَعْني سُبْحانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلا إِلهَ إِلا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، وَإِنْ كانَ مِنْهُ، وَلكِنْ ذِكْرَ اللهِ عِنْدَ ما أَحَلَّ وَحَرَّمَ، فَإِنْ كانَ طاعَةً عَمِلَ بِها، وَإِنْ كانَ مَعْصِيَةً تَرَكَها**»(٤).

فالذّكر إذن تذكّر واستذكار وحضور في الحضرة القدسيّة، وإحساس بالهيمنة الإلهيّة، هذا الذّكر له آثار عمليّة تشدّ الذّاكر إلى ربّه، ليستمدّ لنفسه معين الحياة من بارئها، فالاتّصال به من خلال الذّكر الدّائم قولاً وعملاً وسلوكاً يوصل

---

(١) الشّيخ الطّوسيّ، مصباح المتهجّد: ٨٥٧

(٢) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٣٩٩.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٢٣٤/٣، ح/١٧٠٠.

(٤) المصدر نفسه: ٢٠٧/٣-٢٠٨، ح/١٦٥٤.

الإنسان بالله، ومن خلال هذه الصّلة يرزقه الله تعالى الطّمأنينة والرّاحة النّفسيّة، وهي سعادة لا يغني عنها شيء، بل كلُّ الأشياء الَّتي يسعى المرء لتحصيلها؛ لأجل تحقيق تلك الحالة، وهي لا تحصل بشيء من زخارف الدُّنيا، ولا يوجد شيء يعطيها حقيقة إلا الله من خلال ذكره سبحانه وتعالى، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1].

قال العلامة الطّباطبائيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «لكنّ الظّاهر أن يكون المراد بالذّكر أعمّ من الذّكر اللّفظيّ، وأعني به مطلق انتقال الذّهن والخطور بالبال سواء كان بمشاهدة آية أو العثور على حجّة، أو استماع كلمة، ومن الشّاهد عليه قوله بعده: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾، فإنَّه كضرب القاعدة يشمل كلّ ذكر، سواء كان لفظيّاً أو غيره، وسواء كان قرآناً أو غيره، وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ فيه تنبيه للنّاس أن يتوجّهوا إليه، ويريحوا قلوبهم بذكره؛ فإنَّه لا همَّ للإنسان في حياته إلا الفوز بالسَّعادة والنّعمة، ولا خوف له إلا من أن تغتاله الشّقوة والنّقمة، والله سبحانه هو السَّبب الوحيد الَّذي بيده زمام الخير، وإليه يرجع الأمر كلّه، وهو القاهر فوق عباده، والفعّال لما يريد، وهو وليّ عباده المؤمنين به اللاجئين إليه، فذكره للنّفس الأسيرة بيد الحوادث الطّالبة لركن شديد يضمن له السَّعادة المتحيّرة في أمرها، وهي لا تعلم أين تريد، ولا أنّى يراد بها؟»[2].

فالنّفس الإنسانيّة «تطمئنّ بإحساسها بالصّلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه، وفي حماه، تطمئنّ من قلق الوحدة، وحيرة الطّريق بإدراك الحكمة في

---

(١) الرّعد: ٢٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٣٥٥/١١.

الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئنّ بالشُّعور بالحماية من كلّ اعتداء، ومن كلّ ضرّ، ومن كلّ شرّ إلا بما يشاء، مع الرّضى بالابتلاء، والصَّبر على البلاء، وتطمئنّ برحمته في الهداية والرّزق والسّتر في الدُّنيا والآخرة... وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممّن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله. ليس أشقى ممّن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصّلة بما حوله في الكون؛ لأنَّه انفصم من العروة الوثقى الَّتي تربطه بما حوله في الله خالق الكون، ليس أشقى ممّن يعيش لا يدري لِمَ جاء؟ ولِمَ يذهب؟ ولِمَ يعاني ما يعاني في الحياة؟»[١].

مَعْنى الْمَعيشَةِ الضَّنْكِ:

اختلف المفسّرون في معنى المعيشة الضَّنك، فمن قائل: إنَّها الشّقاء في الدُّنيا بالانقطاع عن الله عزَّ وجلّ، ومن قائل: إنَّها عذاب القبر، وقائل ثالث: إنَّها عذاب جهنم، ورابع قال: إنَّها نقم العذاب في الدُّنيا والآخرة، قال الرّازيّ في تفسيره: «واعلم أنَّ هذا الضّيق المتوعّد به، إمّا أن يكون في الدُّنيا، أو في القبر، أو في الآخرة، أو في الدّين، أو في كلّ ذلك أو أكثره»[٢].

والَّذي يعطيه التّأمّل في الآية الكريمة أنَّ المعيشة الضّنك تشمل الدُّنيا والآخرة؛ وذلك لأنَّ الفكر الإسلاميّ يربط بين العقيدة والنّظام، وإنَّ الجزاء في الآخرة من سنخ العمل في الدُّنيا... أمّا في الدُّنيا فضنك العيش من انحباس النَّفس على الجري واللّهاث وراء زخارفها مقطوعاً عن الله سبحانه وتعالى، «والحياة المقطوعة الصّلة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع، إنَّه

---

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٩٤/٥.

(٢) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: ١٣٠/٢٢.

ضنك الانقطاع عن الاتّصال بالله، وبالاطمئنان إلى حماه، ضنك الحيرة والقلق والشَّكّ، ضنك الحرص والحذر: الحرص على ما في اليد، والحذر من الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع، والحسرة على كلّ ما يفوت، وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله، وما يحسّ راحة الثّقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى الَّتي لا انفصام لها.. إنَّ طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعةً، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان»[١].

قال الزّمخشريّ: «معنى ذلك: أنّ مع الدّين التَّسليم والقناعة والتّوكّل على الله وعلى قسمته، فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح، وسهولة، فيعيش عيشاً رافعاً، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[٢]، والمعرض عن الدّين، مستول عليه الحرص الَّذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدُّنيا، مسلَّط عليه الشُّحّ الّذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك وحاله مظلمة، كما قال بعض المتصوفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربّه إلا أظلم عليه وقته، وتشوَّش عليه رزقه»[٣].

ووردت عن أهل بيت العصمة والنّبوّة عليهم السلام في ذلك روايات منها عَنْ عَبْد الله بْن أَبي يَعْفور، عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام، قالَ: «**مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسى وَالدُّنْيا أَكْبَرُ هَمِّه، جَعَلَ اللهُ تعالى الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْه، وَشَتَّتَ أَمْرَهُ، وَلَمْ يَنَلْ مِنَ الدُّنْيا إِلا ما قُسِمَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسى وَالآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّه جَعَلَ اللهُ الْغِنى في قَلْبِه، وَجَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ**»[٤].

---

(١) في ظلال القرآن: ٥٠٣/٥.

(٢) النَّحل: ٩٧.

(٣) الزّمخشري، الكشّاف: ٩٥/٣.

(٤) الكافي: ٧٧٦/٣، ح/٢٦٠٠.

وعنه قال: «سمعت أبا عَبْد الله عليه السلام يَقولُ: **مَنْ تَعلَّقَ قَلْبه بالدُّنيا تعلَّق قَلْبُه بِثَلاثِ خِصالٍ: هَمٍّ لا يَفْنى، وأَمَلٍ لا يُدْرَكُ، ورَجاءٍ لا يُنالُ**»[١].

وذهب الآخرون أنَّ المقصود هو عذاب القبر وضغطته حتّى تتشابك أضلاعه، وفي ذلك ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**واعْلَموا أَنَّ الْمَعيشةَ الضَّنْكَ الَّتي قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[٢] هيَ عَذابُ الْقَبْر، وإنَّهُ لَيُسلَّطُ عَلى الْكافِر في قَبْرِه تسْعَةٌ وَتسْعينَ تنّيناً تَنْهَشُ لَحْمَهُ حَتّى يُبْعَثَ؛ لَوْ أَنَّ تنّيناً[٣] منْها نفَخَ في الأَرْضِ ما أَنْبَتَتْ رَيْعها أَبَداً**»[٤].

وقيل: إنَّ المعيشة الضنك هي عذاب جهنّم، وما يلاقي سكّانها من عذاب، لا يموتون فينتهون ويتخلّصون، ولا يحيون فيسعدون، وإنّما هم في عذاب دائم ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[٥].

وقيل: المعيشة الضَّنك في الدّين، فمن انغلقت عليه أبواب الهداية والرّشاد، فلا يعرف طريق الحقّ من الباطل، ولا الهدى من الضّلال، بل هو في حيرة دائمة.

وأمّا حشره أعمى؛ فقد اختلف المفسّرون فيها أيضاً فمنهم من قال: أنه عمى البصر الحسي، ومنهم من قال: عمى البصيرة، ولكن من سياق الآية يتبيّن أنَّ السّائل يسأل عن بصره الّذي كان يتمتّع به في الدُّنيا، وهو الّذي يسبق إلى الذّهن كما قال العلامة الطّباطبائيّ رحمه الله مع أنَّ هناك آيات أخرى تشير أنَّ الناس يحشرون

---

(١) الكافي: ٣/٧٧٧، ح/٢٦٠٢.

(٢) طه: ١٢٤.

(٣) التّنّين: الحيّة العظيمة.

(٤) الثّقفيّ، الغارات: ٢٣٩/١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦٩/٦.

(٥) طه: ٧٤.

مبصرين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1].

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[2].

ويحتمل «أن يتبعّض الأمر هناك، فيكون المجرم أعمى لا يبصر ما فيه سعادة حياته وفلاحه وفوزه بالكرامة، وهو يشاهد ما يتمّ به الحجّة عليه، وما يفزعه من أهوال القيامة، وما يشتدّ به العذاب عليه من النّار وغيرها، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[3]»[4].

ثمّ تبيّن الآية الكريمة علّة بعثه أعمى، وأنَّها عقوبته على ما اقترفه في الدُّنيا من نسيانه أو تناسيه أو أعراضه عن آيات الله سبحانه وتعالى، وهذا العمى جزاء تعاميه عن أحكام الله تعالى، ولمّا كان الجزاء من سنخ العمل فإنَّ عمله في الدُّنيا كان هو التّعامي، والإعراض، والصَّدّ عن سبيل الله، فجاء الجزاء موافقاً لأصل العمل، وهو أن يحشر أعمى سواء كان عمى البصر أو عمى البصيرة، ولعلَّه كلاهما، وهكذا جزاء كلّ الكافرين والمسرفين، وقد وصف القرآن الكريم عذاب الآخرة بأوصاف مرعبة تهزّ المشاعر الحيّة، بل تخلع قلب من ألقى السَّمع وهو شهيد، وأيُّ مقامع أشدُّ من وقع هذه الأوصاف لعذاب الآخرة؟ بأنّه: أشقّ، وأشدّ، وأبقى، وأخزى، وأكبر كما في الآيات الكريمة:

---

(١) السّجدة: ١٢.

(٢) الإسراء: ١٤.

(٣) المطفّفين: ١٥.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ٢٢٦/١٤.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾[(١)].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[(٢)].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾[(٣)].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾[(٤)].

كلّ ذلك إشارة إلى أنَّ ما يلاقيه المُعرِض عن ذكر الله في الآخرة من ضنك العيش أعظم ممّا لاقاه في الدُّنيا منها.

«اللّهمَّ، إنّي أَعوذُ بكَ منْ نار تَغَلَّظْتَ بها على مَنْ عَصاكَ، وتوَعَّدْتَ بها مَنْ صَدَفَ عَنْ رضاكَ، ومَنْ نار نورُها ظُلْمَةٌ، وهَيِّنُها أَليمٌ، وبَعيدُها قَريبٌ، ومَنْ نار يأْكُلُ بعْضَها بَعْضٌ، ويَصولُ بعْضُها على بَعْض، ومَنْ نار تَذَرُ الْعظامَ رَميماً، وتَسقي أَهْلَها حَميماً، ومَنْ نار لا تُبْقي على مَنْ تضَرَّعَ إلَيْها، ولا تَرْحَمُ مَن اسْتَعْطَفَها، ولا تَقْدرُ على التَّخْفيف عَمَّنْ خشَعَ لها، واسْتَسْلَمَ إلَيْها، تَلْقى سُكّانَها بأَحَرِّ ما لَدَيْها منْ أَليم النَّكال، وشَديد الْوَبال، وأَعوذُ بكَ منْ عَقاربها الْفاغرَة أَفْواهَها، وحَيّاتها الصّالقَة بأَنْيابها، وشَرابها الَّذي يُقَطِّعُ أَمْعاءَ وأَفْئدَةَ سُكّانها، ويَنْزِعُ قُلوبَهُمْ، وأَسْتَهْديكَ لما باعَدَ منْها، وأَخَّرَ عَنْها»[(٥)].

---

(١) الرّعد: ٣٤.

(٢) طه: ١٢٧.

(٣) فصّلت: ١٦.

(٤) الزّمر: ٢٦، القلم: ٣٣.

(٥) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ١٣٣-١٣٤، دعاء: ٣٢، دعاؤه في صلاة اللّيل.

الْفَقْرُ

الفقر لغةً ضدّ الغنى، وهو الحاجة، «والفقير المكسور فقار الظّهر، قال أهل اللّغة: ومنه اشتقّ اسم الفقير، وكأنَّه مكسور فقار الظّهر من ذلّته ومسكنته»[1]، ولا يستطيع القيام والنّهوض.

وأمّا معنى الفقير شرعاً، فهو الَّذي لا يملك قوت سنته اللائق بحاله لنفسه ولعائلته لا فعلاً ولا قوّة، والمسكين أسوأ حالاً منه[2].

وللفقر استعمالات عدّة قال الرّاغب في مفرداته: «الفقر يستعمل على أربعة أوجه:

الأوّل: وجود الحاجة الضّروريّة، وذلك عامٌّ للإنسان ما دام في دار الدنيا، بل عامٌّ للموجودات كلّها، وعلى هذا قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[3]، وإلى هذا الفقر أشار بقوله في وصف الإنسان: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾[4].

والثّاني: عدم المقتنيات، وهو المذكور في قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: ٤٤٣/٤، (فقر).

(٢) ينظر: منهاج الصّالحين للسّيّد الخوئيّ: ٣٠٩.

(٣) فاطر: ١٥.

(٤) الأنبياء: ٨

﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم﴾(١)، ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾(٢)، وقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾(٣).

الثّالث: فقر النَّفس، وهو الشّره المعنيّ بقوله عليه الصّلاة والسّلام: «**كادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكونَ كُفْراً**»، وهو المقابل بقوله: «**الْغِنى غِنى النَّفْسِ**»، والمعنيُّ بقولهم: «من عَدِمَ القناعة لم يُفِدْهُ المال غنًى».

الرّابع: الفقر إلى الله المشار إليه بقوله عليه الصّلاة والسّلام: «**اللّهُمَّ، أَغْنِني بالافتقار إلَيْك، ولا تُفْقِرْني بالاسْتغْناء عَنْكَ**»، وإيّاه عني بقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٤)، وبهذا ألمَّ الشّاعر، فقال: [من الطّويل]

ويُعجبني فقري إليك ولم يكن ... ليعجبني لولا محبّتك الفقر»(٥)

وقبل أن ندخل البحث لا بدَّ أن نفكّ التّعارض الَّذي ورد في الأحاديث والرّوايات بين الطّائفة الَّتي وصفت الفقر بأنَّه يكاد أن يكون كفراً، وأنَّه الموت الأحمر، وأنَّ القبر خيرٌ منه، وأنَّه سواد الوجه في الدُّنيا والآخرة، وأنَّه الشّقاء الأكبر، وأنَّه أشدُّ من القتل، وهو مذلّة للنَّفس، ومنقصة للدّين، ومدهشة للعقل وداعية للمقت، وقاصم للظّهر... وغير ذلك من المذامّ الشَّديدة الَّتي وردت في الأحاديث

---

(١) البقرة: ٢٧٣.

(٢) النّور: ٣٢.

(٣) التّوبة: ٦٠.

(٤) القصص: ٢٤.

(٥) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٥٢٩، (فقر).

الشَّريفة، الَّتي ذمَّته ذمّاً شديداً، وبين الطَّائفة الّتي عدَّته: شعار الصّالحين، وزيناً عند الله يوم القيامة، وأنَّه بمنزلة الشَّهادة يؤتيه الله من يشاء، وأنَّه كرامة من الله، ومن خزائنه، ولا يعطيه إلا نبيّاً أو مرسلاً أو مؤمناً كريماً، وأنَّه أجمل للمؤمنين من العذار على الفرس(١)، وما إلى ذلك... فما السرُّ في هذا التّعارض بين الطّائفتين؟

نقول: إنَّ الفقر مرّة يكون مفروضاً على الإنسان نتيجة ظروف اجتماعيّة سيّئة، أو سياسيّة ظالمة، أو كوارث طبيعيّة، أو مصائب تحلّ بالإنسان، ولا مفرَّ له منها، فهنا نجد الحثّ على الصَّبر، والرّضا بالقضاء والقدر، والقناعة بالموجود من دون جزع.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: طوبى لِلْمَساكينِ بِالصَّبْرِ، وَهُمُ الَّذين يرونَ مَلَكوتَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ**»(٢).

وقال عليه السلام: «**قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: يا مَعْشَرَ الْمَساكين، طيبوا نَفْساً، وَأَعْطوا اللهَ الرِّضا منْ قُلوبِكُمْ؛ يُثيبُكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على فَقْرِكُمْ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلوا فَلا ثَوابَ لَكُمْ**»(٣).

ومرّة يكون الفقر نتيجة التّكاسل، والاتّكال، والإهمال، والقعود عن العمل، أو نتيجة التَّبذير، والإسراف، وعدم التَّدبير، وسوء الاقتصاد، أو قل ما يجرّه الإنسان على نفسه نتيجة عدم حكمته، ورويّته، وتدبير شؤونه، وهذا ما عبَّر عنه القرآن

---

(١) ما أوردناه من عبارات في ذم الفقر ومدحه مستلّ من الأحاديث الشّريفة، راجع ميزان الحكمة للشّيخ محمّد الرّيشهريّ: ٣٢٢٨/٨-٣٢٣١، باب الفقر.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٦٥٧/٣، ح/٢٣٩٤.

(٣) المصدر نفسه: ح/٢٣٩٥.

الكريم بالقاعد المتحسّر على ما فاته بقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[١].

ومن خلال الرّوايات الكثيرة الَّتي ذمَّت الفقر لذاته نستطيع أن نفهم أنَّ الطّائفة الثّانية لم تمدح الفقر لذاته، وإنّما مدحت الصبر عليه، والقناعة والرّضا بالقضاء، والقدر، وأنَّها تعني الفقر الَّذي يأتي عن العلل والأمراض والكوارث الطّبيعيّة، لا الفقر الّذي يفرضه الظّلم الاجتماعيّ والتّكاسل عن العمل، وأنَّ المدح جاء للزّاهدين في المال، والَّذين يختارون الزُّهد كطريق في الحياة، وترفّعا عن زخارف الدُّنيا، وإنَّ الممدوح ليس الفقر لذاته، وإنّما للمؤمن الّذي أصابه الفقر، وصبر عليه لظروف قاهرة، فتماسك، ولم يفقد اتّزانه، وحافظ على عفّته وعزّته وكرامته، حتّى حسبه الجاهل بحاله لتعفّفه من الأغنياء.

وممّا لا شكَّ فيه أنَّ الأحاديث الَّتي مدحت الفقر تهدف إلى تقوية ثقة الفقراء بربّهم، وتسليمهم لأمره؛ لئلا تتحطّم معنويّاتهم، وأنَّ الأحاديث الَّتي ذمت الفقر أكثر بكثير من الأحاديث الَّتي مدحته، وأنَّها ذمت الغنى المفرط الَّذي يخرج عن الحدود الشّرعيّة، أو يحصل من غير طرقه الشّرعيّة، وأنَّ الَّذي ورد هو التّعوّذ من الفقر لا طلبه[٢].

فعن عبد الله بن ميمون في الصَّحيح، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **إنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله وَقَفَ بعرَفات، فَلَمّا هَمَّت الشَّمْسُ أَنْ تَغيبَ قَبْلَ أَنْ تَنْدَفِعَ، قالَ: اللّهُمَّ، إنّي أَعوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَمِنْ تَشَتُّتِ الأَمْرِ، وَمِنْ شَرِّ ما يَحْدُثُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ**»[٣].

---

(١) الإسراء: ٢٩.

(٢) راجع: بحار الأنوار للمحدّث المجلسيّ: ٧/٧٢.

(٣) الكافي: ٣٤/٩، ح/٧٧٤٥.

وفي دعاء الإمام السّجّاد عليه السلام: «**رَبِّ، وَأَعوذُ بكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْفاقَة، وَالْحاجَة وَالْمَسْكَنَة، وَالضّيقَة وَالْعائلَة، وَأَعوذُ بكَ مِنَ الْقلَّة وَالذّلَّة، وَأَعوذُ بكَ مِنَ الضّيق وَالشّدَّة**»(١)

وقد تقدَّم أنَّ المقصود بالفقر معان متعدّدة، منها ما يشمل الفقر الماديّ، والفقر المعنويّ كالفقر العلميّ والنّفسيّ والرّوحيّ والدّينيّ... والمذموم منه هو الفقر المعنويّ، الَّذي فسَّره الإمام الصّادق عليه السلام بالفقر من الدّين، فعَنْ عَليِّ بْن أَسْباط، عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**الْفَقْرُ الْمَوْتُ الأَحْمَرُ**(٢)، فَقُلْتُ لأَبي عَبْد الله: الْفَقْرُ منَ الدّينار والدّرْهَم؟ فَقالَ: **لا، وَلكنْ منَ الدّين**»(٣).

فهنا «الفقير على هذا من ليس له في الدّين معرفة، وعلم بأحكامه، ولا تقوى، ولا ورع وغير ذلك من الصّفات الحسنة»(٤).

وأمّا الفقر الماديّ، فهو غير ممدوح لذاته، وإنّما الممدوح هو الصَّبر، والتّعفّف، والتّرفّع عن التّشكّي لأحد بدرجة يجعل الجاهل به يظنّه غنيّاً من شدّة تعفّفه... أمّا أن يُفقر الإنسان نفسه؛ لأنَّ الفقر ممدوح لذاته فلم يقرّه العقل ولا الشّرع، بل ذمَّ ذلك، وعدَّه حسرة، وندامة، وتبذيراً، وإسرافاً، فكما ينبغي للإنسان أن لا يكون مغلول اليد - وهو تعبير مجازيٌّ عن شحّة النَّفس، وحرصها، وجشعها - كذلك لا ينبغي أن يكون مبسوط اليد مطلقاً، وهو أيضاً تعبير عن الإسراف،

---

(١) السّيّد ابن طاووس، مهج الدّعوات: ١٥٨.

(٢) الموت الأحمر استعارة للأحوال الشّاقّة، ويعنى به هنا الحالة الشّديدة الشّاقّة.

(٣) الكافي: ٦٦٣/٣، ح/٢٤٠٦.

(٤) المولى محمّد صالح المازندرانيّ، شرح أصول الكافي: ٢٣٢/٩.

والتَّبذير، وتجاوز الحدود المعقولة في الإنفاق؛ ولذا جاء وصف عباد الرَّحمن بأنَّهم الَّذين يتوسّطون بين التَّبذير والتَّقتير بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[2].

ومن هنا جاء التّأكيدُ متواصلاً في الكتاب الكريم والسّنّة الشّريفة أنَّ كلَّ صرف للمال مخالف للعقل والموازين الشّرعيّة هو إسراف وتبذير يضع الإنسان في مصافّ الشَّياطين، ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۞ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾[3].

وأدقُّ بيان لهذه الحقيقة ما أوضحه الإمام عليّ عليه السلام بقوله: «**أَلَا وإنَّ إعْطاءَ الْمالِ في غَيْرِ حَقِّه تَبْذيرٌ وَإسْرافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صاحِبَهُ في الدُّنْيا، وَيَضَعُهُ في الآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ في النّاسِ، وَيُهينُهُ عِنْدَ الله، وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مالَهُ في غَيْرِ حَقِّه ولا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِه إلا حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ، وَكانَ لغَيْرِه وُدُّهُمْ، فَإِنْ زَلَّتْ بِه النَّعْلُ يَوْماً، فَاحْتاجَ إلى مَعونَتِهِمْ، فَشَرُّ خَليلٍ، وَأَلأَمُ خَدينٍ**»[4].

وبذلك يتبيّن أنَّ الفقر ليس ممدوحاً لذاته، ولا مطلوباً أبداً، ولم يقرّ ذلك شرع ولا عقل، بل العكس هو الصَّحيح.

---

(١) الفرقان: ٦٧.

(٢) الإسراء: ٢٩.

(٣) الإسراء: ٢٦-٢٧.

(٤) نهج البلاغة: ٢١٥، خطبة: ١٢٦.

مَوْقِفُ الإِسْلامِ مِنَ الْفَقْرِ:

لقد حارب الإسلام الفقر على الصَّعيدين: النّظريّ والعمليّ... أمّا على المستوى النّظري فقد أكَّدت الرّوايات الواردة عن النّبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام أنَّ الفقر خطر كبير على الفرد والمجتمع والدّولة، وهو مرض اجتماعيٌّ عضال يقرب من الكفر، والأحاديث الآتية دالّة على ذلك، قال رسول الله ﷺ:

«الْفَقْرُ سَوادُ الْوَجْهِ في الدّارَيْنِ»(١).

«الْفَقْرُ أَشَدُّ مِن الْقَتْلِ»(٢).

وقال الإمام عليّ عليه السلام:

«الْفقْرُ الْمَوْتُ الأَكْبرُ»(٣).

«الْفَقْرُ مَعَ الدّين الشَّقاءُ الأَكْبرُ».

«الْقبْرُ خَيْرٌ من الْفقْرِ».

«إنَّ الْفقْرَ مَذَلَّةٌ للنَّفْس، مَدْهَشَةٌ للْعَقْلِ، جالبٌ للْهُمومِ».

«الْفَقْرُ يُخْرسُ الْفَطنَ عَنْ حُجَّته».

«الْمُقلُّ غَريبٌ في بَلْدَته»(٤).

وعلى المستوى العمليّ؛ فإنَّ التّأريخ يحدّثنا أنَّ النّبيّ ﷺ عمل في التّجارة، وحثَّ عليها، وكذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان يعمل في بستان له، ويحفر الآبار، ويتصدّق من نمائها، ويعتق العبيد منها، والإمام الباقر عليه السلام يعمل

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٧٢/٣٠.

(٢) الشّيخ محمّد السّبزواريّ، جامع الأخبار: ٢٩٩، ح/٨١٦.

(٣) نهج البلاغة: ٥١٥، قصار الحكم: ١٥٣.

(٤) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٦٢-٣٦٥، ح/٨٢١٠-٨٢١٧-٨٢٢٣-٨٢٢٧-٨٢٣٠.

والعرق يتصبّب منه، وعندما يعترضه معترض بالملامة: «**أرَأَيْتَ لَوْ جاءَ أَجَلُكَ، وَأَنْتَ عَلى هذه الْحالِ، ما كُنْتَ تَصْنَعُ؟**» فيقول عليه السلام له: «**لَوْ جاءَني الْمَوْتُ، وَأَنا عَلى هذه الْحالِ، جاءَني وَأَنا في طاعَةٍ منْ طاعَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ، أَكُفُّ بها نَفْسي وَعِيالي عَنْكَ، وَعَنِ النّاسِ، وَإِنَّما كُنْتُ أَخافُ أَنْ لَوْ جاءَني الْمَوْتُ، وَأَنا عَلى مَعْصِيَةٍ منْ مَعاصي الله**»(١).

وقال أبو عمرو الشيباني: «رأيتُ أبا عبد الله عليه السلام وبيده مسحاة، وعليه إزار غليظ يعمل في حائط له، والعرق يتصابّ عن ظهره، فقلْتُ: جُعِلْتُ فداك، أعطني أَكْفِكَ؟ فقال لي: **إِنّي أُحِبُّ أَنْ يَتَأَذّى الرَّجُلُ بِحَرِّ الشَّمْسِ في طَلَبِ الْمَعيشَةِ**»(٢).

وورد عنهم عليهم السلام أنَّ الله لا يقبل دعاء عاطل فاغر فاه لا يعمل، قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «**إنَّ أَصْنافاً منْ أُمَّتي لا يُسْتَجابُ لَهُمْ دُعاؤُهُمْ... وَرَجُلٌ يَقْعُدُ في بَيْتِه، وَيَقولُ: رَبِّ ارْزُقْني، وَلا يَخْرُجُ، وَلا يَطْلُبُ الرِّزْقَ، فَيَقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: عَبْدي، أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ السَّبيلَ إلى الطَّلَبِ وَالضَّرْبِ في الأَرْضِ بِجَوارحَ صَحيحَةٍ، فَتَكونَ قَدْ أُعْذِرْتَ فيما بَيْني وَبَيْنَكَ في الطَّلَبِ لاتّباعِ أَمْري؛ وَلِكَيْلا تَكونَ كَلّاً عَلى أَهْلِكَ، فَإِنْ شِئْتُ رَزَقْتُكَ، وَإِنْ شِئْتُ قَتَّرْتُ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ مَعْذورٌ عِنْدي، وَرَجُلٌ رَزَقَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مالاً كَثيراً فَأَنْفَقَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَدْعو: يا رَبِّ، ارْزُقْني، فَيَقولُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: أَلَمْ أَرْزُقْكَ رِزْقاً واسِعاً، فَهَلّا اقْتَصَدْتَ فيهِ كَما أَمَرْتُكَ، وَلِمَ تُسْرِفُ، وَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنِ الإِسْرافِ، وَرَجُلٌ**

---

(١) الكافي: ٥٢٩/٩-٥٣٠، ح/٨٣٧١.

(٢) المصدر نفسه: ٥٣٧/٩، ح/٨٣٨٣.

يَدْعو في قَطيعَة رَحم»[1].

وأصرح مَن ذَلكَ كلّه قول الإمام عليّ عليه السلام: «**مَنْ وَجَدَ ماءً وَتراباً، ثُمَّ افْتَقَرَ، فَأَبْعَدَه اللهُ**»[2].

فالإسلام إذن وقف من الفقر موقفاً سلبيّاً، وعدَّه منقصة للعقل والدّين والمنزلة الإنسانيّة بجميع مقاماتها.

أَخْطارُ الْفَقْر:

للفقر أخطار جسيمة على المستويين الفرديّ والاجتماعيّ... أمّا على المستوى الفرديّ فإنَّه يرهق الإنسان ويجعله في قلق دائم... ويمكن استعراض تلك الأخطار في النّقاط الآتية، ونستدلّ على ذلك بما ورد من الأحاديث الشَّريفة:

١- إنَّه يعوق التّكامل الإنسانيّ من النّاحية الفكريّة والرّوحيّة والأخلاقيّة: قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّ الْفَقْرَ مَذَلَّةٌ لِلنَّفْسِ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، جالِبٌ لِلْهُمومِ**»[3].

فمن كان مذهول النَّفس، ومدهوش العقل، ومهموماً في كلّ وقته، فكيف يتسنّى له أن ينمو فكريّاً، ويسمو أخلاقيّاً، ويتقدّم علميّاً؟ وأيُّ خطر أكبر من هذا؟! وأكثر من ذلك عُدَّ في روايات أخرى: منقصة للدّين، وضعفاً في اليقين، ونقصاً في العقل، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لولده محمّد بن الحنفيّة: «**يا بُنَيَّ، إنّي أَخافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ، فَاسْتَعِذْ بِالله مِنْهُ، فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدّينِ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ،**

---

(١) الكافي: ٩/٥١٤-٥١٥، ح/٨٣٥٢.

(٢) الحميريّ، قرب الإسناد: ١١٥، ح/٤٠٤.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٦٥، ح/٨٢٢٣.

داعيَةٌ للْمَقْت»(١).

وما أجَمل تعليق الكاتب المسيحيّ جورج جرداق على هذا الحديث إذ قال: «لا يستطيع أن يتحلّى بالصّدق، ويمتاز بالطّيبة، ويعيش في بهجة الفضيلة، وينفي من قلبه الحسد والمقت والحقد، ومظاهر الانحراف عن قوانين الخير، ذاك الّذي سلبه الفقر كلّ فضيلة، وأفسد عليه العوز كلّ سَكينة في النّفس، وكلّ اطمئنان في الخاطر.

لا يستطيع أن يكون رجلاً واثقاً بجمال الحياة، مؤمناً بعدالة الخلق، ناصحاً لأخيه، محبّاً لقريبه، ذاك الّذي يضجّ في معدته سعير الجوع، فيمتصّ من جسمه دم الحياة، ويطفئ في روحه لهيب الإيمان، ويحوّل الحب إلى أحقاد عميقة، وطمأنينة الخاطر، وصفاء الرّوح إلى ظنون سوداء، ومخاوف مقيتة.

لا يستطيع أن يحبّ، فيسمو به الحبّ، ذاك الّذي تقيّده أغلال ثقيلةٌ من الشّعور بالدّونيّة والتّبعيّة، وزراية الذّات، وهو شعور يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحاجة والعوز»(٢).

وهذا أمرٌ طبيعيٌّ جدّاً فإنَّ من كان طيلة يومه محتاجاً إلى ما يُقَوّمُ أوده كيف يستطيع تمتين دينه، وتقويم أخلاقه، وزيادة علمه، وهو ما عليه من الضّعف كما وصف الإمام عليّ عليه السلام: «**إنْ عضَتّه الْفاقةُ شغَلَه الْبَلاء، وإنْ جَهَدَه الْجوعُ قَعَدَ به الضّعْفُ**»(٣).

«فالنَّقص الفكريُّ، والضّعف الجسميّ، وانهيار القوى الرّوحيّة والإحساس

---

(١) نهج البلاغة: ٥٤٠، قصار الحكم: ٣١٠.

(٢) جورج جرداق، الإمام عليّ عليه السلام صوت العدالة الإنسانيّة: ٩٢/١-٩٣.

(٣) نهج البلاغة: ٥٠٤، قصار الحكم: ١٠٣.

بمركّب النَّقص، والجهل والأمّيّة، والمفاسد النّاشئة من فقد التّربية والتّعليم، والعجزُ الاجتماعيّ، والانحلال العقيديّ، والسّلبيّات الَّتي تنبع من عدم الوعي السّياسيّ والاقتصاديّ، كلّ ذلك صفات سيّئة، وحالات ساحقة يسبّبها الفقر، وينمّيها في المحرومين والبؤساء، وهذا أمرٌ ضارٌّ ساحق يحرم المجتمع من كثير من أفراده وقابليّاتهم وكفاءاتهم»[١].

٢- هدر الكرامة والقيمة الاجتماعيّة: لا شكَّ أنَّ أغلب النّاس ينظرون إلى الفقير نظرة ازدراء، واحتقار، واستصغار لا سيّما إذا عرفوا ذلك نتيجة فعله وتقصيره في عمله، وحينئذٍ تهبط قيمة الإنسان الاجتماعيّة، ولا ينظر إليه نظرة تقدير واعتبار؛ لأنَّ الحاجة إلى إنسان بمثابة إسار إليه، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«امْنُنْ عَلى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَميرَهُ، وَاحْتَجْ إِلى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسيرَهُ، وَاسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظيرَهُ»**[٢].

ونتيجة هذا الاحتقار الَّذي يحصل من الفقر لم يعد لكلام الإنسان ومواقفه قيمة اجتماعيّة، قال أمير المؤمنين عليه السلام للحسن عليه السلام: **«لا تَلُمْ إِنْساناً يَطْلُبُ قوتَهُ، فَمَنْ عَدِمَ قوتَهُ كَثُرَتْ خَطاياهُ، يا بُنَيَّ، الْفَقيرُ حَقيرٌ لا يُسْمَعُ كَلامُهُ، وَلا يُعْرَفُ مَقامُهُ، وَلَوْ كانَ الْفَقيرُ صادِقاً يُسَمّونَهُ كاذِباً، وَلَوْ كانَ زاهِداً يُسَمّونَهُ جاهِلاً، يا بُنَيَّ، مَنِ ابْتُلِيَ بِالْفَقْرِ ابْتُلِيَ بِأَرْبَعِ خِصالٍ: بِالضَّعْفِ في يَقينِهِ، وَالنُّقْصانِ في عَقْلِهِ، وَالرِّقَّةِ في دينِهِ، وَقِلَّةِ الْحَياءِ في وَجْهِهِ، فَنَعوذُ بِاللهِ مِنَ الْفَقْرِ»**[٣].

---

(١) محمّد رضا الحكيميّ وآخرون، الحياة: ٢٩٢/٤.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٤٢٠/٢.

(٣) جامع الأخبار: ٣٠٠، ح/٨١٨.

وهكذا فإنَّ الفقر يُنسي النّاس قيمة ذلك الإنسان، قال عليه السلام: «**الْفَقْرُ يُنْسي**»، بل يعيش في وطنه غريباً عن أبناء مجتمعه، قال عليه السلام: «**الْفَقْرُ في الْوَطَنِ غُرْبَةٌ**»، و«**الْمُقلُّ غَريبٌ في بَلْدَته**»(١).

٣- **الذِّلَّة والانكسار النَّفسيّ**: إنَّ مكابدة الفقر والحاجة إلى النّاس يجعل الإنسان ذليلاً منكسراً، خانعاً، مخذولاً، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْقِلَّةُ ذِلَّةٌ**... [وَ] **السُّؤالُ مَذِلَّةٌ**»(٢)، و«**مَنْ قَلَّ ذَلَّ**»(٣)، وهذا الخطر يحطّم نفسيّة الإنسان، ويسبّب له آلاماً نفسيّة خطيرة تنعكس على سلوكه.

٤- **العجز عن إبداء حججه**: قلنا أنَّ الفقر يسبّب للإنسان الخنوع النَّفسيّ والذّلّة، وهذا الأمر يجعله عاجزاً عن إبداء رأيه نتيجة الاضطراب النّفسيّ الَّذي يصيبه من شدّة الحاجة، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّته**»(٤)، وليس هناك أبلغ في بيان أثر الفقر على ذهن الإنسان من هذا الحديث.

٥- **يكون سبباً للكفر**: نتيجة التّأثيرات السّلبيّة على جسم الإنسان وروحه وفكره يصبح مضطرباً عقائديّاً، ومشوّشاً فكريّاً، تنتابه الوساوس، وتتقاذفه الأوهام، وحينئذٍ لا يسعه أن يتوجّه إلى عظمة الخالق في خلقه، ويقع تحت ضغوط نفسيّة شديدة تجعله غير قادر على التّلقّي الفكريّ، وهذا يجرُّ إلى التّحجّر والبلادة، وبذلك يقترب من الكفر، قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «**كادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكونَ كُفْراً**»(٥).

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٦٥، ح/٨٢٢٠-٨٢٢٩-٨٢٣٠.

(٢) بحار الأنوار: ١٢/٧٨.

(٣) الكافي: ٦٨/١٥، ح/١٤٨١٩.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٦٥، ح/٨٢٢٧.

(٥) أبو نعيم الأصبهانيّ، حلية الأولياء: ٥٣/٣.

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «**مَن ابْتُلي بالْفَقْر ابْتُلي بأَرْبَع خصال: بالضَّعْف في يَقينه، وَالنُّقْصان في عَقْله، وَالرِّقَّة في دينه، وَقلَّة الْحَياء في وَجْهه، فَنَعوذُ بالله من الْفَقْر**»[1].

وأمّا الأخطار الاجتماعيّة، فهي أشدّ وأنكى، فهي لا تقف عند حدود الفرد أو العائلة، وإنَّما تمتدّ جذورها إلى الجميع، فلا تجد مجتمعاً متخلّفاً إلا ووجدت الفقر معشعشاً فيه، فانتشار المرض، والأمّيّة، والجهل، والمفاسد الأخلاقيّة أينما وجدت كان الفقر هو العامل الأساسي في تلك الأمور كلّها؛ لأنَّ المجتمع الفقير لا يستطيع أن يفتح المدارس، أو ينشئ المستشفيات، أو يقيم المؤسّسات النّافعة، أو يروّج الأفكار السَّليمة، ولذلك يتفشّى فيه الفساد، والظُّلم، والجهل، والأمّيّة، والتّخلّف بأشنع أشكاله، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فقد يكون «الفقر أيضاً بلاء يصير سبباً لافتتان الكفّار، إمّا بأن يقولوا: لو كان هؤلاء على الحقّ لما ابتلوا بعموم الفقر فيهم؟ أو بأن يفرّوا من الإسلام خوفاً من الفقر»[2].

ونحن إذ ذكرنا أخطار الفقر لا يعني أنَّ الإسلام يحتقر الفقراء، وإنّما يحذّر من الوقوع فيه، ويعمل على رفعه عن كاهلهم، وقد نظر إلى الفقراء نظرة احترام إذا لم يكن عن تكاسل وتواكل، وإسراف وتبذير، وأمر بتوقيرهم، ومساعدتهم، ومساواتهم في المنظور الاجتماعيّ...

وقد وردت أحاديث كثيرة تؤكّد على ما تقدّم نذكر منها:

قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «**نورُ الْحِكْمَةِ الْجوعُ، وَالتَّباعُدُ منَ الله الشّبْعُ، وَالْقُرْبَةُ**

(١) جامع الأخبار: ٣٠٠، ح/٨١٨.

(٢) المحدّث المجلسيّ، مرآة العقول: ٣٦٢/٩.

إلى الله حُبّ الْمَساكين، وَالدُّنوُّ مِنْهُمْ»[١].

وقال ﷺ: «**جالسوا الْفُقَراء**»[٢].

وقال سلمان الفارسيّ رضي الله عنه: «**أَوْصاني خَليلي بِسَبْعِ خصال، لا أَدَعُهُنَّ عَلى كُلِّ حال: أَوْصاني أَنْ... أُحِبَّ الفقراء وَأَدْنُو مِنْهُمْ**»[٣].

وفي رواية أخرى عن ابن مهدي أنّه قال: «أنّه مرّ الحسن بن علي عليهما السلام على فقراء، وقد وضعوا كُسيرات على الأرض، وهم قعود يلتقطونها، ويأكلونها، فقالوا له: هَلمّ يا ابن بنت رسول الله إلى الغداء»، قال: «فنزل، وقال: إنَّ الله ﴿**لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ**﴾[٤]، وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا، والزّاد على حاله ببركته، ثمّ دعاهم إلى ضيافته وأطعمهم وكساهم»[٥].

وعن الإمام الصّادق عليه السلام من رسالة إلى جماعة من الشّيعة: «**وَعَلَيْكُمْ بِحُبِّ الْمَساكينِ الْمُسْلمينَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ حَقَّرَهُمْ، وَتَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ، فَقَدْ زَلَّ عَنْ دينِ الله، وَالله لَهُ حاقِرٌ ماقِتٌ**»[٦].

وقد كان أكثر أصحاب الأنبياء والمرسلين من الضُّعفاء والمساكين، وقد كان ذلك يثير حفيظة الأغنياء المستكبرين، ويدفعهم إلى الطَّلب من أنبياء الله

(١) الشّيخ الطَّبرسيّ، مكارم الأخلاق: ١٩٣.

(٢) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٤١.

(٣) البرقيّ، المحاسن: ٧٥/١، ح/٣٤.

(٤) النّحل: ٢٣.

(٥) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ١٧٠/٩.

(٦) الكافي: ٢٤/١٥، ح/١٤٨١٦.

بتنحيتهم؛ لأنَّهم يعدّون وجودهم آية الضَّعف، يقولون لنوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾(١)، فكان جوابه قاطعاً لا تردّد فيه: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

إنَّ المستكبرين يزدرون الفقراء لفقرهم، فاستنكفوا أن يجالسوا النّبيّ لوجودهم في مجلسه، فطلبوا منه أن يطردهم فرفض طلبهم؛ لأنَّه من عمل الظّالمين، وعاقبته الخذلان، والعذاب الأليم، وفي سورة الشّعراء: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۞ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ۞ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٣).

وما واجهه رسول الله صلى الله عليه وآله من المستكبرين واشتراطهم عليه كان أكثر وأشدَّ ممّن كان رسول الله صلى الله عليه وآله يطمع في هدايتهم، وتأليف قلوبهم؛ رُوِيَ عن خبّاب أنَّه قال: «جاء الأقرع بن حابس التّميميّ، وعُيَينة بن حصين الفزاريّ، وذووهم من المؤلّفة قلوبهم، فوجدوا النّبيّ صلى الله عليه وآله قاعداً مع بلال وصهيب وعمّار وخبّاب في ناس من ضعفاء المؤمنين، فحقّروهم، وقالوا: يا رسول الله، لو نحّيتَ

---

(١) هود: ٢٧.

(٢) هود: ٣٠-٣١.

(٣) الشّعراء: ١١١-١١٥.

هؤلاء عنك حتّى نخلوَ بك، فإنَّ وفود العرب تأتيك فنستحي أن يرونا مع هؤلاء الأعبد، ثمّ إذا انصرفنا فإن شئتَ فأعدهم إلى مجلسك، فأجابهم النّبيّ صلى الله عليه وآله إلى ذلك، فقالا له: اكتب لنا بهذا على نفسك كتاباً، فدعا بصحيفة، وأحضر عليّاً ليكتب».

قال: «ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبرائيل عليه السلام بقوله: ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۞ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ** ﴾[1]، فنحّى رسول الله صلى الله عليه وآله الصّحيفة، وأقبل علينا، ودنونا منه، وهو يقول: ﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ** ﴾[2]، فكنّا نقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام، وتركنا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم** ﴾ الآية»[3].

قال: «فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقعد معنا، ويدنو حتّى كادت ركبتنا تمسّ ركبته، فإذا بلغ السّاعة الّتي يقوم فيها قمنا، وتركناه حتّى يقوم، وقال لنا: **الْحَمْدُ للهِ الَّذي لَمْ يَمُتْني حَتَّى أَمَرَني أَنْ أُصْبِرَ نَفْسي مَعَ قَوْمٍ مِنْ أُمَّتي، مَعَكُمُ الْمَحْيا، وَمَعَكُمُ الْمَماتُ**»[4].

---

(١) الأنعام: ٥٢-٥٣.

(٢) الأنعام: ٥٤.

(٣) الكهف: ٢٨.

(٤) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤/٤٧٢-٤٧٣.

أَسْبابُ الْفَقْرِ وَمَناشِئُهُ:

للفقر أسباب مختلفة تختلف باختلاف الأشخاص والأوضاع السّياسيّة والاجتماعيّة... فمنها ما يتعلّق بطبيعة الشّخص، ومزاجه النّفسيّ، وتكوينه الفكريّ والاجتماعيّ، ومنها ما يتعلّق بالظّروف الاجتماعيّة والطّبيعيّة، ومنها امتحان وابتلاء للمؤمنين... وكلها ما عدا الأخير تتعلّق بالأشخاص ووضعهم وظروفهم، وقد ذكر الأستاذ لبيب بيضون في بحثه عن الفقر والأسباب الّتي تورث الفقر اثنين وخمسين سبباً من خلال تتبّع الأحاديث، وأكثرها تتعلّق بحالة الإهمال لبعض المستحبّات، وارتكاب الذّنوب، والفقر يأتي نتيجة إليها(١).

ونحن نذكر أسباباً أخرى، منها فرديّة، ومنها اجتماعيّة؛ أمّا الأسباب الفرديّة أي الّتي تتعلّق بالأشخاص أنفسهم كأفراد أهمّها:

١- **ترك العمل**: لقد حثَّ الشّرع المقدّس على العمل وعدّه عزّاً، وشرفاً وجهاداً، وعبادةً، وكرامةً للإنسان، بل عدَّ الكدَّ على العيال لطلب الرّزق جهاد مقدّس في سبيل الله تعالى، وأمّا ترك العمل والتّكاسل فقد عدَّه الإسلام هواناً وذلّة للإنسان؛ لأنَّه إن ترك عمله فقد عطَّل طاقاته، وتعطيل الطّاقة قد يؤدّي إلى الحاجة إلى الآخرين، وبالتّالي يضطره إلى مدّ يده إليهم، وهو الذّلُّ بعينه، ورد عن معاذ بيّاع الأكسية، قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **يا مُعاذ، أَضَعُفْتَ عَنِ التِّجارَةِ؟ أَوْ زَهِدْتَ فيها؟** قُلْتُ: ما ضَعُفْتُ عنها، ولا زهدت فيها، قال: **فَما لَكَ؟** قلتُ: كنّا ننتظر أمراً، وذلك حين قُتِلَ الوليد، وعندي مال كثير، وهو في يدي، وليس لأحد عليَّ شيء، ولا أراني آكله حتّى أموت، فقال: **لا تَتْرُكْها؛ فَإِنْ تَرْكَها مَذْهَبَةٌ**

---

(١) راجع كتاب: نهج البلاغة نبراس السّياسة ومنهل التّربية: ٢٩٢-٢٩٤.

لِلْعَقْلِ، اسْعَ عَلَى عِيالكَ، وَإِيّاكَ أَنْ يَكونوا هُمُ السُّعاةَ عَلَيْكَ»(١).

وَفي رواية أُخرَى أَنَّه قَال: «قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي قد هممت أن أدع السّوق، وفي يدي شيء، قال: **إِذن يَسْقُطَ رَأْيُكَ، وَلا يُسْتَعانُ بِكَ عَلَى شَيْءٍ**»(٢).

وكثير من الأحاديث على هذا المنوال؛ لتحصين المجتمع من الفقر والشّحّة والقلّة... وهناك طائفة أخرى حذَّرت من ترك العمل؛ لأنَّه يؤدّي إلى الفقر، منها قول الإمام عليّ عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى كَدِّهِ صَبَرَ عَلَى الإِفْلاسِ**»(٣).

وأكَّد الإسلام أنَّ تارك العمل القاعد في بيته لا يستجاب دعاؤه، فعن عمر بن يزيد، قال: «قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: رجلٌ قال: لأقعدنَّ في بيتي، ولأصلينَّ، ولأصومنَّ، ولأعبدَنَّ ربّي، فأمّا رزقي فسيأتيني، فقال أبو عبد الله عليه السلام: **هذا أَحَدُ الثَّلاثَةِ الَّذينَ لا يُسْتَجابُ لَهُمْ**»(٤).

وجعل طالب الرّزق الحلال أفضل من العابد القاعد الَّذي ألقى كَلَّه على الآخرين؛ فعن معلّى بن خنيس، عن أبيه قال: «سأل أبو عبد الله عليه السلام عن رجل وأنا عنده، فقيل له: أصابته الحاجة، قال: **فَما يَصْنَعُ الْيَوْمَ**؟ قيل: في البيت يعبد ربّه، قال: **فَمِنْ أَيْنَ قوتُهُ**؟ قيل: من عند بعض إخوانه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: **وَاللهِ، لَلَّذي يَقوتُهُ أَشَدُّ عِبادَةً مِنْهُ**»(٥).

وخلاصة الكلام: إنَّ ترك العمل، والتَّقاعس عنه سببٌ مهمٌّ من أسباب الفقر.

---

(١) الكافي: ١٠/١٠-١١، ح/٨٦٨٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٠/١٣، ح/٨٦٨٦.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٥٥، ح/٨١١٣.

(٤) الكافي: ٩/٥٤٠، ح/٨٣٨٧.

(٥) المصدر نفسه: ٩/٥٤١، ح/٨٣٩٠.

٢- **الكسل والضَّجر**: من أمّهات الأمراض النّفسيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة الكسل، وعدم الانفتاح النّفسيّ على الحياة، فما رأينا كسولاً نجح في حياته، وارتقى إلى منزلة اجتماعيّة، أو سياسيّة مرموقة؛ ولذلك حذَّر الإسلام من الكسل والتّكاسل؛ لأنَّه سبب مهمٌّ من أسباب الفقر، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ الأَشْياءَ لَمّا ازْدَوَجَتْ ازْدَوَجَ الْكَسَلُ وَالْعَجْزُ، فَنُتِجا بيْنَهُما الْفَقْرَ**»[1].

والإنسان عندما يكسل عن طلب معيشته، فإنَّه بلا شكٍّ سيكون كلاًّ على غيره، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**ولا تَكْسَلْ عَنْ مَعيشَتِكَ، فَتَكونَ كَلاً على غَيْرِكَ**»[2].

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «**إيّاكَ وَالْكَسَلَ وَالضَّجَرَ؛ فَإِنَّهُما يَمْنَعانكَ مِنْ حَظِّكَ مِنَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ**»[3]، أمّا في الدُّنيا فإنَّه يعيش الضّنك المادّيّ؛ لتكاسله عن عمله؛ وأمّا في الآخرة فإنَّ الكسول لا يستطيع أن يؤدّي حقوق الله المفروضة عليه.

٣- **التّفاقر والتّباؤس**: هناك كثير من النّاس يظهر حالة البؤس والفقر وشدّة الحاجة بخلافاً بما في يديه، والمفروض على المؤمن إذا أنعم الله عليه بنعمة أن يتحدّث بهذه النّعمة، وأن تظهر عليه، قال صلى الله عليه وآله: «**إنَّ اللهَ يُحبُّ إذا أَنْعَمَ عَلى عَبْدٍ أَنْ يَرى أَثَرَ نعْمَته عَلَيْه، ويُبْغضُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَؤُّسَ**»[4].

وعن الإمامَ الصَّادق عليه السلام قالَ: «**إنَّ اللهَ تَعالى يُحبُّ الْجَمالَ وَالتَّجَمُّلَ،**

(١) الكافي: ٥٦٢/٩، ح/٨٤٢٦.

(٢) المصدر نفسه: ح/٨٤٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ٥٥٩/٩، ح/٨٤٢٠.

(٤) تحف العقول: ٥٦.

ويَبْغض الْبُؤْس والتَّباؤُس، فَإِنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ إذا أَنْعَم على عَبْد نعْمَةً أَحَبَّ أَنْ يرى عَلَيْه أَثَرَها، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يُنَظِّفُ ثوْبَه، ويُطَيِّبُ ريحَه، ويُجَصِّصُ دارَه، ويَكْنُسُ أَفْنِيَتَه، حتّى إنَّ السِّراجَ قَبْلَ مَغيبِ الشَّمْسِ يَنْفي الْفَقْرَ، ويَزيدُ في الرِّزْق»[١].

وحالة التّفاقر تعبّر عن ذلّة نفسيّة ناتجة عن البخل، وهي حالة تسقط القيمة الاجتماعيّة للإنسان، وهي غير مرضيّة عند الله تعالى؛ لأنَّها تعبّر عن سخط للقدر الإلهيّ، وعلى سبيل المثال أذكر في أيام هجرة العراقيّين بعد حرب الخليج كنّا نجمع من المحسنين أموالاً، ونوزّعها على الفقراء المهاجرين، وكان أحد الَّذين يأتون لذلك يبدو عليه البؤس والتّفاقر بدرجة كبيرة جدّاً يصل به حدّ التّذلّل المفرط حتّى يحسبه الرّائي أنَّه لا يجد قوت ساعته، وليس لديه ما يستر بدنه؛ لرثاثة ملبسه، ومسكنته، وتشكّيه، فكنّا نترحّم على حاله، ثمّ فجأة أصدرت الحكومة العراقيّة آنذاك قراراً بإسقاط الدّينار من فئة ٢٥، وإذا بالرّجل يصرخ ويستغيث؛ لأنَّه كان يملك مليونين ديناراً من هذه الفئة، وقد سقط اعتبارها، فكان مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من تَفاقَرَ افْتَقَرَ**»[٢].

ما أبلغها من حكمة وأروعها من حقيقة تكشف عن شح النفوس، وقال الإمام عليّ عليه السلام: «**إظْهارُ التَّباؤُس يَجْلبُ الْفَقْرَ**»[٣].

وورد في الحديث: «**إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى يُحِبُّ الْجَمالَ والتَّجَمُّلَ،**

---

(١) الشّيخ الطّوسيّ، كتاب الأمالي: ٤١٩-٤٢٠؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٤٥٢/٦، ح/٣٢١٣.

(٢) تحف العقول: ٤٢.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٦٦، ح/٨٢٤٦.

ويبغض البؤس والتّباؤس، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ يبغض من الرِّجال القاذورة، وإنّه إذا أنعم على عبده نعمةً أحبَّ أنْ يرى أثر تلك النِّعمة»[١].

٤- **الإسراف والتَّبذير**: الإسراف مجاوزة القصد في الإنفاق وفي غيره، فكلّ عمل في أيّ ناحية من نواحي الحياة يتجاوز الحدود المعقولة أو المشروعة فهو سرف... والسَّرف هو: الإنفاق في غير طاعة الله تعالى، والتَّبذير هو الإسراف في النّفقة، وبذل الأموال في غير محلّها سواء كانت قليلة أو كثيرة، وكلّ بذل في غير محلّه المعقول، أو المشروع هو تبذير، وفاعله أخ للشّيطان الرَّجيم: ﴿ **إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا** ﴾[٢].

إنَّ الإسلام في الوقت الَّذي حثَّ على الإنفاق أمر باتّباع الحكمة والقصد فيه، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾[٣].

وقد مدح الله تعالى عباده المقتصدين، أي الَّذين يتوسَّطون في الإنفاق بقوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** ﴾[٤].

وقد أكَّدت الرّوايات الواردة عن أهل بيت العصمة والطَّهارة عليهم السلام أنَّ الإسراف والتَّبذير هو أحد أسباب الفقر منها.

قال النَّبيّ صلى الله عليه وآله: «**من بذّر أفقره الله**»[٥].

---

(١) الفقه المنسوب للإمام الرّضا عليه السلام: ٣٥٤.

(٢) الإسراء: ٢٧.

(٣) الإسراء: ٢٩.

(٤) الفرقان: ٦٧.

(٥) ابن فهد الحلّيّ، عدّة الدّاعي ونجاح السّاعي: ١٠١.

وأصرح من ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**سَبَبُ الْفَقْرِ الإسْرافُ**»(١).

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**إنَّ السَّرَفَ يورثُ الْفَقْرَ**»(٢).

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «**مَنْ بَذَّرَ وأَسْرَفَ زالَتْ عَنْهُ النِّعْمَةُ**»(٣).

وحدّدت روايات أخرى علامات المسرف، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وأَمَّا عَلامَةُ الْمُسْرِف فَأَرْبَعَةٌ: الْفَخْرُ بالْباطل، ويَأْكُلُ ما لَيْس عنْدَه، ويزْهَدُ في اصْطناعِ الْمَعْروف، ويُنْكِرُ مَنْ لا يَنْتَفِع بشَيْءٍ منْهُ**»(٤).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**للْمُسْرِف ثَلاثُ عَلامات: يَأْكُلُ ما لَيْسَ لَهُ، ويَلْبَسُ ما لَيسَ لَهُ، ويَشْتَري ما لَيْسَ لَهُ**»(٥).

٥- **ترك التَّقدير في المعيشة**: لا بدَّ للإنسان أن يكون حكيماً في كلّ تصرّفاته، ومن جملة التّصرّفات المهمّة هو أن يعرف كيف يتصرّف بما ملّكه الله عزَّ وجلَّ، فلا ينفق كيفما كان اعتماداً على مقولة: «أنفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب»، فلا يشتري ما لا يحتاج، وينفق بقدر ما يحتاج، أو يخرج بمقدار ما أمره الشّارع المقدس بلا تقتير ولا تبذير بعبارة أخرى ينفق بمقدار ما يُقَوّم أوده، ويحفظ كرامته، ويؤدّي بذلك حقوق الله تعالى عليه.

وأمّا إذا خرج عن هذه القواعد، فأخذ يشتري كلّ ما تشتهي نفسه من الأمور الكماليّة، الّتي يمكن الاستغناء عنها؛ فإنَّ ذلك سيجرّه إلى التّبذير، والتّبذير يؤدّي

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٥٩، ح/٨١٢٦.

(٢) الكافي: ٣٤١/٧، ح/٦٢١٤.

(٣) تحف العقول: ٤٠٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢٢.

(٥) كتاب الخصال: ٩٨/١.

إلى الفقر، قال الإمام عليّ عليه السلام: «**تَرْكُ التَّقْدير في الْمَعيشَة يورثُ الْفَقْرَ**»[١].

ويظهر من معنى روايات أخرى أنَّ التَّقدير هو الاقتصادَ[٢]، أي الصرف المتوسّط بين التَّبذير والتّقدير، قال الإمام الصّادق عليه السلام: «**ضَمِنْتُ لِمَنِ اقْتَصَدَ أَنْ لا يَفْتَقِرَ**»[٣].

ومن كلمات أمير المؤمنين عليه السلام:

«**ما عالَ امْرُؤٌ اقْتَصَدَ**»[٤].

«**التَّقْدير نصْفُ الْعَيْش**»[٥].

«**الاقْتصادُ يُنَمّي الْيَسيرَ**».

«**لَنْ يَهْلكَ مَنِ اقْتَصَدَ**»[٦].

وعلى كلّ حال فإنَّ الحكمة في التَّصرّف أو القصد في الإنفاق يبعد شبح الفقر عن الإنسان، ويحفظ ماله وكرامته، قال الإمام عليّ عليه السلام:

«**حُسْنُ التَّدْبير يُنْمي قَليلَ الْمال، وَسوءُ التَّدْبير يُفْني كَثيرَهُ**».

«**قِوامُ الْعَيْشِ حُسْنُ التَّقْديرِ، وَمِلاكُهُ حُسْنُ التَّدْبيرِ**».

---

(١) كتاب الخصال: ٢/٥٠٥.

(٢) «معنى الاقتصاد في اللّغة: الاعتدال في العمل من غير غلوّ، ولا تقصير، وأصله القصد؛ وذلك لأنَّ من عرف مطلوبه، فإنّه يكون قاصداً له على الطّريق المستقيم من غير انحراف، ولا اضطراب»، التّفسير الكبير للفخر الرّازيّ: ١٢/٥٠.

(٣) الكافي: ٧/٣٤٠، ح/٦٢١٢.

(٤) نهج البلاغة: ٥١٠، قصار الحكم: ١٣٢.

(٥) كتاب الخصال: ٢/٦٢٠.

(٦) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٥٣-٣٥٤، ح/٨٠٦٣-٨٠٧٢.

«سوءُ التَّدْبير سَبَبُ التَّدْمير».

«سوءُ التَّدْبيرِ مِفْتاحُ الْفَقْرِ»(١).

الأَسْبابُ الاجْتِماعِيَّةُ وَالسِّياسِيَّةُ لِلْفَقْرِ:

ما تقدَّم من أسباب تتعلّق بالفرد ذاته، وهناك أسباب أخرى تتعلق بالوضع الاجتماعيّ والسّياسيّ الظّالم، من هذه الأسباب:

١- **جشع الأغنياء وشحّهم** عمّا في أيديهم؛ فإنَّ كثيراً من الأغنياء يحاولون تكديس الثَّروات، واستغلال الآخرين من خلالها، ومنع الحقوق الشّرعيّة والصّدقات والاستئثار بالمشاريع الكبيرة، وحرمان الآخرين منها، فإن أخذوا، أخذوا كثيراً، وإن أعطوا، أعطوا قليلاً نكداً، ومنهم من يأخذون من الفقير جهده، ويعطونه أقلّ من جهده، يقول تعالى: ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾(٢).

قال الإمام الصّادق عليه السلام: **«وَإِنَّ النّاسَ ما افْتَقَروا، وَلا احْتاجوا، وَلا جاعوا، وَلا عَروا إلا بِذُنوبِ الأَغْنِياء»**(٣).

وعن الإمام عليّ عليه السلام: **«إِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ فَرَضَ في أَمْوال الأَغْنِياء أَقْواتَ الْفُقَراءِ، فَما جاعَ فَقيرٌ إِلا بِما مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ، وَاللهُ تَعالى سائِلُهُمْ عَنْ ذلِكَ»**(٤).

٢- **أكل الأموال بالباطل**: يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٥٤، ح/٨٠٨١-٨٠٨٤-٨٠٨٩-٨٠٩٠.

(٢) النَّجم: ٣٤.

(٣) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٧/٢، ح/١٥٧٩.

(٤) نهج البلاغة: ٥٤١، قصار الحكم: ٣١٩.

﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

والأكل بالباطل معنى يشمل كلّ تناول لمال أو شيء يؤخذ بالغصب والظّلم، وفي جميع الوجوه غير المشروعة كالرَّشوة، والسَّرقة، ولعب القمار، واليمين الكاذبة، وسائر ضروب التّعدّي والغشّ والاحتيال... وبما أنَّ كلّ عمل غير شرعيّ يؤدّي إلى الأضرار بمصالح الآخرين، فإنَّ ذلك بلا شكّ يؤدّي إلى إفقار قوم، وإغناء آخرين بصورة غير شرعيّة، ومن الأكل بالباطل أكل أموال اليتامى ظلماً الَّذي وصفه القرآن بأنَّه يأكل ناراً، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(٢).

وقال الإمام الرّضا عليه السلام: «**وحَرَّمَ أَكْلَ مال الْيَتيمِ ظُلْماً لعلَلٍ كَثيرَةٍ منْ وُجوه الْفَساد، أَوَّلُ ذلكَ: إذا أَكَلَ الإنْسانُ مالَ الْيَتيم ظُلْماً فَقَدْ أَعانَ عَلى قَتْله، فَإذا أَكَلَ مالَهُ فَكَأَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ، وَصَيَّرَهُ إِلى الْفَقْر والْفاقَة**»(٣).

٣- **انتشار الرّبا**: فالرّبا بمثابة السّرطان في الأموال، فإنَّه يؤدّي إلى خلل نوعيّ في اقتصاد المجتمع؛ إذ تُتخم طائفة، وتفقر أخرى، وعادة الأقليّة هي الَّتي تتخم على حساب الأكثريّة، وهي الَّتي تقع في مستنقع الفقر، ورد عن الإمام الرّضا عليه السلام: «**وَعلَّةُ تَحْريم الرِّبا بالنَّسيئَة، لعلَّة ذَهاب الْمَعْروف، وَتَلَف الأَمْوال، ورَغْبَة النّاسِ في الرِّبْحِ، وَتَرْكِهِمْ لِلْقَرْضِ، وَالْقَرْضُ صَنايعُ الْمَعْروفِ، وَلِما**

(١) البقرة: ١٨٨.

(٢) النّساء: ١٠.

(٣) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٥٦٥/٣، ح/٤٩٣٤.

في ذلكَ منَ الْفَساد وَالظُّلْم وفَناء الأَمْوال»[١].

وفيَ صحيحةَ هشام بنَ الحكَم: أنّه سَأل أبا عبد الله عليه السلام عن علّة تحريم الرّبا، فقال عليه السلام: «**إنَّهُ لوْ كانَ الرِّبا حَلالاً، لَترَكَ النّاسُ التِّجارات، وما يَحْتاجونَ إلَيْه، فَحَرَّمَ اللهُ الرِّبا؛ ليَفرَّ النّاسُ منَ الْحَرام إلى الْحَلال، وإلى التِّجارات، وإلى الْبَيْع وَالشِّراء، فَيَبْقى ذلكَ بَيْنَهمْ في الْقَرْض**»[٢].

٤- **النّظم الاجتماعيّة الجائرة كنظام الإقطاع:** إنَّ الله تعالى خلق الأرض والسَّماء والبحار، وسخّرها لعباده، وأمرهم أن يمشوا في مناكبها، ويأكلوا من رزقه:

﴿ **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ** ﴾[٣].

وجعل جميع الأموال لجميع النّاس تتداول بينهم كلّ بحسب عمله، أو بحسب حاجته وفق الظّروف الموضوعيّة، يقول تعالى:

﴿ **وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ** ﴾[٤].

﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ** ﴾[٥].

﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾[٦].

---

(١) كتاب من لا يحضره الفقيه: ٥٦٦/٣، ح/٤٩٣٤.

(٢) المصدر نفسه: ٥٦٧/٣، ح/٤٩٣٧.

(٣) الملك: ١٥.

(٤) الرَّحمن: ١٠.

(٥) هود: ٦١.

(٦) الأعراف: ١٠.

هكذا تقرّر شريعة السّماء السَّمحاء، أنَّ الأرض لمن يعمرها، فقد روى السّكونيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: مَنْ غَرَسَ شَجَراً، أَوْ حَفَرَ وادياً بَديّاً لَمْ يَسْبَقْهُ إلَيْه أَحَدٌ، أَوْ أَحْيا أَرْضاً مَيْتَةً، فَهِي لَهُ، قَضاءٌ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَرَسوله**»[١].

وقال النَّبيّ صلى الله عليه وآله: «**مَنْ أَحْيا أَرْضاً مَيْتَةً، فَلَهُ فيها أَجْرٌ**»[٢].

ولكنّ جشع النُّفوس، وانحراف النّظام الاجتماعيّ عن دين الله بتسلّط الظّالمين[٣] أدّى إلى حيازة الأرض من بعض الشّخصيّات، والسّيطرة عليها ظلماً وعدواناً، ومنع الآخرين من التّصرّف بها، أو استعبادهم فيها، فترى الفلاح والعامل يعمل طيلة عمره، فلا يحصل من نتيجة عمله إلا حدّ الكفاف، أو أقلّ، بينما يأخذ الإقطاعيّ حصّة الأسد، وهذا سببٌ مهمٌّ يؤدّي إلى إفقار أغلبيّة النّاس، وإذا لم يحصل الإقطاعيّ على القسم الأكبر من الرّبح تبقي الأرض جرداء، فلو كان هناك عدلٌ اجتماعيٌّ، واستغلّت الأرض كما أمر الشّارع المقدّس لما بقي فقير ولا محتاج.

«إنَّ الأرض مثلاً لو استعملت، واستعمرت كما جعلها الله ووضعها، وشُجِبَ النّظام الإقطاعيّ، لا يوجد محتاج عائل، ولا فلاح بائس، ولا مسكين لا يجد

---

(١) الشّيخ الطّوسي، تهذيب الأحكام: ١٩١/٧، ح/٦٧٠.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣٨٣/٢٢، ح/١٤٥٠٠.

(٣) عندما احتلّ الانجليز العراق أخذوا يقتطعون مساحات واسعة من الأراضي، ويمنحونها إلى الشّخصيّات المتنفّذة والمتعاونة معهم من الجشعين، وصار هؤلاء مالكين للأرض يستغلّون النّاس لإعمار الأرض بنسب ضئيلة، ولهم حصّة الأسد حتّى صار الفلاح بمثابة قنّ مستعبد، وهكذا انتشر الفقر بين النّاس، وصار الإقطاعيّون بمثابة حكّام وملوك يتصرّفون بمصائر النّاس.

مأوى، ولا فقير لا يحصل على ظلّ رأس، فالإقطاع يوجب الفقر في قطاعات، وبإزاحته يزاح ذلك الفقر أيضاً»[١].

وقد شجب الإسلام هذا النِّظام ووقف منه موقفاً حدّيّاً، فحين تولّى أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة بعد قتل عثمان قام بمصادرة الأموال الّتي مُلّكت ظلماً، وقال بصريح العبارة: «**وَالله لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ لَرَدَدْتُهُ؛ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ**»[٢].

وعن العبد الصّالح عليه السلام قال: «**إِنَّ الأَرْضَ لله جَعَلَهَا وَقْفاً عَلَى عِبَادِهِ، فَمَنْ عَطَّلَ أَرْضاً ثَلاثَ سِنِينَ مُتَوَالِيَةً؛ لِغَيْرِ مَا عِلَّةٍ أُخْرِجَتْ مِنْ يَدِهِ، وَدُفِعَتْ إِلَى غَيْرِهِ**»[٣].

٥- **فساد الحكام وجشعهم**: وهذا السّبب أمّ البلاء، ورأس الفساد، وهو الّذي تخوّف منه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**وَلَكِنَّنِي آسَى أَنْ يَلِيَ هَذِهِ الأُمَّةَ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُونَ مَالَ الله دُوَلاً، وَعِبَادَهُ خَوَلاً، وَالصَّالِحِينَ حَرْباً، وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً**»[٤].

وإذا رجعنا إلى أكثر حالات الفساد والبؤس الاجتماعيّ فإنَّ سببه جور الحكام، فمن أجل تثبيت عروشهم، وملء كروشهم تراهم يغدقون الأموال على الأقوياء والظّالمين والسّائرين على نهجهم بينما يعتصرون جهد العمّال والفلاحين، وسائر الطّبقات الضّعيفة من خلال فرض الضّرائب الجائرة، وقد ابتليت الأمّة

---

(١) الحياة: ٣٤٢/٤.

(٢) نهج البلاغة: ٦٥، خطبة: ١٥.

(٣) الكافي: ٤٩٤/١٠، ح/٩٣٣٦.

(٤) نهج البلاغة: ٤٧٢، كتاب: ٦٢.

الإسلاميّة في عطاء الطّواغيت لأتباعهم ممّا أثرى طبقة وأفقر أخرى، وعرقل مسيرة التّحرّك الإسلاميّ، وسبب مآسي عظيمة لا تزال الأمّة إلى اليوم ترزح تحت نيرها.

سُنَنُ الطُّغاةِ في الْحُكْمِ:

يمكننا حصر سنن الطّغاة بالنقاط الآتية:

أوّلاً: اغتصاب حقوق الفقراء وشراء ضمائر المجرمين بها.

ثانياً: تسليط السّفهاء على أموال المسلمين ممّن يتزلّف إليهم، ويسلك سلوكهم.

ثالثاً: التّرف والبذخ غير المشروع، وأكل الأموال بغير الحقّ.

رابعاً: عدم تنظيم موارد الأمّة وفق القواعد الاقتصاديّة المرعيّة، وعدم التّوزيع العادل لثروة الأمّة.

خامساً: تغافل حالة الفقراء والمساكين، وعدم أخذ الحقوق الشّرعيّة لهم من الأغنياء.

عِلاجُ حالَةِ الْفَقْرِ:

بعد أن عرضنا مفهوم الفقر وأسبابه الفرديّة والاجتماعيّة لا بدَّ أن نعرض علاجات الفقر...

وهذه المسألة مسألة كبيرة لا يمكن أن يضطلع بحملها فرد أو مجموعة، وإنَّما تحتاج إلى جهد كبير يبذل من الفرد، والمجتمع والدولة.

ولا يمكن علاج الفقر منفصلاً عن جميع المفاهيم الإسلاميّة؛ فالوضع الاجتماعيّ العامّ، والنّظام السّياسيّ الحاكم، والوعي السّياسيّ للأمّة كلّ ذلك له

دخل كبير في هذه المسألة... فمن دون نشر الوعي السّياسيّ الإسلاميّ العامّ في المجتمع الإسلاميّ، إذ يفهم الفرد حقوقه واجباته، والمجتمع يعرف ما له وما عليه من منظور إسلاميّ عميق لا يمكن معالجة الفقر.

هذا من جانب، ومن جانب آخر لا بدّ من إصلاح الوضع السّياسيّ للدّولة، فإذا وعى الفرد والمجتمع النّظريّة الإسلاميّة حول الكون والحياة، وفهم النّظم الإسلاميّة استطاع أن يحدّد موقفه؛ ليأخذ حقّه، ويؤدّي واجباته، وعندما يفهم الفرد أنَّ العمل شرفٌ وجهاد وعزّة، فحينئذٍ يشعر أنَّ لعمله قدسيّة عند نفسه، وعند المجتمع، وإذا عرف أحكام العمل في جميع جوانبه سواء كانت زراعة، أو تجارة، أو صناعة، أو خدمة اجتماعيّة تحرّك ضمن الحدود الإسلاميّة للعمل...

وإذا أُصلح الوضع السّياسيّ للدّولة، وما يتعلّق بها من دوائر، ومسؤوليّات، أخذ كلّ فرد موقعه من المجتمع، وأدّى المسؤولية الملقاة على عاتقه...

وإذا طبّق الفرد الآداب الإسلاميّة في الإنفاق، وأدّى واجباته على الوجه الإسلاميّ الصّحيح، استقامت مسيرة الحياة بالنّسبة له، وامتدّت إلى الآخرين.

فالمسألة في علاج الفقر إذن يجب أن يُنظر إليها ضمن الإطار العام في التّفكير الإسلاميّ، وإلا من دون نشر الوعي الإسلاميّ في المجتمع، ومن دون إصلاح النّظام السّياسيّ لا يمكن أن يعالج الفقر في المجتمع، وما تصدر من صيحات هنا وهناك منفصلة عن بعضها، أو معالجة لجانب واحد مع إهمال الجوانب الأخرى لا يمكن أن يحدث التّوازن والتّكافل والتّضامن الاجتماعيّ أبداً، وإلا ما الفائدة في الحثّ على العمل مع فساد الجوانب الأخرى، أو فتح مؤسّسات فرديّة أو عامّة محدودة مع وجود ما يؤثّر عليها، أو يجهضها في مهدها، ولا نقول بعدم جدواها وفائدتها، فهي علاجات وقتيّة محدودة، وكلامنا في العلاج العامّ.

وَلا يَزالونَ مُخْتَلِفينَ

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1].

قبل أن ندخل في صلب البحث لا بدَّ أن نقف على معنى مفردتين من مفردات الآية الكريمة وهما: (**الأمّة**) و(**الاختلاف**).

أمّا لفظ الأمّة، فقد ورد في القرآن الكريم في معانٍ عدّة منها:

١- النّوع: كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[2].

٢- الصّنف الواحد: كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا

---

(١) هود: ١١٨-١١٩.

(٢) الأنعام: ٣٨.

(٣) البقرة: ٢١٣.

﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(١).

فمعنى ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني صنفاً واحداً، وطريقة واحدة هي طريقة الفطرة البشريّة كما خلقها الله تعالى، عن أبي جعفر عليه السلام أنَّه قال: «**كانوا قَبْلَ نوحٍ أُمَّةً واحدَةً عَلى فِطْرَةِ الله، لا مُهْتَدين، ولا ضُلالاً، فَبَعَثَ اللهُ النَّبيّين**»(٢).

٣- الّدين والإيمان: كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾(٣).

٤- الجماعة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٤).

٥- الحين والزّمان: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾(٥).

إذا تأمّلنا المعاني المتقدّمة، وتأمّلنا كلمة (أمة) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا نجد معنى من المعاني المتقدّمة ينطبق عليها إلا «الدّين والإيمان»، فالمعنى يكون: لو شاء الله أن يجعل النّاس على دين واحد، فإنّه قادر على ذلك، ولكنّ هذا الجعل مخالف لسنّة الله تعالى في التَّكليف الَّذي سنَّه

---

(١) يونس: ١٩.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، التّبيان في تفسير القرآن: ١٩٥/٢.

(٣) الزّخرف: ٢٢.

(٤) آل عمران: ١٠٤.

(٥) يوسف: ٤٥.

وفرضه على عباده، فإنَّه تعالى خلق الإنسان، وأمره بطاعته، ونهاه عن معصيته بعد أن شرَّع له الشّرائع، وبيّن له سبيل النَّجاة، وطرق الهلاك، وترك له الاختيار، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(١).

فالأمّة إذن في الآية الكريمة هي الجماعة الَّتي تجتمع على عقيدة واحدة، ودين واحد، وذات هدف واحد.

وأمّا معنى الاختلاف: فهو التّباين في العقيدة، والسّلوك، والأهداف، قال الشّيخ الطّوسيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «الاختلاف: هو اعتقاد كلّ واحد نقيض ما يعتقده الآخر، وهو ما لا يمكن أن يجتمعا في الصّحّة، وإن أمكن أن يجتمعا في الفساد، ألا ترى أنَّ اليهوديّة والنّصرانيّة لا يجوز أن يكونا صحيحين مع اتّفاقهما في الفساد»(٢).

وقال الرّاغب الأصفهانيّ في مفرداته: «والاختلاف والمخالفة أن يأخذ كلّ واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله، أو قوله، والخلاف أعمُّ من الضّدّ؛ لأنّ كلّ ضدّين مختلفان، وليس كلّ مختلفين ضدّين، ولمّا كان الاختلاف بين النّاس قد يقتضي التَّنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة قال [تعالى]: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾(٣)، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(٤)، ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾(٥)،

---

(١) الإنسان: ٣.

(٢) التّبيان في تفسير القرآن: ٦/٨٤.

(٣) مريم: ٣٧، الزّخرف: ٦٥.

(٤) هود: ١١٨.

(٥) الرّوم: ٢٢.

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[1] ...»[2].

إنَّ الاختلافَ حقيقةٌ قائمةٌ في المجتمع البشريّ، وهو مستمرّ، ولا يمكن أن يتوقّف في يوم ما مادامت الأهواء مختلفة، والعقول متفاوتة، والنّزعات متعدّدة، والمصالح متضاربة، وسبل الخير موجودة، ووسائل الشّرّ متوفّرة... والله تعالى قد ميَّز الإنسان عن الكائنات الأخرى بالاختيار، فهو يتحمّل تبعة اختياره.

فالاختلاف إذن سنّة قائمة لا يمكن تجاهلها، أو نكرانها، أو إمحاؤها إلا إذا اتَّفقت الأمّة على عقيدة حقّة واحدة، وهدف واحد.

ثمّ إنَّ الاختلاف في النّاحية التّكوينيّة ضرورة لا يمكن أن تستقيم الحياة من دونه أبداً، ولو تساوى النّاس من حيث الاستعداد البدنيّ، والعقليّ، والمستوى الفكريّ لَتَوقَّفت عجلة الحياة، قال العلامة الطّباطبائيّ ﷺ:

«غير أن نوعاً منه [الاختلاف] لا مناصّ منه في العالم الإنسانيّ، وهو الاختلاف من حيث الطّبائع المنتهية إلى اختلاف البنى، فإنَّ التَّركيبات البدنيّة مختلفة في الأفراد، وهو يؤدّي إلى اختلاف الاستعدادات البدنيّة والرّوحيّة، وبانضمام اختلاف الأجواء والظّروف إلى ذلك يظهر اختلاف السّلائق والسُّنن والآداب والمقاصد والأعمال النّوعيّة والشّخصيّة في المجتمعات الإنسانيّة، وقد أوضحت الأبحاث الاجتماعيّة أن لولا ذلك لم يعش المجتمع الإنسانيّ، ولا طرفة عين، وقد ذكره الله في كتابه ونسبه إلى نفسه حيث قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ

---

(١) النّبأ: ١-٣.

(٢) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٢١٩، (خلف).

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾(١)»(٢).

فالاختلاف التّكوينيّ إذن سواء كان في النّاحية البدنيّة، أو النّفسيّة أمرٌ لا تستقيم الحياة من دونه، وذلك من خلال المتطلّبات المتشعّبة في الحياة الإنسانيّة، فلا يمكن للفرد الإنسانيّ أن يكتفي ذاتيّاً، وإنّما هو بحاجة إلى النّاس، ولا يمكن أن يعيش وحده حياة متكاملة، فالعالم، والمفكّر، يحتاج في حياته الماديّة إلى الحداد والنّجار والخبّاز، وهكذا الحدّاد يحتاج إلى من يحفر الأرض، ويستخرج المعدن وهلمّ جرّا؛ ولذا ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنَّهُ لا بُدَّ لَكُمْ منَ النّاس، إنَّ أَحَداً لا يَسْتَغْني عَن النّاس حَياتَهُ، وَالنّاسُ لا بُدَّ لَبعْضهمْ منْ بَعْض**»(٣).

وقال عليه السلام: «**مَنْ كَفَّ يَدَهُ عَنِ النّاسِ، فَإِنَّما يَكُفُّ عَنْهُمْ يَداً واحدَةً، وَيَكُفّونَ عَنْهُ أَيادي كَثيرَةً**»(٤).

«إنَّ من طبيعة النّاس أن يختلفوا؛ لأنَّ هذا الاختلاف أصلٌ من أصول خلقتهم، يحقّق حكمةً عُليا من استخلاف هذا الكائن في الأرض.. إنَّ هذه الخلافة تحتاج إلى وظائف متنوّعة، واستعدادات شتّى من ألوان متعدّدة؛ كي تتكامل جميعها، وتتناسق، وتؤدّي دورها الكلّيّ في الخلافة والعمارة وفق التَّصميم الكلّيّ المقدّر في علم الله، فلا بدَّ إذن من تنوّع في المواهب يقابل تنوّع تلك الوظائف، ولا بدّ من اختلاف في الاستعدادات يقابل ذلك الاختلافات في الحاجات.. **﴿وَلَا**

---

(١) الزّخرف: ٣٢.

(٢) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٦٠/١١.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٦٧٩/٤، ح/٣٥٨٩.

(٤) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ١٧/١.

يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[(١)]»[(٢)].

واليوم بعد أن توسَّعت مطالب الحياة الاقتصاديّة، والسّياسيّة، والعلميّة والاجتماعيّة، أصبح من الصَّعب لدولة من الدّول - فضلاً عن الأفراد - أن تستغني عن الدّول الأخرى، وإذا انقطعت العلاقة بينها وبين الدّول الأخرى، فسوف تمرّ بأزمات شديدة، وتلاقي شظف العيش بأشكاله كلّه.

إنَّ الإختلاف المذموم الَّذي أشارت إليه الآية الكريمة هو الاختلاف في الدّين والإيمان، والنّاس كلّهم معرضون لذلك إلا الأمّة المرحومة الَّتي اتَّبعت أهل الحقّ ودعاته الَّذين «**لا يُخالفونَ الدّينَ، وَلا يَخْتَلفونَ فيه، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شاهدٌ صادَقٌ، وَصامتٌ ناطقٌ**»[(٣)].

وفي رواية أخرى: «**لا يُخالفونَ الْحَقَّ وَلا يَخْتَلفونَ فيه**»[(٤)].

وقد وقع اختلاف واسع بين المفسرين في تفسير الاختلاف الَّذي أشارت إليه الآية الكريمة، فقيل: هو الاختلاف في الدّين، وهو ما عليه أكثر المفسرين، وقيل: هو الاختلاف في الأرزاق والأحوال، وقيل: يخلف بعضهم بعضاً في الكفر تقليداً من غير نظر، والصّحيح هو الاختلاف في الأديان، كما قدَّمنا في البحث اللّغويّ، فهذا مسلم، وذاك نصرانيّ... وهلمّ جرّا، فهذا الاختلاف يخرج النّاس عن كونهم أمّة؛ لأنَّ الأمّة لا تجتمع، ولا يتكامل بنيانها إلا على أساس التَّوحيد الإلهيّ وفق قواعد الفطرة، والعقل السَّليم، والمنطق المستقيم.

---

(١) هود: ١١٨-١١٩.

(٢) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٣١٢/١.

(٣) نهج البلاغة: ٢٣٦، خطبة: ١٤٧.

(٤) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٢٢٧-٢٢٨.

ثمّ لا بدّ من أن نشير إلى أنَّ الاختلاف في وسائل نشر العقيدة لخدمتها، لا يشمل الاختلاف في الدّين إذا كانت تلك الوسائل مطابقة لروح الشّريعة الإسلاميّة، فلا ضير أن يختلف المسلمون في وسائل خدمة الإسلام، ورفع راية الحقّ إذا كانت الوسائل جميعاً تصبُّ في مصبّ واحد، وتهدف إلى غاية واحدة، فالوسيلة من اختيار الإنسان بنفسه، ولا يحقّ له أن يفرض أسلوبه ووسيلته على الآخرين، ويعدُّ أنَّ منهجه هو الحقّ، وغيره باطل، فباب الاجتهاد مفتوح في الإسلام، وفنون العمل كثيرة، فالإسلام يحتاج الكاتب الواعي، والخطيب المخلص، والدّاعية الرّشيد، والفقيه البصير، والأستاذ القدير، والمدير الكفوء لتنظيم الأمور، ووضع الأشياء والأشخاص في مواضعها المناسبة.

وقد اشتبه بعض المفرطين حينما حاربوا غيرهم من العاملين الإسلاميّين؛ لأنَّهم يختلفون معهم في أساليب العمل، وكأنَّهم ينظرون إلى أنَّ انتصار الإسلام لا يمكن أن يمرّ إلا من خلال دوائرهم الخاصّة، ونسوا أو تناسوا أنَّ اختلاف الطّرق لا يضرّ في أصل المقصد، وأنَّ التّعدّد في أساليب العمل إذا كانت مشروعة ومعقولة، وذات هدف شرعيّ، أمرٌ يقرّه الإسلام ويحبّذه.

أَسْبابُ الاخْتِلافِ:

عندما نستقرئ الأحداث التّأريخيّة، وندرس أسباب الاختلاف الَّذي وقع بين أتباع الأديان المختلفة، ولا سيّما بين معتنقي الإسلام، نجدها ترجع إلى أسباب عدّة:

١- **اختلاف الأفهام للنّصوص الدّينيّة**: وهذا العامل أدَّى إلى اختلاف المباني الفقهيّة، وبالتّالي إلى اختلاف النَّتائج المستنبطة من نصوص الشَّريعة

المقدّسة، وهذا لا ضير فيه ما دام مسموحاً فيه من قبل الشّريعة، فقد خلق الله النّاس، وجعل عقولهم وإدراكاتهم مختلفة، إذن «أسباب الخلاف قائمة في طبيعة البشر، وطبيعة الحياة، وطبيعة اللُّغة، وطبيعة التّكليف، فمن أراد أن يزيل الخلاف بالكلّيّة، فإنّما يكلّف النّاس والحياة واللّغة والشّرائع ضدّ طبائعها»(١).

ولذلك سمح الإسلام بالاجتهاد؛ لاستنباط الأحكام الشّرعيّة من النّصوص الواردة في الكتاب والسّنّة، بل جعله من الواجبات الكفائيّة... ولكنّ هذا لا يعني أنّني إذا توصَّلْتُ إلى حقيقة معيّنة يجب أن أبطل ما توصّل إليه الآخرون من خلال اجتهاداتهم، نعم، يحقُّ لي المناقشة والبحث والرَّدّ، ولكن ليس لي أن أفرض ما توصّلت إليه على الآخرين، فهو حجة عليَّ لا عليهم؛ اللّهمّ إلا إذا أدركنا أنَّ هذا الاجتهاد خارج عن أصول الاستنباط الصَّحيحة، ومخالف صراحة لقواعد الشَّريعة، وغير مستند على دليل علميّ، حينئذ يجب الرَّدُ عليه بقوّة وإبطاله، وتفنيده؛ لأنَّ فيه خطراً على الإسلام، وقد يؤديّ بهم إلى الانحراف عن جادّة الحقّ، وهذا ما سلكه أئمّة الحقّ، إذ دحضوا مدّعيات أدعياء العلم والدّين، ومزاعمهم، وأبطلوا حججهم، وحذّروا منهم، ولعنوهم، وتبرّؤوا منهم؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله: إذا رَأَيْتُمْ أَهْلَ الرِّيَبِ وَالْبِدَعِ مِنْ بَعْدِي، فَأَظْهِروا الْبَراءَةَ مِنْهُمْ، وَأَكْثِروا مِنْ سَبِّهِمْ، وَالْقَوْلَ فيهِمْ وَالْوَقيعَةَ، وَباهِتوهُمْ**(٢)**؛ كَيْلا يَطْمَعوا في الْفَسادِ فِي الإِسْلامِ، وَيَحْذَرَهُمُ النّاسُ، وَلا**

(١) يوسف القرضاويّ، الصّحوة الإسلاميّة: ١٦١.

(٢) الوقيعة في النّاس: الغيبة؛ والظّاهر أنَّ المراد بالمباهتة إلزامهم بالحجج البالغة، وجعلهم متحيّرين لا يحيرون جواباً كما بهت الّذي كفر في محاجّة إبراهيم عليه السلام، ويحتمل أن يكون من البهتان للمصلحة، فإنَّ كثيراً من المساوئ يعدّها أكثر النّاس محاسن خصوصاً العقائد الباطلة؛ ينظر: هامش المصدر.

يَتَعلَّموا منْ بدَعهمْ، يَكْتُبِ الله لَكُمْ بِذلكَ الْحَسَناتِ، ويَرْفَعْ لَكُمْ بِه الدَّرَجاتِ في الآخرَة»(١).

٢- الأهواء الشّخصيّة: لعلّ أهمّ أسباب الاختلاف، وأصلها هو اتّباع الهوى سواء كانت أهواء ماديّة، أو أهواء معنويّة، ولا نشكّ أنّ أكثر الاختلافات الّتي وقعت بين أبناء الأمّة الإسلاميّة كانت بسبب اتّباع الأهواء والنّزعات السّلطويّة، فقد قرأنا وسمعنا، بل رأينا اليوم أنّ الّذين تمرّدوا على أهل الحقّ، وحاربوهم لم يكن لديهم سبب معقول سوى اتّباع الأهواء، ومعلوم أنّ اتّباع الهوى يصدُّ عن الحق، ويخرج عن جادّة الصّواب:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾(٢).

﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٣).

٣- ضيق الأفق الاجتماعيّ والسّياسيّ: من الأسباب المهمّة للاختلاف أنّ كثيراً من النّاس ينظر إلى الواقع القريب، ولا يفكّر بما هو أبعد من ذلك، فيرى أنّ ما هو عليه هو الحقّ، وتجب المحافظة عليه، وإنّ كلّ ما خالفه باطل عند من كان وأينما كان، ولا شكّ أنّ مثل هذه الحالة تؤدّي إلى الاختلاف والنّزاع مع الآخرين، أمّا من يتمتّع بأفق رساليّ واسع، ورؤية واضحة لمستقبل الرّسالة، فسيكون أكثر مرونة، وأبعد نظراً، وهذا النّوع من الدّعاة يفتّش دائماً عن نقاط الالتقاء والوفاق مع الآخرين؛ ليحاول أن يضعهم على جادّة الصّواب، أمّا ضيّق

---

(١) الكافي: ٤/١٢٣، ح/٢٨٢٨.

(٢) محمّد: ١٦.

(٣) القصص: ٥٠.

الأفق، فينظر إلى ما هو عليه، لا إلى ما تقتضيه مصلحة الرّسالة؛ ولذا يتخوّف من أيّ فكرة تجديديّة، أو أسلوب حديث لمواجهة التّيّارات المنحرفة.

٤- **خبث بعض النّفوس**: إنَّ النَّفس إذا كانت ملوّثة بالأدران، وبذمائم الأخلاق، وبالعادات السّيّئة؛ فإنَّها لا تقبل الحقّ، بل تصدُّ عنه؛ لأنَّها تتمحور على ذاتها، وتدور في فلكها، وتجعل المصلحة الذّاتيّة فوق كلّ الاعتبارات، ولا تقبل إلا ما يتوافق مع رغباتها، ومن هنا تتصادم مع حَمَلَة الحقّ، وقد أوضح أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة في أروع عبارة وأخصرها، قال عليه السلام: «**وَإِنَّما أَنْتُمْ إِخْوانٌ عَلى دينِ الله، ما فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إلا خُبْثُ السَّرائِر وَسوءُ الضَّمائِر...**»[1].

قال ابن أبي الحديد في شرح هذه العبارة: «ثمَّ ذكر أنَّ النّاس كلّهم مخلوقون على فطرة واحدة، وهي دين الله وتوحيده؛ وإنّما اختلفوا، وتفرّقوا باعتبار أمر خارجيّ عن ذلك؛ وهو خبث سرائرهم، وسوء ضمائرهم، فصاروا إلى حال لا يتوازرون أي لا يتعاونون»[2].

كَيْفَ عالَجَ الإِسْلامُ الاخْتِلافاتِ بَيْنَ النّاسِ؟

لمّا كان الاختلاف أمراً واقعاً ومستمرّاً في العقائد، والمذاهب، والأديان، والأحكام، وفي المناهج والطّرق، وفي الغايات والأهداف... الخ، فقد وضع الإسلام مبادئ احترازيّة، وجعلها قواعد أساسيّة في التّعامل البشريّ؛ لتقف حاجزاً بوجه توسيع هوّة الخلاف؛ ولتقريب القلوب قبل العقول، وليكون الاختلاف عامل بناء وإبداع، أو تنافس شريف على الأقل؛ لغرض الوصول إلى الأهداف المتوخّاة

(١) نهج البلاغة: ١٩٧، خطبة: ١١٢.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٤٨/٧.

بأسلم الطّرق، ومن هذه القواعد:

١- أكّد الإسلام على الأخوّة الإنسانيّة والإيمانيّة، وعدَّها أساس العلاقات الاجتماعيّة الَّتي يتحرّك المؤمن من خلالها مع أبناء دينه، وأبناء جنسه، يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[(١)].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لمالك الأشتر: «**وَلا تَكونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضارياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ صِنْفانِ: إِمّا أَخٌ لَكَ في الدّينِ، أَوْ نَظيرٌ لَكَ في الْخَلْقِ**»[(٢)].

٢- الحثّ المتواصل على الاعتصام بدين الله تعالى في جميع أعمال الإنسان المؤمن، والاعتصام هو التّمسّك والالتزام عن وعي لنيل رضا الله، والسّير ضمن منهجه اللاحب، وجعله هو الغاية والمبدأ خالصاً من أيّ ضميمة اخرى، يقول تعالى:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[(٣)].

﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[(٤)].

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) نهج البلاغة: ٤٥٠، كتاب: ٥٣.

(٣) آل عمران: ١٠٣.

(٤) الحجّ: ٧٨.

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[(١)].

٣- ونهى الإسلام عن التّنازع بين المؤمنين؛ لأنَّه يؤدّي إلى إضعاف شوكتهم وإسقاط دولتهم، قال تعالى: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾[(٢)].

وإذا وقع التّنازع بينهم، فلا يجوز حلّ النّزاع بغير الرّجوع إلى أحكام الله تعالى، وجَعْلها هي الحاكمة والحاسمة للخلاف، يقول تعالى: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** ﴾[(٣)].

﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[(٤)].

٤- نهى الإسلام بشدّة عن المراء والجدال؛ لأنَّه يؤدّي إلى الاختلافات الحادّة، والمراء هو الجدال بغير الحقّ، وبغير العلم «والاعتراض على كلام الغير من غير غرض دينيّ»، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إيّاكُمْ وَالْمراءَ وَالْخُصومَةَ؛ فَإِنَّهُما يُمْرِضانِ الْقُلوبَ عَلى الإخْوانِ، ويَنْبُتُ عَلَيْهِما النِّفاقُ**»[(٥)].

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**لا تُمارِيَنَّ حَليماً ولا سَفيهاً؛ فَإِنَّ الْحَليمَ يَقْليكَ، والسَّفيهَ يُؤْذيكَ**»[(٦)].

---

(١) آل عمران: ١٠١.

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) النّساء: ٥٩.

(٤) النّساء: ٦٥.

(٥) الكافي: ٧٣٤/٣، ح/٢٥١٩.

(٦) المصدر نفسه: ٧٣٥/٣، ح/٢٥٢٢.

٥- أكّد الإسلام على الوحدة النّسبيّة لجميع بني آدم، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾[1].

وفي الشُّعور بالوحدة النّسبيّة ما لا يخفى من حماية الإنسان من الشُّعور بالكبرياء والعلوّ على بني جنسه؛ ولهذا قال ﷺ: «**أيُّها النّاسُ، إنَّ ربَّكُمْ واحدٌ، وَإنَّ أَباكُمْ واحدٌ، كُلُّكُمْ لآدَمَ، وآدَمُ منْ تُراب، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾، ولَيْسَ لعربيٍّ على عجْميٍّ فضْلٌ إلا بالتَّقْوى، أَلا هلْ بلَّغْتُ؟**» قالوا: «نعم»، قال: «**فلْيبلِّغ الشّاهدُ الْغائبَ**»[2].

٦- جعل الإسلام التّقوى هي ميزان التّفاضل بين النّاس، يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[3].

٧- جعل الإسلام حسن الظّنّ هو الأصل في التّعامل بين الناس، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**منْ ظنَّ بكَ خيْراً فصدِّقْ ظنَّهُ**»[4].

وعَنْ مُحَمَّد بْن الْفُضَيْل، عَنْ أَبي الْحَسَن الأوَّل عليه السلام قال: «قُلْتُ لَهُ: جعلْتُ فداكَ، الرَّجُلُ منْ إخْواني يَبْلُغُني عَنْه الشَّيْءُ الَّذي أَكْرَهُهُ، فَأَسْأَلُهُ عَنْ ذلكَ، فيُنْكرُ ذلكَ، وَقَدْ أَخْبَرَني عَنْه قَوْمٌ ثقاتٌ، فَقالَ لي: **يا مُحَمَّدُ، كَذِّبْ سَمْعَكَ وبصرَكَ عَنْ أَخيكَ، فَإنْ شَهدَ عنْدَكَ خَمْسونَ قَسّامَةً**[5]**، وَقالَ لَكَ قَوْلاً فَصدِّقْهُ**

(١) النّساء: ١.

(٢) تحف العقول: ٣٤.

(٣) الحجرات: ١٣.

(٤) نهج البلاغة: ٥٢٥، قصار الحكم: ٢٣٩.

(٥) قال المحدّث المجلسيّ: «أي خمسون رجلاً يشهدون، ويقسمون عليه، ولعلَّ هذا مختصٌ بما إذا كان فيما يتعلّق بنفسه من غيبته أو الإزراء به، ونحو ذلك، فإذا أنكرها واعتذر إليه يلزمه أن يقبل عذره، ولا يؤاخذه بما بلغه عنه، ويحتمل التَّعميم أيضاً، فإنَّ الثُّبوت عند الحاكم بعدلين أو أربعة وإجراء الحدّ عليه لا ينافي أن يكون غير الحاكم مكلّفاً باستتار ما ثبت عنده من أخيه، من الفسوق الّتي كان مستتراً بها» مرآة العقول: ٣٥٦/٢٥-٣٥٧.

وَكَذِّبهم، لا تُذيعنَّ[١] عَلَيْه شَيْئاً تَشينُه[٢] به، وتَهْدم به مُروءَته، فَتَكونَ من الَّذين قَالَ الله في كتابه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣]»[٤].

٨- الحمل على الصّحّة أساس من الأسس الّتي تقوم عليها العلاقات الاجتماعيّة في الإسلام، ولو اختلَّ هذا الاساس في العلاقات بصورة عامّة لتعسَّرت الحياة، وتعقّدت الأمور؛ لأن في اختلاله فقداناً للثّقة بين النّاس، وإذا فقدت الثّقة استحال العيش الرّغيد، وساد الشَّكُّ وسوء الظَّنّ، وفي هذه الحالة من العذاب النّفسي ما لا يعلمه إلا الله، ولهذا قال أمير المؤمنين: «ضَعْ أَمْرَ أَخيكَ عَلى أَحْسَنه حَتّى يَأْتيَكَ ما يَغْلبُكَ منْهُ، وَلا تَظُنَّنَّ بكَلمَة خَرَجَتْ منْ أَخيكَ سوءاً، وَأَنْتَ تَجدُ لَهَا في الْخَيْر مَحْمَلاً»[٥].

قال المحقّق النّراقيّ في عوائده: «الثّابت في أكثر تلك الموارد: هو الصّحّة عند الكلّ، والموافق للواقع، ونفس الأمر، كما أنّه ثبت بناء عمل المسلم في التَّذكية على الصّحّة، والثّابت من أدلّته ثبوت التَّذكية في حقّ كلّ أحد، ولذا لا يلزم عليه الفحص عن كيفيّة التَّذكية أنَّها هل هي موافقة لرأي مجتهد المذكّي خاصّة أو لا؟ وهل أخطأ فيه أم لا؟ ولو كان اللازم الحمل على الصّحّة في حقّ الفاعل خاصّة، لم يفد بالنسبة لسائر النّاس شيئاً، وكذا في تطهير كلّ أحد ثوبه

(١) الإذاعة: الإفشاء.

(٢) الشّين: العيب.

(٣) النّور: ١٩.

(٤) الكافي: ٣٥٥/١٥، ح/١٤٩٤٠.

(٥) الكافي: ٩٤/٤، ح/٢٧٧٩.

وبدنه، فيجوز لغيره ملاقاته، وإن احتمل أن يكون تطهيره بنحو لا يعلمه مطهّراً، وهكذا»[١].

هذه الأمور كلّها وغيرها ضوابط أساسيّة تحمي وحدة الأمّة من خطر الخلاف والاختلاف، ولو تمسَّك المسلمون بها عن إيمان ووعي لما وقع بين الأمّة من خلافات جعلها طعمة للنّاهبين، وعرضة لهجمات الكافرين.

وأخيراً اختلف المفسَّرون في قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، فقال بعضهم: إنَّ اللام تعود على الاختلاف، وقال آخرون: إنَّه يعود على الرَّحمة، وهو الصَّحيح، وعليه أكثر المفسّرين، وقد وردت روايات عن أهل بيت العصمة عليهم السلام في تفسير الآية الكريمة، فعن أبي بصير، عن أبي عبد الله جعفر الصّادق عليه السلام، قال: «سأَلْتُهُ عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: **خَلَقَهُمْ لِيَفْعَلوا ما يَسْتَوْجِبوا به رَحْمَتَهُ فيَرْحَمَهُمْ**»[٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ **في الدّينِ** ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ **يَعْني آلَ مُحَمَّد وأَتْباعَهُمْ، يَقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ **يَعْني أَهْلَ رَحْمَةٍ لا يَخْتَلِفونَ في الدّينِ**»[٣].

---

(١) المولى أحمد النّراقيّ، كتاب عوائد الأيام: ٢٣٨/١.

(٢) الشّيخ الصّدوق، التّوحيد: ٤٠٣.

(٣) تفسير القمّيّ: ٤٨٤/٢.

الْمُقَوِّماتُ النَّفْسِيَّةُ

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1].

النَّفس الإنسانيّة عالم قائم بذاته، وبحر طافح بالأسرار، وكون مملوء بالقوى المتناقضة، فهي بذاتها من أعجب الأسرار الكونيّة؛ ولذا قابلها الله تعالى بالآفاق الكونيّة بسعتها، فهي أذن من أروع آيات الله تعالى الدّالّة على وجود الله، وكماله، وعظمته، وعدله.

قال الإمام الصّادق عليه السلام للمفضّل: «**تَأَمَّلْ يا مُفَضَّلُ هذه الْقُوى الّتي في النَّفْس وَمَوْقعَها منَ الإنْسان، أَعْني الْفكْرَ، وَالْوَهْمَ، وَالْعَقْلَ، وَالْحفْظَ، وَغَيْر ذلكَ، أَفَرَأَيْتَ لَوْ نُقصَ الإنْسانُ منْ هذه الْخلال[2] الْحفْظَ وَحْدَهُ كَيْفَ كانَتْ تَكونُ حالُهُ؟ وَكَمْ منْ خَلَلٍ كانَ يَدْخُلُ عَلَيْه في أُموره، وَمَعاشه، وَتَجاربه إذا لَمْ يَحْفَظْ ما لَهُ، وما عَلَيْه، وَما أَخَذَهُ، وما أَعْطى، وَما رَأى وما سَمعَ، وما قالَ، وَما قيلَ لَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَنْ أَحْسَنَ إلَيْه ممَّنْ أَساءَ به، وَما نَفَعَهُ ممّا ضَرَّهُ،**

---

(١) فصّلت: ٥٣.

(٢) يقول علم النّفس الحديث: إنَّ النّسيان عملٌ من أعمال الذّهن كالتّذكّر تماماً، وليس في مقدورنا أن نتذكّر شيئاً إلا إذا نسينا أشياء حتّى ليمكن القول بأنَّ الذّاكرة هي أداة النّسيان، ونحن نفكّر بفضل ما نسينا، كما نفكر بفضل ما تذكّرنا.

ثُمَّ كانَ لا يَهْتَدي لطَريق لَوْ سَلَكَهُ ما لا يُحْصى، وَلا يَحْفَظُ علْماً ولَوْ دَرَسَهُ عُمْرَه، وَلا يَعْتَقدُ ديناً، وَلا يَنْتَفعُ بتَجْرِبَة، وَلا يَسْتَطيعُ أَنْ يَعْتَبرَ شَيْئاً عَلى ما مَضى، بَلْ كانَ حَقيقاً أَنْ يَنْسَلخَ منَ الإِنْسانيَّة أَصْلاً»[1].

وفي النَّفس الإنسانيّة قوى مختلفة متباينة منها ملكوتيّة إلهيّة، ومنها ملكيّة طبيعيّة خدّاعة، ومنها حيوانيّة شهويّة، وهذه القوى المجتمعة في هذا الكيان الإنسانيّ، تصطرع فيما بينها، فإذا انتصرت القوى الملكيّة على الملكوتيّة زاد خطرها على خطر الشَّيطان، وإن انتصرت القوى البهيميّة انحطّ درجة عن الحيوان، وإن انتصرت القوى العقليّة سَما درجة على الملائكة، فهناك فرق جوهريٌّ بين تكوين الإنسان، وبين تكوين الحيوانات والملائكة، فالحيوانات والملائكة كلّ منهما يتحرّك ضمن بُعْد واحد وعامل واحد، وأمّا الإنسان فقد أودع الله فيه البعدين معاً، البعد المادّيّ والبعد المعنويّ الرّوحيّ، قال عبد الله بن سنان: «سألتُ أبا عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام، فقلْتُ: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: **قالَ أَميرُ الْمُؤْمنينَ عَليُّ بْنُ أَبي طالب عليه السلام: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ رَكَّبَ في الْمَلائكَة عَقْلاً بلا شَهْوَة، وركَّبَ في الْبَهائم شَهْوَةً بلا عَقْل، وَرَكَّبَ في بَني آدَمَ كلَيْهما، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهوَ خَيْرٌ منَ الْمَلائكَة، وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ فَهوَ شَرٌّ منَ الْبَهائم»**[2].

وقد قسَّم القرآن الكريم هذه القوى على قسمين رئيسين هما: قوى التَّقوى، وقوى الفجور، ولكلّ من القوّتين مثيرات وعوامل مؤثّرة في كيان الإنسان لها الأثر الكبير في انتصار إحدى القوّتين على الأخرى، ومن هنا كانت النَّفس الإنسانيّة هي

(١) كتاب فكّر (توحيد المفضّل): ١٠٤-١٠٥.

(٢) الشّيخ الصّدوق، علل الشّرائع: ٥١/١.

المنطلق الرّئيس في التّغيير الفرديّ والاجتماعيّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾(١).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾(٢).

وعمليّة التّغيير هذه تبدأ في الفرد، وتمتدُّ منه إلى المجتمع؛ لتكون قوّة تَغْييرٍ في الجامعة البشريّة، وممّا يؤكّد هذه الحقيقة هو تاريخ الحركات السّماويّة؛ إذ تبدأ عادة بفرد واحد، وتمتدّ منه إلى أفراد آخرين فرداً فرداً، أو فوجاً فوجاً إذ يقعون تحت تأثير التّغيير النّفسيّ بالرّسالة.

وبما أنَّ عمليّة الصّراع مستمرٌّ بين القوى النّفسيّة الدّاخليّة، وبحكم تغيير الوضع النَّفسيّ للإنسان في الحالات المختلفة، وحركته الدّائمة فلا بدّ له من مقوّمات، ودعائم أساسيّة يرتكز عليها، وتكون بمثابة البناء التَّحتيّ للشّخصيّة تحفظه من السّقوط والانهيار في هوّة الانحراف، ومن أجل ذلك لا بدّ أن نعرف أمراض النَّفس الّتي تُعَرّضها للخطر كي نحدّد الموانع الّتي تمتنع من حدوث هذه الأمراض، ونعالجها إذا وقعت أنَّ أمراض النَّفس كثيرة جدّاً، نذكر منها ما ذكره علماء الأخلاق:

منها التّهوّر والجبن: وهما طرفان ورذيلتان يحيطان بفضيلة الشّجاعة.

ومنها العجب والافتخار: وهما رذيلتان ينبعان من التّقدير غير المتوازن لقدرات النّفس وطاقاتها، والظّنّ الكاذب بها، وإعطائها أكثر من وزنها.

ومنها الغدر في أبناء جنسه: لحبّ الانتقام، أو لمطلب نفسيّ دنيء.

---

(١) الرّعد: ١١.

(٢) الأنفال: ٥٣.

ومنها الغضب لغير الله: وهي حالة يخرج بها المريض عن حدّ الاعتدال نتيجة حالة غليان وفوران في النَّفس تدفع الإنسان إلى القتل والتَّشنيع و... الخ.

ومنها التّراجع والخور (الذّلّة): وهي حالة سكون النَّفس لواقع غير سليم.

ومنها القلق، والاضطراب، والحيرة، والشّكّ، وضعف الصَّبر والإرادة، والجهل بواقع الحياة، والحسد، والطمع، والجشع، والإثرة، والكآبة، والانفعال غير المتّزن، وعلى كلّ حال فأمراض النَّفس كثيرة وعجيبة بمقدار ما في النَّفس من قوى يمكن أن تستعمل في خطّ الفجور والانحراف عن النَّهج القويم.

وأمّا المقومات الأساسيّة الّتي تكون مانعة لحدوث هذه الأمراض، أو تعالجها إذا وقعت، فهي:

أوّلاً: الْعَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ السَّلِيمَةُ:

العقيدة السَّليمة هي الرّؤية الّتي تحدّد وجهة نظر الإنسان نحو الكون والحياة والإنسان، وتعرّفه مبدأه، ومستقرّه، ومعاده، وتوضّح له مبدأ نشأة الكون، ونهايته ومصيره، وترسم له السَّبيل السَّليم في الحياة، وتعرّفه سرّ وجوده، وعلّة إيجاده تعريفاً وتحديداً يسنده العقل والمنطق السَّليم، ويدعمه العلم الصَّحيح.

وملخص القول: العقيدة السّليمة تمنح الإنسان تصوّراً صحيحاً عن بداية خلقه ومسيرته في الحياة، وما هو صائر إليه من الموت، وما بعده، وبتعبير الشَّهيد مرتضى مطهّري قدس سره: «التّصوّر يعني فهم العالم»[1]، ثمَّ وضع قدس سره معايير للتّصوّر الواقعيّ بما فيه التّصوّر المادّيّ، والتّصوّر الإلهيّ، قال قدس سره: «نستطيع أن نضع لجودة التّصوّر المعايير التّالية:

---

(١) الشّهيد مرتضى مطهّري، بين المنبر والنّهضة الحسينيّة: ٢٦٦.

أوّلاً: أن يكون قابلاً للإثبات والاستدلال، أي أن يكون - بعبارة أخرى - مسنوداً من العقل والمنطق، وبذلك يوافر الأرضيّة العقليّة لتقبّله، ويزيل الإبهام والغموض عن طريق العمل.

ثانياً: أن يمنح الحياة معنى، وأن يزيل من الأذهان عبثيّة الحياة، وخواء المسيرة الإنسانيّة.

ثالثاً: أن يبعث في النُّفوس الاندفاع والشَّوق والهدفيّة؛ لتكون له قدرة الجذب، ومنح الطّاقة والحرارة.

رابعاً: قدرته على إعطاء طابع التَّقديس للأهداف الإنسانيّة والاجتماعيّة، ليبعث في نفوس معتنقيه الاستعداد للتَّضحية، وتجاوز الذّات، وبذلك يوافر عنصر «ضمان التَّنفيذ» للمدرسة الفكريّة القائمة على ذلك التّصوّر.

خامساً: قدرته على خلق روح الالتزام والإحساس بالمسؤوليّة في ضمير الأفراد أمام أنفسهم ومجتمعاتهم»[1].

إنَّ الإنسان منذ نعومة أظفاره، ومنذ لحظات إدراك النور يبدأ البحث عن حقائق الأشياء؛ لتوفّره على غريزة حبّ الاطّلاع المغروزة في نفسه، فإذا بلغ سنّ الرُّشد، أو قبل ذلك يحاول أن يفسّر أيّ شيء يمرُّ على نواظره، ويستفهم عمّا يحيط به من أشياء، ويعطي لكلّ منها تفسيراً بحسب إدراكه... فكلّما تصاعد فكره، وتوسّعت معرفته، فهو يحاول أن يفهم مبدأ المخلوقات، وما هي عليه الآن، وما هي صائرة إليه، وهذا أمر فطريٌّ في كينونة الإنسان، ولولا الظّروف البيئيّة والتّربية الفاسدة الّتي تحرف الإنسان عن جادّة الصَّواب لاستقام على ما أراد الله، جاء في

(١) بين المنبر والنّهضة الحسينيّة: ٢٧١-٢٧٢.

الحديث الشَّريف: «**كُلُّ مَوْلودٍ يولَدُ عَلى الْفِطْرَةِ، فَأَبَواهُ يُهَوِّدانِه، أَوْ يُنَصِّرانِه، أَوْ يُمَجِّسانِه**»(١).

وهذا الأمر الفطريّ لا يمكن الفرار منه، فهو حقيقة يقرّها الموحّد والملحد على السّواء من أجل ذلك بذلت الإنسانيّة جهوداً كبيرة للتّوصّل إلى حقيقة الوجود كما يحدّثنا التاريخ بذلك ناهيك عن سيول الدّماء الَّتي أريقت في الصّراع بين العقيدة السَّليمة والمذاهب الأرضيّة من العقائد الفاسدة.

إنَّ العقيدة الإلهيّة السَّليمة هي المقوّم الأساسيّ لسلامة النَّفس الإنسانيّة، وحفظها من الضّياع، والتّشتّت، والحيرة، والشّكّ، والقلق، والاضطراب، وأكبر عامل مساعد للإنسان على مواجهة الأزمات النّفسيّة، إذ تمنح الإنسان القدرة على مواجهة المشاكل بأشكالها كلّها، وتعين للإنسان هدفيّته في الحياة، وهي الضَّمان الوحيد؛ لتطبيق القوانين.

وبقدر ما تكون العقيدة سليمة، وصحيحة، وشاملة للكون والحياة، وعميقة الرّسوخ في النَّفس تمنح صاحبها صحّة، واستقامة، وتوازن، واعتدال، والعكس صحيح شريطة أن يكون الاعتناق واقعيّاً نابعاً من الأعماق، ومبنيّاً على فهم صحيح، ووعي كلّيّ لتلك العقيدة، أمّا إذا كان الاعتناق شكليّاً قائماً على اتّباع سنّة الآباء وتقليدهم، ومن دون فهم صحيح، ولا إدراك كامل لكلّ جزئيّات العقيدة، وكلّيّاتها فحينئذٍ لا يمكن أن يكون لها تأثير في فكره وسلوكه، فمثلاً نرى كثيراً من المسلمين يناقض سلوكهم مقرّرات الإسلام مناقضة صارخة مع أنَّهم مسلمون معتقدون بالله ورسوله واليوم الآخر، ولربّما بعضهم يقيم الصَّلاة، ويصوم شهر

(١) مسند الإمام أحمد: ١٢/١٠٤، ح/٧١٨١.

رمضان، ويؤدّي الزّكاة... والسَّبب في ذلك هو أنَّ اعتناقهم للعقيدة الإسلاميّة لم يكن صحيحاً، أو جزئيّاً أو عرفيّاً تقليديّاً، أو مصلحيّاً وراثيّاً، أو عادة ألفوها، وتعوَّدوا عليها من بيئتهم، وتربيتهم من دون وعي لأسسها، ومعرفة لأصولها وفروعها، وشرائط حملها وأحكامه، لَحَكمت سيرتهم، وتَشَرَّبَت في وجدانهم، وانعكست في سلوكهم، ولما لم يتحقّق ذلك كلّه رأينا الانفصام والمفارقة بين النّظرية والتّطبيق، ولهذا أقول لو كان التّمسّك منطلقاً عن إيمان سليم، ومعرفة كاملة، ورؤية واضحة، ونيّة صادقة لما وقع كلَّ الَّذي رأيناه من مفارقات سلوكيّة.

والعقيدة بعد ذلك لا بدَّ وأن تكون مترابطة ومتوافقة مع نظام صحيح نابع منها، ومستند إليها، وقائم عليها، وغير منفصل عنها، فإذا تجرَّدت العقيدة عن نظام صحيح، أو انفصلت عنه عادت كلمات جافّة، أو أوهام في مخيّلة الإنسان ليس لها أيّ أثر سلوكيّ أو نفسيّ.

وخلاصة القول: إنَّ الشَّخصيّة المفتقرة للعقيدة السَّليمة لا يمكن أن تنطوي على نفس سليمة مستقيمة متوازنة ما دامت العقيدة هي الَّتي تحدّد نظرة الإنسان للكون، والحياة، والإنسان، وستبقى هذه الشَّخصيّة متذبذبة تتقاذفها الأهواء والشّهوات والعواطف السّاذجة لا يستقرّ لها قرار.

إنَّ النَّفس بلا عقيدة كريشة في مهبّ الرّيح، أو كسفينة بلا ربّان، بل كجسد بلا روح، أو كماكنة بلا نضيد، والأخطر من ذلك إذا كانت العقيدة فاسدة، فإنَّها ستجرّ صاحبها إلى متاهات لا نهاية لها، وإلى مهالك مدمّرة...

وقد وقع كثير من البشر في شبّاك العقائد الفاسدة، فتذبذبوا وضاعوا، وعاشوا الشَّقاء بأبشع ألوانه، بل إنَّ العقائد الفاسدة جرَّت الويلات على البشريّة فأسقطت دولاً، ودمَّرت حضارات.

ثانياً: سُلوكُ النِّظامِ الصَّحيحِ:

وإنَّ للعقيدة أثراً كبيراً في تقويم النَّفس وانحطاطها، أو ارتفاعها أو تسافلها، واستقامتها أو انحرافها، فإنَّ للنظام كذلك أثراً مهمّاً جدّاً على النَّفس في حفظها من الانحراف والسّقوط؛ إذ إنَّ النّظام يرسم لها خطّ المسير الَّذي يجب أن تسلكه في مضمار الحياة، ويحدّد لها العلاقة مع خالقها، ومع المجتمع، ومع خلجاتها الدّاخليّة، وأفكارها الذّاتيّة، ويضبط جماح الخواطر، ويوجّهها لصالح الإنسان.

إنَّ نظم الأمور وانتظامها بصورة صحيحة هو الَّذي يرسم النَّهج السّلوكيّ الصَّحيح للفرد، وللعائلة، ويخطّط للوضع السّياسيّ والاقتصاديّ، ويحدّد المسلك الأخلاقيّ للإنسان في علاقاته العائليّة والاجتماعيّة والنَّفسيّة؛ شريطة أن يكون مقترناً بالورع والتَّقوى[1]؛ ولذا لا بدَّ وأن يكون نظاماً كاملاً يشمل جميع نواحي الحياة، ولا يكون كذلك إلا إذا صدر من الكامل المطلق المجرّد عن الميول والأهواء الذّاتيّة، وهذه الصّفات لا يمكن أن تتوفّر في الإنسان ما دام حبّ الذّات عنصراً متأصّلاً في ذاته، ومحتاجاً إلى غيره، فالنّظام إذن يجب أن يُشَرَّع من الواحد المطلق الَّذي لا يخضع للأهواء، والشَّهوات، والحدود، والحاجات، والميول، والرّغبات، والشّروط الذّاتيّة.

وكما ذكرنا في المقوّم الأوّل أنَّ الارتباط بين العقيدة والنّظام أمر له أهمّيّة بالغة؛ لأنَّ العقيدة هي الَّتي تعطي للإنسان طاقة تدفعه بحرارة وشوق للتَّطبيق العمليّ للنّظام المرسوم، وتضفي عليه طابعاً قدسيّاً، وتعينه على تحمّل المسؤوليّة الملقاة

(١) إشارة إلى وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام للحسنين عليهما السلام: «**أوصيكما وَجَميعَ وَلَدي وَأَهْلي ومَنْ بَلَغَه كِتابي بِتَقْوى اللهِ وَنَظْمِ أَمْرِكُم**»، نهج البلاغة: ٤٤٥، كتاب: ٤٧.

على عاتقه، فالشَّرط الأساسيّ للتّوازن من النّاحية العمليّة والفكريّة هو التّرابط الوثيق بين العقيدة والنّظام، فكلّما كان التَّرابط وثيقاً بينهما، ومعتمداً على أسس صحيحة يكون التّوازن النَّفسيّ من النّاحية الأخلاقيّة والفكريّة كبيراً جدّاً، فهو أصل أساسيّ في الاستقامة النَّفسيّة، والتّباين بينهما عاملٌ مهمٌّ في خلق التّناقض السّلوكيّ والاضطراب النَّفسيّ، وبالتّالي انهيار الشّخصيّة وسقوطها في بؤرة الضّياع والتّشتّت.

فلا يمكن لمن يؤمن بالله أن يطبّق النّظام الماركسيّ، ولا يمكن لمن يؤمن بالتَّفسير المادّيّ للحياة الَّذي قدَّمته الماركسيّة أن يسلك النّظام الإسلاميّ، وقد أثار عجبي قول أحد السّياسيّين: إنَّني لا أؤمن بالتَّفسير الفلسفيّ للحياة الَّذي جاءت به الماركسيّة، ولكنّي أؤمن بالنّظام الاقتصاديّ لها، والسّرُّ في هذا التَّناقض هو أنَّه لم يطّلع على تفاصيل النّظام والتّشريع الإسلاميّ.

ثالثاً: الْبَرْنامَجُ الْيَوْمِيُّ:

قيل: «النّظام هو أوّل قوانين السَّماء»[١]؛ ولذا فإنَّ الكون بجزئيّاته كلّه خاضع لنظام دقيق، وجارٍ في محور هذا النّظام، ولا يستطيع الخروج عن سنّته وقوانينه، بل خروج أي جزئيٍّ من أجزاء الكون عن المدار المحدّد له يعرضه للفناء والدّمار، إنَّ النّظام الكونيّ لا يقبل الخطأ أبداً، فهو سائر في محور مرسوم له، ودائر حول قطب ثابت مستقرّ في حركته... وهكذا بقيّة المجرّات، ولمّا كان الإنسان هو الموجود الوحيد المتميّز عن باقي المخلوقات بالاختيار في حياته الفكريّة

---

(١) نخبة من أساتذة علم الاجتماع وعلم الإرادة، كيف تتمتّع بحياتك وبعملك: ١٣.

والعمليّة، إذن لا بدَّ أن تكون هذه المسيرة الاختياريّة خاضعة لخطّة يوميّة يضعها لنفسه كي يملأ أوقاته بعمل مثمر، أو استراحة تعود علية بالطَّمأنينة النّفسيّة، والهدوء الوجدانيّ بحيث لا يدع لحظة واحدة تمرّ عليه إلا ويستفيد منها في مجال من مجالات الحياة مادّيّاً أو معنويّاً، وقد ورد في الحديث الشَّريف عن أبي ذرّ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**عَلى الْعاقِلِ أَنْ يَكونَ طالِباً لِثَلاث: مَرَمَّةٍ لِمَعاشٍ، أَوْ تَزَوُّدٍ لِمَعادٍ، أَوْ لَذَّةٍ في غَيْرِ مُحَرَّمٍ**»(١)، ففي هذا الحديث الشَّريف تقسيم رائع للوقت، فلا تضيع منه لحظة عبثاً، وإنَّما كلُّه استثمار للعمر فيما يرضي الله تبارك وتعالى.

ففي البرنامج اليوميّ من اللازم أن يقسم الإنسان ساعات يومه على الأعمال المادّيّة والثّقافيّة والرّوحيّة، والاجتماعيّة، ويحدّد فيها ساعات النّوم، والاستجمام، والرّاحة، والطّعام، ولقاء الإخوان وزيارتهم، وأوقات تعبّده ومناجاته لله تعالى، وفائدة ذلك هو حفظ النَّفس من التّشتّت والاضطراب، ويبعدها عن الارتجال والتّخبّط، وضياع الوقت فيما لا طائل فيه، ولا فائدة منه... فإن كان المرء قد وضع لنفسه برنامجاً يوميّاً، فمن ساعة استيقاظه في أوّل الوقت يكون على علم مسبق بوقت العمل ووقت الرّاحة والزّيارة وغيرها، وبذلك يحفظ حياته من التّخبّط في زحمة الحياة اليوميّة، ومن ضياع الوقت فيما لا فائدة فيه، كالأحاديث الفارغة والمجالس العبثيّة، ومن هنا تكون حركة الإنسان منتظمة واعية تضمن له توازنه الفكريّ، وسلامته النّفسيّة، وتبعده عن الإرهاق، والإعياء، والحيرة، والضّياع، والانهدام، وقد حفظ الله الكون بالنّظام الَّذي وضعه له للسّير على السّنن الكونيّة الموضوعة لحركة الكواكب والنّجوم والأقمار وجريانها، بل لجميع جزئيّات

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٥٢٥/٢.

الكون وذرّاته بما فيه من إنسان، وحيوان، وجماد، ونبات.

إنّ وضع البرنامج اليوميّ سنّة حياتيّة مهمّة سار عليها العقلاء والحكماء على طول التّأريخ لما له من أثر كبير في بناء النّفس وحفظها من كلّ عوامل الضّعف والانهدام، وأروع برنامج حياة يوميّ ما جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام الّذي كان يترنّم به صباحاً ومساءً، متضرّعاً لله أن يوفّقه للسّير للعمل فيه، قائلاً: **«اللّهمَّ، صلِّ على مُحَمَّد وآله، ووَفِّقْنا في يَوْمنا هذا ولَيْلَتنا هذه، وفي جَميع أيّامنا: لاسْتعْمال الْخَيْر، وهجْرَان الشَّرِّ، وشُكْر النِّعَم، واتِّباع السُّنَن، ومُجانبَة الْبدَع، والأَمْر بالْمَعْروف، والنَّهْي عَن الْمُنْكَر، وحياطَة الإسْلام، وانْتقاص الْباطل وإذْلاله، ونُصْرَة الْحَقِّ وإعْزَازه، وإرْشَاد الضَّالِّ، ومُعاونَة الضَّعيف، وإدْراك اللَّهيف»**[١].

رابعاً: الْهَدَفِيَّةُ الْبَنّاءَةُ الْواضِحَةُ:

المقصود من الهدفيّة هو تحديد الإنسان لحقيقة معيّنة أمن بها بعد أن اختمرت في ذهنه، وانسابت إلى قلبه، فأصبحت تمثّل قمّة الكمال في الوجود في نظره، ومن هذا المنطلق يبدأ السّعي بجدّ لبلوغ تلك النُّقطة، والشّرط الأساس لهذا التّحديد أن يكون مبنيّاً على وعي فكريّ مستقلّ عن التّقليد والتّبعيّة؛ ليتحوّل هذا الوعي إلى قوّة دفع نحو النّقطة المحدّدة، وتشدّه إليها شدّاً وثيقاً، وتجذبه في اتّجاهها جذباً يمنعه عن الحركة في أيّ اتّجاه آخر مخالف له، وهي مستقرّة في مكانها، تلوح وتبرق من بعيد؛ لتنوّر له طريق الوصول إليها ضمن تخطيط فكريّ شامل لجميع خطوات السّير.

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ٤١، دعاء: ٦.

إنَّ الإنسان الَّذي يفتقر إلى الهدفيّة البنّاءة في حياته يبقى طائفاً في بحر الحياة تتقاذفه الأمواج في أيّ اتّجاه تتحرّك، فلا يستقرّ له قرار عند حدّ معيّن، بل يبقى سائراً على غير هدى، ومن دون دليل فلا تزيده سرعة السَّير إلا بعداً عن الطّريق كما رُويَ عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليه السلام أنَّه يقول: «**الْعاملُ علَى غَيْرِ بَصيرةَ كَالسّائر علَى سَراب بقيعَة لا تُزيدهُ سُرْعَةُ سَيْره إلا بُعْداً**»[1].

وعنه عليه السلام: «**الْعاملُ علَى غَيْرِ بَصيرةٍ كَالسّائرِ علَى غَيْرِ الطَّريقِ، لا يَزيدهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إلا بُعْداً**»[2].

وبالنَّتيجة فاقد الهدفيّة لا بدَّ وأن يتعبه السَّير، وترهقه الحركة، وتلقي به في هوّة الإعياء، ثمّ السّقوط والاندثار، «وكلّ عمل إذا خلا من أيّ هدف فإنّه يكون وجوداً من غير حياة؛ ذلك لأنَّ الهدف أو الغاية هي المبرّر النّظريّ لوجود العمل، فإذا فقد العمل ما يبرّر وجوده فقد فَقَدَ حياته»[3].

ومن ناحية أخرى، فإنَّ النَّفس الإنسانيّة متطلّعة دائماً إلى تحقيق مطالب متعدّدة بحسب القوى المغروزة فيها، وهذه المطالب بحاجة إلى توحيد وتوجيه إلى نقطة محدّدة، فإذا فقدت هذه النّقطة عادت النّفس متشتّتة قلقة، وهذا من أعظم الأمراض النَّفسيّة الَّتي تمنع النَّفس عن الرّقي في مدارج الكمال.

إنَّ الأهداف الإنسانيّة كثيرة متعدّدة منها أهداف ضيّقة قصيرة، ومنها واسعة كبيرة تحتاج إلى كدح ومعاناة وصبر، وهدف تهذيب النّفس وتقويمها من النّوع

---

(١) الشّيخ المفيد، الأمالي: ١١؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ١/١٦١، ح/١١٧.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١/١٠٦-١٠٧، ح/١٠٨.

(٣) ثقافة الدَّعوة الإسلاميّة: ١/٢٠١.

الثاني يحتاج إلى استمراريّة التّغذية الرّوحيّة والفكريّة والأخلاقيّة؛ لتكون قوّة فاعلة في تركيز قوّة الإرادة، ومقاومة الشّهوات المبتذلة؛ لتوحيد الطاقات الكامنة في النّفس وتوجيهها نحو ميدان البناء النّفسيّ الصّحيح الّذي يعد في منطق القرآن نقطة الانطلاق لأيّ عمل اجتماعيّ كبير، قال السّيّد الشّهيد الصّدر قدس سره: «فالمحتوى النّفسيّ والدّاخليّ للأمّة كأمّة، لا لهذا الفرد، أو لذلك الفرد، هو الّذي يعتبر أساساً وقاعدةً للتّغييرات في البناء العلويّ للحركة التّاريخيّة كلّها»[1]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

إنَّ الطّاقات الكامنة في النّفس الإنسانيّة كبيرة جدّاً، وصرف أي جزيء من هذه الطّاقات بصورة عبثيّة يقلّل من حركتها في البناء الذّاتيّ، وبالتّالي يؤثّر في البناء الاجتماعيّ، فهناك ترابط بين البناء الفرديّ والبناء الاجتماعيّ، قال السّيّد الشّهيد الصّدر قدس سره: «هاتان العمليّتان يجب أن تسيرا جنباً إلى جنب، وإذا انفكّت إحداهما عن الأخرى فقدت حقيقتها ومحتواها، وسمّى الإسلام العمليّة الأولى (عمليّة بناء المحتوى الدّاخليّ) بـ(الجهاد الأكبر) تأكيداً على الصّفة الأساسيّة للمحتوى الدّاخليّ، وتوضيحاً لهذه الحقيقة، حقيقة أنَّ المحتوى الدّاخليّ للإنسان هو الأساس؛ ولهذا سمّي بالجهاد الأكبر، فإذا بقي الجهاد الأصغر منفصلاً عن الجهاد الأكبر حينئذ لا يحقّق ذلك في الحقيقة أيّ مضمون تغييريّ صالح»[3].

فتحديد الهدفيّة في الحياة يحفظ طاقات الإنسان من التّبذير والعبثيّة في أصغر مجالات الحياة كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما مَزَحَ امْرُؤٌ مَزْحَةً إلا**

---

(١) السّيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدر، المدرسة القرآنيّة: ١١٧.

(٢) الرّعد: ١١.

(٣) المدرسة القرآنيّة: ١١٨.

مَجَّ مِنْ عَقْلِه مَجَّةً[(١)]»[(٢)]، أي إنَّ صرف أيّ جزيء من طاقات النَّفس في مجال المزاح العبثيّ يكون على حساب البناء العقليّ.

ولحفظ الإنسان من صرف هذه الطّاقات عبثاً، جاء التَّأكيد في القرآن الكريم صريحاً؛ لاستئصال فكرة العبثيّة واللَّغويّة في الخلق من ذهن الإنسان؛ لئلا تكون خطّاً سلوكيّاً، يقول تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾[(٣)].

﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ** ﴾[(٤)].

﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾[(٥)].

نستخلص من الآيات الكريمة أنَّ الهدفيّة سنّة كونيّة في الوجود، ولا شيء منه مخلوق عبثاً، ومن هنا فإنَّ الآيات الآنفة الذّكر تنفي العبثيّة في الوجود كلّيّاً تكويناً وتشريعاً، وبما أنَّ الإنسان سيّد المخلوقات في الكون فمن الأولى أن تنتفي العبثيّة من فكره وسلوكه، ولو كان في مجال الظَّنّ الَّذي لا يبتني على شيء،

---

(١) قال السّيّد ابن معصوم المدنيّ: «مجَّ الماء من فيه مجّاً - كقَتَلَ -: رمى به، ثم اتّسعوا فقالوا: مجَّت الشّمس ريقها، والقتلى دماءها، والنّبات يمجّ النّدى»، وفي تعليقه على قول أمير المؤمنين عليه السلام قال: «استعار المجّ لطرح الإنسان ما يطرحه من عقله في مزاحه، والمجّة المرّة من المجّ أطلقت على الممجوج من تسمية المفعول بالمصدر». الطّراز الأوّل: ٢٠٨/٤-٢١٠، (مجج).

(٢) نهج البلاغة: ٥٥٩، قصار الحكم: ٤٣٨.

(٣) المؤمنون: ١١٥.

(٤) الحجر: ٨٥

(٥) الأنبياء: ١٦-١٧.

والهدف من ذلك كلّه هو تأصيل فكرة الهدفيّة البنّاءة في ذهن الإنسان وذلك برسم خطّ مستقيم، وتعيين نقطة ثابتة يتحرّك الإنسان نحوها بانتظام ووعي ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[١].

والإسلام يريد أن يبني الإنسان الهادف إلى الخير والإصلاح والتّغيير الاجتماعيّ الصَّحيح؛ ولذلك عند استقراء الآيات القرآنيّة نجد أنَّ البشريّة تقسم على قسمين:

أوّلاً: الإنسان الهادف: وهو «ذلك الإنسان الَّذي آمن بفكرة اجتماعيّة معيّنة، ولم يخرج بتصرّفاته واتّجاهاته عن الإطار العامّ، ويسعى في مجموع أعماله نحو تحقيق الوضع الأفضل لهذه الفكرة»[٢]، ويتّسم الإنسان الهادف بالسّمات الآتية:

١- الَّذي يعيش لنفسه أيضاً، ولكنّه من خلال مقياس اجتماعي للسّلوك.

٢- يسير في تصرّفاته واتّجاهاته من حيث الأساس وفق منهاج اجتماعيّ معيّن يفكّر، ويخطّط، وينفّذ، ولكن وفق المنهج العامّ لفكرته...

٣- يسعى لتحقيق الوضع الأفضل للفكرة الَّتي آمن بها، ويهدف من وراء ذلك إلى تحقيق القيادة لفكرته الَّتي آمن بها مراعياً في ذلك ما تمليه المصلحة العليا لتلك الفكرة بحسب مقتضيات الحالة الاجتماعيّة الَّتي تعيشها تلك الفكرة في ظروف تكون القيادة لغيرها، أو يعمل لتثبيت وجودها، أو توسيع نطاقها في الظّروف الّتي تتهيّأ فيه الإمكانات والأجواء[٣].

---

(١) الانشقاق: ٦.

(٢) ثقافة الدَّعوة الإسلاميّة: ١/١٩٧-١٩٨.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/١٩٩-٢٠٠.

ثانياً: الإنسان غير الهادف: وهو ذلك الإنسان الَّذي يهمّه قبل كلّ شيء أن يعيش لنفسه بالشّكل الَّذي يحلو له من دون أن يهتمّ بتحقيق فكرة، أو تدعيم رسالة، وهو يعيش لغرائزه، ولا يترسّم بسلوكه، أي منهج حياتيّ؛ إذ إنَّه لا يحمل فكرة اجتماعيّة معيّنة، بل أعمى قلبه وبصيرته وإحساسه حبّ الدّنيا بشهواتها الرَّخيصة وبلذّاتها الفانية حتّى أصبح غافلاً عن تدبّر آيات الوجود، وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الفريق من النّاس في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[1]..[2].

وأخيراً إنَّ تعيين الهدف البنّاء في الحياة - لحفظ سلامة النَّفس، وبناء مجتمع - يجب أن يكون نابعاً من أصل معتقد الإنسان الَّذي تبنّاه في حياته، وموافقاً لمراحل تطبيق النّظام المتّخذ كمنهج فكريّ وسلوكيّ؛ لتتّحد الغاية مع الوسيلة؛ ولتتحقّق الغاية السّامية بالوسيلة الشَّرعيّة؛ لأنَّه إذا اختلفت الغاية عن الوسيلة؛ فإنَّ ذلك يجرّ الإنسان إلى مفارقات سلوكيّة تؤثّر في خلق الاضطراب النَّفسيّ، كمثل من يسرق أموال النّاس ليتصدّق بها على الفقراء رحمة لهم، فبمقدار الرَّحمة الَّتي خلقت في قلبه على الفقراء تخلق بالمقابل قسوة على آخرين، ولربّما تزداد القسوة على الرَّحمة، ويفسد أكثر ما يصلح، وفي رواية عن الإمام الصّادق عليه السلام أدقّ بيان لذلك قال عليه السلام: «**إنَّ مَن اتَّبعَ هواه، وأُعْجبَ برأْيه كانَ كرجُلٍ سَمعتُ غثاء الْعامَّة تعظِّمُه، وتَسفُّه، فأَحْبَبْتُ لقاءَهُ منْ حَيْثُ لا يعْرفُني، لأَنْظُرَ مقْدارَه ومَحلَّه، فرَأَيْتُه قَدْ أَحْدَقَ به خَلْقٌ [الْكَثير] منْ غُثاء الْعامَّة، فما زالَ**

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) ينظر: ثقافة الدّعوة الإسلامية: ١٩٨/١.

يُراوِغُهُمْ حَتّى خالَفَ طَرِيقَهُمْ وَفارَقَهُمْ، وَلَمْ يَقِرّ، فَتفَرَّقَت الْعَوامُّ عَنْهُ لحَوائجهِمْ، وَتَبِعْتُهُ أَقْتَفي أَثَرَه، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَرَّ بِخَبّاز فَتَغَفَّلَهُ، فَأَخَذَ مِنْ دُكّانه رَغيفَيْنِ مُسارَقَةً، فَتَعَجَّبْتُ مِنْهُ، ثُمَّ قُلْتُ في نَفْسي: لَعَلَّهُ مُعامَلَةٌ، ثُمَّ مَرَّ بَعْدَهُ بِصاحِب رُمّان، فَما زالَ بِه حَتّى تَغَفَّلَهُ، فَأَخَذَ مِنْ عِنْده رُمّانَتَيْنِ مُسارَقَةً، فَتَعَجَّبْتُ مِنْهُ، ثُمَّ قُلْتُ في نَفْسي: لَعَلَّهُ مُعامَلَةٌ، ثُمَّ أَقولُ: وَما حاجَتُهُ إِذن إلى الْمُسارَقَة؟! ثُمَّ لَمْ أَزَلْ أَتْبَعُهُ حَتّى مَرَّ بِمَريضٍ، فَوَضَعَ الرَّغيفَيْنِ وَالرُّمّانَتَيْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَضى».

ثمَّ ذكر عليه السلام أنَّه سأله عن فعله، ثمّ أكمل عليه السلام: «قالَ: لَعَلَّكَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّد بْن عَلِيِّ بْن الْحُسَيْن بْن عَلِيِّ بْن أَبي طالب صَلَواتُ الله عَلَيْهِمْ؟ قُلْتُ: بَلى، فَقالَ لي: فَما يَنْفَعُكَ شَرَفُ أَصْلكَ مَعَ جَهْلكَ بِما شَرُفْتَ بِه، وَتَرْكِكَ عِلْمَ جَدِّكَ وَأَبيكَ لِئَلا تُنْكِرَ ما يَجِبُ أَنْ يُحْمَدَ وَيُمْدَحَ عَلَيْهِ فاعِلُه؟! قُلْتُ: وَما هُوَ؟ قالَ: الْقُرْآنُ كِتابُ الله! قُلْتُ: وَما الَّذي جَهِلْتُ مِنْهُ؟ قالَ: قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾(١)، وَإِنّي لَمّا سَرَقْتُ الرَّغيفَيْنِ كانَتْ سَيِّئَتَيْنِ، وَلَمّا سَرَقْتُ الرُّمّانَتَيْنِ كانَتْ سَيِّئَتَيْنِ، فَهذه أَرْبَعُ سَيِّئات، فَلَمّا تَصَدَّقْتُ بِكُلِّ [واحد] مِنْهُما كانَ لي [بها] أَرْبَعينَ حَسَنَةً، فَانْتَقَصَ مِنْ أَرْبَعينَ حَسَنَةً أَرْبَع بِأَرْبَعِ سَيِّئات، بَقِيَ لي سِتٌّ وَثَلاثونَ حَسَنَةً، قُلْتُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! أَنْتَ الْجاهِلُ بِكِتابِ الله، أَما سَمِعْتَ أَنَّه عَزَّ وَجَلَّ يَقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢)، إِنَّكَ لَمّا سَرَقْتَ رَغيفَيْنِ كانَتْ سَيِّئَتَيْنِ، وَلَمّا سَرَقْتَ رُمّانَتَيْنِ كانَتْ أَيْضاً سَيِّئَتَيْنِ، وَلَمّا دَفَعْتَهُما إِلى

(١) الأنعام: ١٦٠.

(٢) المائدة: ٢٧.

غَيْر صاحبَيْهما بغَيْر أَمْر صاحبَيْهما كُنْتُ إنَّما أَضَفْتُ أَرْبَعَ سَيِّئات إلى أَرْبَعِ سَيِّئات، وَلَمْ تُضِفْ أَرْبَعين حَسَنَةً إلى أَرْبَعِ سَيِّئات، فَجَعَلَ يلاحظُني، فَانْصَرَفْتُ وتَرَكْتُه»[1].

فإذن لا بدَّ للهدف الشَّريف من وسيلة شريفة، ولا بدَّ من التَّرابط بين الهدف والعقيدة والنّظام، وبذلك تكون الهدفيّة مقوّماً فاعلاً في التّغيير النّفسيّ والاجتماعيّ، وبمقدار ما تحمل الهدفيّة من شرافة تكسب النّفس كمالاً وسموّاً ورفعة، والعكس صحيح.

خامساً: المُحاسَبَةُ الذّاتيّةُ:

لمّا لم يكن الإنسان معصوماً عن الخطأ إلا من عصم الله سواء في النّاحية الفكريّة والسّلوكيّة، إذن وجب على من أراد أن يحفظ نفسه من الانحراف والزّيغ أن يراجع أعماله بين الحين والآخر؛ ليقف على مواضع القوّة، والضَّعف، والصَّواب، والخطأ في أفكاره وأعماله، فينمّي الجوانب الإيجابيّة، ويصلح الجوانب السّلبيّة تدريجيّاً.

من أجل ذلك أكَّدت الأحاديث الشَّريفة على ضرورة المحاسبة الذّاتيّة تأكيداً متواصلاً نذكر منها:

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**حاسِبوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبوا وَزِنوها قَبْلَ أَنْ توزَنوا**»[2].

وعن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: «**لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُحاسِبْ نَفْسَهُ في**

(١) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٣٣-٣٥.

(٢) ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ٦٧/٢، ح/١٦٠١.

كُلَّ يومٍ، فَإنْ عَمِلَ حَسَناً اسْتَزادَ اللهَ، وإنْ عَمِلَ سَيِّئاً اسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهُ، وَتابَ إلَيْهِ»[1].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «**احْمِلْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمْ يَحْمِلْكَ غَيْرُكَ**»[2].

والمحاسبة الذّاتيّة في الإسلام هي عمليّة عرض النَّفس في خواطرها، ودوافعها، وأفكارها، وأعمالها على الميزان الإلهيّ؛ لينظر الإنسان مدى التزامه بالخطّ المرسوم، ومدى خروجه عنه، وبتعبير أدقّ: هي التّوقّف قليلاً أثناء السَّير؛ ليعرف مدى استقامته أو مدى انحرافه عن المنهاج الشّرعيّ، وبهذا يحفظ الإنسان سلامة نفسه باكتساب مناعة ضدّ جميع الأمراض، وتحقيق حصانة نفسيّة وفكريّة ضدّ الأمراض الَّتي تنخر النَّفس.

إنَّ فقدان المحاسبة في حياة الإنسان تعرّضه إلى انحرافات خطيرة تجرّه إلى الهاوية؛ لأنَّه في حالة عدم مراجعة نفسه قد يكون خارجاً عن الحدود الشّرعيّة من حيث لا يعلم، وبذلك يقع في الخطأ من حيث لا يشعر، وللحديث عن المحاسبة مكان آخر لا مجال لذكره الآن في هذا البحث.

---

(١) الكافي: ٢٦٩/٤، ح/٣٠٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧١/٤، ح/٣٠٢٥.

كَيْفَ يَنْسى الإِنْسانُ نَفْسَهُ؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[1].

في النّص الشّريف ثلاثة أوامر موجَّهة للمؤمنين بصورة متتالية، وبصيغة الوجوب:

الأوّل: الأمر بالتَّقوى في جميع الطّاعات من الأوامر والنّواهي، فالتَّقوى هنا «في أصل إتيان الأعمال بقصرها في الطّاعات، وتجنّب المعاصي»[2]، وتتأكّد لنا ضرورة التَّقوى في العمل حين نعرف معرفة يقينيّة أنَّ الإنسان مسؤول عن عمله أمام الله تعالى، وأنَّه تبارك وتعالى لا يتقبّل إلا من المتَّقين.

قال سيّد الأتقياء عليّ عليه السلام: «**فاعْلَموا عبادَ الله، أَنَّ اللهَ سائلُكُمْ عَنِ الصَّغير منْ أَعْمالِكُمْ والْكَبير، فَإنْ يُعَذِّبْ فَنَحْنُ أَظْلَمُ، وَإنْ يَعفُ فَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحمينَ، واعْلَموا أَنَّ أَقْرَبَ ما يَكونُ الْعَبْدُ إلى الرَّحْمَةِ والْمَغْفرةِ حينَ يَعْمَلُ بطاعَةِ الله، وَمُناصَحَته في التَّوْبَة؛ فَعَلَيْكُمْ بتَقْوى الله عَزَّ وَجَلَّ، فَإنَّها تَجْمَعُ مِنَ الْخَيْرِ ما لا يَجْمَعُ غَيْرُها، ويُدْرَكُ بِها مِنَ الْخَيْرِ ما لا يُدْرَكُ بِغَيْرِها خَيْرَ**

(١) الحشر: ١٨-١٩.

(٢) العلامة الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: ٢١٩/١٩.

الدُّنْيا وَخَيْرَ الآخرةَ، يَقولُ اللهُ: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]»[2].

فالأمر الأوّل: التّقوى في (أصل إتيان العمل) قبل المباشرة فيه، وأثناء العمل، وبعد الانتهاء منه، وهو أن ينظر المؤمن في عمله، ويفكّر في دوافعه جيّداً، أأدّى عمله بدافع الطّاعة المجرّدة لله دون سواه، أو بدوافع أخرى غيره؟

أمّا قبل العمل، فيخطّط لعمله بنيّة خالصة لله؛ ليكون أساسه متيناً، ودافعه مجرّداً عمّا سوى الله، ويباشر في العمل شاعراً بأنّه في محضر الله، وأنَّ عين الله ترقبه، وأنّه تعالى يعلم ما يضمره من دوافع وغايات وأهداف... وأمّا بعد إنجاز عمله، فيبقى خائفاً وجلاً من عدم القبول، ومتضرّعاً لله أن يتقبّله، ولعلّ هذا هو مصداق قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[3].

ووصف أمير المؤمنين عليه السلام بعض صفات المتّقين بقوله: «**يعْملُ الأَعْمالَ الصّالحَةَ، وَهُوَ عَلى وَجَلٍ**»[4]؛ خوفاً من ردّها وعدم قبولها؛ ولهذا فالمؤمن بين مخافتين كما جاء في الحديث النّبويّ: «**أَلا إنَّ الْمُؤْمن يعْملُ بيْن مخافَتيْن بيْن أَجَلٍ قَدْ مَضى لا يَدْري ما اللهُ قاضٍ فيه، وبَيْن أَجلٍ قَدْ بَقي لا يَدْري ما اللهُ قاضٍ فيه، فَلْيَأْخُذ الْعَبْدُ الْمُؤْمنُ منْ نَفْسه لنفْسه، ومنْ دُنْياهُ لآخرَته، وَفي الشَّيبَة قَبْلَ الْكبَرِ، وفي الْحَياة قَبْلَ الْممات، فوَ الَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده ما**

---

(١) النّحل: ٣.

(٢) الثّقفيّ، الغارات: ٢٣٤/١؛ وينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦٧/٦.

(٣) المؤمنون: ٦٠.

(٤) نهج البلاغة: ٣٣٣، خطبة: ١٩٣.

بَعْدَ الدُّنيا منْ مُسْتَعْتَب[١]، وَما بَعْدَها منْ دار إلا الْجَنَّةُ أَو النّار»[٢].

والأمر الثّاني: النَّظر والتّأمّل والتَّفكير بدقّة متناهية فيما قدَّمه من رصيده الأخرويّ، هل يكفيه في سفره الطَّويل إلى الله تعالى؟ وهل يحقّق له رضوانه تعالى، ويوصله إلى دار رحمته جلَّ وعلا، ولينظر في ما أعطى من وقته، وما صرف من عمره لله تعالى، ومستوى إخلاصه لله في عمله، ما مقدار ذلك؟ وما مقدار ما صرفه للدّنيا، واستغرق فيها؟...

وفي الآية التفاتة مهمّة، وهي: تنكير النَّفس - أي جاء الأمر للنَّفس بصيغة النَّكرة - والسَّبب كما قيل لاشتغال كلّ نفس بالنّظر لما قدَّمت من خير، وقيل لمعاتبة المؤمنين، وتقريع المقصّرين، وأمّا تنكير الغد الَّذي يعني يوم القيامة لتعظيمه، وخطورته في مستقبل الإنسان الأخرويّ، وفي هذا الأمر حقائق مهمّة لو التفت إليها الإنسان، وفتح لها منافذ قلبه، لعادت عليه بخير كثير، وهي:

١- دعوة لذوي الإيمان إلى التّأمّل في صفة أعمالهم، بل في جميع جوانب حياتهم، وفي هذا من الخير ما لا يدركه إلا من مارسه من روّاد التّكامل والتّرقّي المعنويّ، وإلا فلا يتأمّل في نفسه إلا من أراد تكاملها الرّوحيّ والخلقيّ والفكريّ، وأمّا من التصق بطينة البدن، وراح يصلح ظاهره، ويهمل باطنه فلا يمكن أن يلتفت إلى ذلك، بل يبقى مستغرقاً في حياته المادّيّة، وشهواته الجسديّة فقط، ثمَّ إذا ذُكّرَ، قال: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾[٣].

---

(١) مستعتب، على زنة المفعول بمعنى طلب الرّضا، أو اسم مكان، أو اسم فاعل على احتمال، بمعنى طالبة.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٨٠/٣، ح/١٦٠٧.

(٣) الفتح: ١١.

والسّرُّ في ذلك أنَّ هؤلاء وأمثالهم وعلى طول خط التّأريخ إنَّ إرادتهم وأهدافهم منحصرة في إشباع شهواتهم، وتحقيق رغباتهم؛ لارتكاسهم في حبّ الدُّنيا، واستغراقهم في زخارفها، وغفلتهم المطبقة عمّا وراءها؛ لأنَّ حبَّ الدُّنيا قد استحوذ على قلوبهم حتّى أنّها «**لَعِبَتْ بِهِمْ، ولَعِبوا بها، ونَسوا ما وَراءَها**»[1]، فأصبحت إرادتهم منحصرة بها كما وصف تعالى حالاتهم تلك بقوله: ﴿**وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ**﴾[2].

نعم، هذا هو مستواهم المعرفيّ لا يتعدّى واقعهم المادّيّ المحسوس الَّذي ارتكسوا فيه حتّى عطل عقولهم عن التَّفكير، وعيونهم عن الإبصار، وآذانهم عن السّمع، تلك هي الغفلة المطبقة، فكانوا كما وصفهم تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ**﴾[3].

أمّا من أراد الآخرة، وسعى لها سعيها، فعلى عكس أولئك، تراه متفكّراً في دنياه وآخرته، ساعياً في دنياه لآخرته، محاسباً نفسه في كلّ حركة يتحرّكها، شاعراً بمسؤوليّته أمام ربّه، ﴿**وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**﴾[4].

---

(١) نهج البلاغة: ٤٢٥، كتاب: ٣١.

(٢) النَّجم: ٢٩-٣٠.

(٣) الأعراف: ١٧٩.

(٤) الإسراء: ١٩.

٢- ثمَّ إنَّ في الآية إشارةً إلى أهمّيّة تشخيص المؤمن لمواضع الضّعف، والقوّة في مسيرته الذّاتيّة، ولهذا الأمر أهمّيّة بالغة في حياة الكادح إلى الله؛ لأنَّه حين يشخّص مواضع الخلل في نفسه فلا بدَّ أن يبادر لإصلاح ذلك الخلل ليُصَعّد جوانب القوّة، ويعالج جوانب الضّعف، وفيه دفع قويّ إلى إصلاح ما فسد من شخصيّته داعياً متوسّلاً بالله، «**اللّهمَّ، أَصْلِحْ لي ديني؛ فَإِنَّهُ عصْمَةُ أَمْري، وأَصْلِحْ لي آخرَتي؛ فَإِنَّها دارُ مَقَرّي، وإِلَيْها منْ مُجاورة اللِّئام مَفرّي، واجْعَلِ الْحياةَ زِيادةً لي في كُلِّ خَيْر، والْوفاةَ راحَةً لي منْ كُلّ شرٍّ**»[1].

٣- تكرّر التّأكيد على التّقوى، وهي في هذا الأمر تختلف عن التّقوى في الأمر الأوّل، ففي الأمر الأوّل في أصل الأعمال، وفي هذا الأمر في الأعمال الّتي أنجزها[2]، وسجّلت في صحيفة أعماله: أيستطيع أن يحافظ عليها؟ لتبقى محفوظة في رصيده يوم القيامة، أم يكون كالّتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً؟ ففي كثير من الأحيان يعمل المؤمن العمل الصّالح بنيّة خالصة، ويسجّل في صحيفة أعماله، ولكنّه قد يُضيعه بالمباهاة، أو التّفاخر، أو المنّة، عن عليّ بن أسباط، عن بعض أصحابه، عن أبي جعفر عليه السلام أنَّه قال: «**الإِبْقاءُ على الْعَمَلِ أَشَدُّ من الْعمَلِ**»، قال: «وما الإبْقاءُ عَلى الْعَمَلِ؟»، قالَ: «**يَصِلُ الرَّجُلُ بِصلَة، ويُنْفِقُ نَفَقَةً لله وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، فَكُتِبَ لَهُ سرّاً، ثُمَّ يَذْكُرُها فتُمْحى، فَتُكْتَبُ لَهُ علانيةً، ثُمَّ يَذْكُرُها فَتُمْحى، وتُكْتَبُ لَهُ رِياءً**»[3].

---

(١) مصباح الكفعميّ: ١٣٨.

(٢) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٢١٩/١٩.

(٣) الكافي: ٧٢٥/٣، ح/٢٥٠٢.

وعن الإمام الصّادق عليه السلام أنَّه قال: «**مَنْ عَملَ حَسَنَةً سرّاً كُتبَتْ لَهُ سرّاً، فَإذا أَقَرَّ بها مُحيَتْ، وكُتِبَتْ جَهْراً، فَإذا أَقرَّ بها ثانياً مُحيَتْ، وكُتِبَتْ رياءً**»[1].

٤- ثمَّ في الآية إعلام خطير لبني الإنسان، وهو أنَّ الأعمال كلّها محفوظة عند الله لا يعزب عنها مثقال ذرّة: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ**﴾[2].

فالأعمال الصّالحة إذن لا بدَّ لها من الرّعاية والمحافظة والاستمرار والمداومة على الإخلاص، والتّجرّد لله؛ لحفظها من العُجب والرّياء، وإدامتها بالإخلاص، وتنميتها بالرّجاء؛ لقبولها عند الله سبحانه وتعالى، والحذر من تعريضها للإحباط.

ثمّ في الآية الأخرى نهيٌ عن نسيان الله عزَّ وجلّ الَّذي يؤدّي إلى نسيان النَّفس، وهنا أمرٌ عجيبٌ ومثيرٌ للتّساؤل، كيف ينسى الإنسان نفسه، وهي هو؟!

في القرآن الكريم وردت حول النَّفس أربعة تعابير وهي: **الخسران، وظلم النّفس، الضّلال، النّسيان.**

الأوَّلُ: الخُسْرانُ:

وهو انتقاص رأس المال، ورأس مال الإنسان عمره، فمن ضيَّع عمره فيما لا طائل فيه فقد خسر نفسه، وقد يكون الخسران في الأعيان الخارجيّة كالمال،

(١) ابن فهد الحلّيّ، عدّة الدّاعي: ٢٦٩.

(٢) آل عمران: ٣٠.

والجاه، والمنصب في الدُّنيا، وقد يكون في المقتنيات المعنويّة كالصّحّة النّفسيّة، والسَّلامة العقليّة، والحسن الأخلاقيّ، والثّبات الإيمانيّ، والرّضوان الإلهيّ، يقول الله تعالى:

﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[1].

والعجيب في الأمر أنَّ أغلب الآيات الّتي ذكرت الخسران كان في خسران المقامات المعنويّة من دون المقتنيات المادّيّة، قال الرّاغب في مفرداته: «وكلّ خسران ذكره الله تعالى في القرآن، فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلّق بالمقتنيات الدُّنيويّة والتّجارات البشريّة»[2].

فخسران النَّفس إذن هو نقصانها في مراتب الكمال الإنسانيّ كالإيمان الصّلب، ونفاذ البصيرة، وسلامة القلب، والخلق الحسن، والاستقامة السّلوكيّة، والعقل المتين، والدّين القويّ... وهذا النّقصان قد يؤدّي بالنّتيجة إلى سوء العاقبة إذا لم تتدارك الإنسان رحمة ربّه.

الثّاني: ظُلْمُ النَّفْسِ:

وهذا من أعاجيب الطرح كيف يظلم الإنسان نفسه، وهي أحب مخلوق إليه؟!

والحقيقة أنَّ (ظلم الإنسان لنفسه) مفهوم إسلاميٌّ عقائديٌّ لم يُطرح في أيّ مدرسة فكريّة أخرى؛ ففي العقيدة الإسلاميّة: إنَّ كلّ ما يعمل الإنسان محفوظ في

(١) الزّمر: ١٥.

(٢) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٢٠٨، (خسر).

كتاب أعماله، وله تأثير في مستقبله الأخرويّ، فإن عمل خيراً فلنفسه، وإن عمل سوءاً فعليها.

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[١].

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[٢].

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[٣].

ومفهوم ظلم الإنسان نفسه جاء في كثير من آيات القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٤].

﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾[٥].

ظلم الانسان لنفسه هو تعبير عمّا يفعله الإنسان من سوء، أو تكذيب حكم شرعيّ، أو كفر بمعتقد دينيّ سليم، أو تجاوز لحدود شرعيّة، كلّ ذلك يعود على الإنسان بشرّ يجلبه على نفسه بنفسه، يقول تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا

(١) فصّلت: ٤٦.

(٢) الجاثية: ١٥.

(٣) الأنعام: ١٠٤.

(٤) يونس: ٤٤.

(٥) الأعراف: ١٧٧.

كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾[(١)].

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[(٢)].

﴿كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾[(٣)].

الثَّالِثُ: الضَّلالُ:

وهو العدول عن الصّراط المستقيم، ويضادّه الهداية، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾[(٤)].

فالضّالّ هو الّذي خرج من جادّة الصّواب، وبقي ضائعا متذبذباً لا يقف على أرضيّة صلبة، فالضَّلال إذن هو الضّياع في متاهات الحياة نتيجة افتقار الإنسان لعقيدة سليمة، أو لاعتناقه عقيدة فاسدة، أو لجهله بأحكام الشَّريعة، وهو «مساوق لمعنى التّيه، وإضاعة الطَّريق، ويختلف المراد منه باعتبار متعلّقه، فيقال: ضلَّ الرّجل عن التّوحيد إذا عبد غير الله، وضلَّ عن الشَّريعة إذا جهل أحكامها أو خالفها، وضلَّ عن الجادّة إذا تاه، وضلَّ عن الصّواب: إذا خبط وخلط، وضلَّ عن الرُّشد إذا تحيَّر في أموره، وضدّ الضّلال هو الهدى، ويختلف المراد منه أيضاً باعتبار متعلّقه على نهج ما تقدّم»[(٥)].

---

(١) الأنعام: ٧٠.

(٢) الشّورى: ٣٠.

(٣) المدّثر: ٣٨.

(٤) يونس: ١٠٨.

(٥) موسوعة العلامة البلاغيّ (الهدى إلى دين المصطفى): ١٥٥/٣.

وهكذا يبقى الضّالّ ضائعاً كالرّيشة في مهبّ الرّياح تلقي به حيثما تشاء، كما يلقي به هواه في كلّ واد سحيق؛ ولذلك أسباب كثيرة لا مجال لذكرها.

الرّابعُ: النِّسْيانُ:

وهذا أعجب من الجميع، فكيف ينسى الإنسان نفسه وهي هو، وهو هي؟!

والجواب: إنَّ الإنسان كما يقول علماء الأخلاق روح وبدن، أو سرّ وعلن، فحقيقة الإنسان ليس بهذه الكومة من اللّحم والدّم والعظام والأعصاب، وإنَّما هذا هيكل وخادم للرّوح الإلهيّة، والنّفخة الرّبّانيّة فيه الّتي منحته الفطرة، والإرادة، والشّعور، والإحساس، والتّعقّل، والتَّفكير.... وهذه هي حقيقة الإنسان، فإذا تجرّد منها فقدْ فَقَدَ إنسانيّته، فعندما يتغلّب ترابُ البدن الكثيف على أنوار الرّوح اللّطيفة يصبح البدن أميراً حاكماً، والرّوح خادمة ذليلة؛ ولذا يعيش الذّلّ والحقارة، ويفقد هدفه في الحياة، ويجهل دوره فيها، ولا يعرف قدره؛ ولهذا أنزله الله منزلة أحطّ من الأنعام، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(١).

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٢).

فشخصيّة الإنسان الحقيقيّة ليس في هذا البدن، وما يحمل من شهوات وغرائز وأهواء، وإنّما في ما يحمل من أفكار، وأخلاق، وعقائد، وأهداف، وقيم

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) الفرقان: ٤٤.

رساليّة في حياته..

فإذا أخطأ الإنسان في تحديد دوره في الحياة، وانجرف في تيّار الشَّهوات، وانحدر إلى حضيض الغرائز، فإنَّ ذلك ينسيه ربّه الَّذي خلقه، وحينئذٍ ينسيه الله نفسه، وتضيع شخصيّته، ولا يعرف ما دوره وما قيمة حياته، قال الإمام الحسين عليه السلام مناجياً ربّه في دعاء عرفة: «**ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ؟ وَمَا الَّذي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟ لَقَدْ خابَ مَنْ رَضي دُونَكَ بَدَلاً، وَلَقَدْ خَسرَ مَنْ بَغى عَنْكَ مُتَحَوِّلاً، كَيْفَ يُرْجى سِواكَ، وَأَنْتَ ما قَطَعْتَ الإِحْسانَ؟ وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ ما بَدَّلْتَ عادَةَ الامْتِنانِ؟**»(١).

كَيْفَ يَجِدُ نَفْسَهُ؟

الجواب عن هذا السّؤال يحتاج إلى بحوث مفصّلة لا مجال لولوجها، نكتفي بما أوجزه الشّهيد مطهّري قدس سره في ثلاثة شروط، نوردها بالمعنى:

الأوّل: أن لا يحكم غرائزه البدنيّة في نفسه الواقعيّة، وأن يعلم أنَّ شخصيّته هي غير هذه الكتلة من التّراب.

الثّاني: أن لا يبدّل غايته الواقعيّة، وهدفه الإنسانيّ السّامي بهدف منحرف.

الثّالث: أن يعرف خالقه من خلال معرفته لنفسه، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**»(٢)، فسبب نسيان الإنسان نفسه إذن هو نسيان الله تعالى: ﴿**ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ**

(١) السّيّد ابن طاووس، إقبال الأعمال: ٦٦١.

(٢) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٢، ح/٤٦٣٧.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(١).

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٢).

---

(١) التّوبة: ٦٧.

(٢) الحشر: ١٩.

كَيْفَ يَسْتَثْمِرُ الإِنْسانُ يَوْمَهُ؟

«اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآله، وَوَفِّقْنا في يَوْمنا هذا وَلَيْلَتنا هذه، وَفي جَميع أَيّامنا: لاسْتعْمال الْخَيْر، وَهجْرَان الشَّرِّ، وَشُكْر النِّعَم، وَاتِّباع السُّنَن، وَمُجانَبَة الْبدَع، وَالأَمْر بالْمَعْروف، وَالنَّهْي عَن الْمُنْكَر، وَحياطَة الإِسْلام، وَانْتقاص الْباطل وَإذْلاله، وَنُصْرَة الْحَقِّ وإعْزازه، وَإرْشاد الضَّالِّ، وَمُعاوَنَة الضَّعيف، وَإدْراك اللَّهيف»[1].

كيف يخطّط الإنسان لاستثمار أوقاته كلّها ليلاً ونهاراً؟ وكيف يخضع أوقاته وأعماله للعناوين الكبرى؟ حتّى تكون كلّ لحظة من لحظات العمر مملوءة بقيمة إنسانيّة عالية من قيم الإسلام فيما يريد الله لنا أن نعمله، أو نتركه؛ ليكون من الكادحين إليه تعالى، فيكون يومنا ليلاً ونهاراً طافحاً بالخيرات الَّتي نعملها بتوفيق الله ورعايته، قال عليه السلام: «وَامْلأْ لَنا ما بَيْنَ طَرَفَيْه: حَمْداً، وَشُكْراً، وَأَجْراً، وَذُخْراً، وَفَضْلاً، وَإحْساناً»[2].

فهنا يتوسّل بالله تعالى أن تكون أوقاته طافحة بالحمد، والشّكر، والإحسان، والادّخار ليوم ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3]، والنَّصُّ

---

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ٤١، دعاء: ٦.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، مصباح المتهجّد: ٢٤٦.

(٣) الشّعراء: ٨٨-٨٩.

الشّريف يعطي العناوين الكبرى في ربط الإنسان بالله تعالى: بالحمد لله، والشُّكر له، وبالفضل والإحسان طلباً للأجر والثّواب، حتّى ينال الإنسان في كلّ ساعة من ساعات اللّيل والنَّهار نصيباً من عبادة الله تعالى: «**اللّهمَّ، اجْعَلْ لنا في كُلِّ ساعةٍ منْ ساعاته حَظّاً مِنْ عِبادِكَ، ونَصيباً مِنْ شُكْرِكَ، وَشاهِدَ صِدْقٍ مِنْ مَلائكَتِكَ**»(١).

فيجب على الإنسان الكادح إلى الله إذن أن لا يُضيع لحظةً واحدةً ينفصل بها عن الله تعالى، وإنَّما في كلّ ساعة له حظٌّ من العبادة تقرّبه إلى الله، فيشكر الله على توفيقه له، ويشهد له بذلك شاهد صدق من ملائكة الله تعالى... وهكذا يعمّق الإنسان الإحساس بالزّمن والمسؤوليّة عن عمره، «وهذا الإحساس العميق بوعي الزّمن للإنسان، هو الَّذي يفرض عليه وعي مسؤوليّة الزّمن لديه، فلا يهمله في حركة الحاضر نحو المستقبل، ولا يتوقّف أمامه؛ ليحسّ بالسَّأم والملل منه انتظاراً لمروره بسرعة، أو ليراه عبئاً ثقيلاً عليه؛ ليعمل على قتله أو قطعه، أو ليضيّعه على أساس أن تنتهي مرحلة دون مرحلة من دون مسؤوليّة في انتظار مرحلة أخرى بعيداً عن وعي المرحلة السّابقة»(٢).

الْعَناوينُ الْكُبْرى:

لقد عرض الإمام عليه السلام العناوين الكبرى في حياة الإنسان، وهي أربعة عشر عنواناً شموليّاً، وفي الجميع ترابط كبير بينها، فمنذ أن يفتح المرء عينه في الصَّباح يتوسّل بالله تعالى أن يوفّقه للعمل في هذه العناوين الكبرى الّتي «تشمل كلّ القيم

(١) الصّحيفة السّجّاديّة الكاملة: ٤١، دعاء: ٦، دعاؤه عند الصّباح والمساء.

(٢) السّيّد محمّد حسين فضل الله، آفاق الرّوح: ١٦٧/١.

الأخلاقيّة والحركيّة والاجتماعيّة الَّتي تستوعب كلّ أعمال الإنسان في طبيعتها الإيجابيّة، من موقع الإرادة الإسلامية المتحرّكة في خطّ المسؤوليّة»[١].

وهذه المفردات هي:

أوّلاً: استِعْمالُ الْخَيْرِ وَهِجْرانُ الشَّرِّ:

وهما عنوانان متنافيان، فمن استعمل الخير هجر الشّرّ، والعكس صحيح، والخير والشّرّ معنيان كلّيّان يندرج تحتهما جميع الأعمال المتفرّعة عنهما، فالخير معنى كلّيّ جامع شامل لكلّ الأعمال الصّالحة كالبرّ، والإحسان، والتّوبة، والتّفضّل، والإخلاص... وتندرج تحته كلّ مكارم الأخلاق كالعفّة، والشّجاعة، والعدل، والحكمة، وما يتفرّع عنهما، والمؤمن بالله تعالى ينبغي أن لا يزهد بفعل من أفعال الخير مهما كان صغيراً، ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ** ﴾[٢].

ومن هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**افْعَلوا الْخَيْرَ، وَلا تَحْقِروا مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنَّ صَغيرَهُ كَبيرٌ، وَقَليلَهُ كَثيرٌ، وَلا يَقولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنَّ أَحَداً أَوْلى بِفِعْلِ الْخَيْرِ مِنّي، فَيَكونَ وَاللهِ كَذلِكَ، إِنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلاً، فَمَهْما تَرَكْتُموهُ مِنْهُما كَفاكُموهُ أَهْلُهُ**»[٣].

وكذلك الشّرّ تندرج تحته الأعمال السّيّئة كلّها، وذلك «لمّا كان الشّرُّ ضدّ الخير كان مقابلاً له... فهو إمّا شيء ظلمانيّ من أعمال القلب زائد على الكفر وغيره

---

(١) آفاق الرّوح: ١٥١/١.

(٢) الزّلزلة: ٧.

(٣) نهج البلاغة: ٥٥٦، قصار الحكم: ٤١٠.

من الصّفات الذّميمة، أو عدم منقسم إلى شرّ مطلق كعدم العقل، وإلى شرّ مقيّد كعدم غيره من الصّفات الكماليّة، أو كلّيٌّ يندرج تحته جمع القبائح، ويؤيّده قول أمير المؤمنين عليه السلام: **الشَّرُّ جامِعٌ لِمَساوِئِ الْعِيوب**»[1]، كالقتل، والزّنا، والقذف، وأكل الحرام، والفحش، وتنضمّ تحته الأخلاق السّيّئة الأخرى كلّها كالتّكبّر، والعجب، والفحش، والصّلف، والبخل، والشّحّ، واللّجاجة، والإسراف، والتّبذير، والخنوع، والجبن... الخ.

وحين يدعو الإنسان بهذا الدُّعاء يستحضر في ذهنه التّوحيد والشّرك، والإيمان والكفر، والطّاعة والتّمرّد، والصّدق والكذب، والأمانة والخيانة، والعفّة والفسوق، والغشّ والنّصح، والصّداقة والعداوة، واللّين والقسوة، والتّواضع والتّكبّر، والصَّلاح والفساد، والعدل والظّلم... ونحو ذلك من العناوين الإيجابيّة والسّلبيّة، فاستحضار هذه العناوين المتنافية يدعو المؤمن أن يستمطر رحمة الله وتوفيقه؛ ليسدّده لاختيار الخير واجتناب الشَّرّ، وهذا الاستحضار نفسه، وتصوّر آثار كلّ منهما على مسيرة الإنسان في حاضره ومستقبله له دورٌ في تقويم شخصيّة المؤمن وتكاملها.

ثانياً: شُكْرُ النِّعَمِ المادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ:

والشُّكر معنى جامع بين عمل القلب، واللّسان، واليد، فشكر القلب تصوّر النّعم، وشكر اللّسان إبراز هذا التّصوّر بالثّناء، وشكر اليد هو العمل بها طاعة لله، يقول تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[2].

(١) المولى محمّد صالح المازندرانيّ، شرح أصول الكافي: ٢١٣/١-٢١٤.

(٢) سبأ: ١٣.

فالشُّكر شعورٌ وامتنان، بل وإحساس عميق بأفضال المحسن، وإظهار هذا الشُّعور إلى الواقع الخارجيّ، وتجسيده إلى عمل أراده المحسن من إحسانه؛ ليحقّق أهدافه الَّتي أرادها الله من إنعامه، وأجمع كلمة تدلّ على الشُّكر المطلوب ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَد اصْطَنَعَ عِنْدَنا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنا**»(١).

والإنسان الشّكور هو الَّذي طُبِعَ على مقابلة المحسن بالإحسان حتّى تأصّلت هذه الحالة في نفسه، فأصبحت طبعاً وعادةً وسلوكاً، وهي خصلة أخلاقيّة عالية، وخلق من الخلق الإلهيّ العظيم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢).

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾(٣).

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٤).

ثالثاً: اتِّباعُ السُّنَنِ وَمُجانَبَةُ الْبِدَعِ:

وهما كالخير والشر معنيان متضادّان، وفعلان متخالفان، فمن اتَّبع النَّهج الشّرعيّ الَّذي أنزله الله تعالى فإنَّه سوف يجانب البدع، ويتّبع السُّنن الَّتي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطّاهرين من سنن قوليّة، أو فعليّة، أو إمضائيّة للواقع من خلال التّأدّب بآدابهم، والتّخلّق بأخلاقهم، والاتّصاف بما اتّصفوا به، فقد جاء

(١) نهج البلاغة: ٤٤٨، كتاب: ٥١.

(٢) الشّورى: ٢٣.

(٣) التّغابن: ١٧.

(٤) فاطر: ٣٤.

في وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «... وَالسّادسَةُ الأَخْذُ بسُنَّتي في صَلاتي وَصيامي وَصَدَقَتي، أَمّا الصَّلاةُ فَالْخَمْسونَ رَكْعَةً؛ وَأَمّا الصَّوْمُ فَثَلاثَةُ أَيّامٍ في الشَّهْرِ: الْخَميسُ في أَوَّله، وَالأَرْبعاءُ في وَسَطه، وَالْخَميسُ في آخره؛ وَأَمّا الصَّدَقَةُ فَجُهْدُكَ حتّى يُقالَ: أَسْرَفْتَ وَلَمْ تُسْرِفْ؛ وَعَلَيْكَ بصَلاة اللَّيْل، وَعَلَيْكَ بصَلاة الزَّوال، وَعَلَيْكَ بصَلاة الزَّوال، وَعَلَيْكَ بصَلاة الزَّوال، وَعَلَيْكَ بتلاوَة الْقُرْآن على كُلِّ حال، وَعَلَيْكَ برَفْع يدَيْكَ في صَلاتكَ وَتَقْليبهما، وَعَلَيْكَ بالسِّواك عنْدَ كُلِّ وُضوء، وَعَلَيْكَ بمَحاسن الأَخْلاق فَارْكَبْها، وَمَساوي الأَخْلاق فَاجْتَنبْها، فَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَلا تَلومَنَّ إلا نَفْسَكَ»[1].

وجاء عن الإمام الصّادق عليه السلام: «إنّي لأَكْرَهُ للرَّجُلِ أَنْ يَموتَ، وَقَدْ بَقيَتْ عَلَيْه خُلَّةٌ منْ خلال رَسول الله صلى الله عليه وآله لَمْ يَأْتها»[2].

وورد عن الإمام العسكريّ عليه السلام: «مَنْ تَأَدَّبَ بِآداب الله عَزَّ وَجَلَّ أَدّاهُ إِلى الْفَلاحِ الدّائمِ»[3].

وأمّا مجانبة البدع، فأمر مشروط باتّباع السُّنَن سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، ومخالفة البدع ورفضها رفضاً عمليّاً، عَنْ أَبي جَعْفَر عليه السلام قالَ: «قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: أَلا إنَّ لكُلِّ عبادَة شرَّةً[4]، ثُمَّ تَصيرُ إلى فَتْرَة فَمَنْ صارَتْ شرَّةُ عبادَته إلى سُنَّتي فَقَد اهْتَدى، وَمَنْ خالَفَ سُنَّتي فَقَدْ ضَلَّ، وَكانَ عَمَلُهُ

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٥/١٩٦-١٩٧، ح/١٤٨٤٨.

(٢) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٣/٤٦٦، ح/٤٦١٥.

(٣) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٧.

(٤) الشّرّة: النّشاط والرّغبة.

في تبابٍ»[١].

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**طوبى لمَنْ تواضعَ لله عزَّ ذكْرُه، وزَهدَ فيما أحلَّ اللهُ لهُ منْ غَيْرِ رَغْبَةٍ عَنْ سيرتي، ورفَضَ زهْرَةَ الدُّنْيا منْ غَيْرِ تحوُّلٍ عَنْ سنَّتي، واتَّبعَ الأَخْيارَ منْ عتْرَتي منْ بَعْدي، وجانَبَ أهْلَ الخُيَلاءِ والتَّفاخُرِ والرَّغْبَةِ في الدُّنْيا، المُبْتَدعينَ خلافَ سنَّتي، العاملينَ بغَيْرِ سيرتي**»[٢].

والبدع جمع بدعة: وهي إحداث أمر لا أصل له في الإسلام كابتكار عقيدة أو حكم، أو رأي لا أصل له في كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإدخال ما استحدث في الدّين بزعم أنّه منه، وبعبارة أخصر: البدعة إدخال شيء في الدّين ليس منه، وقد دلّت الأحاديث الشّريفة أنَّ البدع تقابل السّنن وتضادّها، قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**السُّنَّةُ ما سَنَّ رسولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، والْبدْعَةُ ما أُحْدثَ منْ بَعْده**»[٣].

وفي حديث آخر: «**ما أَحْدَثَ قَوْمٌ بدْعَةً إلا رُفعَ مثْلُها منَ السُّنَّة**»[٤].

وورد عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه قال: «**لا يَذْهَبُ من السُّنَّة شَيْءٌ، حتّى يظْهَرَ منَ الْبدْعَة مثْلُهُ، حتّى تذْهَبَ السُّنَّةُ، وتَظْهَرَ الْبدْعَةُ، حتّى يَسْتَوْفيَ الْبدْعَةَ مَنْ لا يَعْرفُ السُّنَّةَ، فَمَنْ أَحيا مَيْتاً منْ سُنَّتي قَدْ أُميتَتْ، كانَ لَهُ أَجْرُها، وأَجْرُ مَنْ عَملَ بها، منْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ منْ أُجورهمْ شَيْئاً، وَمَنْ أَبْدَعَ بدْعَةً، كانَ**

(١) الكافي: ٢٢١/٣، ح/١٦٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠٤/١٥، ح/١٥٠٠٥.

(٣) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ١٥٥.

(٤) مسند الإمام أحمد: ١٧٣/٢٨، ح/١٦٩٧٠.

عَلَيْه وِزْرُها، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِها لا يَنْتَقِصُ مِنْ أَوْزارِهِمْ شَيْئاً»[١].

وقد قسّم العلماء البدع على أقسام عدَّة نذكر منها:

أ- الواجب: كصناعة الأسلحة الحديثة للدّفاع عن الإسلام إذا خيف ذهاب بيضته، وما أشبه ذلك.

ب- المحرّم: وهو كلّ بدعة تناولتها قواعد التَّحريم، و أدلّته من الشّريعة كتقديم غير المعصوم عليه، واستئثار ولاة الجور بالأموال، والجماعة في النّوافل، وتوريث الأباعد، ومنع الأقارب، وتولية المناصب غير الصّالح لها ببذل أو إرث غيره، وأفحشه التَّشريع مقابل شريعة الله تعالى.

ج- المستحبّ: وهو ما شملته أدلّة النَّدب كبناء المدارس والمستشفيات ودار الأيتام.

د- المكروه: وهو ما شملته أدلّة الكراهة مثلاً كالتَّنعّم الزّائد في المآكل والمشارب والمساكين.

هـ - المباح: قال الجوهريّ: «أَبَحْتُك الشّيء أحللتُه لك، والمباح خلاف المحظور»[٢]، وهو لغةً اسم مفعول من أباح الرّجل ماله إذا أذن في أخذه وتركه، وجعله مطلق الطّرفين، ولذلك عرّفوا المباح بما استوى طرفاه، فلا يثاب على فعله، ولا يعاقب على تركه[٣]، فالمباح «هو الَّذي لا يستحقّ بفعله المدح... وحدّه: ما عرف فاعلُه حسنَه، أو دلَّ عليه»[٤]، وقيل: «هو أن يكتسب بما لا يضرّه تركه، ولا

---

(١) المتّقي الهنديّ، كنز العمال: ٢٢٢/١، ح/١١١٩.

(٢) الجوهريّ، الصّحاح: ٣٥٧/١.

(٣) ينظر: الطّراز الأوّل للسّيّد علي خان المدنيّ الشّيرازيّ: ٢٨٢/٤، (باح)، ورياض السّالكين للسّيّد أيضاً: ٢٢١/٦.

(٤) القاضي عبد الجبّار، شرح الأصول الخمسة: ٣٢٧.

يقيم بأوده، بل له غنى عنه»[1].. فكلّما دخل تحت أدلّة الإباحة كنخل الدَّقيق، وغيره ممّا لا يخالف كتاب الله وسنّة رسوله، وعلى كلّ حال: إنّ المؤمن ملزم بمخالفة كلّ ما خالف كتاب الله وسنّة رسوله، ولا أصل له في الإسلام ممّا يخالف العقل والشَّرع، وليس من البدعة ما استحدث من أمور حديثة لوسائل النَّقل والتَّسليح، وتكبير الصَّوت، والهاتف الصّوتيّ، والكتابيّ، والمذياع، والتّلفاز ما دام فيه خدمة شرعيّة، ويمكن تسخيره لما يخدم مصلحة الإسلام والمسلمين.

رابعاً: الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ:

وهما فرعان من فروع الدّين ولهما أحكام فقهيّة خاصّة يجب أن يلتزم بهما كلّ مسلم قادر على الأمر والنّهي؛ لمراقبة الواقع الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسّياسيّ والأمنيّ، ويشمل الجانب الاجتماعيّ والجانب الفرديّ.

وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحفظ الحرمات الدّينيّة، وتقام الحدود، وتؤدّى الفرائض، وتمنع المفاسد، ويؤخذ على أيدي المفسدين، وتاركهما في بعض الرّوايات لا دينَ له، مُعَرّضٌ لنقمة الله عزَّ وجلَّ وسخطه، وللحديث عن هذه الفريضة المهمّة مجال آخر إن شاء الله.

خامِساً: حِياطَةُ الإِسْلامِ:

الحياطة لغة: من قولهم: «حاطه يحوطه حوطاً وحياطة: إذا حفظه وصانه وذبَّ عنه، وتوفَّر على مصالحه، ومنه الدَّعاء: «**وَاجْعَلْني في حياطَتكَ**»، وحياطة الإسلام: حفظه وحمايته، ومنه حديث عليّ عليه السلام: «**أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ أَحْوَطَهُمْ**

---

(١) الدّيلميّ، المراسم العلويّة: ١٧١.

على رَسول الله ﷺ» أي أحفظهم وأحماهم له»[1].

فحياطة الإسلام حفظه، والذَّبُّ عنه، وتعهّده من كلّ ما يستهدف تحريفه، أو تعطيل أحكامه، أو تشويه عقائده، فسلامة الإسلام هدفٌ ووسيلة في آن واحد؛ هدف لأنَّه دين الله تعالى الّذي يجب أن يلتزم به الجميع، ويحكم سلوكهم؛ ووسيلة لأنَّ سلامته تعني سلامة مسيرة الحياة البشريّة، وقيادتها لله عزَّ وجلَّ، قال سيّد الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَما راعَني إلا انْثيالُ النّاس**[2] **على فُلان يُبايعونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدي حَتّى رَأَيْتُ راجعةَ النّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإسْلامِ، يَدْعونَ إلى مَحْقِ دينِ مُحَمَّد** ﷺ، **فَخَشيتُ إنْ لَمْ أَنْصُرِ الإسْلامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرى فيه ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكونُ الْمُصيبَةُ به عَلَيَّ أَعْظَمَ منْ فَوْت ولايَتكُمُ الَّتي إنَّما هيَ مَتاعُ أَيّامٍ قَلائلَ، يَزولُ مِنْها ما كانَ كَما يَزولُ السَّرابُ، أَوْ كَما يَتَقَشَّعُ السَّحابُ، فَنَهَضْتُ في تِلْكَ الأَحْداثِ حَتّى زاحَ الْباطِلُ وَزَهَقَ، وَاطْمَأَنَّ الدّينُ وَتَنَهْنَهَ**[3]»[4].

وقال عليه السلام في شأن الخلافة المسلوبة عنه: «**لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنّي أَحَقُّ النّاسِ بِها مِنْ غَيْري؛ وَوَالله لأُسْلِمَنَّ ما سَلِمَتْ أُمورُ الْمُسْلمينَ، وَلَمْ يَكُنْ فيها جَوْرٌ إلا عَلَيَّ خاصَّةً، الْتِماساً لأَجْرِ ذلِكَ وَفَضْلِه، وَزُهْداً فيما تَنافَسْتُموهُ مِنْ**

---

(١) الشّيخ الطّريحيّ، مجمع البحرين: ٢٤٣/٤.

(٢) انثيال النّاس، يقال: انثال عليه النّاس من كلّ وجه، أي اجتمعوا وانصبّوا.

(٣) قال الفيروزآباديّ: «نهنهه عن الامر فتنهنه: كفَّه وزجره، فكفّ» القاموس المحيط: ٢٦٧/٤، أراد عليه السلام أنَّه قد ثبت في موضعه، واستقرّ على أصالته، وأصبح في مأمن من التّحريف.

(٤) نهج البلاغة: ٤٧١، كتاب: ٦٢.

زُخْرُفِه وزِبْرِجِه[(١)]»[(٢)].

إنَّ حماية الإسلام من هجوم الأعداء ثقافيّاً أو فكريّاً أو اقتصاديّاً أو عسكريّاً مسؤوليّة كلّ مسلم اعتنق الإسلام عقيدةً ونظاماً في الحياة، ولا يحقّ له أن يتنصّل عنها بحال من الأحوال، فحياطة الإسلام: «نصرته، والقيام بأمره، والذّبّ عنه، وصيانته عن وصمات الشّياطين، وتبديلهم، وتحريفهم، وتأييده بإظهار حججه، وإقامة براهينه، ونفي الشُّبهات عنه، وهداية النّاس إليه»[(٣)]، والعمل الجادّ على التَّعريف به، وتوضيح عقائده، وترويج أحكامه بين النّاس، والجدّ بقدر المستطاع؛ لتحكيم شرائعه في الحياة البشريّة.

سادِساً: انْتِقاصُ الْباطِلِ وَإِذْلالُهُ:

والباطل كلّ ما سوى الإسلام من عقيدة أو شريعة، أو ما خالفه من عادات وأعراف وتقاليد، فكلّ ما يتنافى مع شريعة الله تعالى باطل، وبناءً على هذا من واجب المسلم أن يعمل لإظهار عيوب، ومفاسد الاتّجاهات الباطلة سواء كانت أدياناً، أو مذاهبَ فكريّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة، والرَّدّ عليها، وتفنيد ما يروّجه دعاتها من أكاذيب وأوهام، وأقبح الباطل وأخطره ما ألبس ثوب الإسلام، وستر تحته الكفر والشّرك والنّفاق.

---

(١) «أهل الزّخرف: الذّهب، وكذلك الزّبرج بكسرتين بينهما سكون، ثمَّ أطلق على كلّ مموّه مزوّر، وأغلب ما يقال الزّبرج على الزّينة من وشي أو جوهر، ومن زخرفه ليس للبيان، ولكن حرف جرّ للتَّعليل، أي إنَّ الرّغبة إنّما كان الباعث عليها الزّخرف والزّبرج، ولولا لزوم ذلك للإمارة ما كان فيها التَّنافس»، من شرح الإمام محمّد عبده.

(٢) نهج البلاغة: ١٢٢، خطبة: ٧٣.

(٣) السّيّد على خان المدنيّ الشّيرازيّ، رياض السّالكين: ٢٧٠/٢.

إنَّ القيام بذلك يحتاج إلى رؤية ثاقبة، وهدفيّة واضحة، ووعي للإسلام، ومعرفة لمقتضيات الزَّمان، وإحاطة بما يطرح من نظريّات برّاقة مزخرفة بألفاظ: العلم، والحرّيّة، والتّقدّم، والحداثة، والعصرنة، وغيرها من عناوين لا أصل لها في ميزان العقل والشَّرع، ولا يكفي الانتقاص والتَّوهين، وإنَّما يجب أن يذلّه ويدحره حتّى يعود خاسئاً حقيراً وضيعاً دانياً إلى أسفل السّافلين.

سابعاً: نُصْرَةُ الْحَقّ وَإِعْزازُهُ:

الحقُّ لغةً من المطابقة والموافقة، قال الرّاغب الأصفهانيّ في مفرداته: «أصل الحقّ المطابقة والموافقة كمطابقة رِجْل الباب في حقّه لدورانه على استقامة، والحقُّ يقال على أوجه:

الأوّل: يُقال لموجِد الشَّيء بسبب ما تقتضيه الحكمة؛ ولهذا قيل في الله تعالى هو الحقّ، قال الله تعالى: ﴿ **ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ** ﴾[1]، وقيل بُعَيد ذلك: ﴿ **فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾[2].

والثّاني: يُقال للمُوجَد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال فعل الله تعالى كلّه حقٌّ، وقال تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ** ﴾[3]، وقال في القيامة: ﴿ **وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ** ﴾[4]، ﴿ **لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ** ﴾[5]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **ٱلْحَقُّ مِن**

(١) الأنعام: ٦٢.

(٢) يونس: ٣٢.

(٣) يونس: ٥.

(٤) يونس: ٥٣.

(٥) البقرة: ١٤٦.

﴿ رَّبِّكَ ﴾[١]، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾[٢].

والثّالث: في الاعتقاد للشّيء المطابق لما عليه ذلك الشّيء في نفسه كقولنا اعتقاد فلان في البعث والثّواب والعقاب والجنّة والنّار حقٌّ، قال الله تعالى: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[٣].

والرّابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الّذي يجب كقولنا فعلك حقٌّ، وقولك حقٌّ، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾[٤]، ﴿ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾[٥].

وقولُه عزَّ وجلّ: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[٦]، يصحّ أن يكون المراد به الله تعالى، ويصحّ أن يُراد به الحكم الّذي هو بحسب مقتضى الحكمة، ويقال أحققْتُ كذا أي أثبتّه حقّاً، أو حكمت بكونه حقّاً، وقوله تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾[٧]، فإحقاق الحقّ على ضربين:

أحدهما: بإظهار الأدلّة والآيات كما قال تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾[٨] أي حجّة قويّة.

(١) البقرة: ١٤٧؛ آل عمران: ٦٠؛ هود: ١٧؛ الحجّ: ٥٤؛ السّجدة: ٣؛ يونس: ١٠.

(٢) البقرة: ١٤٩.

(٣) البقرة: ٢١٣.

(٤) يونس: ٣٣؛ غافر: ٦.

(٥) السّجدة: ١٣.

(٦) المؤمنون: ٧١.

(٧) الأنفال: ٨

(٨) النّساء: ٩١.

والثّاني بإكمال الشَّريعة، وبثّها في الكافّة كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾[(١)]»[(٢)].

فالحقُّ إذن ضدّ الباطل ونقيضه، وهو من أسماء الله جلَّ جلاله، وقيل: من صفاته، وفي «حديث التّلبية: «لَبَّيْكَ حَقّاً حَقّاً» أي غير باطل، وهو مصدر مؤكّد لغيره: أي إنّه أكّد به معنى ألزم طاعتك الّذي دلَّ عليه لبَّيك، كما تقول: هذا عبد الله حقّاً، فتؤكّد به، وتكريره لزيادة التَّأكيد»[(٣)].

وقال السّيّد علي خان المدنيّ: «والحقُّ في اللّغة: هو الثّابت الّذي لا يسوغ إنكاره، من حقّ الشّيء يحقّ - من بابي ضرب وقتل - إذا وجب وثبت»[(٤)].

والحقُّ المقصود في الدّعاء هو الإسلام عقيدة ونظاماً؛ لأنَّه هو الحقّ الَّذي أنـزله الله، وجعله منهجاً للحياة، وسبيلاً إلى مرضاة الله، وكلّما يرضى به الله تعالى هو الحقّ، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَوْضَحَ سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَنَارَ طُرُقَهُ، فَشِقْوَةٌ لازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دائِمَةٌ، فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَناءِ لأَيّامِ الْبَقاءِ، قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَحُثِثْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ، فَإِنَّما أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ لا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ**»[(٥)].

ونصرة الحقّ هو الالتزام بدين الله جلَّ جلاله، والدّعوة إليه، والدّفاع عنه بدفع الشُّبهات، وجذب النّاس إليه، والعمل الجادّ على تحكيمه في المجتمع

---

(١) الصّفّ: ٨.

(٢) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ١٧٦، (حق).

(٣) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٤١٣/١، (حقق).

(٤) رياض السّالكين: ٢٧١/٢.

(٥) نهج البلاغة: ٢٥٣، خطبة: ١٥٧.

الإنسانيّ، قال الإمام عليّ عليه السلام: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلاً رأى حقّاً، فأعانَ عليه، أوْ رأى جَوْراً فَرَدَّهُ، وكانَ عَوْناً بالْحَقِّ على صاحبه**»[١].

وقال عليه السلام: «**طَلَبُ التَّعاوُنِ على إقامَةِ الْحَقِّ ديانَةٌ وأمانَةٌ**»[٢].

فنصرة الحقّ إذن معنى شامل لعناوين كثيرة، فالدَّعوة إلى الله تعالى، والدّفاع عن المظلوم، وإرجاع الحقّ إلى أهله، ودفع العدوّ عن التّوهين بالإسلام، أو إضلال المسلمين والإضرار بهم، فكلّ عمل يدفع ظلماً، ويجسّد عدلاً، ويصحّح خطأً في العقائد والأحكام والمفاهيم هو نصرة للحقّ، وإعزاز للإسلام، وإذلال للباطل ودعاته.

ثامناً: إِرْشادُ الضّالِّ:

هو الأخذ بيد الإنسان الَّذي خرج من الصّراط السّويّ إلى دروب الحيرة والضَّلال، وإرجاعه إلى جادّة الصَّواب، وهو عمل يرتبط بالدّعوة إلى الله، وهداية النّاس إلى الإسلام، يقول تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٣].

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٤].

(١) نهج البلاغة: ٣٥٠، خطبة: ٢٠٥.

(٢) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٦٩، ح/٩٧٧.

(٣) فصّلت: ٣٣.

(٤) النَّحل: ١٢٥.

وليس هناك من عمل بعد الإيمان بالله، وأداء فرائضه يداني هداية النّاس إلى سبيل الهدى والرّشاد، فعَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمنينَ عليه السلام: لَمّا وجَّهَني رَسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى الْيَمَن، قال: يا عَليُّ، لا تُقاتلْ أَحَداً حتّى تدْعُوَه، وأَيْمُ الله، لأَنْ يهْديَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - على يدَيْك رجُلاً خَيْرٌ لكَ ممّا طَلَعَتْ عَلَيْه الشَّمْسُ وغَرَبَتْ، ولَكَ ولاؤُه**»(١).

وفي وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام قال: «**يا عَليُّ، لأَنْ يَهْديَ اللهُ على يدَيْكَ نَسَمَةً خَيْرٌ ممّا طَلَعَتْ عَلَيْه الشَّمْسُ**»(٢).

وفي رواية ثالثة، قال صلى الله عليه وآله: «**أَفْضَلُ الأَعْمال بَعْدَ الصَّلاة الْمَفْروضَة، وَالزَّكاة الْواجبَة، وَحجَّة الإسْلام، وَصَوْم شَهْر رَمَضانَ: الْجهادُ في سَبيلِ الله، وَالدُّعاءُ إِلى دينِ الله، وَالأَمْرُ بِالْمَعْروف وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ**»(٣).

تاسعاً: مُعاوَنَةُ الضَّعيفِ:

مادّيّاً أو معنويّاً، فكريّاً أو أخلاقيّاً، فهو من أفضل القربات عند الله، فقد ورد في الحديث: «**عَوْنُكَ الضَّعيفَ منْ أَفْضَلِ الصَّدَقَة**»(٤).

وعون الضّعيف بأيّ شكل من الأشكال مسؤوليّة كلّ إنسان مسلم يمتلك القدرة المادّيّة أو المعنويّة، ثقافيّة أو اجتماعيّة، أو اقتصاديّة، أو عسكريّة، فلا بدَّ من عون الضُّعفاء؛ لئلا يقعوا تحت عناصر الضّعف، وتجرّهم إلى الكفر، أو

---

(١) الكافي: ٩/٤٣٠-٤٣١، ح/٨٢٥٩.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ١١٣/٥.

(٣) مسند الإمام زيد: ٣١٤.

(٤) الكافي: ٩/٤٨٠، ح/٨٣١٦.

الانحراف، أو السّقوط النّفسيّ، أو ما إلى ذلك، فعن الإمام عليّ عليه السلام: **«مَن كانَ من شيعَتنا عالماً بشَريعَتنا، وأَخرجَ ضُعَفاءَ شيعَتنا من ظُلْمَة جَهْلهم إلى نور الْعلْمِ الَّذي حَبَوناهُ [به]، جاء يوْمَ القيامَة، وعَلى رأْسه تاجٌ من نور يضيء لأَهْلِ جَميع تلْكَ الْعَرصات، و[عَلَيْه] حُلَّةٌ لا يُقوِّمُ لأَقلِّ سلْك منها الدُّنيا بحَذافيرها، ثُمَّ يُنادي مُناد [منْ عنْد الله]: يا عبادَ الله، هذا عالمٌ، منْ بَعْض تَلامذَة آل مُحمَّد، ألا فمَنْ أَخْرَجَهُ في الدُّنْيا من حَيْرَة جهْله، فلْيَتشبَّثْ بنوره، ليُخرجَهُ من حَيْرَة ظُلْمَة هذه الْعَرصات إلى نُزَه الْجنان، فيَخْرُجُ كلُّ مَنْ كانَ علَّمَهُ في الدُّنْيا خيْراً، أَوْ فَتَحَ عَن قَلْبه منَ الجهلِ قُفْلاً، أَوْ أَوْضَحَ لَهُ عَنْ شُبْهَة»**(١).

وعن الإمام الهادي عليه السلام قال: **«لَوْلا مَنْ يَبْقى بَعْدَ غَيْبَة قائمكُمْ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ منَ الْعُلَماء الدّاعين إلَيْه، وَالدّالّين عَلَيْه، وَالذّابّين عَنْ دينه بحُجَجِ الله، وَالْمُنْقذين لضُعَفاء عباد الله منْ شباك إبْليس ومردته، ومنْ فخاخ النَّواصب لما بَقي أَحَدٌ إلا ارْتَدَّ عَنْ دين الله، ولَكنَّهُم الَّذين يُمْسكونَ أَزمَّةَ قُلوبِ ضُعَفاء الشّيعَة كَما يُمْسكُ صاحبُ السَّفينَة سُكّانَها، أولئكَ هُمُ الأَفْضَلونَ عنْدَ الله عَزَّ وَجَلَّ»**(٢).

فالإعانة إذن لا تقتصر على الجانب المادّيّ، وإنّما الجانب الأهمُّ هو تقوية هؤلاء فكريّاً، وروحيّاً، وأخلاقيّاً، وعقائديّاً، وقد ورد في فضل الإعانة روايات كثيرة، نذكر منها قول الإمام الصّادق عليه السلام: **«ما منْ مُؤمنٍ يُعينُ مُؤْمناً مظْلوماً**

---

(١) التّفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٣٣٩، ح/٢١٥.

(٢) المصدر نفسه: ٣٤٤-٣٤٥، ح/٢٢٥.

إلا كانَ لَهُ أَفْضَلُ منْ صيامِ شَهْرٍ واعْتكافٍ في الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، ومَا منْ مُؤْمنٍ يَنْصرُ أَخاهُ، وهوَ يَقْدِرُ عَلى نُصْرَتِه إلاّ نَصرَهُ اللهُ في الدُّنْيا والآخرَةِ... ومَا منْ مُؤْمنٍ يَخْذُلُ أَخاهُ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلى نُصْرَتِه إلا خَذَلَهُ اللهُ في الدُّنْيا والآخِرَة»[1].

عاشِراً: إِدْراكُ اللَّهيفِ:

«أدركته: إذا طلبته فلحقته، واللَّهيف والملهوف واللّهفان واللاهف: المظلوم المضطرّ يستغيث ويتحسّر، والمراد بإدراكه: إغاثته، عبّر عنها بذلك لضيق خناقه وشدّة اضطراره، حتّى كان إغاثته إدراك له قبل فواته»[2].

الملهوف هو الَّذي حاصرته الشّدائد، والكربات، والأحزان، والمآسي، وانقطعت عنه السُّبل، وضاقت به الدُّنيا من جميع جوانبه، فصار يستغيث بالله، ويطلب نصرته، وإغاثته، أو الَّذي حاصرته الحاجة والفقر، وبينما هو في هذا الحال تحفّه الشّدائد، وتتوالى عليه الكربات يطلّ عليه إنسان، فينقذه الله على يده ممّا هو فيه من شدّة مرهقة، ويفرج عنه كرباته، وقد عدَّ الإسلام هذا العمل من أفضل القربات عند الله تعالى، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**مِنْ كَفّاراتِ الذُّنوبِ الْعظامِ إغاثَةُ الْمَلْهوفِ، وَالتَّنْفيسُ عَنِ الْمَكْروبِ**»[3].

وعَنْ زَيْدٍ الشَّحّامِ، قالَ: «**سَمِعْتُ أَبا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقولُ: مَنْ أَغاثَ أَخاهُ**

(١) الشَّيخ المفيد، الاختصاص: ٢٧.

(٢) رياض السّالكين: ٢٧٣/٢.

(٣) نهج البلاغة: ٤٨٩، قصار الحكم: ٢٠.

الْمُؤْمنَ اللَّهْفانَ اللَّهْثانَ(١) **عنْدَ جَهْده، فنَفَّسَ كُرْبَتَهُ وأَعانَهُ على نَجاح حاجَته، كَتَبَ اللهُ - عَزَّ وجَلَّ - لَهُ بذلكَ ثنْتَيْن وسَبْعينَ رَحْمَةً من الله، يُعَجِّلُ لَهُ منْها واحدَةً يُصْلحُ بها أَمْرَ مَعيشَته، ويَدَّخرُ لَهُ إحْدى وسَبْعينَ رَحْمَةً لأَفْزاعِ يوْمِ الْقيامَة وأَهْواله»**(٢).

وجاء في رسالة الإمام الصّادق عليه السلام إلى النّجاشيّ حينما ولي من قبل السّلطة على الأهواز: «... **وحَدَّثَني أَبي عَنْ آبائه، عَنْ عَليٍّ** عليه السلام**، عَن النَّبيِّ** صلى الله عليه وآله**، أَنَّهُ قالَ: مَنْ أَغاثَ لَهْفاناً من الْمُؤْمنينَ أَغاثَهُ اللهُ يَوْمَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ، وآمَنَهُ يَوْمَ الْفَزَعِ الأَكْبَر، وآمَنَهُ منْ سوءِ الْمُنْقَلَب»**(٣).

وفي حديث آخر: «**منْ فَرَّجَ عَلى مُؤْمن كُرْبَةً، جَعَلَ اللهُ لَهُ شُعْلَتَيْن منْ نورٍ عَلى الصِّراط، يَسْتَضيئُ بضَوْئها عالَمٌ لا يُحْصيه إلا رَبُّ الْعزَّة**»(٤).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَلا ومَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمن كُرْبَةً منْ كُرَب الدُّنْيا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ اثْنَيْن وسَبْعينَ كُرْبَةً منْ كُرَبِ الآخرَة، واثْنَيْنِ وسَبْعين كُرْبَةً منْ كُرَبِ الدُّنْيا أَهْوَنُها الْمَغْصُ**»(٥).

---

(١) قال المحدّث المجلسيّ: «اللّهفان صفة مشبّهة كاللّهثان، قال في النّهاية: فيه اتّقوا دعوة اللّهثان: هو المكروب، يقال: لهف يلهف لهفاً فهو لهفان، ولهف فهو ملهوف، وفي القاموس: اللّهثان: العطشان، وبالتّحريك العطش، وقد لَهثَ كسَمعَ، وكغراب: حرّ العطش وشدّة الموت، ولَهثَ كمَنَعَ لهثاً ولهاثاً، بالضمّ أخرج لسانه عطشا أو تعباً أو اعياءً»، مرآة العقول: ١١٨/٩.

(٢) الكافي: ٥٠٨/٣-٥٠٩، ح/٢١٦٩.

(٣) موسوعة الشّهيد الثّاني (كشف الرّيبة عن أحكام الغيبة): ٧٩/٢.

(٤) العلامة الحلّيّ، الرّسالة السّعديّة: ١٦٢.

(٥) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ١٦/٤، ح/٤٩٦٨.

وعن الإمام الصّادق عليه السلام أنَّه قال: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرَبَ الآخِرَةِ، وَخَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ، وَهُوَ ثَلِجُ الْفُؤادِ**»(١).

(١) الكافي: ٣/٥١٠، ح/٢١٧١.

الإِسْلامُ دينُ الْوَحْدَةِ

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1].

لقد وردت لفظة (أمّة) في القرآن ٤٩ مرّة، وبمعانٍ لغويّة مختلفة، ولكنَّ المعنى الَّذي يوافق الذّوق الإسلاميّ: أنَّ الأمّة هي الجماعة المرتبطة بعقيدة التّوحيد الإلهيّ الخالص من أيّ شائبة، وتَتَبنّى ما ينبثق منها من نظم ومناهج شرعيّة ربّانيّة، وما ينطلق منها من أهداف مشتركة؛ لتنظّم أعمالها في أساليب شرعيّة معيّنة تضعها على الجادّة الوسطى؛ فتتعاون على البرّ والتّقوى، لتنال سعادتها في الدّنيا والآخرة.

والإسلام في منظومته الفكريّة، والنّظاميّة، والأخلاقيّة يريد أن يبني أمّة مُوَحّدة تجتمع على مقصد واحد في الهدف والوسيلة، ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

وبذلك تكون الجامعة البشريّة متكافلة متضامنة فيما بينها تقوم على أساس الرّابط العقائديّ لا غير، وبمختلف لغاتها وألوانها وأقاليمها، فالتّرابط ظاهرة كونيّة بين مختلف أجزاء الكون من أصغر ذرّة إلى أكبر جرم، وفي التّصوّر الإسلاميّ تبرز روابط عدَّة جسَّدها الإسلام لكي تخلق أمّة واحدة، ومنه الرّوابط الآتية:

أ- التّرابط الكونيّ: في التّصوّر الإسلاميّ العلاقة بالله هي الأساس الَّذي

---

(١) الأنبياء: ٩٢.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

ينطلق منه الإنسان في الكون والحياة، فهو خالقه، ومدبّره، ورازقه، ومحييه، ومميته، وناشره، ومحاسبه، ومثيبه، أو معاقبه، فعليه أن يؤمن به، ولا يشرك بعبادته أحداً، فيخضع لأوامره، وينتهي عن نواهيه بالالتزام بأحكامه، والدَّعوة إلى رسالته، وهذا التّرابط يمتدّ ليشمل المخلوقات جميعاً من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة، وكما أنَّ للإنسان حركةً عموديّة إلى الله فإنّ هذه الحركة تمتدّ أفقيّاً؛ لينعكس ترابطاً اجتماعيّاً بين أبناء المجتمع البشريّ أفراداً، وجماعات، وشعوباً، وأمماً، ودولاً وحكومات.

ب- للتّرابط الاجتماعيّ في الإسلام أرضيّة وبناء علويٌّ، أمّا الأرضيّة، فهي العقيدة الواحدة، الَّتي تجمع أبناء آدم على تصوّر واحد للكون والحياة والإنسانيّة، واتّخذت لذلك صوراً وأساليب عدّة، نذكر منها:

١- في التّرابط الشّعوريّ التّكوينيّ، ففي الفكر الإسلاميّ أنَّ الله خلق الإنسان من طينة واحدة، سوّاها، وعدَّلها، ونفخ فيها من روحه، ومن هنا فإنَّ البشر جميعاً يعودون إلى أب واحد وهو آدم، وأمّ واحدة وهي حواء، وهذا التّصوّر الواقعيّ يجعل أبناء البشر يشعرون بالأخوّة؛ لأنَّهم أبناء لأب واحد، فلا فرق بينهم إذن، وهذا ما دلَّ عليه الحديث المشهور عنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في حجّة الوداع: «**أيُّها النّاسُ، إنَّ ربَّكُمْ واحدٌ، وإنَّ أباكُمْ واحدٌ، كُلُّكُمْ لآدَمَ، وآدَمُ منْ تُرابٍ، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وليْسَ لعرَبيٍّ على عَجْميٍّ فَضْلٌ إلا بالتَّقْوى، ألا هَلْ بلَّغْتُ؟**» قالوا: «نعم»، قال: «**فَلْيبلِّغِ الشّاهدُ الْغائبَ**»[1].

٢- والتَّطبيق العمليّ لهذا المفهوم جاء في أروع صورة رسمتها الأحاديث

(١) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٣٤.

الشَّريفة كقوله ﷺ: «**الْخَلْقُ عيالُ الله، فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إلى الله مَنْ نَفَعَ عِيالَ الله، وَأَدْخَلَ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ سُروراً**»(١).

وجاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لمالك الأشتر: «**وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ للرَّعِيَّة وَالْمَحبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بهِمْ، وَلا تَكونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضارياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفان: إِمّا أَخٌ لَكَ في الدِّينِ، وَإِمّا نَظيرٌ لَكَ في الْخَلْقِ**»(٢).

٣- سنَّ الإسلام مفهوم الأخوّة الإيمانيّة ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾(٣)، وشبَّه المجتمع المؤمن بمثابة الجسد الواحد المترابط الأطراف الَّتي لا تنفصل بعضها عن البعض، بل تعيش شعوراً واحداً يدفعها للتّواصل، والتّكافل، والتّعاون، قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمنين في تَوادِّهِمْ، وتَراحُمِهِمْ، وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَد، إذا اشْتَكى مِنْهُ شَيْءٌ تَداعى لَهُ سائرُ الْجَسَد بالسَّهَر وَالْحُمّى**»(٤).

وفي حديث آخر مثَّلهم بالبنيان المرصوص الَّذي يشدّ بعضه بعضاً: «**مَثَلُ الْمُؤْمنينَ فيما بَيْنَهُمْ، كَمَثَلِ الْبُنْيانِ يَمْسُكُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَيَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**»(٥).

٤- ولتكوين أمّة مترابطة وضع الإسلام في نظامه العباديّ التّربويّ أحكاماً واجبة، وفرضها على الجميع، وألزمهم بها في العبادات والمعاملات، هذه الأحكام

---

(١) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٤١٩/٣، ح/٢٠٣٣.

(٢) نهج البلاغة: ٤٥٠، كتاب: ٥٣.

(٣) الحجرات: ١٠.

(٤) مسند الإمام أحمد: ٣٢٣/٣٠، ح/١٨٣٧٣.

(٥) العلامة الحلّيّ، الرّسالة السّعديّة: ١٦٥.

تستبطن عمليّة بناء اجتماعيّة، نذكر منها:

أ- في العبادات: شعائر الإسلام مظهر من مظاهر الوحدة كما في صلاة الجماعة، والجمعة، والعيدين، وفي الحجّ، وفي الصّوم إشعار للأغنياء بالآلام الفقراء، سأل هشام بن الحكم أبا عبد الله عليه السلام عن علّة الصّيام، فقال: «**إِنَّما فَرَضَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ الصّيامَ؛ لِيَسْتَوِيَ به الْغَنِيُّ وَالْفَقيرُ؛ وَذلكَ أَنَّ الْغَنيَّ لَمْ يَكُنْ لِيَجِدَ مَسَّ الْجوعِ، فَيَرْحَمَ الْفَقيرَ؛ لأَنَّ الْغَنِيَّ كُلَّما أَرادَ شَيْئاً قَدرَ عَلَيْه، فَأَرادَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ خَلْقه، وَأَنْ يُذيقَ الْغَنِيَّ مَسَّ الْجوعِ وَالأَلَمِ؛ لِيَرِقَّ عَلى الضَّعيفِ، فَيَرْحَمَ الْجائعَ**»(١).

فكلُّ العبادات الإسلاميّة في أدائها الواعي تؤدّي إلى ترابط اجتماعيّ متين مبنيّ على أساس الأخوّة الإيمانيّة المبنيّة على التّناصح، والتّباذل، والتّعاون، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**تُبْتَنى الأُخُوَّةُ في الله، عَلى التَّناصُحِ في الله، وَالتَّباذُلِ في الله، وَالتَّعاوُنِ عَلى طاعَةِ الله، وَالتَّناهي عَنْ مَعاصي الله، وَالتَّناصُرِ في الله، وَإِخْلاصِ الْمَحَبَّة**»(٢).

ب- مفهوم التّولّي والتّبرّي في الإسلام من الأسس الّتي يقوم عليها المجتمع الإسلاميّ، أساسها الحبّ في الله، والبغض في الله، وهذا المقياس يرفض جميع أنواع المقاييس الأخرى من وطنيّة، وقوميّة، أو جغرافيّة... عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله لأَصْحابه: أَيُّ عُرى الإيمان أَوْثَقُ؟ فَقالوا: اللهُ وَرَسولُهُ أَعْلَمُ، وَقالَ بَعْضُهُمْ: الصَّلاةُ، وَقالَ بَعْضُهُمْ: الزَّكاةُ، وَقالَ بَعْضُهُمْ:**

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٧٣/٢، ح/١٧٦٦.

(٢) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٢٢، ح/٩٦٩١.

الصِّيامُ، وَقال بَعْضُهم: الْحجُّ وَالْعُمْرَةُ، وَقال بعْضهم: الْجهاد، فَقالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله**: لكُلٍّ ما قُلْتُم فَضْلٌ، ولَيْس به، ولَكنْ أَوْثَقُ عُرى الإيمان: الْحُبُّ في الله، وَالْبُغْضُ في الله، وتَوالي أَوْلياء الله، والتَّبرّي منْ أَعْداء الله»**[1].

والتّولّي والتّبرّي منهجٌ فكَريٌّ عقَائديٌّ له آثار كبيرةَ فيَ بناء المجتمع البشريّ إذ يجعل نسيجه مترابطاً سدّاً ولُحمةً، ولا نعرف منهجاً أمتن ولا أقوى منه أبداً.

٤- التّرابط عبر الحقوق المشتركة بين أبناء المجتمع: أوجب الإسلام في تعاليمه حقوقاً للمسلم على المسلم:

أ- أن يحبّ المسلم لأخيه ما يحبّ لنفسه، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لولده الحسن عليه السلام: **«يا بُنَيَّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ ميزاناً فيما بَيْنَكَ وبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لغَيْرِكَ ما تُحبُّ لنَفْسك، واكْرَهْ لَهُ ما تَكْرَهُ لَها، ولا تَظْلمْ كما لا تُحبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وأَحْسنْ كما تُحبُّ أَنْ يُحْسَنَ إلَيْك، واسْتَقْبِحْ منْ نَفْسك ما تَسْتَقْبِحُ منْ غَيْرِكَ، وَارْضَ منَ النّاسِ بما تَرْضاهُ لَهُمْ منْ نَفْسك»**[2].

ب- أن لا يؤذي أحداً من المسلمين، فـ**«الْمُسْلمُ مَنْ سَلمَ الْمُسْلمونَ منْ لسانه ويَده»**[3].

ج- أن يتواضع للمسلمين، ولا يتكبّر عليهم.

د- أن لا يزيد في هجر مسلم أكثر من ثلاثة أيّام، فعن النّبيّ صلى الله عليه وآله: **«لا يَحلُّ**

(١) الكافي: ٣٢٥/٣، ح/١٨٨٢.

(٢) نهج البلاغة: ٤٢٢، كتاب: ٣١.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٦٦/١١، ح/٦٥١٥.

لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَهْجُرَ أَخاهُ فَوْقَ ثَلاث»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**لا يَحلُّ لأَحَدٍ يُؤْمِنُ بالله أَنْ يَهْجُرَ أَخاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيّام، يَلْتَقِيانِ فَيُعْرِضُ هذا عَنْ وَجْهِ هذا، وَهذا عَنْ وَجْهِ هذا، فَخَيْرُهُما الَّذي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ**»[٢].

هـ- أن يخالط الجميع بخلق حسن.

و- أن يوقّر المشايخ، ويرحم الصّبيان، فعن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «**لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبيرَنا، وَيَرْحَمْ صَغيرَنا**»[٣].

ز- أن يوفوا بعهودهم.

٥- فريضة التّكافل الاجتماعيّ: وهذا المبدأ في الإسلام فرضاً كفائيّاً، جاء في الحديث الشَّريف، عَنْ أَبي عَبْد الله عليه السلام قالَ: «**أَيُّما مُؤْمِنٍ مَنَعَ مُؤْمِناً شَيْئاً مِمّا يَحْتاجُ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِه، أَوْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِه أَقامَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مُسْوَدّاً وَجْهُهُ، مُزْرَقَّةً عَيْناهُ**[٤]**، مَغْلُولَةً يَداهُ إِلى عُنُقِهِ، فَيُقالُ: هذا الْخائِنُ الَّذي خانَ اللهَ وَرَسُولَهُ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إِلى النّارِ**»[٥].

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ١٨٣/١.

(٢) ابن أبي جمهور الإحسائيّ، عوالي اللآلي: ٢٦٦/١-٢٦٧؛ ومستدرك الوسائل للميرزا النّوريّ: ٩٨/٩، ح/١٠٣٣٣.

(٣) الكافي: ٤٢٢/٣، ح/٢٠٤٠.

(٤) «مُزْرَقّة عيناه: بضمّ الميم، وسكون الزّاي، وتشديد القاف من باب الافعلال، من الزُّرقة، وكأنَّه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (طه: ١٠٢)»، مرآة العقول للمحدّث المجلسيّ: ٥١/١١.

(٥) الكافي: ١٠٤/٤، ح/٢٧٩٦.

٦-التَّرابط ضمن المسؤوليّات المتبادلة؛ لتطبيق أحكام الله، وهو مفهوم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ومن خلال قاعدة: «**كُلُّكُمْ راعٍ، وَكُلُّ راعٍ مَسْؤولٌ عَنْ رَعيَّته**»[1]، كلّ هذا التّرابط الَّذي أوجبه الإسلام جاء ضمن أحكام شرعيّة، ودساتير عامّة لو روعيت وطبّقت من الأفراد والمجتمعات والحكومات لكوَّنت أمّة من أقوى الأمم كما حدث ذلك على يد الرَّسول القائد ﷺ، وأمّا واقعنا الحاليّ الَّذي هو من أظهر مظاهر التّمزّق، فهو نتيجة لما حدث من الحكّام الطّغاة، والتّآمر على الإسلام والمسلمين من الأعداء الَّذين خطَّطوا لخلق فواصل مختلفة بين المسلمين، وركّزوها في النُّفوس، وعمَّموها على جميع الأصعدة، نذكر منها:

أ-الفواصل الجغرافيّة الَّتي أسموها الحدود الدّوليّة، الَّتي قرَّروها في معاهدة (سايكس بيكو) المشؤومة الَّتي قسَّموا البلاد الإسلاميّة على أساسها، وأنشؤوا دويلات وضعوها تحت سيطرتهم، فأبعدوا المسلم عن أخيه المسلم، وأَصَّلوا حواجز نفسيّة بين أبناء الأمّة الإسلاميّة حتّى عاد المسلم لا يتحسّس بآلام أخيه المسلم خارج حدوده الدّوليّة.

ب- الفواصل السّياسيّة الَّتي خلقها الاستعمار بين أنظمة الحكم على المسلمين من خلال القوانين السّياسيّة والاقتصاديّة الَّتي جلبوها من بلادهم بما فيها من تباين، وعدم صلاحيّتها للبلدان الإسلاميّة، فبينما نجد قانون العقوبات البغداديّ يحكم العراق وهو قانون إنجليزيّ نجد بلداناً أخرى يحكمها القانون الفرنسيّ، أو القانون الإيطاليّ، وهكذا جعلوا تطبيق هذه القوانين الجائرة بيد تلاميذهم وروّادهم الَّذين أعدّوهم في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم؛ وسلَّطوهم على رقاب

---

(١) أبو نعيم الأصبهانيّ، حلية الأولياء: ٢٨١/٨.

المسلمين؛ لينفّذوا ما يرسم لهم لخدمة مصالحهم، ومن ناحية أخرى زرعوا الأحزاب العلمانيّة، وأوجدوا بينها تنافراً وعداءً عاد مردوده على أبناء الأمّة الواحدة؛ فمزَّقوا كيانها الدّاخليّ فكريّاً وعقائديّاً وسياسيّاً.

عَوامِلُ الانْحِرافِ:

وهناك عوامل أساسيّة أدَّت إلى حرف الأمّة عن المسار الإسلاميّ السَّليم، نذكر من تلك العوامل:

١- انحراف الَّذين تسنَّموا القيادة بعد عصر الرّسول ﷺ كالأمويّين والعبّاسيّين بما تركوه من آثار سيّئة شوَّهت الصّورة الإسلاميّة السَّليمة نتيجة الظّلم والطّغيان باسم الإسلام، وتحريف مفاهيمه وأحكامه، بل وعقائده بما وضعوا من أحاديث باطلة على لسان رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام إضافة إلى ما تركوه من اختلافات مذهبيّة استمرّت إلى اليوم، إذ اضطهدوا أهل بيت النّبوّة عليهم السلام بأبشع أشكال الاضطهاد من سجن وتشريد وقتل وإثارة للشُّبهات حتّى منعوهم عن أداء دورهم الرّساليّ في نشر رسالة الله تبارك وتعالى.

٢- ابتعاد الأمّة عن الصّورة الإسلاميّة الصَّحيحة نتيجة ظلم الحكّام على توالي العصور، وزرع الاختلافات الفكريّة المفتعلة، ونشر الفساد الفكريّ والاجتماعيّ والأخلاقيّ في جميع أصقاع الأمّة الإسلاميّة.

٣- القصور الذّاتيّ عند بعض القائمين على الفكر الإسلاميّ، بل وتسخير كثير من العلماء والفقهاء؛ لخدمة السّلاطين حتّى انتشر ما يسمى بـ(وعّاظ السَّلاطين) الَّذين سخَّروا أقلامهم، وقدراتهم العلميّة؛ لتبرير ظلم الحكّام.

٤- الهجمة الشَّرسة من الاستعمار العالميّ على مختلف المستويات الفكريّة

والسّياسيّة والاقتصاديّة ممّا أدّى إلى توزع الأمّة إلى دول متحاربة، ومذاهب متناحرة كان لها أسوأ الأثر في تمزيق وحدة الأمّة الإسلاميّة، فألقوا بأسنا بيننا، ويعجبني أن أذكر نصيحة أرسطوطاليس للإسكندر حين استشاره في قتل أبناء الأشراف؛ ليحمي بلاده وأمّته منهم بعد رحيله عن الدّنيا.

فقد قال الاسكندر لمؤدّبه أرسطاطاليس: «إنّي قد وَترت أهل الأرض جميعاً لقتلي ملوكهم، واحتوائي على بلدانهم، وأخذي أموالهم، وقد خفْتُ أن يتضافروا على أهل أرضي من بعدي، فيقتلونهم، ويبيدونهم لحَنَقهم عليَّ، وقد رأيتُ أن أرسل إلى كلّ نَبيه وشريفٍ، ومن كان من أهل الرّياسة في كلّ أرض، وإلى أبناء الملوك، فأقتلهم».

فقال له مؤدّبه: «ليس ذاك رأي أهل الورع والدّين، مع أنَّك إن قتلت أبناء الملوك، وأهل النَّباهة والرّياسة كان النّاس عليك، وعلى أهل أرضك أشدّ حنقاً من بعدك، ولكن لو بعثت إلى أبناء الملوك، وأهل النَّباهة فتجمعهم إليك، فتتوّجهم بالتّيجان، وتُملّك كلّ رجل منهم كورة(١) واحدة، وبلداً واحداً، فإنَّك تشغلهم بذلك، بتنافسهم في الملك، وحرص كلّ واحد على أخذ ما في يدي صاحبه، عن إهلاك بلادك، فتلقي بأسهم بينهم، وتجعل شغلهم بأنفسهم»؛ فقَبِل الإسكندر ذلك منه، وفعله؛ وهم الَّذين يقال لهم ملوك الطّوائف(٢).

العِلاجُ:

١- إعادة منصب القيادة إلى العلماء العادلين من ذوي الكفاءة العلميّة

(١) الكورة: الصّقع والمدينة.

(٢) الدّينوريّ، الأخبار الطّوال: ٣٨.

والإداريّة.

٢- تعميق أحاسيس ومشاعر الأمّة بوجودها الإسلاميّ لإعادتها إلى هويّتها الإسلاميّة، وفق قوله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١).

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾(٢).

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾(٣).

هكذا يعمّق القرآن الكريم إحساس الأمّة بوجودها الرّساليّ، وهويّتها التّوحيديّة، وأهدافها العباديّة؛ لتكون خير أمّة أخرجت للنّاس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر.

٣- تعميق الشُّعور بضرورة العودة إلى تطبيق النّظام الإسلاميّ في كلّ شؤون حياة المسلمين.

٤- إعادة روح الحماسة الثّوريّة على أساس الحبّ في الله والبغض في الله.

٥- توعية أبناء الأمّة على خطورة التَّخطيط الاستكباريّ العالميّ المحيط بها، ولفت أنظار الأمّة إلى ما يخطّط لها في الدّوائر المظلمة، ووراء الكواليس.

٦- إحياء الأمل في قلوب الجماهير المسلمة بانتصار الإسلام وعودته إلى السّاحة السّياسيّة.

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) الأنبياء: ٩٢.

النَّجْوى

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

قال الرّاغب في معنى (النّجوى): «ناجيتُه: أي ساررته، وأصله أن تخلو به في نَجْوَة من الأرض، وقيل: أصله من النَّجاة، وهو أن تعاونه على ما فيه خلاصه، أو أن تنجو بسرّك من أن يَطّلِعَ عليك.. وانتجيتُ فلاناً استخلصْتُهُ لسرّي»[2].

وقال ابن الأثير: «ومنه حديث عليّ عليه السلام: دعاه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الطّائف، فانتجاه، فقال النّاس: لقد طال نجواه، فقال صلى الله عليه وآله: **ما انْتَجَيْتُه، ولَكنَّ اللهَ انْتَجاه**، أي إنَّ الله أمرني أن أناجيه»[3]، قال الفيروزآباديّ: «وانتجاه: خصّه بمناجاته»[4].

فـ«معنى النَّجْوى في الكلام ما يَنْفَرِد به الجماعة والاثنان، سِرّاً كان أَو ظاهراً»[5]؛ ليتحدّثوا في أمر لا يريدون أن يطلّع عليه أحد.

وقد اختصر صاحب كتاب التَّحقيق مفهوم النَّجوى بقوله: «النَّجوى مصدر كالدَّعوى بمعنى المكالمة سرّاً في تنحية وتنجية. والنَّجوى في محيط المسلمين

---

(١) النّساء: ١١٤.

(٢) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٦٦٦، (نجو).

(٣) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٥/٥، (نجو).

(٤) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: ٣٨٧/٤، (نجو).

(٥) ابن منظور، لسان العرب: ٣٠٩/١٥، (نجا).

إنّما يقع في المخالفين والمنافقين، حيث إنّهم أسرّوا برامجهم، وأخفوا تدابيرهم على خلاف مصالح المؤمنين، وهذا هو الَّذى يكون على أساس الإثم والعدوان والعصيان.

وأمّا المؤمنون: فإنّهم إذا احتاجوا إلى تناجٍ بينهم، فهو يتحقّق على برنامج البرّ والتَّقوى وفي طريق الإسلام وخدمة المسلمين»[١].

وقد قسّم بعض الفقهاء النَّجوى على خمسة أقسام ضمن دائرة الأحكام الخمسة، فهي محرّمة إذا كان فيها أذًى للآخرين، أو هتك حرمة، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢].

وقد تكون النَّجوى واجبة، وهذا في الموضوعات المهمّة الواجبة الَّتي يؤدّي إفشاؤها إلى ضرر بالغ، أو خطر كالقضايا العسكريّة والأمنيّة الَّتي يخشى من إطلاع العدوّ عليها، وقد تكون مستحبّة في بعض الحالات كمن يتصدّى لبعض أعمال البرّ والإحسان، ولا يحب أن يُطْلِعَ عليها أحد، وكذلك قد يكون للنَّجوى حكم الكراهة والإباحة.

والأساس في ذلك كلّه يتلخّص بوجود هدف مهمّ يُخشى عليه من الكشف والإشاعة، وفيه مصلحة للإسلام والمسلمين؛ فإنَّ النَّجوى حينئذ ضرورة ملحّة، وفيما عدا ذلك فإنَّها عمل غير محمود، ومخالف لآداب المجالس الإسلاميّة، ويعدّ نوعاً من اللامبالاة، وعدم الاكتراث بالآخرين، قال رسول الله ﷺ: «**إذا كُنْتُمْ**

---

(١) العلامة المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: ١٢/٥١، (نجى).

(٢) المجادلة: ١٠.

ثَلاثَةً فَلا يَتَناجَ اثْنانِ دونَ صاحِبِهِما، فَإِنَّ ذلِكَ يُحْزِنُهُ»[١].

والميزان في الحرمة والوجوب في النَّجوى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾[٢].

فهذه الآية الكريمة أشارت إلى مجالس اجتماعيّة كان يعقدها بعض المنافقين، واليهود، إذ «كان بين اليهود وبين النّبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ موادعة، فكانوا إذا مرَّ بهم رجل من أصحاب النّبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جلسوا يتناجون بينهم، حتّى يظنّ المؤمن أنَّهم يتناجون بقتله، أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم، فترك طريقه عليهم، فنهاهم النّبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عن النجوى فلم ينتهوا، فأنزل الله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾[٣]»[٤].

وقد نفى الله تعالى الخير عن تلك الاجتماعات؛ لأنَّها إن لم يكن فيها ضرر على الإسلام والمسلمين، فأكثرها يتحوّل إلى لغو فارغ لا قيمة له عند الله تعالى، ولا يعود بخير على المتناجين، وليس للمؤمن أن يُضيّع وقته فيما لا طائل فيه؛ ولخطورة النَّجوى، وما يترتّب عليها من آثار نفسيّة، أو اجتماعيّة جاءت آيات أخرى تُشعر المُناجي بأنَّه تحت رقابة الله، وتذكّره بأنّه إن كان قد اختلى اثنان فإنَّ الله تعالى ثالثهما يرقبهما، ويسجّل عليهما أنفاسهما فضلاً عن كلامهما، يقول

(١) الشّيخ الطَّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٣٧٧/٩.

(٢) المجادلة: ٩.

(٣) المجادلة: ٨

(٤) ابن أبي حاتم الرّازيّ، تفسير القرآن العظيم: ٣٣٤٣/١٠، ح/١٨٨٤٢.

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

إنَّ المتحدّث حين يستشعر حضوره بين يدي الله تعالى، ويستحضر معيّته له: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2]، يسجّل عليه كلّ كلمة، أو حركة، أو سكون، وأنَّه مسؤول عن ذلك كلّه، فحينما يعيش هذا الشّعور عن وعي وإيمان، ويركّز في نفسه أنَّ الله تعالى «**يَسْمَعُ النَّجْوى، وَدَبيبَ النَّمْلِ عَلى الصَّفا، وَخَفَقانَ الطَّيْرِ في الْهَواء، لا تَخْفى عَلَيْه خافيَةٌ، وَلا شَيْءٌ مِمّا أَدْرَكَتْهُ الأَسْماعُ وَالأَبْصارُ، وَما لا تُدْرِكُهُ الأَسْماعُ وَالأَبْصارُ، ما جَلَّ مِنْ ذلكَ وَما دَقَّ، وَما صَغُرَ وَما كَبُرَ**»[3]، فإنَّه سيحسب لكلّ كلمة يتفوّه بها، ويتأمّل بها قبل أن يطلقها؛ لأنَّها ستدخل في سجلّه الخاصّ، فلا بدّ أن يستثمرها في بناء مستقبله الأخرويّ، وتلك هي الكلمة المسؤولة الهادفة، ولهذا فإنَّ المؤمن يتفكّر قبل أن يتكلّم بعكس المنافق الَّذي يتكلّم، ثمّ يعتذر، قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**وَاجْعَلوا اللِّسانَ واحداً، ولْيَخْتَزِن الرَّجُلُ لسانَهُ، فَإِنَّ هَذا اللِّسانَ جَموحٌ بصاحبه، وَالله ما أَرى عَبْداً يَتَّقي تَقْوى تَنْفَعُهُ حَتّى يَخْتَزِنَ لسانَهُ، وَإِنَّ لسانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَراءِ قَلْبِه، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنافقِ مِنْ وَراءِ لسانه؛ لأَنَّ الْمُؤْمِنَ إذا**

---

(١) المجادلة: ٧.

(٢) الحديد: ٤.

(٣) الإهليلجة للإمام أبي عبد الله الصّادق عليه السلام: ١٥٠-١٥١؛ وتفسير نور الثّقلين للشّيخ الحويزيّ: ٢٥٨/٥.

أَرادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلامٍ تَدَبَّرَهُ في نَفْسِه، فَإِنْ كانَ خَيْراً أَبْداه، وإِنْ كانَ شَرّاً واراه، وَإِنَّ الْمُنافِقَ يَتَكَلَّمُ بِما أَتى عَلى لِسانِه، لا يَدْري ماذا لَهُ، وماذا عَلَيْه، وَلَقَدْ قالَ رَسولُ الله ﷺ: «لا يَسْتَقيمُ إِيمانُ عَبْدٍ حَتّى يَسْتَقيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقيمُ قَلْبُهُ حَتّى يَسْتَقيمَ لِسانُهُ»، فَمَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقى اللهَ سُبْحانَهُ، وَهُوَ نَقِيُّ الرّاحَةِ مِنْ دِماءِ الْمُسْلِمينَ وَأَمْوالِهِمْ، سَليمُ اللِّسانِ مِنْ أَعْراضِهِمْ فَلْيَفْعَلْ»(١).

وحالة الإحساس برقابة الله تعالى، واستشعار حضوره تعالى أمنية أولياء الله «**اللّهُمَّ، اجْعَلْني أَخْشاكَ كَأَنّي أَراكَ، وَأَسْعِدْني بِتَقْواكَ**»(٢)، فمن عاش هذا الشّعور بإيمان حقيقيّ، ووعي إلهيّ لا يمكن أن يُبَيِّتَ شيئاً خلاف إرادة الله تعالى، وقد ذمَّ الله تعالى من يتخلَّق بذلك الخلق الدّنيء الَّذي يحاول أن يخفي على النّاس ما لا يخفى على الله تعالى، ويخشى النّاس، ولا يخشى الله تعالى، ويستحيي من النّاس، ولا يستحيي من الله تعالى، يقول تعالى لرسوله في وصف هؤلاء الخائنين:

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾(٣).

وبعد أن نهى تعالى عن النَّجوى بالإثم والعدوان، بل بكلّ ما يؤذي الآخرين، وما يلوّث فطرة الإنسان من كلام غير مسؤول استثنى ثلاثة أمور في غاية الأهمّيّة في الحياة الاجتماعيّة في الإسلام، وهي: الصَّدقة، والمعروف، والإصلاح

(١) نهج البلاغة: ٢٨٥، خطبة: ١٧٦.

(٢) الشّيخ الطّوسيّ، مصباح المتهجّد: ٢٧٠.

(٣) النّساء: ١٠٨.

بين النّاس، هذه الأمور الثَّلاثة هي: «مجامع الخير التي يحتاج إليها في تنظيم أمور معاشهم ومعادهم»[١]، وإنَّما ذكر عزَّ وجلَّ هذه الأمور الثَّلاثة؛ لأنَّ كمالها إنَّما يكون بكتمانها، والتّعاون عليها سرّاً.

أمّا الصَّدقة، فهي مال يخرجه المؤمن من ملكه على نحو الوجوب كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٣].

ويبدو من بعض الأحاديث أنَّ الصَّدقة لا تنحصر بالتّبرّع الماليّ، فقد تشمل الجوانب المعنويّة كالكلمة الطّيّبة، والتّبسّم بوجه المؤمن وغيره، كما في حديث أبي ذر أنَّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله قال له: «**تَبَسُّمُكَ في وَجْه أَخيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وأَمْرُكَ بالْمَعْروف، ونَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَر صَدَقَةٌ، وإِرْشادُكَ الرَّجُلَ في أَرْض الضَّلال لَكَ صَدَقَةٌ، وبَصَرُكَ للرَّجُلِ الرَّديء الْبَصَر لَكَ صَدَقَةٌ، وإماطَتُكَ الْحَجَرَ والشَّوْكَةَ والْعَظْمَ عَنِ الطَّريقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وإِفْراغُكَ منْ دَلْوِكَ في دَلْوِ أَخيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[٤].

---

(١) السّيّد عبد الأعلى السّبزواريّ، مواهب الرّحمن في تفسير القرآن: ٢٥١/٩.

(٢) التّوبة: ١٠٣.

(٣) التّوبة: ٦٠.

(٤) سنن التّرمذي: ٣٤٠/٤، ح/١٩٥٦.

وقال صلى الله عليه وآله: «**يا أَبا ذَرّ، الْكَلمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَخْطوها إلى الصَّلاة صَدَقَةٌ**»(١).

وقد تكون الصَّدقة على نحو الاستحباب كما في بعض الأحاديث، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: «**إنَّ الصَّدَقَةَ تَزيدُ صاحِبَها كَثْرَةً، فَتَصَدَّقوا، يَرْحَمْكُمُ الله**»(٢).

وعن القاسم بن عبد الرحمن الأنصاريّ، قال: «سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: **إنَّ رَجُلاً جاءَ إلى أَبي عَليِّ بْنِ الْحُسَيْنِ** عليهما السلام، **فَقالَ لَهُ: أَخْبِرْني عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۞ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾**(٣) **ما هذا الْحَقُّ الْمَعْلومُ؟ فَقالَ لَهُ عَليُّ بْنُ الْحُسَيْنِ** عليهما السلام: **الْحَقُّ الْمَعْلومُ: الشَّيْءُ يُخْرِجُهُ من ماله لَيْسَ منَ الزَّكاة، وَلا منَ الصَّدَقَة الْمَفْروضَتَيْن، قال: فَإذا لَمْ يَكُنْ من الزَّكاة، وَلا منَ الصَّدَقَة فَما هُوَ؟ فَقالَ: هُوَ الشَّيْءُ يُخْرِجُهُ الرَّجُلُ منْ ماله إنْ شاءَ أَكْثَرَ، وَإنْ شاءَ أَقَلَّ على قَدْرِ ما يَمْلكُ، فَقالَ لَهُ الرَّجُلُ: فَما يَصْنَعُ به؟ قالَ: يَصلُ به رَحماً، وَيُقَوّي به ضَعيفاً، وَيَحْملُ به كَلاًّ، أَوْ يَصلُ به أَخاً لَهُ في الله، أَوْ لنائبَة تَنوبُهُ، فَقالَ الرَّجُلُ: اللهُ يَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالاته**»(٤).

ومجمل القول: الصَّدقات جمع صدقة، وهي كلّ ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة، وهي أعمّ من الواجب والمندوب، وربّما تطلق على كلّ معروف

---

(١) الشيخ الطّبرسيّ، مكارم الأخلاق: ٥٩١.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ٣/٣١٤، ح/١٨٦٣.

(٣) المعارج: ٢٤-٢٥.

(٤) الكافي: ٧/١٦-١٧، ح/٥٧٣٠.

يترتّب عليه الخير، ومنه قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «**كُلُّ مَعْروفٍ صَدَقَةٌ**»[١]، فتَعِمّ الأموال، والأقوال، والأفعال الحسنة... الخ.

«والصَّدقات مطلقاً - واجبة كانت أو مندوبة - متقوّمة بقصد القربة، فإذا لم يُرد بها وجه الله تعالى، فهي باطلة لا ثمرة لها، ولا تبرئ الذّمّة لو كانت واجبة»[٢].

ولم يقتصر الإسلام على الأمر بالصَّدقة، بل وضع لها شروطاً أساسيّة بعد كونها قربة إلى الله تعالى، وطلب مرضاته من دون أيّ ضميمة أخرى.

ومن الشُّروط الَّتي وضعها أن لا يتبعها بالمنّ؛ لأنَّه يذلّ الإنسان الآخذ، ويُعَقّد نفسه، ويبعده عن المعطي، وقد ذكر بعض الباحثين: «إنَّ رد الفعل الطّبيعيّ في النَّفس البشريّة للإحسان هو العداء في يوم من الأيام، وهم يعلّلون بأنَّ الآخذ يحسّ بالنَّقص والضَّعف أمام المعطي، ويظلّ هذا الشُّعور يحزُّ في نفسه، فيحاول الاستعلاء عليه بالتّهجّم لصاحب الفضل عليه، وإضمار العداوة له؛ لأنّه يشعره دائماً بنقصه وضعفه.. وبأنَّ المعطي يريد أن يشعر دائماً بأنّه صاحب الفضل على ما أعطاه، وهو الشُّعور الَّذي يزيد من ألم صاحبه الآخر حتّى يتحوّل إلى عداء»[٣].

ولعلَّ هذا المعنى هو المراد بالمثل المشهور: «اتقّ شرَّ من أحسنْتَ إليه»[٤]، ولا شكَّ أنَّ المقصود هم اللّئام ممّن يقابلون الإحسان بالإساءة، وإلا فإنَّ الأحرار يُمْلَكون بالإحسان، وقد جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**عَجِبْتُ ممَّنْ يَشتَري المَماليكَ بمالِه، كَيْفَ لا يَشتَري الأَحرارَ بِمَعروفِه فيَمْلِكَهُمْ؟!**»[٥].

(١) الفقه المنسوب للإمام الرّضا عليه السلام: ٣٧٣.

(٢) مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٣٣٠/٤.

(٣) السّيّد حسن القبّانچيّ، شرح رسالة الحقوق: ٣٤٨/١-٣٤٩.

(٤) الميدانيّ، مجمع الأمثال: ١٦٣/١، مثل/٧٣٦.

(٥) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٢٠٤.

«عَجِبْتُ لِمَنْ يَشْتَرِي الْعَبِيدَ بِمَالِهِ فَيُعْتِقُهُمْ، كَيْفَ لا يَشْتَرِي الأَحْرارَ بِإِحْسانِهِ فَيَسْتَرِقُّهُمْ».

«الإِنْسانُ عَبْدُ الإِحْسانِ».

«الإِحْسانُ يَسْتَعْبِدُ الإِنْسانَ».

«الإِحْسانُ يَسْتَرِقُّ الإِنْسانَ».

«بِالإِحْسانِ تُمْلَكُ الْقُلُوبُ».

«بِالإِحْسانِ يُمْلَكُ الأَحْرارُ».

«بِالإِحْسانِ تُسْتَرَقُّ الرِّقابُ».

«لَنْ يُسْتَرَقَّ الإِنْسانُ حَتّى يَغْمُرَهُ الإِحْسانُ»(١).

وقيل(٢): [من الكامل]

أَسلامَ إنَّك قد ملكْتِ فأسجحي   قد يملك الحرّ الكريم فيُسْجِحُ

لذلك ينبغي للمعطي أن يحفظ ماء وجه الآخذ، ويكرمه، بل ينبغي أن يعدّه متفضّلاً عليه؛ لأنَّه جعل من نفسه وسيلة تقرّبنا إلى الله، وخفّف عنّا بعض الأثقال، وقد رُوِيَ أنَّ رجلاً جاء إلى الإمام الحسين عليه السلام ورفع إليه حاجته، فقال لقنبر: **«يا قَنْبَرُ، هَلْ بَقِيَ شَيْءٌ مِنْ مالِ الْحِجازِ؟** قال: نعم، أربعة آلاف دينار، فقال: **هاتِها،**

(١) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٥، ح/٨٧٨٦-٨٧٧١-٨٧٧٢-٨٧٧٣-٨٧٨٢-٨٧٨٣-٨٧٨٤-٨٧٩١.

(٢) أبو الفرج الأصفهانيّ، الأغاني: ٢٧٨/٣؛ و«أسجح: سهّل ورفق، يقال: ملكت فأسجح، أحسن العفو وتكرّم، وإذا سألت فأسجح: سهّل ألفاظك وارْفُقْ»، المعجم الوسيط: ٤١٦، (سجح)؛ وقد رُوِيَ أن عائشة قالت لأمير المؤمنين عليه السلام في يوم الجمل: ملكت فأسجح، يعني تكرّم؛ معاني الأخبار للشّيخ الصّدوق: ٣٠٤.

قَدْ جاءَ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بها منّا، ثمَّ نزع برديه، ولفَّ الدنانير فيها، وأخرج يده من شق الباب حياء من الأعرابيِّ، وأنشأ: [من المنسرح]

خذها فإنّي إليك معتذر واعلم بأنّي عليك ذو شفقه»(١)

ومن هنا مدح القرآن الكريم المعطين الَّذين يكرمون من يمدّون له يد العون، ويحفظون ماء وجهه، فقال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾(٢).

وبعد هذا البيان الجليّ الواضح جاءت الآية الَّتي بعدها لتؤكّد أهمّيّة البعد المعنويّ في التّعامل، ولا سيّما القول الطّيّب الّذي يريح النَّفس، وفضَّلته على الصَّدقة الّتي يتبعها أذًى، ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ** ﴾(٣).

ثمّ لا بدّ أن يفهم المتصدّق أنَّ الصَّدقة ذخيرة له عند الله تعالى، قال سيّد العابدين عليه السلام: «**وَحَقُّ الصَّدَقَة أَنْ تَعْلَمَ أَنَّها ذُخْرُكَ عنْدَ ربِّكَ عزَّ وَجَلَّ، ووَديعَتُكَ الّتي لا تَحْتاجُ إلى الإشْهاد علَيْها، فَإذا علَمْتَ ذلكَ كُنْتَ بما تَسْتَوْدعُهُ سراًّ أَوْثَقَ منْكَ بما تَسْتَوْدعُهُ علانيةً، وَتَعْلَمُ أَنَّها تدفَعُ الْبَلايا وَالأَسْقامَ عَنْكَ في الدُّنْيا، وتَدْفَعُ عَنْكَ النّارَ في الآخرَة**»(٤).

---

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب عليه السلام: ٦٨/١٠.

(٢) البقرة: ٢٦٢.

(٣) البقرة: ٢٦٣.

(٤) الشّيخ الصّدوق، كتاب الخصال: ٥٦٦/٢-٥٦٧.

و في هذا النَّصّ الشّريف بيان واف، بل أوفى بيان في كيفيّة الصَّدقة وحفظها وقبولها عند الله، فهي ذخر يدّخره المرء عند الله تعالى، وما عند الله لا يضيع، بل يجده حاضراً ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾[1]، فمهما صغرت الصَّدقة، أو قلّت يجدها باذلها عند الله تعالى مضاعفة إذا كانت مبذولة؛ لوجهه الكريم، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[2].

فَوائِدُ الصَّدَقَةِ وَآثارُها:

للصّدقة فوائد عظيمة للإنسان نفسه، ومردودات جمّة للمجتمع، وقد دلّت على ذلك روايات أهل البيت عليهم السلام، نذكر منها:

١- تقي مصارع السّوء، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الصَّدَقَةُ تَقي مَصارِعَ السّوء**»، و«**صَدَقَةُ الْعَلانيَة تَدْفَعُ ميتَةَ السّوء**»[3].

٢- تستنزل الرّحمة: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الصَّدَقَةُ تَسْتَنْزِلُ الرَّحْمَةَ**»[4].

٣- تدفع البلاء والنّقمة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**الصَّدَقَةُ تَسْتَدْفِعُ الْبَلاءَ وَالنِّقْمَةَ**»، «**سوسوا أَنْفُسَكُمْ بِالْوَرَعِ، وَداووا مَرْضاكُمْ بِالصَّدَقَة**»[5].

٤- تستنزل الرّزق: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**اسْتَنْزِلوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَة**»،

---

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) الزّلزلة: ٧.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٩٥، ح/٩١٣٠-٩١٥٠.

(٤) المصدر نفسه: ح/٩١٣٤.

(٥) المصدر نفسه: ح/٩١٣٥-٩١٤٨.

«**إذا أَمْلَقْتُمْ فَتاجروا اللهَ بالصَّدَقَة**»(١).

٥- تمدّ في الآجال: قال عليه السلام: «**حَصِّنوا أَنْفُسَكُمْ بِالصَّدَقَة**»، و«**بالصَّدَقَة تَفْسَحُ الآجالُ**»(٢).

٦- تكفِّر الخطيئة وتثري المال: قال عليه السلام: «**صَدَقَةُ السِّرِّ تُكَفِّرُ الْخَطيئة، وَصَدَقَةُ الْعَلانية مَثْراةٌ في الْمال**»(٣).

٧- تكفِّر الذّنوب: قال عليه السلام: «**كَفِّروا ذُنوبَكُمْ، وَتَحَبَّبوا إِلى رَبِّكُمْ بِالصَّدَقَة، وَصِلَة الرَّحِم**»(٤).

و«أمّا المعروف، فهو العنوان الكبير لكلّ أعمال الخير الّتي يحبّها الله للنّاس، في ما أمر الله ورغّب فيه، ودعا إليه، ممّا يفيد الفرد، والمجتمع في ما يدخل في الممارسات الشّخصيّة في شؤون الفرد الخاصّة، وفي ما يندرج في الأعمال الاجتماعيّة الّتي تتحرّك في نطاق العلاقات الإنسانيّة، أو الأعمال السّياسيّة الّتي تبني للنّاس حكم العدل، وتهدم حكم الظُّلم، وتطوّر حياتهم نحو الأفضل»(٥).

وقيل: «المعروف: كلّ ما يستحسنه الشّرع، ولا ينكره العقل، ويندرج فيه القرض، وإعانة الملهوف، وصدقة التّطوّع، وسائر الخيرات»(٦).

فالمعروف إذن اسم جامع لكلّ فعل حَسَّنه العقل والشَّرع، وهو ضدُّ المنكر

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ح/٩١٣٦-٩١٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ح/٩١٤٤-٩١٤١.

(٣) المصدر نفسه: ح/٩١٤٩.

(٤) المصدر نفسه: ح/٩١٥٢.

(٥) السّيّد محمّد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن: ٣٨٢/٤.

(٦) الشّيخ محمّد المشهديّ، تفسير كنز الدقائق: ٥٦١/٣.

في معناه ومصداقه، وكلّ ما يقدّمه المرء في الدُّنيا من معروف له مردود إيجابيٌّ في الدُّنيا والآخرة، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1]، فلا يذهب شيء عند الله، بل هو مدّخر لفاعله، ولا يقتصر ذلك على الآخرة، بل له مردود إيجابيٌّ في الدُّنيا أيضاً، فـ«من بذل معروفه آتاه الله جزاء معروفه»[2] في الدُّنيا ذكر حسن، وفي الآخرة ثواب جزل، ويستمرّ هذا المعروف في الآخرة، ورد في الحديث الشَّريف: «**أَهْلُ الْمَعْرُوفِ في الدُّنْيا أَهْلُ الْمَعْرُوفِ في الآخرَةِ**»[3]، فهم كما صنعوا المعروف في الدُّنيا يصنعونه في الآخرة، وورد عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**أَهْلُ الْمَعْرُوفِ في الدُّنْيا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ في الآخِرَةِ، يُقالُ لَهُمْ: إِنَّ ذُنوبَكُمْ قَدْ غُفِرَتْ لَكُمْ، فَهِبوا حَسَناتِكُمْ لِمَنْ شِئْتُمْ**»[4].

وفي حديث ابن عبّاس قال: «يأتي أصحاب المعروف يوم القيامة فيُغفر لهم لمعروفهم، وتبقى حسناتهم تامّة فيعطونها لمن زادت سيّئاته على حسناته، فيُغفر له فيدخلون الجنّة، فيجتمع لهم الإحسان إلى النّاس في الدُّنيا والآخرة»[5].

وفعل المعروف يحتاج إلى توفيق الله سبحانه ورعايته، ورد في الحديث الشَّريف عن أبي حمزة الثّماليّ رحمه الله، قال: «سمعْتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: **إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبادِ اللهِ إِلى اللهِ لَمَنْ حَبَّبَ إِلَيْهِ الْمَعْرُوفَ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ فَعالَهُ**»[6].

---

(١) يوسف: ٩٠.

(٢) الشّيخ الطّريحيّ، مجمع البحرين: ٩٥/٥.

(٣) الفقه المنسوب للإمام الرّضا عليه السلام: ٣٧٣.

(٤) الكافي: ٢٧٧/٧، ح/٦١١٢.

(٥) مجمع البحرين: ٩٥/٥.

(٦) الكافي: ٢٦٧/٧، ح/٦٠٩٤.

أمّا كيف يعرف أهل المعروف في الآخرة؟ فقد ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**قالَ أَصْحابُ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله: يا رَسولَ الله، فداكَ آباؤُنا وأُمَّهاتُنا، إنَّ أَصْحابَ الْمَعْروفِ في الدُّنْيا عُرِفوا بمَعْروفِهِمْ، فَبِمَ يُعْرَفونَ في الآخرةِ؟ فَقالَ: إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى إذا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، أَمَرَ ريحاً عَبِقَةً طَيِّبَةً، فَلَزِقَتْ بِأَهْلِ الْمَعْروفِ، فَلا يَمُرُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَلأٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إلا وَجَدوا ريحَهُ، فَقالوا: هذا مِنْ أَهْلِ الْمَعْروفِ**»[١].

حقُّ ذي الْمَعْروفِ:

إنَّ فاعل المعروف عزيز عند الله تعالى، وله الفضل على الآخرين؛ لذا جعل الله له حقوقاً حدَّدها الإمام زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق بقوله: «**وأَمّا حَقُّ ذي الْمَعْروفِ عَلَيْكَ: فَأَنْ تَشْكُرَه، وتَذْكُرَ مَعْروفَهُ، وتُكْسِبَهُ الْمَقالَةَ الْحَسَنَةَ، وتُخْلِصَ لَهُ الدُّعاءَ فيما بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإذا فَعَلْتَ ذلكَ كُنْتَ قَدْ شَكَرْتَهُ سِرّاً وعَلانِيَةً، ثُمَّ إنْ قَدَرْتَ عَلى مُكافأَتِه يَوْماً كافَيْتَهُ**»[٢].

ولكن قد يواجه الإنسان من يصنع له المعروف، ولا يلاقي منه كلمة شكرٍ أو شعور بإحسان أبداً، فما هو الموقف من ذلك؟ قال سيّد الموحّدين عليه السلام: «**لا يُزْهِدَنَّكَ في اصْطِناعِ الْمَعْروفِ قِلَّةُ مَنْ يَشْكُرُه، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْه مَنْ لا يَنْتَفِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وقَدْ يُدْرَكُ مِنْ شُكْرِ الشّاكِرِ أَكْثَرُ مِمّا أَضاعَ الْكافِرُ**»[٣].

---

(١) الكافي: ٢٧٦/٧-٢٧٧، ح/٦١١١.

(٢) كتاب الخصال: ٥٦٨/٢-٥٦٩.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٩، ح/٨٩١٦.

ما يُفْسِدُ المَعْروفَ:

قد يفعل الإنسان المعروف، ويبذل ماله، أو جهده أو جاهه، ولكن قد يبطل ذلك عند الله تعالى، ويضيع عند النّاس إذا أَتبَعه بالمَنّ والأذى، وقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك أجمل تعبير، ومثَّله أروع تمثيل بقوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾[1].

من جوامع الكلم في بيان فساد المنّ للمعروف ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ مَنَّ بمَعْروفه أَفْسَدَه**».

«**الْمَنُّ يُفْسدُ الصَّنيعةَ**».

«**إيّاكَ وَالْمَنَّ بالْمَعْروف، فَإِنَّ الامْتنانَ يُكَدِّرُ الإحْسانَ**».

«**شَرُّ الْمُحْسنينَ الْمُمْتَنُّ بإحْسانه**».

«**مَنْ مَنَّ بمَعْروفه أَسْقَطَ شُكْرَهُ**»[2].

«**وَإيّاكَ وَالْمَنَّ على رَعيَّتك بإحْسانكَ، أَو التَّزيُّد فيما كانَ منْ فعْلكَ**»[3].

الإصْلاحُ بَيْنَ النّاسِ:

والإصلاح مهمّة الأنبياء والرّسل عليهم السلام، ومن اهتدى بهديهم، وسار على

---

(١) البقرة: ٢٦٤.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٩-٣٩٠، ح/٨٩٣٩-٨٩٢٠-٨٩٢٤-٨٩٢٩-٨٩٣٦.

(٣) نهج البلاغة: ٤٦٤، كتاب: ٥٣.

نهجهم، وهو من أعظم القربات عند الله تعالى ولا سيّما إصلاح ذات البين، فهي أعظم من عامّة الصَّوم والصَّلاة، فقد ورد عن النّبيّ ﷺ: «**صَلاحُ ذاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عامَّة الصَّلاة والصَّوْمِ**»(١).

وقال ﷺ: «**ما عَمِلَ امْرُؤٌ عَمَلاً بَعْدَ إقامَة الْفَرائضِ خَيْراً مِنْ إصْلاحٍ بَيْنَ النّاس، يَقولُ خَيْراً ويتمَنّى خَيْراً**»(٢).

وقد عدَّت بعض الأحاديث أنَّ الإصلاح صدقة، أي إنَّ الصَّدقة داخلة ضمن دائرة الإصلاح، بل الإصلاح من أفضل الصَّدقة، فعن أبي عبد الله عليه السلام: «**صَدَقَةٌ يُحبُّها اللهُ: إصْلاحٌ بَيْنَ النّاسِ إذا تَفاسَدوا، وتَقْريبٌ بَيْنَهُمْ إذا تَباعَدوا**»(٣).

وفي حديث آخر عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**أَفْضَلُ الصَّدَقَة صَدَقَةُ اللِّسان**»، قيل: «يا رسول الله ﷺ، وما صدقة اللّسان؟»، قال: «**الشَّفاعَةُ تَفُكُّ بها الأَسير، وَتَحْقِنُ بِها الدَّمَ، وَتَجرُّ بها الْمَعْروفَ إلى أَخيكَ، وَتَدْفَعُ عَنْهُ الْكَريهَةَ**»(٤).

وكان أئمّة الهدى عليهم السلام يبذلون كثيراً من الجهد والمال؛ لأجل الإصلاح بين النّاس، ويأمرون أصحابهم بالقيام بذلك، فعَنْ مُفَضَّلٍ قالَ: «قالَ أَبو عَبْد الله عليه السلام: **إذا رَأَيْتَ بَيْنَ اثْنَيْن مِنْ شيعَتنا مُنازَعَةً، فَافْتَدها مِنْ مالي**»(٥).

وعن ابن سنان، عنْ أَبي حنيفَة سابق الحاجّ، قَالَ: «مرّ بنا المفضّل – وأنا

---

(١) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٧٦٨؛ وترتيب الأمالي للمحموديّ: ٢٦٥/٧، ح/٤٠٨٠.

(٢) الشّيخ الطّوسي، كتاب الأمالي: ٧٦٨؛ وترتيب الأمالي: ٢٦٤/٧، ح/٤٠٧٩.

(٣) الشّيخ المفيد، الأمالي: ١٢؛ وترتيب الأمالي: ٢٦٤/٧، ح/٤٠٧٨.

(٤) العلامة الحلّيّ، الرّسالة السّعديّة: ١٦٤.

(٥) الكافي: ٥٣٢/٣، ح/٢٢١٧.

وختني[1] نتشاجر في ميراثٍ - فوقف علينا ساعةً، ثمّ قال لنا: تعالوا إلى المنزل، فأتيناه، فأصلح بيننا بأربعمائة درهمٍ، فدفعها إلينا من عنده حتّى إذا استوثق كلّ واحد منّا من صاحبه، قال: أما إنّها ليست من مالي، ولكن أبو عبد الله عليه السلام أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيءٍ أن أصلح بينهما، وأفتديها من ماله، فهذا من مال أبي عبد الله عليه السلام»[2].

ولأهمّيّة الإصلاح بين النّاس جوَّز الإسلام الكذب فيه، وهو أن يذكر للمتنازعين والمختلفين في أمر من الأمور لأحدهما عن الآخر عكس ما قال فينقل جميل الأقوال إن سمع قبيحها... فعن أبي عبد الله عليه السلام: **«الْمُصْلِحُ لَيْسَ بِكَاذِبٍ»**[3].

«يعني إذا تكلّم بما لا يطابق الواقع فيما يتوقّف عليه الإصلاح لم يعد كلامه كذباً، وهذا يدلّ على وجوب الإصلاح بين النّاس، لأنَّ ترك الكذب واجب، ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه»[4].

وبعبارة أخرى: «إذا نقل المصلح كلاماً من أحد الجانبين إلى الآخر لم يقله، وعلم رضاه به، أو ذكر فعلاً لم يفعله للإصلاح، ليس من الكذب المحرّم، بل هو حسن، وقيل: إنّه لا يسمّى كذباً اصطلاحاً، وإن كان كذباً لغةً؛ لأنَّ الكذب في الشَّرع ما لا يطابق الواقع، ويذمّ قائله، وهذا لا يذمّ قائله شرعاً»[5].

---

(١) الخَتَن: زوج بنت الرّجل، وزوج أخته، أو كلّ من كان من قبل المرأة.

(٢) الكافي: ٣/٥٣٢-٥٣٣، ح/٢٢١٨.

(٣) المصدر نفسه: ٣/٥٣٣، ح/٢٢١٩.

(٤) النّراقيّ، جامع السّعادات: ٣/٢٨١.

(٥) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٧٦/٤٦.

الْمُكَذِّبونَ بِالدّيـنِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[1].

تشير السّورة المباركة إلى الجانب العقائديّ، والمنهج العباديّ، والتّكافل الاجتماعيّ، فالدّين يجمع بين ربط الإنسان بالله تعالى من جانب، وبنفسه من جانب ثانٍ، وبالمجتمع من جانب ثالث، والسّورة قد كشفت أوصاف بعض المنافقين الَّذين يتلبّسون بثوب الدّين ظاهراً، ويخفون ما في أنفسهم عكس أحكامه، وهذه الحالة قد تظهر في قبيح أعمالهم، وقد تبرز من خلال فلتات ألسنتهم، وصفحات وجوههم، بما يصدر عنهم من أقوال وأفعال، وقد أوجزت السّورة الكريمة صفاتهم تلك بكلمة (**التّكذيب بالدّين**).

والمراد بـ(التّكذيب بالدّين) هنا (عدم الإيمان بالمعاد) بما فيه من ثواب وعقاب، فمن يكذّب بالمعاد لا بدّ أن تصدر منه أعمال قبيحة منافية لما يتظاهر به من اعتقاد، فلا يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً، وإلا فمن كان يؤمن بثواب الله وعقابه، لا بدَّ من أن يعمل لنيل ثوابه، والتّخلّص من عقابه، وهذا أقلّ درجات الإيمان، يقول عزَّ وجلَّ:

---

(١) الماعون: ١-٧.

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(١).

﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۞ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾(٢).

﴿ المر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٣).

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾(٤).

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٥).

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾(٦).

في مجموع هذه الآيات الكريمة تأكيد بأنَّ جميع المعاصي والمخالفات الشّرعيّة هي نتيجة نكران الخالق تعالى، أو نكران النّبوّات، أو عدم الإيمان بالمعاد؛ لأنَّه من آمن بالله تعالى لا بدَّ من أن يؤمن بأنَّه مسؤول أمامه عن كلّ أَمْرٍ أَمَرَ به، ونَهْيٍ نَهى عنه، وأنَّه ملزم بالالتزام بما أمر الله، والانتهاء عمّا نهى عنه، وأنَّه معرّض

(١) المائدة: ٨١.

(٢) التّوبة: ٤٤-٤٥.

(٣) الرّعد: ١.

(٤) النّحل: ١٠٥.

(٥) المطفّفين: ٤-٦.

(٦) النّحل: ٢٢.

لثواب الله وعقابه بحسب أعماله، ولعلَّ القول: بأنَّ المراد من يكذّب بنّفس الدّين والإسلام، إمّا لأنَّه ينكر وجود الله تعالى، أو ينكر النّبوّات أو ينكر المعاد من باب ذكر الكلّ وإرادة الفرد، والمكذّب بالدّين له صفات كثيرة ذكر القرآن في هذه السّورة منها:

الصِّفَةُ الأولى: حِرْمانُ الْيَتيمِ وَتَعْنيفُهُ:

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، والدّعّ هو الدّفع بعنف وشدّة[1]، وفي النّهاية: الطّرد والدّفع[2]، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[3]، وهذه السّورة، قيل: إنَّها نزلت في بعض الأشخاص، منهم أبو سفيان إذ «كان ينحر في كلّ أسبوع جَزوراً، فطلب منه يتيم شيئاً، فقرعه بعصاه، فأنزل الله هذه السّورة. و﴿يَدُعُّ﴾ أي يدفع، كما قال: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾»[4]، واليتامى هم من فقدوا آباءهم وانقطعوا عنهم، وفي الحيوانات اليتيم من فقد أمّه... وكلّ منفرد يتيم.

لقد اعتنى الإسلام باليتامى عناية خاصّة، وأمر برعايتهم، والاهتمام بهم، وتعويضهم عن فقد آبائهم بالحنان والعاطفة والرّأفة والمعونة، وعدم تركهم للظّروف الاجتماعيّة تلعب بهم؛ ولهذا نهى عن إهمالهم، أو قهرهم، أو أكل

---

(١) ينظر: مجمع البحرين للشّيخ الطّريحيّ: ٣/٣٢٥.

(٢) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/١١٩، (دعع).

(٣) الطّور: ١٣.

(٤) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/٢١٠.

أموالهم، وأوعد الَّذين يأكلون أموالهم بالنّار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[1].

ونحن نعلم أنَّه لا يخلو مجتمع من أيتام، وإذا لم يقم المجتمع برعايتهم فسوف يَضيعون في متاهات المجتمع الجاهليّ من جهات عدّة:

١- من النّاحية العاطفيّة الَّتي تمثّل الغذاء الرّوحيّ للطّفل، فإنَّ الطّفل إذا لم يشعر بحنان وعاطفة أبويّة تحيطه يبقى يشعر بالنَّقص، ولذا بشَّر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كافل اليتيم والمحسن إليه بأعظم الثّواب، وقد كان صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يحسن إليهم ويبرّهم ويوصي بهم، فعن أبي أوفى، قال: «كنّا جلوساً عند رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فأتاه غلام، فقال: غلام يتيم، وأخت لي يتيمة، وأمّ لي أرملة، أطعمنا ممّا أطعمك الله، أعطاك الله ممّا عنده حتّى ترضى، قال: **ما أَحْسَنَ ما قُلْتَ يا غُلامُ، اذْهَبْ يا بلالُ فَأْتنا بما كانَ عنْدَنا**، فجاء بواحدة وعشرين تمرة، فقال: **سَبْعٌ لَكَ، وَسَبْعٌ لأُخْتِكَ، وَسَبْعٌ لأُمِّكَ**، فقام إليه معاذ بن جبل، فمسح رأسه، وقال: جبر الله يتمك، وجعلك خلفاً من أبيك، وكان من أبناء المهاجرين، فقال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **رَأَيْتُكَ يا معاذُ، وَما صَنَعْتَ**، قال: رحمته، قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **لا يَلي أَحَدٌ مِنْكُمْ يتيماً، فَيُحْسِنُ ولايَتَهُ، وَوَضَعَ يدَهُ على رأسه إلا كَتَبَ اللهُ لَهُ بكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَةً، وَمَحا عَنْهُ بكُلِّ شَعْرَةٍ سَيِّئَةً، وَرَفَعَ لَهُ بكُلِّ شَعْرَةٍ دَرَجَةً**»[2].

وعن عبد الله بن مسعود، قال: «قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **مَنْ مَسَحَ عَلى رَأْسِ**

---

(١) النّساء: ١٠.

(٢) الشّيخ الطّبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٦٧/١٠.

يَتيمٍ، كانَ لَهُ بكُلِّ شَعْرَةٍ تَمرُّ عَلى يَده نورٌ يَوْمَ الْقيامَةِ»(١).

وقال صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**أَنا وكافِلُ الْيَتيمِ كَهاتَيْنِ في الْجَنَّةِ إِذا اتَّقى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**»، وأشار بالسّبّابة والوسطى(٢).

٢- ومن النّاحية الإنسانيّة يجب أن يعيش الأيتام في حماية المجتمع ورعايته ليضمن مستقبلهم.

٣- وكذلك يجب حماية تركاتهم من آبائهم وعدم تبذيرها وصرفها فيما لا طائل فيه.

فالسّورة إشارة إلى إحدى صفات المنافقين، وهي اضطهاد الأيتام بتعنيفهم، وطردهم، وعدم الاهتمام بهم، وإهمال رعايتهم، وعدم تقديم الخدمات لهم، وعدم حفظ أموالهم، وإهمال تربيتهم هذا في الوقت الَّذي أكَّد الإسلام على وجوب كلّ ذلك كما في قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ**﴾، أي لا تقهره على ماله، وتذهب بحقّه، ولا تحتقره، واعتنِ به، وفي آيات أخر حذَّرت من التّصرّف غير الشّرعيّ بماله، وأوعدت عليه أشدّ العذاب كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾(٣).

بل نهى تعالى عن الاقتراب من أموالهم، وهو تعبير يوحي بشدّة الاحتياط والحذر من التّصرّف بماله إلا في مصلحته منها قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ**

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧٦٧/١٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) النّساء: ١٠.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ﴾[(١)].

واستنكر تعالى على الّذين لا يكرمون اليتيم، ولا يعتنون به أشد الإنكار كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾[(٢)].

فكلّ هذه الآيات تدلّ على وجوب الاهتمام والعناية الفائقة بالأيتام؛ لتربيتهم وحفظهم من الانحراف، وإعدادهم كأفراد صالحين في المجتمع.

وأمّا الرّوايات الواردة في ذلك فكثيرة، فقد رُوِيَ أنَّ النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: «**مَنْ ضَمَّ يَتيماً إلى طَعامِه وشَرابه، حتّى يَسْتَغْني عَنْهُ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ**»[(٣)].

وفي حديث آخر قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**إذا بَكى الْيَتيمُ في الأَرْضِ قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ أَبْكى عَبْدِيَ هذا الْيَتيمَ الَّذي غَيَّبْتُ أَبَوَيْهِ - أَوْ أَباهُ - في الأَرْضِ؟ فَتَقولُ الْمَلائكَةُ: سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلا ما عَلَّمْتَنا، فَيَقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أُشْهِدُكُمْ مَلائكَتي أَنَّ مَنْ أَسْكَتَهُ بِرِضاه، فَأَنا ضامِنٌ لِرِضاهُ مِنَ الْجَنَّةِ**»، قيل: «يا رسول الله، وما يرضيه؟»، قال: «**يَمْسَحُ رَأْسَهُ أَوْ يُطْعِمُهُ تَمْرَةً**»[(٤)].

وفي حديث ثالث قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**كافِلُ الْيَتيمِ لَهُ، أَوْ لِغَيْرِه إذا اتَّقى مَعِيَ في الْجَنَّة كَهاتَيْنِ**»، يعني المسبحة (السّبّابة) والوسطى[(٥)].

وأيضاً في حديث آخر: «**مَنْ كَفَلَ يَتيماً لَهُ قَرابَةٌ، أَوْ لا قَرابَةَ لَه، فَأَنا**

---

(١) الأنعام: ١٥٢.

(٢) الفجر: ١٧.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣٧٠/٣١، ح/١٩٠٢٥؛ ومستدرك الوسائل للميرزا النّوريّ: ٤٧٤/٢، ح/٢٥٠٠.

(٤) الشّيخ علي الطّبرسيّ، مشكاة الأنوار: ٣٧٦/١، ح/٨٨٨.

(٥) الطّبرانيّ، المعجم الكبير: ٣٢١/٢٠.

وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ، وَضمّ أصبعيه»[١].

إذن للإسلام عناية خاصّة بالأيتام؛ لأنّهم حُرِموا من آبائهم، فلا بدَّ لكلّ مسلم أو مؤمن أن يكون لليتيم أباً رؤوفاً رحيماً، ولا تنتهي المسؤوليّة عن اليتيم إلا إذا بلغ سنّ الرُّشد؛ فصفة المنافقين أنَّهم يقهرون الأيتام، ويدفعونهم بعنف، ويزجرونهم بشدّة؛ لأنَّهم لا يؤمنون بجزاء ولو خافوا عقاب الله لما فعلوا ذلك، ولذلك جاءت الآية بأسلوب الاستفهام والتّعجّب، أي لا تعجب يا محمّد من هؤلاء، فهم لا يؤمنون بعودتهم إلى ساحة الحساب.

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: الْحَضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ:

﴿ **وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ** ﴾، أي لا يحثّ الآخرين على الحفاظ على إطعام المسكين فلا يَرْغَبُ ولا يُرَغّب النّاس في ذلك، فلا يطعمه، ولا يأمر بإطعامه أي لا يفعله إذا قدر عليه، ولا يحثّ عليه إذا عجز عنه؛ لأنَّه يكذب بالجزاء.

وإطعام المساكين عمل إنسانيٌّ عظيم يرسّخ في النَّفس روح التّواصل والمحبّة والأخوّة، ويطهّرها من الحرص والبخل والشّحّ، فهو إذن عمل تربويٌّ اجتماعيّ شريطة أن يكون خالصاً لوجه الله وعلى حبّه تعالى، ومن هنا جعله الله عزَّ وجلَّ من صفات أكرم خلقه من الأبرار، فقال: ﴿ **وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** ﴾[٢].

وفي الجانب الآخر وصف تعالى المخالفين لذلك بأسوأ الخصال، فكان

---

(١) مسند البزّار: ١١٦/١٧، ح/٩٦٨٩.

(٢) الإنسان: ٨

مصيرهم بأحطّ الدّركات في جهنّم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۞ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾(١).

والعجيب في الأمر أنَّ الآية الكريمة قرنت عدم إطعام المساكين بترك الصَّلاة الَّتي هي عمود الدّين، وهي إشارة مهمّة إلى خطورة ترك إطعام المساكين، وأمّا ثواب من أطعم المسكين، فقد أكَّدت الأحاديث الشَّريفة على عظمتها بما هو خارج عن تصوّراتنا المحدودة الَّتي لا تدرك تلك الحقائق الإلهيّة؛ لضيق آفاقها، وجهلها بألطاف الله بعباده، نذكر منها:

قال كليم الله موسى عليه السلام: «**إلهي، ما جَزاءُ مَنْ أَطْعَمَ مِسْكيناً ابْتغاءَ وَجْهِكَ؟**» قال الله تعالى: «**يا موسى، آمُرُ مُنادياً يُنادي يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى رُؤوسِ الْخَلائقِ: فُلانُ بْنُ فُلان مِنْ عُتَقاء الله مِنَ النّار**»(٢).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**أَحَبُّ الأَعْمال إلى الله عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَطْعَمَ مِسْكيناً مِنْ جوعٍ أَوْ دَفَعَ عَنْهُ مَغْرَماً أَوْ كَشَفَ عَنْهُ كَرْباً**»(٣).

وعن حذيفة بن اليمان أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: «**يا حُذَيْفَةُ، مَنْ أَطْعَمَ مِسْكيناً لله عَزَّ وَجَلَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»، قال: «قلت: يا رسول الله، أكتم أم أتحدّث به؟ قال: **بَلْ تَحَدَّثْ بِه**»(٤).

---

(١) المدّثر: ٤٢-٤٤.

(٢) مصنّفات الشّيخ الصّدوق (فضائل الأشهر الثّلاثة): ٤٣٩، ح/٦٨.

(٣) المعجم الكبير: ٢٤٥/٣، ح/٣١٨٧.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٥٦٧/٤٣.

الصِّفَةُ الثّالثَةُ: السَّهْوُ عَنِ الصَّلاةِ:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، أي عدم الاعتناء بأداء الصَّلاة، والاستخفاف بها، والتَّهاون بأمرها، سواء كان عدم تعلّم أحكامها، أو عدم الاهتمام بأدائها في وقتها، أو عدم إتمام واجباتها المفروضة في أدائها، قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنّي مَن اسْتَخَفَّ بِصَلاتِه، لا يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ لا وَالله**»[١].

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**إنّ شَفاعَتَنا لا تَنالُ مُسْتَخِفّاً بِالْصَّلاة**»[٢].

وقد عبّرت بعض الرّوايات عن مثل هذه الحالة بنقر الغراب؛ كما جاء في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**بَيْنا رَسولُ الله ﷺ جالِسٌ في الْمَسْجِد إذْ دَخَلَ رَجُلٌ، فَقامَ يُصَلّي، فَلَمْ يُتِمَّ رُكوعَهُ وَلا سُجودَهُ، فَقالَ ﷺ: نَقْرٌ كَنَقْرِ الْغُرابِ، لَئِنْ ماتَ هذا، وَهكَذا صَلاتُهُ لَيَموتَنَّ عَلى غَيْرِ ديني**»[٣].

وفرّق العلماء بين السّهو (عن الصّلاة) والسّهو (في الصّلاة)، فالسَّهو عن الصّلاة هو قلّة الالتفات إليها، وعدم الاعتناء بها من جميع وجوهها، والسَّهو في الصَّلاة هو الوسوسة الَّتي تعتري المسلم أثناء صلاته، وهو غير محضور على المسلمين؛ ولذا شَرّع الفقهاء سجدة السَّهو؛ لمعالجة ما يقع من سهو في الصَّلاة.

واختلفوا في المعنى المشار إليه في الآية الكريمة، فقيل: لا يبالون، أو لم يصلّوا، وقيل: الَّذين إن صلّوا صلّوها رياء، وإن فاتتهم لم يندموا عليها، وقيل: الَّذين لا يصلّون لمواقيتها، ولا يتمّون ركوعها وسجودها، وقد ورد في تفسيرها روايات

---

(١) الشّيخ الصّدوق، كتاب من لا يحضره الفقيه: ٢٠٦/١، ح/٦١٧.

(٢) المصدر نفسه: ح/٦١٨.

(٣) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٩/٦، ح/٤٨٠٤.

عدّة منها: ما رواه العيّاشيّ بالإسناد عن يونس بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾: «أهي وسوسة الشَّيطان؟» فقال: «**لا، كُلُّ أَحَدٍ يُصيبُهُ هذا، ولَكِنْ أَنْ يَغْفَلَها، ويَدَعَ أَنْ يُصَلّي في أَوَّل وَقْتِها**»(١).

وعن زيد الشّحّام عن أبي عبد الله قال: «**هُوَ التَّرْكُ لَها، وَالتَّواني عَنْها**»(٢).

وعن محمد بن الفضيل، عن أبي الحسن عليه السلام قال: «**هُوَ التَّضْييعُ لَها**»(٣).

الصِّفَةُ الرّابِعَةُ: الرِّياءُ:

إنَّهم يراؤون في أعمالهم، فلا يعملون لله تعالى، وإنّما يعملون ليجذبوا به نظر النّاس إليهم، والرّياء هو الشّرك الخفيّ؛ لأنَّ المرائي لا يعمل لله تعالى، ولا يخلص في عمله، إنّما همُّه من عمله هو كسب رضا النّاس، وجلب أنظارهم إليه، وقد أوعدهم الله بعذابه بكلمة: ﴿فَوَيۡلٌ﴾، وهي كلمة توحي بشدّة العذاب؛ ولذا ينبغي أن نعرض لمفهوم الرّياء لبيان مخاطره في حياة الإنسان السّالك إلى الله عزَّ وجلَّ، فنقول: قيمة العمل في الإسلام بما يحمل العامل من دوافع صالحة بعيدة عن الذّاتيّة، والأنانيّة، والمصالح الخاصّة، ولذا أشدّ ما تواجه البشريّة من صعوبات هي التّضارب بين المصالح الذّاتيّة الخاصّة، وبين المصالح الاجتماعيّة العامّة، وهذا نابعٌ من غريزة حبّ الذّات الّتي تحاول أن تستقطب كلّ شيء لصالحها؛ فحبُّ الذّات أعمق، وأعرق غريزة في النَّفس، ومنها تنبعث غريزة حبّ الظّهور، وهي الّتي تدفع الإنسان إلى حبّ الرّئاسة، والتّميّز على الأقران، والتّفوّق في كلّ ميدان؛

---

(١) تفسير العيّاشيّ: ٣/١٧٥-١٧٦، ح/١١٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣/١٧٦، ح/١١٤.

(٣) المصدر نفسه: ح/١١٥.

فهي تحاول إشباع نهمها في الظّهور، فتحرص على سماع الحمد، والمدح، والثّناء على ما تعمل، وما تمتلك من ملكات خيّرة، أو أموال وفيرة، أو علم، أو عبادة، أو ما إلى ذلك من الشّؤون الإنسانيّة؛ لأجل إلفات نظر الآخرين، وكسب قلوبهم؛ لجعلها وسيلةً لنيل الجاه الواسع، أو المال الوفير، أو السّلطة القويّة بالتّظاهر بالكمال في وجه من الوجوه؛ لاستمالة القلوب إليها؛ لأنَّ «القلوب إنّما تتسخّر بالحبّ، ولا تحبّ إلا باعتقاد الكمال؛ فإنَّ كلّ كمال محبوب»[1].

لِماذا يُحِبُّ الإِنْسانُ الْمَدْحَ:

ذكر علماء الأخلاق أسباباً عدّة لحبّ الإنسان للمدح، وهذا الحبُّ أيضاً نابعٌ من حبّ الظّهور الّذي هو فرع حبّ الذّات، فسبب حبّ المدح إذن:

١- إنَّ المدحَ إشعارٌ للنّفس بالكمال، والكمال محبوبٌ لذاته.

٢- إنَّ المدحَ يوحي للممدوح أنَّه قد امتلك قلب المادح، وسخَّره إليه؛ لاعتقاده بكماله فيُسَخّر لمشيئته.

٣- قد يكون ثناء المثني، ومدح المادح يؤدّي إلى جذب قلوب الآخرين، ويرفع منزلته الاجتماعيّة.

٤- وقد يكون سبب الارتياح للمدح؛ لأنَّ فيه لذّة الاستيلاء، والسّيطرة على القلوب.

ولكن لو رجع الإنسان إلى عقله، وحَكَّمَهُ في مشاعره، وغرائزه لوجد أنَّ ذلك كلّه من توقان النَّفس إلى إشباع غريزة حبّ الظّهور؛ فالتّظاهرُ بالكمال مع فقده حقيقةً -وهو يعلم ذلك في نفسه- دلالةٌ على نقصان العقل، وإلا فهل يصدّق

(١) الفيض الكاشانيّ، المحجّة البيضاء: ١٢٠/٦.

عاقل لو مُدِحَ لوجود جوهرةٍ ثمينةٍ في جيبه، أو يده، وهو يعلم ليس في جيبه شيءٌ، أو في يده فحمة.

ولهذا ورد عن روح الله عيسى عليه السلام: «**بحَقٍّ أَقولُ لَكُمْ: إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَغْضَبُ إذا ذُكِرَ لَهُ بَعْضُ عُيوبِهِ وَهِيَ حَقٌّ، وَيَفْرَحُ إذا مُدِحَ بما لَيْسَ فيه**»[1].

ولذا يتعجّب حكماء البشر لفرح الإنسان إذا امتدح لشيء ليس فيه، أو يغضب إذا ذمّ لشيء فيه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**عَجِبْتُ لِمَنْ يوصَفُ بِالْخَيْرِ الَّذي يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ فيه كَيْفَ يَرْضى**»[2].

وأمّا السَّبب الثّاني فهو أوهى من الأول، فليس من المعلوم أنَّ المادح إنّما مدح لإحساسه بكمال الممدوح، أو أنَّه مسخّر له، وإنّما قد يجوز أنَّ المدح كان لتملّق أو لتحقيق مصلحة، أو ما إلى ذلك.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَيُّها النّاسُ، اعْلَموا أَنَّهُ لَيْسَ بعاقِلٍ مَن انْزَعَجَ مِنْ قَوْلِ الزّورِ فيهِ، وَلا بِحَكيمٍ مَنْ رَضِيَ بِثَناءِ الْجاهِلِ عَلَيْه**»[3].

وعنه عليه السلام: «**إنَّ مادِحَكَ لَخادِعٌ لِعَقْلِكَ، غاشٌّ لَكَ في نَفْسِكَ بِكاذِبِ الإطْراءِ وَزورِ الثَّناءِ، فَإنْ حَرَمْتَهُ نَوالَكَ، أَوْ مَنَعْتَهُ إفْضالَكَ، وَسَمَكَ بِكُلِّ فَضيحَةٍ، وَنَسَبَكَ إلى كُلِّ قَبيحَةٍ**»[4].

والثّالث: قد يثير المدح السُّخريّة، ولا يجذب الآخرين، بل يثير امتعاضهم؛ لأنَّ الجمال والكمال الّذي يجذب القلوب هو الكمال الذّاتيّ، وليس بالوساطة، أو

(١) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول: ٥١١.

(٢) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٣٤، ح/٤٦٩٣.

(٣) الكافي: ١/١٢٥، ح/١٤١.

(٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٦٦، ح/١٠٧٢٨.

الدّعوة إليه، وقد يكون المدح سخريّة بالممدوح لأجل الانتقاص منه؛ لأنَّ مدح الإنسان بما ليس فيه استهزاء وسخرية به، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ مَدَحَكَ بما لَيْسَ فيكَ فَهُوَ ذَمٌّ لَكَ إنْ عَقَلْتَ**».

«**مادِحُ الرَّجُلِ بما لَيْسَ فيه مُسْتَهْزِئٌ به**».

«**مادِحُكَ بما لَيْسَ فيكَ مُسْتَهْزِئٌ بِكَ، فَإِنْ لَمْ تُسْعِفْهُ بِنَوالِكَ بالَغَ في ذَمِّكَ وَهِجائِكَ**»(١).

أمّا لذّة الشّعور بالمدح فهي لذّة وهميّة لا تدوم إلا دقائق، وتزول وتنتهي إلى الأبد، وعلى كلّ حال حبّ المدح، وحبّ الجاه النّابع من غريزة حبّ الظّهور قد يدفع الإنسان إلى الرّياء؛ لإشباع غرائزه، والرّياء من الأمراض المهلكة لدين الإنسان، وربّما دنياه، فما هو الرّياء؟

الرّياء: هو محاولة الظُّهور والبروز في مَعْلَم من معالم الكمال؛ كالعلم الغزير، والعمل الصّالح، أو الاعتقاد السّليم، أو الخُلق القويم، أو الصّفات الحميدة، أو المال الوفير، أو النّسب الرّفيع أمام النّاس؛ لأجل نيل منزلة رفيعة في قلوبهم، والاشتهار بينهم بتلك المعالم المحبوبة من دون نيّة إلهيّة صحيحة، وإنّما لأغراض دنيويّة لإشباع الغرائز النّفسيّة.

المَجالاتُ الّتي يُرائي بِها الإِنْسانُ:

يمكن تقسيم الأمور الّتي يرائي بها الإنسان على مجالات دنيويّة ومجالات أخرويّة، فأهل الدّنيا يراؤون بخمسة أشياء: البدن، والزّيّ، والقول، والعمل،

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٦٧، ح/١٠٧٤١-١٠٧٤٢-١٠٧٤٣.

والأتباع، «إلا أنَّ طلبَ الجاه، وقصدَ الرّياء بأعمال ليست من جملة الطّاعات أهون من الرّياء بالطّاعات»[١].

والمتظاهرون بالتّديّن يراؤون: بالعبادة، والخوف، والخشية من الله، وكثرة الذّكر، والدّعاء، والتّخشّع، ويتظاهرون بالتّخاضع، وطأطأة الرّؤوس، وطول اللّحية، وربّما كبر العمامة، وغزارة العلم... والنّتيجة يتظاهرون ويراؤون بكلّ ما يوحي للآخرين أنَّهم من الأتقياء، والصّالحين، والواعين، والورعين، والمُجدِّين في خدمة عباد الله تعالى، ولكن في الواقع أنَّهم فارغون من ذلك أجمع، وسبب هذا الرّياء هو ضعف الإيمان بالله تعالى، إن لم يكن انعدامه، فمن كان يعبد الله تعالى الّذي بيده كلّ شيء، متفرّغاً له، فما حاجته بقلوب الآخرين؟! مع أنَّ قلوب الآخرين بيده تعالى، يوجّهها لعباده الّذين أخلصوا الطّاعة له.

وأمّا أساليب الرّياء فتأخذ أشكالاً مختلفة؛ فمرّة يتحدّث المرائي عن علاقته بالعلماء الكبار، والعباد المشهورين، ويذكر مدى احترامه لهم، واحترامهم له، وقربه منهم؛ ومرّة يتحدّث عن المستوى العلميّ، والبحث الفكريّ للعالم والمفكّر فلان، ونقاشه معه، وإشكاله عليه، وإقناعه برأيه، وهو يعتقد أنَّ ذلك يقدّم به خدمة للإسلام، وهو في الواقع يريد أن يثبت جدارته العلميّة، ومنزلته العلميّة؛ ليثبت له منزلة في قلوب المخاطبين؛ ومرّة يتحدّث عن درسه، وتدريسه، وكثرة طلابه، وحضور أهل الفضل في حلقة درسه، وتارة يرائي بآرائه العلميّة، وأنَّ رأيه في المسألة الفلانيّة كذا مقابل رأي المجتهد الفلانيّ.

ومن أساليب الرّياء التّظاهر بكثرة العبادة كقيام اللّيل، وأداء النّوافل والسّهر في تلاوة القرآن، وعدد ختمات القرآن، ويتحدّث عن برنامجه العباديّ من صلاة،

(١) المحدّث المجلسيّ، بحار الأنوار: ٢٦٦/٧٢.

وصيام، ودعاء، وأوراد مخصوصة، ولو بصورة غير مباشرة كأن يقول: ينبغي أن نذكر الله في كذا موقف، وكذا حالة، وهي نافعة بالتَّجربة كما جرّبنا ذلك؛ ليشير بأنَّه قد قام بذلك، وهذه الحالة هي من تسويلات النَّفس وطرقها الملتوية الّتي يقع فيها الإنسان غالباً، ولا ينجو منها إلا ذوو الفطنة والمراقبة الدَّقيقة.

أسْبابُ الرِّياءِ:

بغضّ النّظر عن جميع أسباب الرّياء من حبّ الشّهرة، وطلب السّمعة الطّيّبة بين النّاس، وحبّ انتشار صيت الحمد والمدح، فإنَّ السَّبب الأساسيّ في الرّياء هو **ضعف الإيمان بالله تعالى**، فإنَّ كلّ أنواع الرّياء سواء كان في الأمور الدّينيّة، أو الدّنيويّة راجعٌ إلى عدم رسوخ الإيمان بالله تعالى، فلو كان الإنسان موقناً بأنَّ الرّفعة والسّموّ الإنسانيّ بيد الله تعالى دون سواه، وأنَّ الله هو الرّافع الخافض، وأنَّ من يرفعه الله لا يستطيع أحد أن يضعه، أقول: لو أيقن الإنسان بذلك، فهل يطلب الرّفعة من أحد؟ ولو اعتقد أنَّ الله هو الّذي ينشر الذّكر الطّيّب له بين النّاس، ويُقبل بقلوبهم عليه، فهل يطلب لنفسه ذلك من غير الله، ويضع لها النّياشين والعناوين، حتى لو كانت فارغة المحتوى، ومن هنا أكَّدت الرّوايات الشَّريفة أنَّ الإنسانَ المخلص الّذي يعمل الصّالحات، ويخفيها فلا بدّ وأن يظهرها الله للنّاس، ويُعْلي ذكره فيها مهما حاول إخفاءها؛ فعن أبي بصير، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: **مَا مِنْ عَبْدٍ يُسِرُّ خَيْراً إلا لَمْ تَذْهَبِ الأَيّامُ حَتّى يُظْهِرَ اللهُ لَهُ خَيْراً، وَما مِنْ عَبْدٍ يُسِرُّ شَرّاً إلا لَمْ تَذْهَبِ الأَيّامُ حَتّى يُظْهِرَ اللهُ لَهُ شَرّاً**»[1].

(١) الكافي: ٧٢٣/٣، ح/٢٤٩٨.

عِلاجُ الرِّياءِ:

في علاج الأمراض النّفسيّة لا بدّ للإنسان أن يعلم بها، ويعترف بها، ومشكلة الرّياء أنَّ الإنسانَ قد يرائي، ولكن يعتقد أنَّه قد أخلص في عمله، وأنَّه يريد به وجه الله تعالى، فدهاليز النّفس كثيرة، ومتعرّجة، ومخفيّة؛ ولذا مُثّل الشّرك في السّنّة الشّريفة بمثال في منتهى الدّقة إذ جاء المثال من الخفاء بدرجة لا يحسّها إلا الّذين بَصَّرَهم الله بعيوبهم؛ فعن أبي هاشم الجعفريّ، قال: «سَمعت أبا محمّد عليه السلام يقول: **مِنَ الذُّنوبِ الَّتي لا تُغْفَرُ قَوْلُ الرَّجُلِ: لَيْتَني لَمْ أؤاخَذْ إلا بهذا،** فَقَلْتُ في نَفْسي: إنَّ هذا لهو الدقيق، وقد ينبغي للرّجل أن يتفقّد من أمره، ومن نفسه كلّ شيء، فأقبل عليَّ أبو محمّد، فقال: **صَدَقْتَ يا أَبا هاشِم، فَالْزَمْ ما حَدَّثَتْكَ به نَفْسُكَ؛ فَإِنَّ الإشْراكَ في النّاسِ أَخْفى مِنْ دَبيبِ الذَّرِّ عَلى الصَّفا في اللَّيْلَةِ الظَّلْماء، أَوْ مِنْ دَبيبِ الذَّرِّ عَلى الْمِسْحِ الأَسْوَدِ[(١)]**»[(٢)].

ولدقّة أمر الرّياء فإنَّ العلاج يحتاج إلى أن ينتبه الإنسان إلى تصوّراته، ودوافعه، وآرائه، وأهدافه، وأعماله بدقّة متناهية، ويضعها في ميزان الشّرع؛ ليمحّصها، ويغربلها، ويميّز ما كان منها لله، وما كان منها لأهواء نفسه ورغباتها، ويدرس خواطره الّتي تتوارد أثناء العمل؛ ليستطيع أن يميّز بين العمل الّذي يقوم به لله، وبين العمل الّذي يريد به جلب أنظار النّاس، وكسب قلوبهم؛ فإذا استطاع أن يميّز بين دوافعه وخواطره، ويشخّص الصّالح منها عن الفاسد استطاع أن يعالج ما يحتمل أنّه من الرّياء فضلاً عن الرّياء الحقيقيّ.

---

(١) المسح بكسر السّين، بساط من الشّعر يفرش على الأرض.

(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: ٤/٤٧٢.

بَيانُ مَخاطِرِ الرِّياءِ في حَياةِ الإِنْسانِ:

لقد جاءت النّصوص المقدّسة قرآناً وسنّة مبيّنة خطورة هذا المسلك السَّقيم في حياة الإنسان، إذ يُخْسِرُه عمله في الدُّنيا وفي الآخرة، يقول تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾(١).

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٢).

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٤).

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾(٥).

هذا ما بيّنه الكتاب الكريم، وأمّا الأحاديث الشّريفة فهي أكثر من أن تعدّ، نذكر منها:

١- عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال لعبّاد بن كثيرٍ البصريّ في المسجد: «وَيْلَكَ

---

(١) الماعون: ٤-٧.

(٢) الكهف: ١١٠.

(٣) النّساء: ١٤٢.

(٤) البقرة: ٢٦٤.

(٥) النّساء: ٣٨.

يا عبّادُ، إيّاكَ والرِّياءَ؛ فإنَّهُ منْ عملَ لغيْرِ الله وكَلَهُ اللهُ إلى منْ عملَ لَهُ»[١].

٢- عن عليّ بن عقبة، عن أبيه، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اجْعَلوا أمْرَكُمْ هذا لله، ولا تجْعَلوهُ للنّاسِ، فإنَّهُ ما كانَ لله فهوَ لله، وما كانَ للنّاسِ فلا يَصْعَدُ إلى الله»[٢].

٣- قال أبو عبد الله عليه السلام: «كُلُّ رياءٍ شرْكٌ، إنَّهُ منْ عملَ للنّاسِ كانَ ثوابُهُ علَى النّاسِ، ومنْ عملَ لله كانَ ثوابُهُ علَى الله»[٣].

٤- عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: إنَّ الْمَلَكَ ليَصْعَدُ بعَمَلِ الْعَبْدِ مُبْتَهِجاً به، فإذا صعدَ بحسناته يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اجْعَلوها في سجّينٍ، إنَّهُ لَيْسَ إيّايَ أرادَ بها»[٤].

٥- عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «منْ أرادَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - بالْقَليلِ منْ عمَلِه، أظْهرَ اللهُ لهُ أكْثَرَ ممّا أرادَ، ومنْ أرادَ النّاسَ بالْكَثيرِ منْ عمَلِه في تعبٍ منْ بدَنِه، وسهَرٍ منْ لَيْلِه، أبى اللهُ - عزَّ وجلَّ - إلا أنْ يُقَلِّلَهُ في عيْنِ منْ سَمِعَه»[٥].

٦- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله: سيَأْتي علَى النّاسِ زمانٌ تَخْبُثُ فيه سرائرُهُمْ، وتَحْسُنُ فيه علانيَتُهُمْ، طمَعاً في الدُّنْيا، لا يُريدونَ به ما عنْدَ ربِّهِمْ، يكونُ دينُهُمْ رياءً، لا يُخالطُهُمْ خوْفٌ، يعُمُّهُمُ اللهُ بعقابٍ،

(١) الكافي: ٣/٧١٨، ح/٢٤٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ح/٢٤٨٨.

(٣) المصدر نفسه: ح/٢٤٨٩.

(٤) المصدر نفسه: ٣/٧٢١، ح/٢٤٩٣.

(٥) المصدر نفسه: ٣/٧٢٣-٧٢٤، ح/٢٤٩٩.

فَيَدْعونَهُ دُعاءَ الْغَريق، فَلا يَسْتَجيبُ لَهُمْ»[١].

٧- عن عليّ بن أسباط، عن بعض أصحابه، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «**الإبْقاءُ على الْعَمَلِ أَشَدُّ منَ الْعَمَلِ**»، قال: وما الإبقاءُ على العمل؟ قال: «**يَصِلُ الرَّجُلُ بِصِلَة، ويُنْفق نَفَقَةً لله وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، فَكُتِبَ لَهُ سِرّاً، ثُمَّ يَذْكُرُها فَتُمْحى، فَتُكْتَبُ لَهُ عَلانِيَةً، ثُمَّ يَذْكُرُها فَتُمْحى، وتُكْتَبُ لَهُ رِياءً**»[٢].

٨- وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**تَعَوَّذوا بِالله منْ جُبِّ الْحُزْنِ**»، فسُئِل: «يا رسولَ الله، وما جُبُّ الحزن؟»، قال: «**وادٍ في جَهَنَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعْمائَة مَرَّةً**»، قالوا: «يا رسول الله، ومن يدخله؟»، قال: «**أُعِدَّ لِلْقُرّاء الْمُرائينَ بِأَعْمالِهِمْ، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الْقُرّاء إلى الله الَّذينَ يَزورونَ الأُمَراءَ**»[٣].

٩- رُوِيَ عن النّبي صلى الله عليه وآله، أنَّه قال: «**قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: أَنا أَغْنى الشُّرَكاء عَنِ الشِّرْك، فَمَنْ عَمِلَ لي عَمَلاً أَشْرَكَ فيه غَيْري، فَأَنا مِنْهُ بَريءٌ، وَهُوَ لِلَّذي أَشْرَكَ**»[٤].

١٠- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»، قالوا: «وما الشّرك الأصغر يا رسول الله؟»، قال: «**الرِّياءُ، يَقولُ اللهُ تَعالى إذا جازى الْعِبادَ بِأَعْمالِهِمْ: اذْهَبوا إِلى الَّذينَ كُنْتُمْ تُراؤونَهُمْ في الدُّنْيا، فَاطْلُبوا جَزاءَكُمْ مِنْهُمْ**»[٥].

١١- قال شداد بن أوس: «رأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله يبكي، فقلتُ: يا رسولَ الله، ما

(١) الكافي: ٣/٧٢٤، ح/٢٥٠٠.

(٢) المصدر نفسه: ٣/٧٢٥، ح/٢٥٠٢.

(٣) سنن ابن ماجة: ١/٩٤، ح/٢٥٦.

(٤) المصدر نفسه: ٢/١٤٠٥، ح/٤٢٠٢.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢/١٧٩.

يُبكيك؟ قال: إنّي تَخَوَّفْتُ على أُمَّتي الشّرْكَ، أَما إنَّهُمْ لا يَعْبُدونَ صَنَماً، ولَا شَمْساً، ولا قَمَراً، ولَا حَجَراً، ولَكنَّهُمْ يُراؤونَ بأَعْمالِهِمْ»(١).

١٢- عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليهما السلام، قال: «إنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله سُئلَ فيما النّجاةُ غداً، فَقالَ: إنَّما النَّجاةُ في أَلا تُخادعوا اللهَ، فَيَخْدَعَكُمْ؛ فَإنَّهُ مَنْ يُخادِع اللهَ يَخْدَعْهُ، ويَخْلَعْ منْهُ الإيمانَ، ونَفْسَهُ يَخْدَعُ لَوْ يَشْعُرُ! فَقيلَ لَهُ: فَكَيْفَ يُخادعُ اللهَ؟ فَقالَ: يَعْمَلُ بما أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ به، ثُمَّ يُريدُ به غَيْرَه، فاتَّقوا الرّياءَ؛ فَإنَّهُ شرْكٌ بالله عَزَّ وجَلَّ، إنَّ الْمُرائي يُدْعى يَوْمَ الْقيامَة بأَرْبَعَة أَسْماءَ: يا كافرُ، يا فاجرُ، يا غادرُ، يا خاسرُ، حَبطَ عَمَلُكَ، وبَطَلَ أَجْرُكَ، ولَا خَلاقَ لَكَ الْيَوْمَ فَالْتَمسْ أَجْرَكَ ممَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ»(٢).

الصِّفَةُ الْخامِسَةُ: مَنْعُ الْماعونِ:

﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ وهو تعبيرٌ دقيقٌ عن عدم التّعاون في الوسط الاجتماعيّ، إذ يبخلون بما في أيديهم فلا يعطونه، ولا يعيرونه، ولا يقرضونه، وقد اختلف في معنى الآية، فقيل: إنّها منع الزّكاة، وقيل: إنَّ الماعون في لغة العرب تعبير مجازيّ عن المال، وقيل: اسم جامع لكلّ المنافع كالفأس، والقدر، والنّار، والملح والماء، وقيل: هو المعروف الَّذي يتعاطاه النّاس فيما بينهم، وعلى كلّ حال منع الماعون هو تعبير مجازيٌّ عن الامتناع عن فعل المعروف بكلّ أشكاله مع المجتمع الَّذي يعيشه الانسان.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٧٩/٢.

(٢) الشّيخ الصّدوق، معاني الأخبار: ٣٤١.

التَّفْكيرُ عِبادَةٌ

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾[1].

الإنسان هو الكائن الوحيد في هذا الكون الّذي تميّز بالاختيار في حياته، هذه المزيّة منحته الحريّة لسلوك أيّ نهج يريد، وهي الّتي حَمَّلَتْه المسؤوليّة، فإنَّ الله تعالى حين منحه العقل أراد منه أن يُحَكّمه، ولا يمكن تحكيم العقل إلا بالتَّفكير السَّليم، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[2].

ما هُوَ التَّفْكيرُ؟

قال الرّاغب الأصفهانيّ: «الفكرة قوّة مُطْرِقَةٌ للعلم إلى المعلوم، والتّفكّر جَوَلان تلك القوّة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان»[3].

وفي لسان العرب: «الفكر: إعمال الخاطر في الشّيء»[4].

وفي سفينة البحار: «اعلم أنَّ حقيقة التّفكّر طلب علم غير بديهيّ من

---

(١) الرّوم: ٨.

(٢) آل عمران: ١٩٠.

(٣) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ٥٣٠-٥٣١، (فكر).

(٤) ابن منظور، لسان العرب: ٦٥/٥، (فكر).

مقدّمات موصلة إليه... وقيل: التّفكّر سير الباطن من المبادي إلى المقاصد، وهو قريبٌ من النَّظر، ولا يرتقي أحد من النَّقص إلى الكمال إلا بهذا السَّير»(١).

وهناك تعريفات عديدة دونَّها الكُتّاب والمفكّرون كل بحسب ذوقه واتّجاهه المذهبيّ أو النّفسيّ نذكر منها:

١- «هو عبارة عن سلسلة من النَّشاطات العقليّة غير المرئيّة وغير الملموسة المختصّة بالدّماغ، والَّتي يقوم فيها الدّماغ عندما يتعرّض لمثير ما يتمّ استقباله من أحد الحواسّ، أو أكثر من حاسّة، وما نلمسه في الواقع ما هو إلا نتيجة للتَّفكير».

٢- «إنّ التّفكير هو الحوار الدّاخليّ المكثّف والموسّع، والَّذي يسمح بدمج المعلومات التى يحلّلها الدّماغ».

٣- «يعتبر التَّفكير العلمىّ سلسلة نشاطات عقليّة تتمّ عن طريق الدّماغ عندما يستقبل إحدى المثيرات، حيث يقوم بعمليّة تفكير منظّم يتمّ من خلالها حلّ المشكلات واتّخاذ القرارات».

٤- «التَّفكير عبارة عن سلسلة من النَّشاطات العقليّة الَّتى يقوم بها الدّماغ عندما يتعرّض لمثير، يتمّ استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواسّ الخمسة، وهو فهم مجرّد كالعدالة والظُّلم والحقد والشَّجاعة؛ لأنَّ النّشاطات الَّتى يقوم بها الدّماغ عند التَّفكير هى نشاطات غير مرئيّة وغير ملموسة، وما نلمسه فى الواقع ليس إلا نواتج فعل التَّفكير».

٥- «وفى معناه الواسع يمكن القول بأنَّ التَّفكير هو عمليّة بحث عن معنى فى الموقف أو الخبر، وعادة ما يبدأ الإنسان بالتَّفكير عندما لا يعرف ما الَّذي يجب عمله بالتَّحديد».

---

(١) الشّيخ عبّاس القمّيّ، سفينة البحار: ١٤٣/٧.

٦- وعرفه بعض علماء النَّفس بأنَّه «نشاط عقليّ ذهنيّ، يعتمد على الرّموز لحلّ المشاكل الَّتي تستثيره، حيث يستعيض عن الأشياء والأشخاص والمواقف والأحداث برموز تدلّ عليها، مثل الصّور الذّهنيّة والمعاني والألفاظ، والذّكريّات والإشارات والتّغيّرات والصّيغ الرّياضيّة، ويؤدّي التَّفكير إلى دراسة المعطيات والتّأكّد من صحّتها».

٧- وعرّفه آخرون من علماء النَّفس بأنَّه: «عمليّة نفسيّة ذات طبيعة اجتماعيّة لها علاقة قويّة بالكلام، تهدف هذه العمليّة إلى التَّنقيب والكشف عن كلّ ما هو جوهريّ في الأشياء والظّواهر، ومحاولة تحرّي واستقصاء واستنتاج منطقيّ للوصول إلى مدّى الصّحّة والخطأ لأيّة معطيات كانت».

٨- وقيل أيضاً: «التَّفكير سلوك متطوّر ونمائيّ يختلف في درجته ومستوياته من مرحلة عمريّة إلى أخرى، ويتغيّر كمّاً ونوعاً تبعاً لنموّ الفرد، وتراكم خبراته».

٩- وقال جون ديوي: «إنَّ التَّفكير هو النّشاط العقليّ الَّذي يرمي إلى حلّ مشكلة ما».

١٠- فتحي جروان: «التّفكير هو سلسلة من النّشاطات العقليّة غير المرئيّة الَّتي يقوم بها الدّماغ عندما يتعرّض لمثير يتمّ استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواسّ الخمسة، بحثاً عن معنى في الموقف أو الخبرة، وهو سلوك هادف وتطوّريّ، يتشكّل من داخل القابليّات والعوامل الشّخصيّة والعمليّات المعرفيّة وفوق المعرفيّة، والمعرفة الخاصّة بالموضوع الَّذي يدور حوله التَّفكير».

١١- «التَّفكير هو عبارة عن مجموعة من العمليّات العقليّة الدّاخليّة الَّتي تهدف إلى حلّ مشكلة أو اتّخاذ قرار أو البحث عن المعنى أو الوصول إلى هدف معيّن، وغالباً ما يسبق هذه العمليّات القيام بفعل معيّن أو النّطق بقول معيّن».

ولخَّص بعضهم خصائص التّفكير ومميّزاته بأنّه: «سلوك هادف فهو لا يحدث في فراغ أو بلا هدف، وإنّما يحدث في مواقف معيّنة».

وإنَّه «مفهوم نسبيّ، فلا يعقل لفرد ما أن يصل إلى درجة الكمال في التَّفكير أو يحقّق ويمارس جميع أنماط التّفكير».

ويحدث التَّفكير بأشكال وأنماط مختلفة؛ «لفظيّة، رمزيّة، كمّيّة، منطقيّة، مكانيّة، زمانيّة لكلّ منها خصوصيّة، وأنَّه سلوك تطوّريّ يزداد تعقيداً مع نموّ الفرد وتراكم خبراته، وأنَّ التَّفكير الفعّال هو الَّذي يستند إلى أفضل المعلومات الممكن توافرها، وأنَّ الكمال في التَّفكير الفعّال غاية يمكن بلوغها بالتَّدريب»[١].

وموجز القول: إنَّ التَّفكير حركةٌ عقليّةٌ يكتشف الإنسان من خلالها القضايا، والأمور المجهولة لديه، ويواجه بها المشاكل والعقبات والتّحدّيات الَّتي تواجهه في مسيرة حياته، ويُصَعّد بها ملكاته النَّفسيّة، والعقليّة، وهو مزيّة يختصّ بها الإنسان عن سائر الكائنات الأخرى.

الدَّعْوَةُ إِلى التَّفْكِيرِ:

من مزايا العقيدة الإسلاميّة البارزة هي دعوة الإنسان إلى البحث والتّأمّل والتَّنقيب الحرّ، لكي يتوصّل إلى كشف الحقائق بنفسه؛ ولذا رفض الإسلام التَّقليد في العقائد، وجعل من الواجبات المهمّة، بل الأهمّ البحث فيها؛ كي يتوصّل إلى معرفتها بنفسه، حتّى يصل إلى درجة اليقين الَّذي لا يشوبه شكٌّ، ويعتمدها قاعدة صلبة يبني عليها حياته، ومن هنا جاء الحثُّ المتواصل على التَّفكير بشكل جدّيّ

---

(١) اقتبستُ ما تقدَّم من تّعريفات من الشّبكة العنكبوتيّة بتصرّف.

صريح واضح حتّى عدَّ التَّفكير عبادة، بل أفضل العبادات فلا عبادة كالتَّفكير، فـ«**تَفَكُّرُ ساعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبادَةِ سِتّينَ سَنَةً**»[1] لا تفكير فيها يقوم ليلها، ويصوم نهارها.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**أَفْضَلُ الْعِبادَةِ إِدْمانُ التَّفَكُّرِ في اللهِ وَفي قُدْرَتِه**»[2].

وعن الإمام الرّضا عليه السلام قال: «**لَيْسَ الْعِبادَةُ كَثْرَةَ الصَّلاةِ وَالصَّوْمِ، إِنَّما الْعِبادَةُ التَّفَكُّرُ في أَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[3].

وفي قوله عليه السلام: «**إِنَّما الْعِبادَةُ...**» دلالة عظيمة على أهمّيّة التَّفكير لحصره بـ(إنَّما) الَّتي هي أقوى أدوات الحصر؛ لأنَّ أيّة عبادة إذا خلت من التَّفكير المستقيم تصبح جسداً لا روح فيه، ومثل هذه العبادة يرفضها الإسلام قلباً وقالباً شكلاً ومضموناً.

وهذا الحثُّ على التَّفكير يهدف إلى بناء إنسان متبصّر في دينه، عارف بزمانه، وما يدور حوله، متمتّع بالاستقلال الفكريّ الرَّشيد حتّى يعرف مداخل الأمور من مخارجها، وهذه الدَّعوة إلى التَّفكير في حقيقتها هي دعوة إلى العلم والمعرفة، والعمل بهما؛ لبناء حضارة إنسانيّة راقية مبنيّة على أساس الرّؤية الكونيّة السَّليمة للحياة والكون.

---

(١) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: ٢٠٥/٢.

(٢) ثقة الإسلام الكلينيّ، الكافي: ١٤١/٣، ح/١٥٥٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٤١/٣-١٤٢، ح/١٥٥٨.

شُروطُ التَّفْكيرِ السّليمِ:

كما حثَّ الإسلام على التّفكير، فقد جعل له شروطاً وأصولاً أساسيّة؛ لتكون ثمراته سليمة موافقة لأصول العقيدة وأحكامها، وأهمّ هذه الشّروط:

١- أن تكون مبادئ التَّفكير ومنطلقاته قائمة على مقدّمات فكريّة إسلاميّة سليمة، ومنسجمة مع التّصوّر الإسلاميّ حول الكون والحياة.

٢- أن يسير التَّفكير وفق منهج وطريقة لا تخالف العقيدة والتَّشريع الإسلاميّ، فعلى سبيل المثال لا يجوز التَّفكير في الكنه الإلهيّ، وإنّما التَّفكير في الآثار الإلهيّة، وجعلها طريقاً للوصول إلى معرفة الله تعالى، فقد ورد في الحديث: «**لا تَفَكَّروا في الله، وتَفَكَّروا في خَلْق الله**»[(١)].

وفي حديث آخر: «**تَفَكَّروا في خَلْقِ الله، ولا تَفَكَّروا في الله، فإنَّكُمْ لَنْ تَقْدِّروا قَدْرَه**»[(٢)].

٣- أن ينتهي إلى نتائج فكريّة تناسب الموازين الإسلاميّة عقائديّاً وشرعيّاً، فكلّ تفكير يخضع لهذه المبادئ الثّلاثة يمكن أن نسمّيه فكراً إسلاميّاً، فعلى سبيل المثال: إذا تأمّلناها جيّداً في صور النّاس المختلفة نرى لكلّ منها هيكلاً خاصاً (ديكوراً) لا يشبه الآخرين في تقاسيم وجهه وسحنته خصوصاً في وضع العينين، ولو غُطيت لما عُرف الإنسان، وهذا من عجائب الخلق، وكذلك اختلاف خطوط البنان واختلاف لغات الآدميّين، ولهجاتهم مع أنَّ عضلة اللّسان واحدة، والحنجرة واحدة لا تختلف في مادّتها وتركيبها، جلَّت قدرة خالقها، يقول تعالى: ﴿ **وَمِنْ**

---

(١) أبو نعيم الأصبهانيّ، حلية الأولياء: ٦٧/٦.

(٢) ورّام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر: ٥٩٥/١، ح/١٤٣٧.

ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾(١).

ورد في توحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أَطِلِ الْفِكْرَ يا مُفَضَّلُ في الصَّوْت وَالْكَلام، وتَهْيِئَة آلاته في الإنْسان، فَالْحُنْجَرَةُ كَالأُنْبوبَة لخُروج الصَّوت؛ وَاللِّسانُ، وَالشَّفَتان، والأَسْنَانُ لصياغَة الْحُروف وَالنَّغَم، أَلا تَرى أَنَّ مَنْ سَقَطَتْ أَسْنانُهُ لَمْ يُقِم السِّينَ، وَمَنْ سَقَطَتْ شَفَّتُهُ لَمْ يُصَحِّح الْفاءَ، وَمَنْ ثَقُلَ لسانُهُ لَمْ يُفْصِح الرَّاء**»(٢).

وهكذا فإنَّ كلَّ عضو من أعضاء الإنسان فيه عجائب إلهيّة حَريّة أن يتفكّر فيها الإنسان من بدء تكوينه نطفة في رحم أمّه إلى تركيب أعضائه، وما فيها من عظيم الخلقة، كل ذلك حَريٌّ بنا التَّفكير به؛ ولذا أوعد الله عباده أن يريهم آياته في أنفسهم وفي الآفاق إن فكّروا فيهما، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٣).

بِماذا نُفَكِّر؟

إذا استعرضنا الآيات القرآنيّة الكثيرة الَّتي حثَّت على التَّفكير، الَّتي بلغت ثلاثمائة آية إضافة إلى الأحاديث الشَّريفة نرى أنَّ هناك مجالات معيّنة ومجارياً محدّدة للتَّفكير في الإسلام، وأساس التَّفكير يَنْصبّ على إيصال الإنسان إلى معرفة

---

(١) الرّوم: ٢٢.

(٢) كتاب فكّر (توحيد المفضّل): ٨٨.

(٣) فصّلت: ٥٣.

خالق الكون، والإيمان بوجوده، وكماله، وعدله، ولطفه والعلم بأسمائه وصفاته، علماً يقينيّاً، ومن هذه المجالات:

١- تفكير الإنسان بنفسه ومبدأ تكوينه:

يقول تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[١]، وهذا المجال من التَّفكير من أدقّ المجالات وأنفعها، إذ يفكّر الإنسان بألصق شيء به ممّا لا يمكن أن ينفصل عنه، ولا يمكن له نكرانه، وهل يستطيع أن ينكر ذاته؟ ولو أحسن الإنسان التَّفكير في كلّ عضو من أعضائه، أو حركة من حركاته، أو خلجة من خلجاته يعرف أنَّ هذه الأعضاء خلقت لحكمة فيها لصالح الإنسان، ورد في كتاب توحيد المفضّل عن صادق أهل البيت عليه السلام:

«فَتَأَمَّلْ حكْمَةَ الْتَّدْبيرِ في تَرْكيب الْبَدَن، ووَضْعِ هذه الأعْضاء منْهُ مَواضعَها، وَإعْداد هذه الأوْعيَة فيه؛ لتَحْملَ تلْكَ الْفُضولَ، لئلا تَنْتَشرَ في الْبدَن، فَتسْقمَهُ وتَنْهكه، فَتَبارك منْ أَحْسَنَ الْتَّقْدير، وأَحْكَمَ الْتَّدْبيرَ»[٢].

٢- التَّفكير في اختلاف ألوان البشر ولغاتهم:

من مجالات التَّفكير الأساسيَّة الَّتي أكَّد عليها القرآن الكريم اختلاف ألوان البشر وصورهم، واختلاف لغاتهم وأصواتهم، وهذا المجال من التَّفكير دقيقٌ وحسّاسٌ، ولا يلتفت إليه إلا العالمون العارفون بحقائق الأشياء، والأشخاص، والأحداث، ويقرؤون ما بين السُّطور، وقد يكون السَّبب في الغفلة عنه هو الإلفة في الوسط الاجتماعيّ، وتكرار الصّور على النّواظر.

---

(١) الطّارق: ٥-٧.

(٢) كتاب فكّر (توحيد المفضّل): ٨١

أمّا اختلاف الألسن فمن حيث اللّغة كالعربيّة، والانجليزيّة، والفرنسيّة، والفارسيّة... أو من حيث اختلاف أنغام الأصوات، وكلّ فسّرها بما دلَّه عليه علمه ومعرفته، والصَّحيح أنَّ كلا الأمرين (اللُّغة) ونغمة (الصَّوت) واختلافهما بين الأفراد هو من دلائل عظمة الخالق جلَّت قدرته، وحكمته في إدارة شؤون خلقه، ومعايشهم، وتَكَيُّفهم مع بيئتهم من الائتلاف، أو الاختلاف، أو التّشابه، وغيرها من الحالات؛ «لأنَّ الإنسانَ يحتاج إلى التَّمييز بين الأشخاص؛ ليعرف صاحب الحقّ من غيره، والعدوّ من الصّديق؛ ليحترز قبل وصول العدوّ إليه، وليُقبل على الصَّديق قبل أن يفوته الإقبال عليه، وذلك قد يكون بالبصر، فخلق اختلاف الصّور، وقد يكون بالسّمع، فَخَلَقَ اختلاف الأصوات»[1].

وهكذا من خلال التَّفكير الدّقيق الهادف يتبيّن لنا كيف اختلفت الألسن، وكيف نشأت اللُّغة، وما هو السّرّ في هذا الاختلاف؟ وبهذا التّفكير السّليم تترسّخ مرتكزات الإيمان في العقل؛ لتبعثه من الخمول، والرُّكود، والجمود، ثمّ تنساب إلى القلب؛ ليمنحه الله بها نوراً، وبصيرة، وحركة مغيّرة للواقع.

أمّا اختلاف الألوان، والصّور البشريّة، وأكثر ما تتجسّد في الوجه وعموم البشرة، فإنَّها كتاب مفتوح يمكن للمفكّر أن يقرأ فيه عظمة الخالق المتجسّدة في مخلوقاته، ويتحقّق بذلك المعرفة بسرّ الوجود، وعلّة الإيجاد، كما يستطيع أن يقرأ من خلال اختلاف الصّور، والألوان البشريّة أسرارَ الحياة، فلولا هذا الاختلاف لما تميّز قوم عن قوم، ولا إنسان عن إنسان، ولاستحال العيش على وجه الأرض، وإلا لو تشابهت الألوان، والصُّور، فكيف يمكن تمييز هذا من ذاك، قال ألكسيس كاريل: «إنَّ تقرير شكل الوجه، والفم، والوجنتين، والجفنين، وخطوط الملامح

(١) الفخر الرّازيّ، التَّفسير الكبير: ١١٢/٢٥-١١٣.

يكون عادةً تابعاً لحالة العضلات المفرطحة الّتي تتحرّك في الأنسجة الشّحميّة الموجودة تحت الجلد، وتتوقّف حالة هذه العضلات على حالة عقلنا. صحيح، أنَّ في استطاعة كلّ إنسان أن يعتق على وجهه التَّعبير الَّذي يختاره، ولكنّه لا يستطيع أن يحتفظ بهذا التَّعبير بصفة دائمة، بَيْد أنَّ قسمات وجهنا تُكَيّفُ نفسها بلا تعمّد تبعاً لحالاتنا الشُّعوريّة، وكلّما تقدَّمنا في السّنّ اشتدّت الصّلة بين التَّعبير الوجهيّ، والمشاعر، والشّهوات، والإيحاءات... وعلاوة على ذلك فإنَّ قسمات الوجه تعبّر عن أشياء أكثر عمقاً من وجوه نشاط الشُّعور المخفّاة، ففي هذا الكتاب المفتوح يستطيع الإنسان أن يقرأ لا فقط الرّذائل، والفضائل، والذّكاء، والغباء، والإحساسات، والعادات الَّتي يحرص الفرد على إخفائها، بل أيضاً تكوينه البدنيّ، واستعداده للأمراض العضويّة والعقليّة»[1].

وجاء في توحيد المفضّل المنسوب للإمام الصّادق عليه السلام: **«اعْتَبِرْ، لِمَ لا يَتَشابَهُ النّاسُ واحدٌ بالآخَر، كَما تَتَشابَهُ الْوحوشُ والطَّيْرُ وَغَيْرُ ذلك؟ فَإِنَّكَ تَرى السِّرْبَ مِنَ الظِّباء والْقَطا تَتَشابَهُ حَتّى لا يُفرِّقَ بيْنَ واحد منْها وبيْنَ الآخَر، وتَرى النّاسَ مُخْتَلفَةً صُوَرُهُم وَخلقُهُم، حتّى لا يَكادَ اثْنان منْهُمْ يَجْتَمعان في صفَة واحدَة، والْعلَّةُ في ذلكَ أنَّ النّاسَ مُحْتاجونَ إلى أَنْ يَتَعارَفوا بأَعْيانهم وحلاهُم، لما يَجْري بَيْنَهُمْ منَ الْمُعامَلات، ولَيْس يَجْري بَيْنَ الْبَهائم مثْلُ ذلك، فَيَحْتاجَ إلى مَعْرِفَة كُلِّ واحد منْها بعَيْنه وَحلْيَته.**

أَلا تَرى أنَّ التَّشابُهَ في الطَّيْر والْوَحْش لا يَضُرُّها شَيْئاً، وَلَيْسَ كَذلكَ الإنْسانُ، فَإنَّهُ رُبَّما تَشابَهَ التَّوْأَمُ تَشابُهاً شَديداً فَتَعْظُمُ الْمُؤْنَةُ عَلى النّاس في مُعامَلَتهما، حَتّى يُعْطِيَ أَحَدُهُما بالآخَرِ، وَيُؤْخَذُ أَحَدُهُما بِذَنْبِ الآخَرِ، وَقَدْ

(١) ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول: ٨٠-٨١.

يَحْدُثُ مثْلُ هذا في تَشابُه الأسْماء، فَضْلاً عَنْ تَشابُه الصُّوَر، فَمَنْ لَطُفَ بعباده بهَذه الدَّقائق الَّتي لا تَكادُ تَخْطُرُ بالْبال، حتّى وَقَفَ بها علَى الصَّواب، إلا منْ وَسعَتْ رَحْمَتُه كُلَّ شَيْء»[1].

٣- التَّفكير في خلق السَّماوات والأرض:

وهذا صريح في آيات كثيرة من القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴾[2].

فلو تأمَّل الإنسانُ، وأعمل فكره في خلق السَّماوات والأرض، وما فيهما من دلائل عجيبة لوقف على أسرار رائعة، ولتوصَّل إلى أنَّ هذا الخلق العجيب من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة تحمل في طيّاتها عظمة الخالق الجليل، ولا مفرَّ للعاقل أن يعترف بأنَّ هذا الخلق العظيم لا يمكن أن يحدث بلا خالق لا تحيط به العقول؛ إذ «تتألّف هذه الأجرام السّماويّة من طوائف يبعد بعضها عن بعض بما يقدّر بالملايين وألوف الملايين من سنين سرعة النّور، ولكلّ طائفة منها نظام كامل محكم، ولا يُبْطل نظامُ بعضها نظامَ الآخر؛ لأنَّ للمجموع نظاماً عامّاً واحداً يدلّ على أنّه صادرٌ عن إله واحد لا شريك له في خلقه وتقديره، وحكمته وتدبيره، وأقرب تلك الطّوائف إلينا ما يسمّونه النّظام الشّمسيّ نسبة إلى شمسنا هذه الّتي تفيض أنوارها على أرضنا، فتكون سبباً للحياة النّباتيّة والحيوانيّة فيها، والكواكب

---

(١) كتاب فكّر (توحيد المفضّل): ١١٥-١١٦.

(٢) آل عمران: ١٩٠-١٩١.

التّابعة لهذه الشّمس مختلفة في المقادير والأبعاد، وقد استقرّ كلٌّ منها في مداره وحفظت النّسبة بينه وبين الآخر بسُنّة إلهيّة منتظمة حكيمة يعبّرون عنها بالجاذبيّة العامّة، ولولا هذا النّظام لانفلتت هذه الكواكب السّابحة في أفلاكها، فصدم بعضها بعضاً، وهلكت العوالم بذلك، فهذا النّظام آية على الرّحمة الإلهيّة، كما أنَّه آية على الوحدانيّة»[1].

إنَّ التَّفكير الجدّيّ الهادف في خلق السَّماوات والأرض يوصل الإنسان إلى معارف جمّة كثيرة في حياته، إذ توقفه على عظمة الخالق؛ ولذلك نرى القرآن الكريم يثير حوافز التّفكير فينا، فيقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

«ومشهد السَّماوات والأرض، ومشهد اختلاف اللّيل والنَّهار لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا، لو تلقَّيناه كمشهد جديد تتفتّح عليه العيون أوّل مرّة. لو استنقذنا حسَّنا من همود الإلف، وخمود التّكرار.. لارتعشت له رؤانا، ولاهتزّت له مشاعرنا، ولأحسسنا أنَّ وراء ما فيه من تناسق لا بدَّ من يد تنسّق؛ ووراء ما فيه من نظام لا بدّ من عقل يدبّر؛ ووراء ما فيه من إحكام لا بدَّ من ناموس لا يتخلّف.. وأنَّ

---

(١) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: ٢/٥٧-٥٨.

(٢) الغاشية: ١٧-١٨.

(٣) البقرة: ١٦٤.

هذا كلّه لا يمكن أن يكون خداعاً، ولا يمكن أن يكون جزافاً، ولا يمكن أن يكون باطلاً»[١].

٤- التَّفكير في عواقب الأمم السّابقة:

عندما ندرس التّأريخ بوعي وتجرّد نجد حضارات قامت ثمَّ بادت، وأمم طغت ثمّ أهلكت، ودول حكمت ثمَّ هلكت.

ولو تأمّلنا في عوامل الرّقيّ والتّقدّم، وأسباب الانهدام والسّقوط، وتدبّرناها جيّداً نصل إلى حقائق قيّمة في الوجود، يمكن دراستها لوعي سنن الله في الخلق، وقد جاء الأمر الإلهيّ ملزماً بالنَّظر والتّأمّل في عواقب الّذين كذّبوا بآيات الله تعالى، يقول تعالى:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[٢].

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[٣].

﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[٤].

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[٥].

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٦].

---

(١) سيّد قطب، في ظلال القرآن: ١٨٩/٢.

(٢) آل عمران: ١٣٧.

(٣) الأنعام: ١١.

(٤) الأعراف: ٨٦

(٥) الأعراف: ١٠٣.

(٦) النّمل: ٥١.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾(١).

والنَّظر كما قال الرّاغب في مفرداته: «تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرة لإدراك الشَّيء ورؤيَته، وقد يُرادُ به التَّأمُّلُ والفَحْصُ، وقد يراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ. يُقال: نَظَرْتَ فلم تَنْظُرْ. أي: لم تَتَأَمَّلْ ولم تَتَرَوَّ، وقوله: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٢) أي: تَأَمَّلُوا، واستعمال النَّظَرِ في البَصَرِ أكثرُ عند العامَّة، وفي البصيرة أكثرُ عند الخاصَّة، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(٣)»(٤).

وكثير من الآيات الكريمة أكَّدت على التّفكّر في عواقب الأمم السّالفة، وما صار إليه المجرمون، والمفسدون، والمكذّبون، والظّالمون من عواقب وخيمة دمَّرت حياتهم، وأفنتهم إلى الأبد، هذا التّأمّل يوقف الإنسان على سنن الله في الاستدراج، والإهلاك، والفتن، والإبادة... وتحميه من الوقوع فيما وقعوا فيه، وتُعَرّف المتفكّر بسنن التّقدّم والنّهوض والازدهار للأمم والشّعوب والدّول، وتضعه على سلّم الرّقيّ والتّقدّم المادّيّ والمعنويّ، وهذا المعنى ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام، فعن الحسن الصَّيقل، قال: «سَأَلْتُ أَبا عَبْد الله عليه السلام عَمّا يَرْوي النّاسُ أَن تَفكُّرَ ساعَة خَيْرٌ مِنْ قيام لَيْلَة، قُلْتُ: كَيْفَ يَتَفَكَّرُ؟ قال: **يَمُرُّ بِالْخَرِبَة أَوْ بِالدّارِ، فَيَقولُ: أَيْنَ ساكِنوكِ، أَيْنَ بانوكِ، ما لَكِ لا تَتَكَلَّمين؟**»(٥)، وهذا ما يعبّر

---

(١) الرّوم: ٩.

(٢) يونس: ١٠١.

(٣) القيامة: ٢٢-٢٣.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٨٤، (نظر).

(٥) الكافي: ١٤١/٣، ح/١٥٥٦.

عنه بالتَّفكير التّأمّليّ.

وفي وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «**أَحْيِ قَلْبَكَ بالْمَوْعظَة... واعْرِضْ عَلَيْه أَخْبارَ الْماضينَ، وَذَكِّرْهُ بما أَصابَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ منَ الأَوَّلينَ، وَسرْ في ديارِهِمْ وآثارِهِمْ، فَانْظُرْ فيما فَعَلوا، وعَمّا انْتَقَلوا، وأَيْنَ حَلّوا ونَزَلوا**»(١).

فقوله عليه السلام: «**واعْرِضْ عَلَيْه...**» دلالة على أنَّ إحدى مسالك التَّفكير أن يتأمّل الإنسان في تاريخ الأمم الماضية، وينظر في جوانب القوّة والضَّعف، ومقوّمات النَّجاح، وأسباب الرّقيّ، وأسباب الانهيار في الحضارات، وبعبارة أخرى أن يدرس عوامل الرّقيّ، والسّقوط في التّأريخ البشريّ؛ ليقف على السُّنن الإلهيّة في الكون والحياة.

٥- التَّفكير في سائر المخلوقات الأخرى:

إنَّ كلّ مخلوق في الكون مادّة للدّراسة والتّأمّل، كيف خُلقَ؟ من أيّ شيء خُلقَ؟ متى خُلق؟ ما هي مراحل تكوينه؟ ما هو الهدف من خلقه؟ كلّ ذلك يحرّك في الإنسان القوّة العقليّة، وينفض عنها غبار الرُّكود والغفلة، ويقودها بالتّالي إلى معرفة خالقها، الَّتي فيها صلاح دنياه وآخرته، وما أكثر تلك المخلوقات من الذّرّة إلى المجرّة الَّتي فيهما من أسرار الخلقة ما يثير العجب، وفي عالم الحيوان كذلك من العجائب الَّتي تثير دفائن العقول، فالنَّملة، والنَّحلة، والجرادة، والنَّخلة، والإبل، والبعوضة...الخ موادٌّ قريبة يدركها الإنسان بالحسّ يمكن إذا تأمّل في تركيبها، وخلقها، ومسلك معاشها، وتكاثرها تُحرّك فيه كوامن العقل، وتوقفه على أسرار

---

(١) نهج البلاغة: ٤١٨، كتاب: ٣١.

الله في خلقه، وحينئذ يتحرّك من المخلوق إلى الخالق... ورد في الحديث الشَّريف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**رَحمَ اللهُ امْرأً تفكَّرَ فاعْتَبرْ، واعْتَبر فأَبْصر**»(١).

وفي نهج البلاغة إشارات رائعة جميلة إلى ما تقدّم، قال عليه السلام: «**ولَوْ فكَّروا في عَظيمِ الْقُدْرَة، وجَسيمِ النِّعْمَة، لَرَجعوا إلى الطَّريق، وَخافوا عَذابَ الْحَريق، ولكنَّ الْقلوبَ عَليلةٌ، والأَبْصارَ مَدْخولَةٌ! أَلا تَنْظُرونَ إلى صَغير ما خَلَقَ اللهُ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وأَتْقَنَ تَرْكيبَه، وفلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبصَرَ، وَسَوّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ! انْظُروا إلَى النَّمْلَة في صغَرِ جُثَّتها، ولَطافَة هَيْأَتها، لا تَكادُ تُنالُ بلَحْظ الْبصَر، ولَا بمُسْتَدْرَك الْفكَر، كَيْفَ دبَّتْ عَلى أَرْضِها، وَصبَّتْ عَلى رِزْقهَا... ولَوْ ضَرَبْتَ في مَذاهبَ فكْرِكَ؛ لتَبْلُغَ غاياته، ما دلَّتْكَ الدَّلالَةُ إلا عَلى أَنَّ فاطرَ النَّمْلَة هُوَ فاطرُ النَّخْلَة**»(٢).

٦- التّأمّل والتّدبّر والتّفكّر في القرآن الكريم:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم؛ لِيُغَيِّرَ أمّة، بل أمماً، ويبني مجتمعاً، وهو كتاب هداية، وتربية، وإرشاد، وبعبارة أوضح هو كتاب يصنع الإنسان، ويصوغه من جديد فكراً وعاطفةً وسلوكاً، وما لم يتأمّل الإنسان فيه، ويتدبّر بأحكامه، ويتبصّر بمواعظه، وقصصه، ويتلقّى آياته تلقّي رعاية ووعاية لا مجرّد حفظ ورواية... ومن هنا جاء التَّأكيد المتواصل على أهمّيّة التّأمّل والتّدبّر في الكتاب الكريم، يقول تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٣).

---

(١) نهج البلاغة: ١٧٧، الخطبة: ١٠٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٠٠-٣٠١، خطبة: ١٨٥.

(٣) ص: ٢٩.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[(١)].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[(٢)].

عن أبي سعيد الخدريّ، قال: «قال رسول الله ﷺ: **أَعْطوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّها مِنَ الْعِبادَةِ**، قيل: يا رسول الله، وما حظّها من العبادة؟ قال: **النَّظَرُ في الْمُصْحَفِ، وَالتَّفَكُّرُ فيه، وَالاعْتِبارُ عِنْدَ عَجائبِه**»[(٣)].

وقال أمير المؤمنين ﷺ: «**تَدَبَّروا آياتِ الْقُرْآنِ، وَاعْتَبِروا بِهِ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ الْعِبَرِ**»[(٤)].

إنَّ التّدبّر في آيات القرآن الكريم يشرح الصَّدر، ويزكّي النَّفس، وينمّي العقل وينوّره، ويُقَوّم السّلوك، ويوسّع الآفاق الفكريّة، ويسمو بالإنسان إلى معارج الكمال إذ يوقفه على أسمى القوانين، وأرقى الحكم، وأعمق العبر، فمنه يكتشف الإنسان السُّنن الإلهيّة في رقيّ الأمم وسقوطها، ويجد الموعظة الشّافية، والحِكَم الباهرة، فهو الكتاب الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، كما يتعرّف المفكّر من خلاله على أسرار النَّفس البشريّة، وقواها المؤثّرة في تطوّر المجتمع، ويغور في عمق التّأريخ البشريّ؛ ليقف على غابره من قصص الأنبياء، ومقاومتهم وصراعهم مع طواغيت عصورهم.

عن أبي عبد الله ﷺ: «**إِنَّ هذا الْقُرْآنَ فيهِ مَنارُ الْهُدى، وَمَصابيحُ الدُّجى،**

---

(١) النّساء: ٨٢.

(٢) محمّد: ٢٤.

(٣) البيهقيّ، الجامع لشعب الإيمان: ٥٠٩/٣، ح/٢٠٣٠.

(٤) الآمديّ، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١١١، ح/١٩٨٥.

فَلْيَجْلُ جالٍ بَصَرَه، ويُفْتِحْ للضِّياء نَظَرَه، فإنَّ التَّفَكُّرَ حياةُ قَلْبِ الْبَصير، كَما يَمْشي الْمُسْتَنيرُ في الظُّلمات بالنّور»[١].

عَوامِلُ التَّخَلُّفِ الْفِكْرِيِّ:

التّخلّف: حالة ركود عقليّ يتقوقع الإنسان فيها، ويعجز عن التّأثّر والتّأثير، والتّفاعل في الواقع الَّذي يعيش فيه، وبالتَّالي «فهو القصور والتّوقّف عن اكتساب المهارات الفرديّة ممّا يؤدّي إلى قصور ونقص المقارنات الذّهنيّة في نفس العمر وفي نفس المجتمع»[٢]، وهي حالة خطرة تقود الإنسان إلى العجز عن مواجهة الواقع، والأخذ منه، والعطاء له، ومن آثار هذه الحالة التّخوّف من كلّ عمليّة تجديد فكريّ، ومحاولة الحفاظ على الواقع حتّى لو كان منحرفاً ضارّاً بالدّين والمجتمع؛ ولهذه الحالة أسباب مختلفة منها ذاتيّة في الإنسان ومنها خارجيّة تتسلّط عليه من الخارج.

١- الأسباب الذّاتيّة[٣]:

أ- الضّعف العقليّ النّاتج عن حالة وراثيّة، وهذه الحالة صعبة العلاج، إن لم تكن مستحيلة.

ب- الاضطراب النّفسيّ نتيجة الخضوع لعوامل الانفعال، أو الشّهوات، أو الغرائز الهابطة، أو الخضوع للضّغوط الخارجيّة، وعدم القدرة على مواجهتها.

---

(١) الكافي: ٥٩٨/٤، ح/٣٤٧٧.

(٢) من الشّبكة العنكبوتيّة.

(٣) هذه النّقاط مستخلصة من كتاب التّخلّف الاجتماعيّ مدخل إلى سيكولوجيّة الإنسان المقهور للدّكتور مصطفى حجازي: ٦٠-٦١.

ج- الاختلال في الحواسّ كالسَّمع والبصر ممّا يجعل الإنسان محروماً من قسط كبير من المميّزات الخارجيّة، وقد قيل: «من فقد حسّاً فقد علماً».

د- انعدام الثّقة في النَّفس والخوف من كلّ وارد، والتَّسليم للواقع المرّ، وهذا ناتج من ضعف الإيمان بالله تعالى.

هـ- اضطراب منهجيّة التَّفكير من ناحية قصور الفكر الَّذي يؤدّي إلى سوء التَّنظيم في التّصدّي للواقع من دون خطّة مسبقة ذات مراحل منطقيّة واضحة سلفاً، ويسيطر عليه السّلوك الفوضويّ والعشوائيّة والتّخبّط والمحاولة شبه العمياء حتّى يقع في حيرة الغموض ممّا يجعله يلجأ إلى التّمنّيات الوهميّة، فيطرح قضايا كثيرة تبقى طافحة على السَّطح، ولا تقترب من الجوهر.

٢- الأسباب الخارجيّة:

أ- الاضطهاد السّياسيّ والإرهاب الفكريّ الَّذي تفرضه السُّلطات الجائرة بقوّة الحديد والنّار على الشُّعوب، وعلى المفكّرين بالذّات، ومحاولة احتوائهم والسَّيطرة عليهم بالتَّرغيب، أو التَّرهيب، فإمّا أن تشتري ضمائرهم، وتسخّر أقلامهم لمصالحها، فإن فشلت اتَّبعت أسلوب الضَّغط النَّفسيّ والجسديّ كالمحاصرة الفكريّة، وفرض القيود على انتشار أفكارهم، أو السّجن والإبعاد، والقتل، ثمَّ في أثناء ذلك تقوم باستيراد الأفكار من الخارج، وفرضها على الشُّعوب.

ب- العرض المزيّف للدّين أي تفسيره تفسيراً معاكساً لجوهره وحقيقته، وفي خلال ذلك تعرض الأفكار المنحرفة من خلال دمجها بالمفاهيم الدّينيّة، وإظهار الفكر الحركيّ المغيّر بمظهر الإرهابيّ، وفي الوقت نفسه تركّز على فصل الدّين عن المجتمع، وحصره في الزّوايا والتّكايا، وتحويل المساجد إلى معابد تقام

فيها طقوس شكليّة جامدة لا روح فيها ولا حركة.

ج- الفراغ الفكريّ[١]، والتّوقّف عن الإبداع، والابتكار، والمبادرة إلى معالجة المشاكل المستجدّة، وحينئذ يشغل الإنسان نفسه ببحوث لا تعود عليه، ولا على المجتمع بفائدة تذكر، فيكتب ما لا ينفع صديقاً، ولا يضرّ عدوّاً، وهذا هو التّرف الفكريّ.

د- الجهل بالإسلام؛ إمّا لفهم معكوس لعقائده وأحكامه، أو عدم وضوح أفكاره السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، والقضايا الحضاريّة -وقد بذلت جهود رهيبة على تركيز هذا الفهم في أذهان طلبة العلوم الدّينيّة فضلاً عن الأمّة ككلّ- حتّى صوّرت الدّين علاقة فرديّة مجرّدة بين العبد وربّه، ولا علاقة له بالمجتمع والدّولة، وإنّما هو طقوس وتقاليد يجب أن تحصر في المساجد، والحسينيّات، والتّكايا، ولا علاقة له بالمدارس والجامعات والأسواق، وكذلك لا ربط له بالسّياسة، والاقتصاد، والاجتماع... وهذا من أخطر ما تعرّضت له الأمّة الإسلاميّة، وعرضها للغزو الفكريّ المسموم الّذي أظهر الدّين فكراً (طوبائيّاً)[٢] لا مساس له بالواقع.

---

(١) الفراغ الفكريّ هو: «تغييب العقل جزئيّاً عن طريق تعطيل طاقاته الكامنة، وإهدار وظيفته الّتي خلقها الله سبحانه وتعاليه له وهي التّأمّل والتّفكّر»؛ وهناك تعريف آخر، وهو: «انعدام التّصوّر الصّحيح لهذه الحياة، وعدم معرفة سبب وجودنا فيها، ومهمتنا الموكولة إلينا في هذه الوجود، ومصيرنا ومصير الكون والغاية من هذا التّنظيم الرّائع للكون، ومن هذا الإبداع العجيب الدّقيق المحكم للإنسان ولسائر الكائنات الحيّة»، من الشّبكة العنكبوتيّة.

(٢) طُوباويّة: «(مَنْسوبٌ إلى طوبى)، رجل طُوباويٌّ: مَنْ يُحلِّقُ بَعيداً، ويُنْشِئُ مُثُلاً، ويَسْعى إلى تَحْقيقها، وَهِيَ بَعيدَةٌ عَنِ الواقِعِ»، من الشّبكة العنكبوتيّة.

هـ- الجهود الَّتي بذلتها المدارس التَّبشيريّة في بثّ الفكر الغربيّ وترويجه بين الشَّباب المثقّف، وهذه الحملات، وإن لم توفّق إلى التَّنصير إلا أنَّها نجحت في خلق حواجز نفسيّة بين الدّين والشّباب من خلال التَّسميم الفكريّ، والتّحلّل الخلقيّ، وتبنّي الاتّجاهات الخرافيّة للدّين، وهَلُمَّ جرًا من الأساليب الإجراميّة.

و- الأحزاب والمنظّمات العلمانيّة، وهي امتداد لجهود المستشرقين من المبشّرين المسيحيّين الَّذين روَّجوا الأفكار القوميّة، والإقليميّة، وغيرها لتحلّ محلّ رسالة الله تعالى، حتّى ربَّت جيلاً من هؤلاء، ووضعت بيده القدرة والقوّة، وتركته وحشاً يفترس أبناء جلدته.

ز- وسائل الإعلام والقيام بالدّعايات المظلّلة والأراجيف والأفكار المسمومة، ونشر الإباحيّة بوساطة الأفلام والمسلسلات اللاأخلاقيّة... وجعلتها في متناول الأيدي يحصل الشَّباب عليها بسهولة.

الْفِهْرَسْتُ:

من أنوار البسملة.. ٧

دلالة الابتداء باسم الله تعالى.. ١٠

تجربة فيها ذكرى.. ١٦

أشعّة من وحي سورة الفاتحة.. ١٧

سورة الهمزة... ٢٩

الهمز واللّمز.. ٣٢

لماذا الهمز واللّمز.. ٣٣

عبادة المال... ٣٦

عذاب المستهزئين.. ٣٧

الوصايا القرآنية العشرة... ٣٩

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.................................... ٥٥

الدّور المتبادل بين العلم والدّين... ٥٥

في فضل طلب العلم... ٦٠

أهداف طلب العلم.. ٦٢
طلب العلم وسيلةٌ للتّفقّه... ٦٣
سمات الفقيه البصيرة... ٦٧
أصناف طلاب العلم.. ٦٩
ما هي العلوم الواجب طلبها.. ٧٧

النَّقد والنَّقد الذّاتيّ... **٨٣**
ما هو النّقد.. ٨٥
دور النّقد في حياة الفرد والمجتمع.. ٨٦
النّقد الإيمانيّ.. ٨٩
أنواع النّقد... ٩٢
آداب النّقد في الإسلام.. ٩٤
كيف نواجه النّقود.. ٩٩

السّخريّة والاستهزاء.. **١٠٣**
أسباب السّخريّة.. ١١٢
الآثار السّلبيّة للسّخريّة والاستهزاء... ١١٥
سخر الله منهم... ١١٨

الغيبة.. **١٢٣**

سوء الظّنّ...١٢٣
أسباب سوء الظّنّ...١٢٤
الآثار الّتي تترتّب على سوء الظّنّ...١٢٥
علاج سوء الظّنّ..١٢٧
كيف تتّقي مضاعفات سوء الظّنّ..١٣١
التّجسّس...١٣٢
معنى الغيبة..١٣٣
الأسباب الباعثة على الغيبة...١٣٦
مفاسد الغيبة وأخطارها...١٣٧
علاج الغيبة..١٣٨
مجوّزات الغيبة...١٤٠
سماع الغيبة..١٤٥
كفّارة الغيبة..١٤٧

التّوبة...١٥١
ما هي التّوبة؟..١٥٢
لوازم التّوبة وأركانها...١٥٢
معنى التّوبة النّصوح..١٥٣
ضرورة التّوبة...١٥٥
ثلاث خصال للتوّابين...١٥٦

توبة الله على عباده وتوبة الرّسل وتوبة العباد إلى الله.......... ١٥٧
وسائل تحقيق التّوبة.......... ١٦٠
اختلاف التّوبة باختلاف الذّنوب.......... ١٦١
أقسام التّائبين في دوام التّوبة.......... ١٦٢
الموارد الَّتي لا تُقبل فيها التّوبة.......... ١٦٣
تنبيهات حول التّوبة.......... ١٦٤
من التّائب؟.......... ١٦٥

الأصول الأخلاقيّة في التّعامل الاجتماعيّ.......... ١٦٧

أسس الانضباط الاجتماعيّ في الإسلام.......... ١٧٧
شروط العفو عن المسيء.......... ١٨٤

العمل في الإسلام عبادة.......... ١٨٧
العمل في الإسلام.......... ١٩٠
أوّلاً: العمل شرف وكرامة.......... ١٩٠
ثانياً: العمل جهاد في سبيل الله تعالى.......... ١٩٢
ثالثاً: العمل عبادة.......... ١٩٣
رابعاً: العمل سيرة الأنبياء والأولياء.......... ١٩٤

بدء وقوع الفتن..١٩٧
أوّلاً: اتّباع الأهواء...١٩٩
ثانياً: الأحكام المبتدعة...٢٠١
كيف نواجه الفتن...٢١٠

المعيشة الضّنك...٢١٥
معنى المعيشة الضّنك...٢٢١

الفقر...٢٢٧
موقف الإسلام من الفقر..٢٣٣
أخطار الفقر...٢٣٥
أسباب الفقر ومناشئه..٢٤٣
الأسباب الاجتماعيّة والسّياسيّة للفقر..٢٥٠
سنن الطّغاة في الحكم...٢٥٥
علاج حالة الفقر..٢٥٥

ولا يزالون مختلفين..٢٥٧
أسباب الاختلاف...٢٦٣
كيف عالج الإسلام الاختلافات بين النّاس..٢٦٦

المقوّمات النّفسيّة... ٢٧٣

أوّلاً: العقيدة الصّحيحة السّليمة.................................... ٢٧٦

ثانياً: سلوك النّظام الصّحيح.. ٢٨٠

ثالثاً: البرنامج اليوميّ.. ٢٨١

رابعاً: الهدفيّة البنّاءة الواضحة...................................... ٢٨٣

خامساً: المحاسبة الذّاتيّة.. ٢٩٠

كيف ينسى الإنسان نفسه.. ٢٩٣

الأوّل: الخسران... ٢٩٨

الثّاني: ظلام النّفس.. ٢٩٩

الثّالث: الضّلال... ٣٠١

الرّابع: النّسيان.. ٣٠٢

كيف يجد نفسه.. ٣٠٣

كيف يستثمر الإنسان يومه... ٣٠٥

العناوين الكبرى... ٣٠٦

أوّلاً: استعمال الخير وهجران الشّرّ................................... ٣٠٧

ثانياً: شكر النّعم المادّيّة والمعنويّة.................................... ٣٠٨

ثالثاً: اتّباع السّنن ومجانبة البدع..................................... ٣٠٩

رابعاً: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر............................ ٣١٣

خامساً: حياطة الإسلام..٣١٣
سادساً: انتقاص الباطل وإذلاله...٣١٥
سابعاً: نصرة الحقّ وإعزازه..٣١٦
ثامناً: إرشاد الضّالّ...٣١٩
تاسعاً: معاونة الضّعيف..٣٢٠
عاشراً: إدراك اللّهيف..٣٢٢

الإسلام دين الوحدة...٣٢٥
عوامل الانحراف..٣٣٢
العلاج...٣٣٣

النّجوى...٣٣٥
فوائد الصّدقة وآثارها..٣٤٥
حقّ ذي المعروف..٣٤٨
ما يفسد المعروف...٣٤٩
الإصلاح بين النّاس...٣٤٩

المكذّبون بالدّين...٣٥٣
الصّفة الأولى: حرمان اليتيم وتعنيفه..٣٥٥
الصّفة الثّانية: الحضّ على طعام المسكين...٣٥٩

الصّفة الثّالثة: السّهو عن الصّلاة.. ٣٦١

الصّفة الرّابعة: الرّياء.. ٣٦٢

لماذا يحبّ الإنسان المدح؟... ٣٦٣

المجالات الّتي يرائي بها الإنسان.. ٣٦٥

أسباب الرّياء... ٣٦٧

علاج الرّياء.. ٣٦٨

بيان مخاطر الرّياء في حياة الإنسان.. ٣٦٩

الصّفة الخامسة: منع الماعون.. ٣٧٢

التّفكير عبادة.. **٣٧٣**

ما هو التّفكير... ٣٧٣

الدّعوة إلى التّفكير... ٣٧٦

شروط التّفكير السّليم.. ٣٧٨

بماذا نفكّر.. ٣٧٩

عوامل التّخلّف الفكريّ.. ٣٩٠

الفهرست.. ٣٩٥